

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية



مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة

رئيس التحرير: ا.عمار غرابي

رقم الاصدار القانوني 147-5102-2015

Issn 2437-0584



العدد
15

الرئيس الشرفي : عمر لرحاقي - مدير الجامعة
المدير الشرفي للمجلة : عبد الرحمن توكي - عميد الكلية



مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد الخامس عشر - سبتمبر 2017

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف
للبحوث و الدراسات التاريخية
ص - ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر -
الهاتف / الفاكس 032223005
العنوان الإلكتروني:
el-maaref@univ-eloued.dz

إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

الأستاذ الدكتور عمر فوحاتي

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادى. الجزائر.

recteur@univ-eloued

المدير الشرفي :

الأستاذ الدكتور محمد الرحمان تركي ، عميد كلية العلوم

الاجتماعية و الإنسانية.

adab -- --@39@hotmail.com

مدير المجلة :

الدكتور محمد السعيد محيبي ، نائب عميد الكلية المكلف

بالعلاقات الخارجية و التعاون والتنشيط و الاتصال و التظاهرات

العلمية.

maguieb@yahoo.fr

رئيس هيئة التحرير :

الأستاذ عمار غرايسه ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

gheraissa-ammara@univ-eloued

هيئة تحرير المجلة

د. رابع رمضان . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. رشيد قسيبه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. خانية البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. الجباري عثمانى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. عبد القادر عزام عوادي . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الطاهر سبفاق . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محلال بن عمر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محمد الحميد العابد . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة و في إطار الاحتفالات بالذكرى الستون المخدلة لها ، جاءت فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة بمجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية التي حازت على موافقة المجلس العلمي لكلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية لتكون فضاء متميزا للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا شك الطريق الأنسب لمحاولة الاقتراب أكثر من الحقيقة التي هي أمل السالكين دروب العلم على أمل ملامستها في ظل أجواء الفكر الإنساني الحر و الذي لا يلتزم بغير ضوابط الموضوعية و الحقيقة المستندة للوقائع و الحقائق الثابتة. إن مجلة المعارف تسعى لأن توجد لنفسها مكانا بين الدوريات التاريخية المتخصصة لتسهم بفضل جهود الأقسام المتألقة في فضاءها في الغوص في مجال البحوث و الدراسات التاريخية لتخرج بها نحو أرحب الآفاق الدالة على مدى قدرة التاريخ في الإسهام إلى جانب العلوم و المعار الأخرى في صناعة واقع الأمة انطلاقا من فهم واقعها و محاولة لرسم مستقبلها. و تبقى المعرفة التي جاء بها أول غيث الوحي السماوي خير ما تستهدي به البشرية في دروب الحياة .

الهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية . الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية .	أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية .
أ. د. أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة	أ. د. أحمد شريف . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر .
أ. د. جمال حجر . جامعة قطر . قطر	أ. د. بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانه .
أ. د. عبد الوهاب شالي . جامعة العربي التبسي . تبسة .	أ. د. صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية .
أ. د. محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس .	أ. د. علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة .
أ. د. عمر حاج الزاكي . جامعة أم درمان السودان .	أ. د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة .
أ. د. وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق .	
أ. د. جمال يحيياوي . جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر .	أ. د. بوبه مجاني . جامعة قسنطينة 2 . قسنطينة .
أ. د. العمري مومن . جامعة قسنطينة 2 . قسنطينة .	أ. د. أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس .
أ. د. أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن .	أ. د. الوفي نوح . جامعة محمد الخامس . المغرب .
أ. د. بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة .	أ. د. بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين سطفى .
أ. د. خير الدين شترة . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .	أ. د. جمال بلقاسم . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
أ. د. رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	أ. د. دلالات لواتي . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر .
أ. د. عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	أ. د. طارق لعجال جامعة ملايا . ماليزيا .
أ. د. عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس .	أ. د. عبد الحكيم أروغي . جامعة فريبورغ . ألمانيا .
أ. د. علي غنازية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	أ. د. علي بن سعد آل زحيفه الشهراني . جامعة ملايا ماليزيا .
أ. د. لزهري بديدة . جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد	أ. د. عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت .

الأردن.	الله . الجزائر .
د . لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنه .	د . محمد الأمين ولد آن جامعة نواقشط . موريتانيا .
د . محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .
د . محمد رشدي جراية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د . محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة .	د . محمد وادفل . جامعة قسنطينة 2 قسنطينة .
د . نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت .	د . هيو عزيز سعيد . جامعة السليمانية . العراق .
د . ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر .	د . يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر .
د . أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر .	د علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان .
د مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار .	د نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة .
د . ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر . باتنة د . اسماعيل وارشيد EH SS ismail warscheid فرنسا . أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه براتالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .	أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه براتالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .
د . Augustin Jomier أوغسطين جوميه (fondation thiers – cnrs/ce rhio) جامعة لومان . فرنسا .	د . البشير غانية . قسم العلوم الانسانية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- أن تكون المادة المرسلة للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
- 2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.
- 3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
- 4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الإلكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
- 5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع **simplified Arabic** مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي **simplified 16 Gras** العناوين الفرعية **simplified Arabic** مقاسه 14.
- 6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).
- 7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية **Not de fin** على أن تعرض في نهاية المقال.
- 8- المقالات المرسلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
- 10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
- 11- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : el-maaref@univ-eloued.dz

كلمة الأمل

كلمة العدد الناظر لواقع المجتمعات التي ننتمي اليها يدرك بكل بساطة مدى ما تترشح فيه من مآسي قربها فيها للممدود أكثر من بعدها عن المحدود. و تكاد تكون في هذا تشكل الاستثناء الذي تأبى معه الهجران . لا ينكر أمام هذا الواقع حقيقة تأثير العامل الخارجي الساعي لتحقيق مكاسبه على أكثر من صعيد. لكن الأشد و الاعظم ما كان منيعنا من الداخل الذي شكل أساس تلك المآسي . و لا يبدو التعافي من هاته الحال في الأجل المنظور، كون الداء مستفحلا و مستشرياً في عديد المفاصل الحيوية المرتبطة بمسار الحراك العام الذي كاد يكون معه حالة عضوية على المستوى المجتمعي . ان مجتمع اليوم وأمام ما هو حاصل من عديد الأزمات التي يندر التعاطي معها بإيجابية كقضايا تهز الضمير الانساني لفضاعة ما كان قد وصل من مشاهد . أما آن الأوان لتتبوء المجموعات المؤهلة بكفاءاتها المشهد الذي يسمح لها بتحقيق ما هو معقود فيها من آمال الانتشال من برائن ما تحيا فيه المجتمعات من انتكاسة و تردي و هوان . يحتاج الامر لضمان نجاحه و فاعليته للمناخات المؤمنة لنجاعته و الداعمة لمساره لتبلغ المرجو الوصول اليه . و ان تتبوء مجتماعتنا تلك المكانة التي طال معها الانتظار في بوابة الاحلام دون أن يؤذن لها . و يبقى الأمل عنوان

رئيس التحرير

أ/ عمار غرايسة

الفهرس

الصفحة	الموضوع
06	كلمة العدد
10	مشروع التعريب في بلدان المغرب العربي من منظور البشير الإبراهيمي ✻ د. بشير فايد/ قسم التاريخ و الآثار/ جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين /سطيف 2
40	ظاهرة الغلاء في العراق ومصر من خلال كتاب نهاية الارب في فنون الادب للنويري (اسبابها - وسبل معالجتها) ✻ أ.م.د. سماهر محي موسى /جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم التاريخ
70	الوضعية العامة للثورة الجزائرية عقب هجومات 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني ✻ د/ مختار هواري / جامعة باتنة-1-
94	سليمان باشا الباروني وموقفه من الدولة العثمانية في آخر عهدها ✻ د. لخضر بوطبة /قسم التاريخ والآثار / جامعة محمد لمين دباغين / سطيف 2
111	أحمد بن بلة و الفكر القومي الناصري و ملامح تجسيدهفي قيادة الدولة الجزائرية ✻ د/سفيان لوصيف /جامعة محمد لمين دباغين /سطيف 2
128	الصحافة والنخبة المثقفة في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي.. المقاومة الثقافية للترسانة الحربية ✻ د. حجاج الجمعي / جامعة العربي بن مهدي /أم البواقي
171	النظام الإداري في منطقة وادي ريف خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي (1854- 1900م) ✻ د. معاد عمراني/ قسم العلوم الإنسانية/جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي
188	شهيد الجبل الأزرق مصطفى بن بو العيد (1916-1956) ✻ د/الطاهر جبلي/ قسم التاريخ/ جامعة تلمسان
206	التجربة الإسبانية في تحقيق المخطوطات العلمية الجزائرية . دراسة ميدانية بقسم الفيلولوجيا بجامعة برشلونة . اسبانيا ✻ د. نصيرة عزرودي. قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة
228	مخطوط المهذب الرائق لأبي عمران موسى المازوني وأهميته التوثيقية في تاريخ المغرب الأوسط أواخر العصر الوسيط ✻ أ/ رفيق خليفي /قسم العلوم الإنسانية/جامعة عباس لغرور/ خنشلة
246	التراث المخطوط وأهميته في كتابة تاريخ المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط مخطوط : بستان الأزهار لابن الصباغ القلعي أنموذجا ✻ أ/ سمية مزدور /جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة
263	التل بلاد المغرب الاوسط. قراءة في جغرافية المجال. من القرن 2هـ / 8م إلى القرن 6هـ /12م. ✻ أ/ الطاهر طويل/قسم التاريخ/ جامعة باتنة1.

285	تاريخ الصحافة المكتوبة المتخصصة عامة و الرياضية خاصة في أوروبا والوطن العربي (مصر والجزائر نموذجا) ✻ أ/بوحيلة رضوان /قسم علوم الإعلام والاتصال// جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
310	الأساس الديني والتكوين المذهبي ودوره في الصراع العثماني الفارسي ✻ أ/حمزة عيجولي /قسم التاريخ جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر 02 -
322	مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعاطي مع الثورة الجزائرية: الحرب النفسية الفرنسية و المرأة الجزائرية أنموذجا 1962-1955 ✻ د/ جمال قندل / جامعة الشلف
345	تجربة النوادي لدى الحركة الاصلاحية نادي الشبان المسلمين الجزائريين بمنطقة تبسة أنموذجا ✻ د/ سليم بعلوج / جامعة جيلالي ليايس ولاية سيدي بلعباس/ الجزائر
355	الصراع الوجودي في بلاد الرافدين " الممالك الأمورية أنموذجا" ✻ أ. الطيب زين العابدين/ قسم التاريخ والآثار/ جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة
يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا
مكانته العلمية

مشروع التعريب في بلدان المغرب العربي من منظور البشير الإبراهيمي

د. بشير فايد/ قسم التاريخ و الآثار/ جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين

/سطيف2

bachir.faid@gmail.com

ملخص:

سنستعرض و نحلل و نناقش في هذه الدراسة التاريخية و الفكرية، أفكار و آراء الشيخ البشير الإبراهيمي (1869م-1965م) بخصوص موضوع التعريب في بلدان المغرب العربي الثلاث: الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، التي عاشت مدة طويلة من الزمن تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية، عرفت خلالها اللغة العربية كل أشكال و أساليب التضييق و المسخ و التشويه و الإقصاء، بهدف محوها إلى الأبد و تعويضها بلغة المستعمر، التي تمثل أكبر ضمان لاستمرار نفوذه و حماية مصالحه في البلدان المغاربية بعد خروجه العسكري منها.

الكلمات المفتاحية:

بلدان المغرب العربي، اللغة العربية، البشير الإبراهيمي، التعريب.

Abstract :

We will review, analyze and discuss in this historical and intellectual study the ideas and opinions of Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi (1869-1965) on the subject of Arabization in the three

Maghreb countries: Algeria, Tunisia, Morocco, which lived for a long time under French colonial domination, In which the Arabic language has known all forms and methods of harassment, distortion, distortion and exclusion in order to erase it forever and compensate it in the colonial language, which represents the greatest guarantee for its continued influence and protection of interests in the Maghreb countries after its military withdrawal.

keywords: Maghreb countries, Arabic language, Bashir Al-Ibrahimi , Arabization.

مقدمة:

اشتركت دول المغرب العربي الثلاث: الجزائر، تونس، المغرب، في وقوعها تحت قبضة استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسي، الأمر الذي جعلها تشترك في الوضع اللغوي نفسه، عشية خروج المستعمر، الذي انتهج فيها سياسة لغوية، أوجدت لغة جديدة، أخذت شيئاً فشيئاً مكان اللغة العربية، التي لم تعد اللغة الأولى بعد الاستقلال¹.

لكن وبالعودة إلى تفاصيل تلك السياسة، نجد أنها كانت شديدة الوطأة على الجزائر، بالمقارنة مع تونس و المغرب، و هو ما يفسر السجال الحاد الذي عرفته الأولى، بمجرد مغادرة المحتل لأراضيها، و قد بلغ حد التهجم والسخرية و التهكم على كل الأصوات التي نادى بالتعريب، لكي تنال اللغة العربية مكانها الطبيعي في البلاد؛ حيث وصف

أصحابها بالجهل و ضيقي الأفق، و أنهم يحاولون استعادة لغة ميتة لا تصلح للحياة²، رغم دور الفعال الذي قام به عدد كبير منهم، في ميدان المقاومة الثقافية، على قدم المساواة مع غيرهم من الفاعلين الآخرين- في ظروف أشبه بحرب العصابات، تعبيرا عن محنة الأمة، و تبشيرا بقرب موعد انعقادها و انفكاكها من قيود العبودية³.

من هنا، وجدنا الشيخ البشير الإبراهيمي، يحرص كثيرا على إثارة المسألة مبكرا، لأنه كان يدرك خطورتها على مستقبل الجزائر بصورة خاصة، و تونس و المغرب بصورة عامة؛ لأن المستعمر المشترك بينها، راهن بشدة على إبقاء الأوضاع اللغوية و الثقافية ذاتها التي لم يأخذها معه، بل و سعى بكافة الطرق و الوسائل إلى تعقيدها، أكثر مما كان عليه الأمر في السابق، و قد كشف الزمن، أن الشراسة التي جوبه بها دعاة التعريب و أنصاره في الجزائر خاصة، كان وراءها بدرجة كبيرة مستعمر الأمس، الذي رفض بكل قوة هذه المرة أن يخسر المعركة اللغوية و الثقافية، بوابة الهيمنة السياسية و الاقتصادية، بعد أن خسر المعارك العسكرية، و لا أدل على ذلك بقاء تلك المواجهات، مثلما كانت عليه تماما في بداية الاستقلال، كما و لو أنها بدأت اللحظة فقط.

1- الحاجة إلى التعريب في بلدان المغرب العربي:

عرف الإبراهيمي التعريب بأنه: جعل الشيء عربيا سواء كان معنى أو مادة، أو إنسانا⁴ و رأى فيه مشروعا حضاريا حيويا للأمة⁵ يستوجب حشد كل الوسائل و الطاقات الفكرية و البشرية و المادية لإنجاحه،

انطلاقاً من قناعاته التامة، أنه من أهم خطوات تحقيق الوحدة العربية المنشودة، التي طال انتظارنا لها⁶.

بمعنى أن الوحدة العربية في بعدها الثقافي، تم حتماً ووجوباً، بتحرر لغوي تام لكل الأوطان العربية المغاربية، التي كسرت لتوها قيود الاستعمار الفرنسي، الذي وظف القلم إلى جانب السيف و المحراث، كأداة فعالة لإزاحة كل ما هو ذاتي و شخصي فيها من لغة و ثقافة و تراث.

ثم تساءل في مستهل حديثه، عن موضوع التعريب في بلدان المغرب العربي، إن كانت هنالك حاجة إليه بما أنهم عرب؟ و أجاب بأنهم في أمس الحاجة إليه، بغرض طبعهم بطابع عربي حقيقي، ينزع عنهم ما هم عليه من زيف و تشويه، مصدرهما الاستعمار الغربي الذي احتل أوطانهم⁷.

و أجاب: بأن أولوية الأولويات بعد الاستقلال هي التعريب، الذي لا يكفيته مؤتمر واحد كذلك الذي انعقد بالرباط سنة 1961م بل مؤتمرات عديدة، بسبب الآثار الوخيمة التي تركها الاستعمار فينا، فشلت فينا تقريبا كل القدرة على الحركة في كل المجالات و ليس في مجال اللغوي فحسب؛ و في هذا يرى الشيخ بأهمية ترتيب الأولويات، على أن يكون التعريب على رأسها بل و أكبر شعار للاستقلال، تجنباً لتضييع الوقت و هدر الجهود و الإمكانيات المالية، فالقضية في غاية الأهمية و الخطورة: "و هيهات أن يتحرر شعب و لسانه مستعبد للغة

أجنبية، أو يتحرر شعب متنكر للسانه، فاستقلال العرب لا يتم تمامه إلا بتعريب ألسنتهم و أفكارهم و همهم و ذممهم، إلى آخر ما للعرب من صفات و أخلاق"⁸.

في الواقع ينطبق هذا الأمر، على كافة الدول العربية، في المغرب و المشرق، لأن التحرر من عبودية الأبدان، يبقى ناقصا و مبتورا، إذا لم يتبعه تحرر في الأرواح و الألسنة و العقول، بل أن دوام الأول مقرون بحصول الثاني، فقد يأتي يوم نجد فيه من أبناء العرب من يستدعي الاستعمار إلى بلاده، بحجة عدم الأهلية لصناعة حاضر متقدم و مستقبل مشرق، في غياب محتل الأمم، مع تضمين ذلك بالأسف و الاعتذار عن دفعه إلى مغادرة الأوطان، التي كانت أفضل بكثير أثناء فترة حكمه، مما هي عليه في عهد الاستقلال، و الحق أننا أصبحنا نسمع الكثير من الأصوات هنا و هناك، تنادي بحياة الاستعمار و عودته دون حياء.

1- الاستعمار و اللغة العربية:

اعتبر الإبراهيمي اللغة أعظم مقوم للأمم، و لذلك نالت حقها على يد المستعمر في بلدان المغرب العربي؛ حيث عمل جاهدا على التقليل من شأنها، و إضعافها، و منع تعليمها إلا برخصة منه، و إثقال كاهلها بالقوانين التعسفية و القرارات الجائرة، حتى يصبح من شبه المستحيل تعليم القدر البسيط منها، ثم يلجأ إلى تطعيمها بالرطانات(اللغات

المحنة) الأوروبية الوافدة التي تتسلل إليها تحت أعينه فتصبح جزء لا يتجزأ منها⁹.

غاية الاستعمار الأوروبي واضحة كل الوضوح، في تحليل البشير الإبراهيمي، من وراء استهدافه للسان العربي في بلدان المغرب العربي، و هي استئصاله نهائيا من ألسنة أهلها، و للوصول إلى ذلك في تقديره، لجأ إلى كل الوسائل الحكيمة و القذرة خاصة في الجزائر، أما في المغرب الأقصى و تونس، فمنعه من تحقيق أمانيه التي حققها في الجزائر وجود جامع القرويين¹⁰ في الأول و الزيتونة¹¹ في الثانية، لكنه و مع ذلك لم يستسلم و كله عزم على تدارك ما فاته في البلدين الأخيرين، من خلال ما يحتفظ به من برامج جاهزة يوظفها في الوقت المناسب؛ فما فشل فيه في بلد يعوضه في بلد آخر، مراهننا على عامل الزمن، و أبرز مثال على ذلك قضية الظهير البربري، الذي لما فشل في تنفيذه في الجزائر، نقله إلى المغرب الأقصى¹².

بالفعل، فقد راهنت فرنسا لبسط سيطرتها على المجتمع المغربي، على زرع التفرقة بين العنصرين العربي و الأمازيغي (البربر) و بالغت في إبراز شخصية الأمازيغ و الإشادة بتقاليدهم القديمة، فجاء مرسوم الظهير البربري 16 ماي 1930م لتويجا لذلك، و هو عبارة عن قانون نص على جعل التقاليد و العادات البربرية القديمة مكان الشريعة الإسلامية، تمهيدا لسلخ العناصر البربرية عن الدين الإسلامي، تيسيرا لتحويلهم إلى رعايا فرنسيين¹³.

و في هذا المضمار، استعملت سلطات الاحتلال الفرنسي في المغرب الأقصى، كل الوسائل المتاحة لها من أجل تجسيد أطروحتها الاستعمارية، التي روجت لها عن طريق المتحدثين باسمها من كتاب و ضباط، المتضمنة أن العنصرين المكونين للمجتمع المغربي، مختلفين كل الاختلاف دما و لغة و ثقافة و عادات و طباعا و لباسا، و انتماء حضاريا و تاريخيا و جغرافيا، بل ذهب أكثر من ذلك باعتبار إسلامهم يتميز بالسطحية، و أنهم لا زالوا يحتفظون بمظاهر المسيحية و اليهودية و حتى الإلحاد، في عاداتهم و سلوكياتهم اليومية¹⁴.

و بطبيعة الحال، لم تكن هذه الرؤية سرا من الأسرار؛ حيث عبر عنها صراحة أحد الضباط بقوله: "هم قضيتنا العميقة و المشروع يفرض أن يتم تطير سكان الجبال(الأمازيغ) باللغة الفرنسية المعبرة عن فكرنا، سوف يتعلم السكان البرابرة اللغة الفرنسية و سوف يحكمون بالفرنسية...علينا أن نقلع في كل مكان عن الحديث باللغة العربية، و إعطاء الأوامر بالعربية، إلى قوم هم مجبرون على فهمنا و إجابتنا بلغتنا"¹⁵.

و قد قال الكلام ذاته، بشأن المكون القبائلي في الجزائر، وزير التعليم الفرنسي في حكومة الجمهورية الثالثة ألفريد رامبو: "الاستعمار الأول للجزائر تم بالسلاح و انتهى في 1871م¹⁶ بنزع السلاح من منطقة القبائل، و الاستعمار الثاني تمثل في قبول السكان للحياة و الإدارة و القضاء الفرنسي. و الاستعمار الثالث سيتم من خلال المدرسة التي ستضمن هيمنة لغتنا و تبرز دور فرنسا في العالم"¹⁷.

و لإنجاح المشروع، لجأت سلطات الاحتلال إلى جملة من الوسائل نذكر منها: دعم التعليم بنوعيه العلماني و الديني المسيحي، تشجيع عمليات التنصير، فرض الاعتماد على الأعراف المحلية في مكان الشريعة الإسلامية، محو كل مظاهر التعريب في المنطقة، اعتبار نشاطات الدعاة و العلماء و المدرسين القادمين من خارجها أعمالاً إجرامية، إفراد سكان المنطقة بمعاملة خاصة و تمييزية، تشجيع الدراسات التاريخية و الأنثروبولوجية و الإثنوغرافية و الاجتماعية و اللغوية الخاصة بالمنطقة، و تزيف الحقائق التاريخية¹⁸ انسجاماً مع القاعدة الخالدة في هذا المجال "فرق تسد و فرق و أحكم".

يضيف الإبراهيمي، أن الاستعمار الفرنسي، قد دفعه غضبه الشديد على اللغة العربية في الجزائر، حد أن أحد رؤساء حكوماته في باريس المدعو "شوطان" قد قام في يوم واحد بإصدار قرارين، لا يمكن وصفهما إلا بالعجيبين: نص الأول على منع صدور أية جريدة ناطقة باللغة العربية (جريدة البصائر) تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على أن يكون ذلك سارياً على كل جريدة عربية تصدرها في المستقبل، من دون الحاجة إلى قرار بذلك، أما القرار العجيب الثاني، فهو الذي اعتبر أن اللغة العربية في الجزائر بمثابة لغة أجنبية، يحرم تعلمها أو تعليمها إلا بالحصول على إذن خاص من سلطات الاحتلال، رغم أن غالبية السكان هم عرب بالأصل، و قد ترك الإبراهيمي أمر الحكم على هذين القرارين لرجال القانون¹⁹.

وجه الغرابة، لا يكمن في قيام الإدارة الفرنسية في الجزائر، بإصدار قرار 08 مارس 1938م المشؤوم، الذي منع تدريس اللغة العربية في المدارس الحرة، التي كانت تتبع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين²⁰ وإنما في المبرر السخيف الذي حاولت أن تغلف به نواياها العدائية لخلق التعليم العربي الحر وهو المحافظة على الصحة؟ فإذا كانت تلك المدارس، لا تتوفر على الشروط الصحية الصارمة للترخيص بفتحها فلماذا لا تعينها على توفيرها بحكم أنها المسؤولة على ذلك قانونيا و سياسيا و حتى أخلاقيا؟ وقبل ذلك لماذا أغلقت في وجوه أبناء الجزائريين مدارسها الرسمية و فرضت برامجها التعليمية فاضطروا إلى البحث عن أماكن أخرى غير مطابقة للمقاييس الصحية و التربوية لتعلم لغتهم و دينهم و فرارا من شيطان الجهل و الأمية الذي كان فرنسا و لم يكن جزائريا؟.

و في المقابل، شجعت تدريس اللغة العامية الركيكة، بديلا للغة العربية الفصحى، بحجة ترقيتها لتصبح لغة راقية، مثلما كان عليه الأمر بالنسبة للهجات أوروبا في العصور الوسطى (الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، البرتغالية...) التي كانت متخلفة و محدودة الانتشار، لكنها تطورت و أصبحت في عصرنا الحالي لغات راقية جدا و مهيمنة عالميا²¹.

و في تقييمه لمدى نجاح، أو فشل السياسة اللغوية الفرنسية، في بلدان المغرب العربي، اعترف الإبراهيمي: أن فرنسا قد تمكنت بالفعل من تحقيق بعض ما كانت تصبو إليه؛ حيث أفلحت في تكوين مجموعة من

أبنائنا في تونس و الجزائر و المغرب الأقصى، يعتقدون اعتقادا جازما أن اللغة العربية هي من الضعف و العجز عن أداء المعاني الراقية في الفلسفة و كل علوم العقل و النفس و الصناعة، يرددون ذلك- دون حياء- في المجالس الخاصة و العامة التي يرتادونها، بشكل يجعل المستمع إليهم يستخلص أنهم يفتخرون باللغة الفرنسية و يحتقرون نظيرتها العربية، و هو أمر خطير في نظر الإبراهيمي، كاف للطعن في انتمائهم العربي و الوطني و الديني: "و إن هذا لشر آثار الاستعمار في النفوس و أفئك أسلحته في أجيالنا الناشئة و في ظل سيطرته منذ طراوة العود. و الواقعة تحت وسوسته و سحره، و إن الذنب لذنب المجتمع الذي لم يأخذ بأسباب الحيطرة لأبنائه و ذنب الحكومتين التونسية و المراكشية اللتين لم تحتاطا للغة الأمة و دينها، أما الجزائر، فاحمدوا الله على أن وصلتكم منها هذه الأشلاء الممزقة من العربية، و هذه الصورة الجافة من الدين"²².

ثم تساءل: أنه و بعد أن تراجع مفعول الاستعمار الفرنسي، مع ما خلفه من آثار قد يكون من الصعب جدا إزالتها، و عن الوصفة العلاجية التي حضرناها، للتخلص من تلك الآثار في مجتمعاتنا لما نتسلم زمام أمورنا بعد الاستقلال، و بالخصوص بالنسبة: "للداء العضال الكامن في بعض النفوس، و هو الحنين إلى أبغض العهود إلينا، و هو عهد الاستعمار الفرنسي؟"²³.

و أجاب: بأن التجارب تدل على بقاء فئة لا بأس بها منا، تحمل ألسنة حينها العظيم للغة الفرنسية، تفضل الغين الباريسية على مخرج

الراء العدنانية، متمنية عاهة واصل ابن عطاء²⁴ التي تريحتها من نطق الراء، و لها قلوبا تهفو إلى فنون فرنسا و مفاتها، و عقولا جوفاء لا تستسيغ التفكير إلا على النمط الفرنسي، و نفوسا صغيرة تتمنى عودة حكمها الذي يرفع الحقير وينزل العزيز، و همما وضيفة تحن إلى رعايتها التامة للرزائل و الشهوات الحيوانية و الغرائز الخسيسة؛ فقد كانت سلطاتها في الجزائر تحمي السكير بحجة الحرية، و تنزل العقاب بمعلم اللغة العربية بالزج به في غياهب السجون و بالغرامات الكبيرة، بمبرر أن ما يقوم به إجرام و تمرد على القانون²⁵.

نستخلص من ذلك، أن الخطر الذي أراد الإبراهيمي التنبيه إليه، ليس هو حديث بعض أبناء الاستقلال بلغة المستعمر السابق، و إنما تحولهم إلى أدوات مدافعة عن مصالح هذا الأخير، يوظفها لضمان ديمومة مصالحه، و لما لا تحقيق ما عجز عنه من انجازات، لما كان يسيطر السيطرة العسكرية على أوطاننا.

و بطبيعة الحال، إن ثمار المدرسة الفرنسية في الجزائر خاصة، ظهرت أثناء الاحتلال، و لم تنتظر مجيء الاستقلال حتى تينع و تنضج فيحين قطفها، و تمثلت في بروز نخبة عبرت صراحة عن ولائها لفرنسا، و طالبت بدمج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي دجما كليا، كسبيل وحيث لإخراجه من- مستنقع- الجهل و الفقر و الاضطهاد²⁶ الذي كان قابعا فيه لمدة طويلة من الزمن، و لم يجد حلا ناجعا للانفكاك منه.

أما بعد استقلال الجزائر، فكان دور تلك النخبة فاعلا و مؤثرا و حاسما، و لا يزال إلى يوم الناس هذا؛ قاومت بكل شراسة كل المحاولات الرامية إلى جعل اللغة العربية تأخذ مكانها الطبيعي في كل المجالات، و لما لا قبرها إلى الأبد، و لم تتوقف جهود هذه الفئة النافذة عند حدود مقاومة التعريب، بل راحت تعمل بكل ما أوتيت من قوة و نفوذ، لتكون الجزائر جزءا لا يتجزأ من الدول الفرنكفونية، تتباهى بذلك دون خجل أو وجل.

وجوهر الفرنكفونية، هو إبقاء هيمنة الدولة الفرنسية على مستعمراتها السابقة، عن طريق استبدال الاستعمار العسكري بالاستعمار الثقافي، فالاقتصادي، فالسياسي، ليس باختيار الشعوب و إنما قسرا، أي بالاتفاق (بالتراضي)²⁷ بين المستعمر القديم و مع من أصبح يمثل له لغويا و ثقافيا بعد إخراجه كرها من ربوع البلاد.

و الأمر ذاته، انتهى إليه مشروع التعريب في دولة المغرب الأقصى؛ فرغم مبادرة السلطات العليا في مستهل عام 1956م، بتشكيل لجنة وطنية وضعت أسس السياسة التعليمية في إطار التعريب، و شروعاتها عمليا في ذلك بتأسيس مدارس نموذجية في مختلف المراحل التعليمية، و صدور قرار يلزم التجار و الصناعيين و الحرفيين و المهنيين، باستعمال اللغة العربية في كتابة الإشارات و اللافتات، إلى أن المشروع لم يحقق الحد الأدنى من النجاح، قياسا مع ما كانت تعرب عنه الدولة من رغبتها في تجسيد التعريب الشامل في جميع الميادين²⁸.

أما الباحث في المسألة اللغوية في تونس، فلن يجد عناء كبيرا في اكتشاف حجم -النفور- النفسي و الذهني لفئة كبيرة من المتعلمين و المثقفين التونسيين ذكورا و إناثا، من اللغة العربية و تفضيلهم استخدام اللغة الفرنسية في أبسط أمورهم اليومية²⁹.

3- خطوات التعريب:

التعريب نوعان عند الإبراهيمي: جزئي و كلي، مكمّلان لبعضهما البعض، بهما تتجسد العروبة التي تعرضت زمنا طويلا، إلى المحاربة والإقصاء التهميش و التشكيك و الانتقاص أثناء الاحتلال و بعده.

أ- التعريب الجزئي:

أطلق عليه أيضا التعريب الاستعجالي، وعرفه على أنه: "تعريب الألسنة و الأقلام و آثارهما من خطابة و كتابة، و يدخل فيه تعريب الدروس التعليمية... فلنعرب ما استطعنا من الألفاظ، و المصطلحات، و التعليم و كتبه، و أساليبه، و لغته. و لننقح على قدر الإمكان، و لنكل بقية التصفية و الغرلة للزمن"³⁰.

و نبه إلى أننا لسنا استثناء في هذا؛ فقد سبقنا إليه أشقاءنا في المشرق العربي، و خاصة السوريون السابقون على الجميع في هذا المضمار، الذين و بمجرد ما تخلصوا من الاستبداد التركي، حتى سارعوا إلى خوض معركة التعريب، فما هي إلا فترة وجيزة (أسابيع) حتى تم تعريب كل الكتب التربوية و التعليمية و الطب و الصيدلة و الحقوق و المصطلحات في جميع المراحل التعليم، و قد أثبتت بعض الجهود

الفردية) جهود الدكتور أحمد حمدي الخياط كبير المتخصصين في التحليلات الكيميائية) في تلك الأثناء، أن اللغة العربية قادرة على استيعاب كل دقائق الطب الذي تفوق فيه العرب في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية³¹.

دون إهمال الجهود الجبارة، التي بذلت في مصر، من قبل كتابها و علمائها و مجمعها اللغوي، في سبيل تعريب الألفاظ و المصطلحات العلمية، الأمر الذي فتح آفاقا جديدة للغة العربية و زودها بثروة كبيرة³² فيجب الاقتداء بهذه التجارب الرائدة، فيما أصاب فيه أصحابها، من غير تسرع أو تساهل أو تكرار لأخطائهم³³.

يشمل التعريب الجزئي، في تصور الإبراهيمي، المراحل التعليمية الثلاث: الابتدائي، الثانوي، العالي، و يشمل كل المناهج و البرامج المقررة، مع الاستئناس ببعض التجارب في المشرق العربي، التي اعتبرها ناجحة و يمكنها أن تفيّد مشروع التعريب الجزئي في بلدان المغرب العربي، و قبل ذلك كله ينبغي أن نبدأ بتعريب المعلم، و بخصوص ذلك، اعتبر أن أكبر عقبة وقفت في طريق مشروع التعريب في بلدان المغرب العربي، تتمثل في تعريب المعلم، وهي بنظره مسألة في غاية الأهمية، و عليه ينبغي الاحتراز بعدم الاعتماد في تعريب أبنائنا على المعلم غير المعرب، و هو تحد صعب يمكن أن نتغلب عليه بجديّة الحكومات و سخاء المخصصات المالية، و المطلوب من وزارة المعارف المعنية بالأمر، المبادرة بتأليف و طبع الكتب الضرورية لمعلمي الطور الابتدائي، وفقا لمناهج التعريب، ثم نفرض عليهم الالتزام بمضامين تلك الكتب و عدم

الخروج عنها البتة، و لا شك أن الصعوبات الجمة ستصادفنا بالدرجة الأولى، مع الجيل الأول من المعلمين: "فلا بد لنا من الصبر الطويل، و الحزم الحازم، و الحكمة الحكيمة، لتغلب على جميع العقبات، و لا تبنى الراحة إلا على التعب"³⁴.

فلا جدال بكون أن المعلم، يمثل ركنا أساسيا في صلب العملية التربوية- التعليمية، بل هو القاعدة الصلبة التي تركز عليها، وفي غالب الأمر يكون هو السبب في نجاح العملية التربوية أو فشلها، و أي إهمال أو تقصير في إعدادده، لن تكون نتائجه وخيمة على التربية و التعليم فحسب، بل على التنمية في البلد ككل³⁵.

هذا بشكل عام، فكيف الحال إذا تعلق الأمر بمشروع حيوي بحجم التعريب في الدول العربية؟ فلا ريب أن الفشل في إعداد المعلم المعرب الكفء، الذي يؤمن أنه يؤدي مهام تربوية، ذات صبغة قومية و حضارية، على درجة كبيرة من الأهمية، سيجعل العملية عبثية برمتها، و بشأن هذه المسألة سجلت الكثير من العيوب، مرتبطة بنوعية المعلمين الذين أوكلت لهم التعريب في الجزائر بعد الاستقلال، بالمقارنة مع نظرائهم في اللغة الفرنسية.

*- تعريب المرحلة الابتدائية:

التعريب الموسع، هو الذي يبدأ بالمدرسة الابتدائية، التي ينبغي أن توجه كل الجهود إليها، لأنها مرحلة التكوين اللغوي للتلاميذ، فيدرس لهم

متن اللغة من خلال ثلاثة كتب أساسية هي: "كتاب المخصص" ابن سيده³⁶ "كفاية المتحفظ" للأجدابي، "الألفاظ الكتابية" للهمداني³⁷.

حيث تتيح هذه الكتب للتلميذ في البداية، التعرف على أسماء أعضاء جسمه و ما تؤديه من أدوار و كل ما له علاقة بها باللغة الفصيحة، ثم ينتقل إلى معرفة كل الأشياء التي تخصه مما يشاهده و يتصل بتصرفاته اليومية، فلا يكاد يجتاز هذه المرحلة التعليمية، حتى يكون قد حفظ جزء كبيرا من اللغة، مع عدم الاكتفاء بذلك؛ إذ يجب تأليف كتب لغوية صغيرة، مثل الكتب السالفة لتربية ملكة اللغة العربية في الصغار، و تقريب انطباعهم عليها بأيسر الطرق و أبسطها و أكثرها فعالية، كما يجب إجبار التلاميذ، على التحدث باللغة العربية الفصحى في المدرسة، فيبدؤون بالكلمات السهلة ثم ينتقلون إلى الجمل الفصيحة، فالتركيب المضبوطة بقوانين اللغة، فلا ينهون هذه المرحلة حتى يكونون عربا صغارا، مع التزام المعلمين التام بعدم النطق أمامهم بأي كلمة أعجمية حتى تصاب ملكاتهم بالخدش، لأن الكلمة الواحدة قد تفسد كل ما بذل من جهد. ختم الإبراهيمي حديثه، بالإعراب عن تعجبه من كون أن التعليم في أوروبا، في ميدان تعليم اللغات، أصبح يعتمد منهاجا يقترب من طريقة الأجدابي و الهمداني³⁸.

*- المرحلة الثانوية:

اقترح الإبراهيمي في هذه المرحلة، منهاجا تربويا ينسجم مع أعمار و مستوى تلاميذها، يعتمد على ما يلي:

- التوسع للتلاميذ في القواعد و التراكيب، التي من شأنها تقوية ملكاتهم و تنميتها.

- التساهل بعض الشيء، في إدخال الألفاظ الأجنبية في العلوم الطبية و الكيمياء، و كل العلوم الكونية المقررة في التعليم الثانوي، إذا كانت تلك الألفاظ اصطلاحية عامة و اقتضت الضرورة ذلك، في ظل غياب مرادفات عربية لها.

- تمرين التلاميذ على الخطابة، و تكليفهم بإلقاء محاضرات، تختار لها بدقة الألفاظ و التراكيب المناسبة.

- تعويدهم على المطالعة، عن طريق كتب مختارة، تتوفر فيها شروط الفصاحة و البلاغة و السهولة، بغية ترسيخ ملكة اللغة العربية فيهم.

- عدم إقبال كاهلهم بخصص اللغات الأجنبية: "حتى لا تتصادم اللغات في أذهانهم فينشأوا ضعافا في الكل، فينبغي أن نفهم نحن و يفهم أبناؤنا أن اللغة العربية هي رأس المال الذي يجب المحافظة عليه، و أن اللغات الأجنبية هي ربح فلا تعطى من العناية و لا من الوقت إلا ما يزاحم لغتنا الأصيلة، و لا يتليها بالضعف، و لا يمس قدسيتها عندنا"³⁹.

*- مرحلة التعليم العالي:

افترض الإبراهيمي، أن التلميذ لما يصل إلى مرحلة التعليم العالي، تكون الملكة العربية قد استحكمت فيه، و أصبح معربا تعريبا تاما، و منه لا

خوف عليه إن توسع في تعلم اللغات الأجنبية: "لأن لسانه أصبح عربيا، يؤيده فكر عربي، و عقل عربي، فلا تزامه لغة أخرى مهما توسع في أصولها و فروعها، و لأن أفكاره و تصوراته الذهنية أصبحت كلها عربية، يملك تصويرها و التعبير عنها باللغة العربية بسهولة"⁴⁰.

و هنا يكمن الخطر بحسبه على أبنائنا، الذين تعلموا بلغة أجنبية، دون أن يكون لهم إلمام بلغتهم الأم، فيجدون أنفسهم لا يستطيعون التعبير عن التصورات و المعاني الكثيرة و الحقائق العلمية و التخيلات الذهنية، إلا باللغة الأجنبية التي تعلموها بشكل جيد فأتقنوها: "فأدت بهم هذه الحالة بالتدريج إلى كراهية العربية. و انتهت إلى بغضها، ثم إلى الحقدها و اتمامها بأنها لغة قاصرة، ضعيفة، أو ميتة، لا تستطيع أن تزامم اللغات، أو تقوى على حمل الحضارات، ثم تنتهي بهم هذه الحالة إلى الانسلاخ من العروبة، و إلى احتقار الدين الذي تترجم عنه هذه اللغة، و ذلك هو الضلال البعيد، و فاتهم أن هذه العيوب التي نحلوها للعربية هي بريئة منها، و أن العيب فيهم و حدهم إذ لم يتعلموا لغتهم، و لم يفقهوا أسرارها و لم يتذوقوا بياها، و من جهل شيئا عاداه"⁴¹.

لا شك أن هذه التفاصيل، التي أوردتها الإبراهيمي، فيما يخص التعريب الجزئي، هي من اختصاص هيئات عليا، تضطلع بمهام التنظيم و التنفيذ و السهر الدائم على العملية برمتها، بدعم و رعاية السلطات السياسية في بلدان المغرب العربي، بعيدا عن الارتجال الذي قد يكون مصدره الحماس الزائد، أو عدم الاقتناع بجيوية القضية لحاضر و مستقبل الأمة،

أو لوجود نوايا لنسفها من الأصل، فنخسر إلى الأبد معركة الأمن اللغوي و الثقافي.

ب- التعريب الكلي:

الموسع أو الشامل، وعرفه بأنه يشمل بالإضافة إلى النوع الأول: "التخلق بأخلاق العرب و التحلي بكل ما اشتهر عنهم من محامد و فضائل". و أضاف أن من أهم خطوات تحقيق الوحدة العربية، تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي، بدءا بتعريب الألسنة و الأفكار، و العقول و الأذهان و التصورات، و حتى اللباس و وسائل النقل و أساليب المعاش، و هيئات الأكل والشرب و النوم، و أثاث البيوت، و الأسرة⁴².

و يضيف أن التعريب الشامل، هو أكبر غايات من يعمل بإخلاص للعروبة، إذ لا يتم على وجهه المطلوب إلا بالعلم وحده، حتى و إن بلغنا فيه درجات متقدمة جدا، فلا فائدة من العلم وحده، إذ لم يتطعم في كل خطوة منه بتربية نفسية، على ما للعرب من شمائل و همم و بطولات، و وفاء و صدق في القول و تفان في العمل، و توضحيات و إباء و إيثار، و كرم و شجاعة، و قد حث الإسلام على هذا النوع من التربية في قوله تعالى: "و يزككم و يعلمكم الكتاب و الحكمة"⁴³.

و شدد على أن هذا النوع من التعريب، يجب أن يقوم به فقط، جماعة من خطباء المساجد، و من الوعاظ وكتاب العرب المسلمين، الذي يتحتم عليهم جميعا أن يتفقهوا على: "نعمة واحدة و هي أن الإسلام

عرب جميع معتنقيه بالانتساب إليه، و أن كل من تكلم العربية فهو عربي، و أن العربي لن يكون عربيا، حتى يكون فيه ما أثر عن العرب من شمائل و أخلاق"⁴⁴.

و منه يظهر أن الإبراهيمي، يشترط أن يكون التعريب ذا محتوى عربي وإسلامي كامل، مع إيكال هذه المهمة الحضارية لمعلمين و مدرسين مخلصين للعروبة و الإسلام، يتميزون بالعلم و الإطلاع الواسعين على تاريخ العرب و تراثهم، و أخلاقهم و شمائلهم التي اكتملت بمجىء الإسلام، الذي هذبها و أصبغها بصبغته، هذا يقودنا إلى القول: أنه ممن يضعون التاريخ و اللغة العربية، كمقومات أساسية للوحدة العربية.

و يمكن أن نبرر موقفه هذا، إزاء مسألة التعريب، بما تعرضت له اللغة العربية في المغرب العربي، على يد الاحتلال الفرنسي، الذي استهدفها بكافة الطرق و الوسائل، و في جميع الميادين، حتى تحل اللغة الفرنسية محلها، فيضمن بذلك بقاءه فيها- إلى الأبد-⁴⁵.

و في السياق ذاته، أشاد الإبراهيمي كثيرا، بالخطوات التي قام بها مؤتمر التعريب المنعقد بالرباط سنة 1962م، معتبرا إياها واجبا يقوم به المؤتمرون نيابة عن جميع الأقطار العربية، حاثا إياهم على الجدية و التحلي بالصبر و الإرادة و العزيمة، و إقران الأقوال بالأعمال، قائلا: بأننا أمضينا أعمارنا في الأقوال، دون نترجمها إلى أفعال، حتى تسلل إلينا القنوط و كدنا أن نياس، فكم من الاجتماعات التي دعي إليها

لهذا الغرض قبل هذا الاجتماع، وانتهت دون نتيجة، فالفرصة مناسبة
إذن لاستدراك الموقف، بالجد و العزم و الحسم و الإنجاز⁴⁶.

و أضاف موضحاً: بأنه في السابق كانت اللغة العربية، تتعرض للأذى
من الغريب المتنمر و من القريب المتنكر لها، فيسارع لنصرتها البعض من
أبنائها الأوفياء و جنودها المتخفين، لكن دون أن يسمع لهم صوت،
لتشردمهم في الأقطار العربية المترامية الأطراف، إلى أن جاء مجمع اللغة
العربية إلى الوجود، ساعياً إلى إعادة الشباب إلى اللغة العربية، و تجديد
معالمها، و جمع أنصارها، رغم الصعوبات التي واجهها في السنوات
الأولى من إنشائه، شأنه في ذلك كشأن أي هيئة فنية، تفتقد إلى
التجربة و الخبرة اللازمين، و ظل ينمو و يتطور كلما انظم إليه المزيد
من أنصار العروبة و فرسان بيانها، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه
حالياً، و قد تمنى في الأخير، أن يكتمل بناء مجمع اللغة العربية، حتى
يكون وسيلة فعالة في توحيد العرب؛ فلا عجب أن أقوى جامع لصف
العرب لغتهم، و إن تحقق ذلك، فإنه يمكن اعتبار أسرة المجمع أكثر
عروبة من كل العرب⁴⁷.

لا ريب أن للمجامع اللغوية و العلمية، دوراً كبيراً في التمكين للغة
العربية في كافة الميادين، و معالجة العقبات التي تعترض ذلك، من
خلال مهامها التي تتلخص في: إثراء اللغة العربية لكي تواكب
متطلبات العصر، وضع المصطلحات و المعاجم، الترجمة و التعريب،
تسهيل تعليم اللغة العربية، إحياء التراث اللغوي العربي⁴⁸.

بدا الإبراهيمي، مرتاحاً للنتائج المحققة فقال: بأننا مهدنا للوحدة العربية الشاملة بالتعريب الشامل، الذي أزاح العقبات من سبيلها، و جمع ما فرقته السياسة و السياسة فضلا عن الأجانب، حيث أصبحنا بفضلنا إذا طلبنا معلماً أو خطيباً أو واعظاً أو طبيباً، أو صيدلياً أو محامياً أو قاضياً، أو جندياً أو شرطياً، أو كل من يقوم بالمصلحة العامة، وجدناهم عرباً باللسان و الشمائل و الأخلاق و الهمم، قبل أن نجد فيهم الموظف الشخص⁴⁹.

و منه فإن التعريب الشامل، في كل المجالات بما فيها الحياة العامة، هو خطوة أساسية و حيوية في مسار الوحدة العربية في رأي الإبراهيمي لأن اللغة: "هي روح الأمة و حياتها... و محور القومية و عمودها الفقري. و هي أهم مقوماتها و مشخصاتها"⁵⁰ و هو ما يفسر كون أن القضاء على اللغة القومية للعرب، كان من أهم الوسائل التي عول عليها الاستعمار كثيراً، بغية فرض نفوذه و بسط سيطرته؛ بتكوين جيل موالي له، يحتقر لغته و ثقافته القومية⁵¹.

4 - بين الحلم و الواقع:

واضح أن الإبراهيمي، لم يكن من أنصار التعريب من أجل التعريب، إذ لم يكن الهدف من هذا الأخير: "هو نقل المعرفة من أجل المعرفة فقط، و إلا لا فرق أن يكون باللغة العربية أو باللغات الأجنبية، و لكن الهدف هو تمكين السواد الأعظم من أفراد الشعب من إدراك جوهر العقلانية الحديثة و لب الحداثة المعاصرة، قصد فك العزلة الثقافية

عنهم، و هو عمل ليس بالهين، مما يجعل العملية لا تتوقف عند حدود القرار السياسي، و إنما تتعدى ذلك إلى ضرورة أن يكون التعريب حاجة اجتماعية و سياسية و وطنية و ثقافية و تاريخية⁵².

ليست الغاية القصوى للتعريب، في دول المغرب العربي، مجرد توسيع نطاق استخدام اللغة العربية بدلا من الفرنسية، في الحديث و الكتابة والإدارات و المدارس و الجامعات، فتصبح اللغة الوطنية الأولى، و إنما في خلق ارتباط نفسي و عاطفي قوي و طبيعي، بين المواطنين و مؤسسات المجتمعات المغاربية باللغة العربية، ما يطلق عليه التعريب النفسي، الذي يعرف قصورا كبيرا، رغم مضي فترة معتبرة على الاستقلال، علاقة ضعيفة خاصة لدى غالبية الفئة المتعلمة و المثقفة، التي لا تنظر إلى اللغة العربية بعين الاحترام و التبجيل و التقدير لمكانتها - كلغة عظيمة- يجب أن تكون اللغة الأولى في جميع المجالات⁵³.

نافلة القول، ينتظر من التعريب أن يؤدي إلى ترقية اللغة العربية، لتصبح لغة حضارة عصرية، تحتل جميع المواقع التي احتلتها اللغة الفرنسية، أمر كشفت الأيام أنه في غاية الصعوبة، بسبب هيمنة اللغة الفرنسية لمدة طويلة على الميادين الإدارية و الاقتصادية⁵⁴ و الثقافية و السياسية، و وجود نخبة- فرنسية اللسان و الهوى- قوية و ممسكة بزمام السلطة الفعلية، تعمل بكل ما أوتيت من قوة و نفوذ على عرقلة التعريب، فتباطأت الدولة في تنفيذه⁵⁵.

اللوم برأي البعض، لا يقع على خصوم اللغة العربية و التعريب، و إنما على النخبة المعربة نفسها، بممارساتها المتحجرة التي تجذرت لديها، فأصبحت لصيقة بها، و تتمثل في تلك الأساليب العتيقة و البالية، ومنها التباهي بالعلم إلى حد تمبيعه، والكسل و الأناية⁵⁶.

دون أن يعني ذلك، التقليل من الوضع الجيد و المريح للغاية، الذي وجد فيه أنصار الفرنسية أنفسهم، حيث يتمتعون بكل الدعم المعنوي و الإمكانات المادية الضرورية، على المستوى الداخلي و الخارجي، التي تضمن لهم النجاح الأكيد، في مقابل افتقار الفريق الآخر لأبرز مقومات العمل و الهيمنة، و مع ذلك يبقى حلم الإبراهيمي، و معه الكثير من أنصار العربية و العروبة، ممكنا مع وقف التنفيذ.

خاتمة:

مثلما توقع الإبراهيمي، أضحت المسألة اللغوية في بلدان المغرب العربي عامة و الجزائر خاصة، بالرغم من حصولها على استقلالها السياسي، معضلة حقيقية تفاقمت مع مرور الزمن، لتتحول إلى صراع لغوي شرس متعدد الأبعاد، طبيعي في بعض جوانبه و مفتعل في جوانب أخرى، لم يخدم بتاتا قضية اللغة العربية، التي تأجلت عودتها الحقيقية إلى المشهد الثقافي و العلمي و الحياتي المغاربي إلى إشعار آخر.

و نستطيع القول: أن الظروف السياسية و النفسية، كانت مواتية جدا بعد الاستقلال مباشرة، لإنجاح مشروع التعريب الشامل، الذي لا يعني البتة إلغاء التعدد اللساني الموجود أصلا قبل الغزو

الاستعماري(اللهجات المحلية)و لا الحضور اللغوي للفرنسية التي تبقى في كل الأحوال لغة أجنبية لا مشكلة في تعلمها، لأن التحديات العلمية و الفكرية و الثقافية، تستوجب أن يتعلم الأبناء أكثر من لغة أجنبية، فضلا عن ترقية اللهجات الشعبية التي تمثل رافدا هاما من روافد الثراء و التنوع الثقافي.

و في نهاية المطاف، يحق لنا أن نسأل:هل فشل التعريب في دول المغرب العربي المستقلة، يرجع إلى عجز أنصاره، أم لقوة خصومه، أم لعدم جدواه أصلا...؟.و ماذا يجب على هذه الدول فعله، لحماية بعض مظاهر شبه التعريب الموجودة بها حاليا، في مواجهة تيار العولمة اللغوية الجارف المدعوم ماليا و سياسيا و رقميا، الذي كمنس اللغة الفرنسية في دارها و في أغلب أنحاء العالم، إلا في المغرب العربي الذي يبدو أنها تتطور فيه بشكل مطرد؟.

الهوامش و المصادر و المراجع:

سفيان لوصيف: السياسة الثقافية في الجزائر الإيديولوجية و الممارسة، ط1، منتدى المعارف،

¹ بيروت:2013م. نقلا

عن المنصف وناس:الدولة و المسألة الثقافية في المغرب العربي، دار سراس،

تونس:1995م، ص152.

² للمزيد حول السجال اللغوي في الجزائر بعد الاستقلال، أنظر سفيان لوصيف، المرجع نفسه، ص

119 و ما بعدها.

- محمد العربي ولد خليفة: الجزائر المفكرة و التاريخية، ط1، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، الجزائر: 1998م، ص8.
- ⁴ محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1997م، ص260.
- ⁵ أنظر في هذا الصدد: بشير فايد: اللغة العربية و قدرتها على الإبداع و استيعاب العلوم و المعارف - دراسة في فكر البشير الإبراهيمي، كتاب المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية حول الاستثمار في اللغة العربية و مستقبلها الوطني و العربي و الدولي، 07-10 ماي 2015م، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ص66 و ما بعدها.
- ⁶ أنظر بشير فايد: الإمام محمد البشير الإبراهيمي داعية الوحدة العربية، سلسلة أوراق عربية(42)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت: 2013، ص24.
- ⁷ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص260.
- ⁸ المصدر نفسه، ص263.
- ⁹ المصدر نفسه، ص261.
- ¹⁰ بني جامع القرويين في مدينة فاس بالمغرب الأقصى في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، يعتبر من أقدم المعالم الدينية و العلمية الإسلامية في المغرب العربي، مشهور بأبوابه الأربعة عشر.
- ¹¹ معلم ديني و علمي كبير بتونس العاصمة، تم بناءه حوالي سنة 732م، و تم تجديده في عهد الدولة الأغلبية حوالي 840م، و في عهد الدولة الحفصية أضحي جامعة عظيمة.
- ¹² محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص261-262.
- ¹³ زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، د ط، دار النهضة العربية، بيروت: د ت، ص549.
- ¹⁴ أحمد بن نعمان: فرنسا و الأطروحة البربرية(الخلفيات، الأهداف، الوسائل، البدائل)، ط1، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر: 2011م، ص86-87.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص88-89.
- ¹⁶ إشارة إلى ثورة الشيخ المقراني و الحداد، التي اندلعت سنة 1871م، و كانت منطقة القبائل مسرحاً أساسياً لمعاركها و أحداثها و نتائجها، شملت نصف البلاد تقريبا، شكلت تهديداً جدياً

للاحتلال الفرنسي، الأمر الذي دفعه بعد أن قضى عليها إلى نفي حوالي 400 من زعمائها و قادتها و ثوارها إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادئ، على إثر محاكمات عسكرية شكلية.¹⁷ حميطوش يوسف: "المدرسة الجزائرية و تكوين النخب"، مجلة المصادر، المركز الوطني

للدراستات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، العدد 16، السداسي الثاني 2007م، ص 167. نقلا عن:

- Collona, Fanny : instituteurs algériens 1883- -

1939,Alger ,OPU,1975,p.40.

¹⁸ أنظر بشير بلاح: مواقف الحركة الإصلاحية الجزائرية من الثقافة الفرنسية (1345هـ- 1359هـ/1925م-1940م)، دار عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر: 2013م، ص 81 و ما بعدها.

¹⁹ الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 262.

²⁰ أنظر في هذا الصدد: بشير فايد: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في إحياء اللغة العربية و الثقافة الإسلامية 1931م-1956م، كتاب المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، دبي، الإمارات العربي المتحدة، 06-10 ماي 2015م، ص 71 و ما بعدها.

²¹ ابن حويلي ميديني: "برامج المسخ المدرسي الاستعمارية و أثرها في اللسان الجزائري العربي الراهن"، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، العدد 21، السداسي الأول 2010م، ص 290.

²² محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 262.

²³ المصدر نفسه، ص 262.

²⁴ **واصل ابن عطاء(أبو حذيفة):** رأس متكلمي المعتزلة، إليه تنسب "الواصلية"، ولد بالمدينة المنورة و انتقل إلى البصرة حيث اتصل بالحسن البصري و عمرو بن عبيد، هو الذي قام بنشر مذهب الاعتزال في الآفاق، من مؤلفاته "معاني القرآن"، "أصناف المرجئة"، "المنزلة بين المنزلتين"، "طبقات أهل العلم و الجهل"، "السبيل إلى معرفة الحق"، توفي سنة 131هـ/748م. المنجد في اللغة و الأعلام، ط 40، دار المشرق، بيروت: د ت.

²⁵ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 262.

²⁶ أنظر يوسف حميطوش، المرجع السابق، ص 173 و ما بعدها.

²⁷ للمزيد أنظر أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 173 و ما بعدها.

²⁸ أحمد بن نعمان: تأملات و مواقف، ط 1، دار الأمة، الجزائر: 1999م، ص 199. نقلا عن مجلة الأصالة، العدد 17، 1974م.

²⁹ محمد الذوايدي: "ضعف التعريب النفسي في المجتمع التونسي و غيره من المجتمعات المغاربية"، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 130.

³⁰ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 262.

³¹ المصدر نفسه، ص 262.

³² المصدر نفسه، ص 263.

³³ المصدر نفسه، ص 264.

³⁴ المصدر نفسه، ص 265-266.

³⁵ علي عبد فتوني: البلاد العربية و التحديات التعليمية-الثقافية المعاصرة، ط 1، دار الفارابي، بيروت: 2007، ص 207 و ما بعدها.

³⁶ **علي ابن سيده(1007م-1066م):** لغوي من الأندلس، كان ضريرا كأبيه، من مؤلفاته: "المحكم و المحيط الأعظم" و هو معجم سار فيه على طريق الخليل في كتاب "العين"، و "المخصص" جمع فيه الكلمات على أساس الموضوعات. المنجد في اللغة و الأعلام.

- ³⁷ الهمداني عبد الرحمان بن عيسى: كاتب و شاعر، من مصنفاته المهمة للغاية "الألفاظ الكتابية في الإنشاء الصحيح"، توفي سنة 932م. المنجد في اللغة و الأعلام.
- ³⁸ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص264.
- ³⁹ المصدر نفسه، ص265.
- ⁴⁰ المصدر نفسه، ص265.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص265.
- ⁴² المصدر نفسه، ص267.
- ⁴³ سورة البقرة، الآية 150.
- ⁴⁴ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص266.
- ⁴⁵ أنور الجندي: الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، د ط، دار الكتاب، القاهرة: د ت، ص166 و ما بعدها.
- ⁴⁶ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص267.
- ⁴⁷ المصدر نفسه، ص294-295.
- ⁴⁸ مصطفى عوض بني ذياب: "التخطيط اللغوي و التعريب"، مجلة التعريب، عدد42، رجب/حزيران(يونيو)2012م، ص120.
- ⁴⁹ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص276.
- ⁵⁰ محمد عابد الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: 2000م، ص97-98.
- ⁵¹ محمد دراجي: جمال الدين الأفغاني - الأسس لفكرية لمشروعه الحضاري، ط1، دار غبريني للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر: 2005م، ص112.
- ⁵² سفيان لوصيف، المرجع السابق، ص123. نقلا عن: عثمان سعدي: قضية التعريب في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1967م، ص42.
- ⁵³ محمد الذوايدي، المرجع السابق، ص130.
- ⁵⁴ سفيان لوصيف، المرجع السابق، ص125. نقلا عن:

- Gilbert Grand guillaume : « la francophonie en Algérie »,

revue hermès(CNRS), N40 , p.135,2004.

⁵⁵ سفيان لوصيف، المرجع نفسه، ص125. نقلا عن المنصف وناس: الدولة و المسألة الثقافية في المغرب العربي، دار سراس، تونس: 1995م، ص152.

⁵⁶ أنظر عبد القادر الفاسي الفهري: اللسان العربي بين التماسك و التنوع و التعدد، أعمال الندوة الدولية حول التعدد اللساني و اللغة الجامعة، ج1، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر: 2014م، ص 13 و ما بعدها.

ظاهرة الغلاء في العراق ومصر من خلال كتاب نهاية العرب في فنون الادب
للنويري (اسبابها - وسبل معالجتها)

أ.م.د. سماهر محي موسى / جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم

التاريخ

The phenomenon of high prices in Iraq and Egypt through the
Book of al-Nuwayris Nihayat al- arab fi funun al- adab (The Aim
of Intelligent in the of letters) its reasons and ways of solution

samahibraheem@gmail.com

الملخص

تُعد الكوارث الطبيعية والبشرية أهم الأسباب الرئيسة في ظاهرة الغلاء وقلة المواد
التموينية فضلاً عن أنها تساهم في إفشاء الأمراض والأوبئة بين الناس ونتيجة ذلك
تصاب قوى الأيدي العاملة المنتجة المتوقفة عن الإنتاج وعلى رأسها الزراعة التي تعد
العمود الفقري في اقتصاد الشعوب والأمم واخترتنا موضوع بحثنا في بلدين من أرض
العرب المسلمين وهما مصر والعراق وذلك لأنهما يعتمدان في ريهما على أنهار دائمة
الجريان تعد الزيادة او النقصان في مياههما على المعدل العام يؤدي الى كوارث ونتيجة
ذلك تظهر لنا ظاهرة الغلاء والتي تناولها النويري في كتابه نهاية العرب في فنون الأدب ،
وبين موقف الحكام والولاة من خلال وضع الحلول اللازمة للحد من هذه الظاهرة
بتحديد الأسعار، ومراقبة الأسواق، إضافة الى معالجة تأثير الظواهر الطبيعية على ذلك

من فيضان وجفاف للأنهار والأوبئة الصحية على ذلك حتى تتمكن عجلة الحياة من السير .

ABSTRACT

Natural and human disasters are the main causes of the phenomenon of expensiveness and high prices and the scarcity of foodstuffs. Furthermore these issues contribute to the propagation of diseases and epidemics among people. As a result, the productive labour force may be affected and influenced, which are basically ceased from production in the first place, particularly the field of agriculture which represents the backbone of the economy of nations.

The subject of this research adopts two Arab Muslim counties, namely Egypt and Iraq, since they are totally dependent on their irrigation through rivers of permanent flux and flow. Any increase or decrease in these rivers water from the overall rate leads to disasters. However, the result would make the expensiveness and high prices phenomenon quite evident, as addressed by al-Nuwyris Nihayat al-arab fi funun al-adab (The Aim of the Intelligent in the Art of letters). Additionally, in his book, al-Nuwyris explained positions of the rulers and the governors and set the necessary solution to reduce this phenomenon by fixing prices and controlling markets or in some cases intervening directly in several ways for fear of revolutions or disobedience as a result of any kind of such action.

المقدمة

عَدَّ النويري ظاهرة الغلاء من الظواهر الخطيرة ، لما لها من آثار اقتصادية أثرت بشكل كبير على الأوضاع العامة في الدولة العربية الإسلامية ، لاسيما في مصر والعراق، أذ أدت الى عدم استقرار السوق بارتفاع أسعار المواد الغذائية الاساسية ، ويرجع ذلك الى تتابع سنوات القحط والجفاف، وقد نتج عن ذلك قلة العرض في الاسواق من البضائع ، وانخفاض حركة البيع والشراء ، أذ عجز الناس عن شراء وتوفير حاجاتهم الأساسية بسبب الغلاء ، والتي ظهرت من خلال الحروب والازمات التي شهدتها تلك البلدان .

لهذا أصبحت ظاهرة الغلاء تشكل خطراً يهدد حياة وأمن وأستقرار المجتمع بأكمله ، لذا أقتضت الحاجة الى ايجاد الحلول لمعالجة هذه المشكلة ورسم سياسة للحد من ارتفاع الأسعار ومراقبة الأسواق .

وهنا يظهر جلياً الى أهمية رسم السياسة الاقتصادية للبلدان ووضع الخطط اللازمة لعلاج حالات القحط أو الفيضانات وتفشي العديد من الوبئة والامراض لمواجهة جميع الازمات الاقتصادية التي تنجم عن الظروف سواء الطبيعية أو بشرية .

ويبدو أن الكثير من الحكام وأصحاب الشأن كانوا قد أيقنوا بأهمية ذلك الأمر وحاولوا جاهدين وضع الخطط اللازمة لها .

اولاً: النويري - سيرته

هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي

النويري⁽¹⁾ .

مولده ونشأته :

ولد سنة 677هـ في النوية⁽²⁾ ، وهي قرية من قرى بني سويف بمصر⁽³⁾ ، وقد اكتسب شهرته نسبة الى هذه القرية التي هي موطن اجداده وعلقت نوية باسم الاب والابن ولم تستطع ان تمحوها صلوات اخرى ببلدان اخرى، ثم سافر الى قرية قوص⁽⁴⁾ وترى فيها تربية علمية واسعة اذ أصبحت وهي من أعظم مراكز العلم في تلك العصور ، فدرس العلوم الدينية (القرآن الكريم والحديث والاصول والفقه) وغيرها من العلوم وسمع الحديث ورواه عن شيوخ ومحدثين منهم موسى بن علي بن ابي طالب ، يعقوب بن احمد الصابوني ، واحمد الحجاز ، وزينب بنت منجى⁽⁵⁾ .

كان النويري ملماً بمختلف الفنون الأدبية فجمع بين العلوم الدينية والأدبية وفاق اقرانه في ذلك وامتاز بينهم بمميزته خاصة ، كما امتاز بينهم في مهنة الانشاء اذا شغل وظيفة كاتب في ديوان الانشاء بمصر وهي وظيفة لها اهميتها في ذلك العصر لايها الا من يتمتع بمواصفات معينة من الكفاءة والمقدرة الفائقة من العلم والمعرفة في اللغة والأدب والتاريخ والذي ساعده في ذلك والده اذ كان كاتب في مختلف دواوين الحكومة المملوكية⁽⁶⁾ .

وكذلك تميز بقربه من السلطان الناصر قلاوون(684-741هـ) اثناء اداء اعماله بنظاره الجيش⁽⁷⁾ ، فمن المعتاد ان تكون العلاقة وديه لكون والده ضابطا عند السلطان وكذلك الصلات الطيبة مع الشخصيات البارزة في البلاط السلطاني ، ومنهم ابن عبادة⁽⁸⁾ الذي من على النويري وقربه من السلطان لهذا اوكله السلطان في بعض الامور وتقلب في الخدمة الديوانية⁽⁹⁾ ، الى ان تفوض اليه الجيش بطرابلس الشام ،

وماهي الا مدة قليلة حتى نراه يعينه في نظارة الدقهلية والمرتاحية. (10) .ولكنه اعتزل العمل في خدمة السلطان عام 715هـ ، وعمره إنذاك 38 سنة ، بسبب المكانة المميزة التي حظي بها من قبل السلطان وهذا الامر اثار حفيظة ابن عبادة فوشى به فاعتزل العمل ، واشتغل بنسخ صحيح البخاري فيكتبه بخطه المنسوب اليه ، فكتبه ثماني مرات ، وباع كل نسخة منه بألف درهم (11) ، وظل يمارس مهنة الوراقة ، وهذه الممارسة لهذه المهنة قد زادت وصقلت من علومه ومعارفه الشيء الكثير سواء في كتب الحديث النبوي كما في نسخه البخاري او غيره من الكتب .

كما أنه واظب على المطالعة العامة لمختلف العلوم استعداداً لتأليف كتابه نهاية الارب سنتين اثنتين ، وبعد أن تيقن أنه جاهزاً - من الناحية العلمية - لتأليف كتابه- بدأ ذلك في شهر جمادى الثانية سنة 721هـ، وأختتم الجزء الاول منه في 20 ذي القعدة سنة 721هـ ، أي في بحر ستة أشهر (12) .

ثم باشر مهمة التأليف بسرعة أكثر من الجزء الاول لينتهي من تأليف الأجزاء الثلاثين كلها في بحر 12 سنة ، أي بكتابة جزئين ونصف جزء في السنة الواحدة تقريباً. وأستمر في تأليف نهاية الأرب الى نهاية شهر شعبان سنة 733هـ حين أكمل الجزء الثلاثين ثم يدخل شهر رمضان من عام 733هـ (13) ، فوافته المنية في الحادي عشر من نفس الشهر في القاهرة، وسبب وفاته حصل له وجع في أطراف أصابع يديه (14) ، ولا بد هنا أن ننوه ان ذلك قد لا يكون السبب الرئيس في وفاته فالوجع في أطراف الأصابع بحد ذاته ليكون وجعاً مميتاً؛ بقدر ما قد يكون هناك أسباب أخرى من أمراض القلب أو الإجهاد الكبير أو غيره من الأمراض مما لا يعرف سبب ذلك والله أعلم .

موارده في كتاب النهاية :

فقد اعتمد النويري في تأليفه النهاية على عشرات الكتب المهمة في مختلف العلوم والفنون نقل مقتبسات في مختلف الابواب من كتابه ، وكذلك لخص واختصر منها عدداً ملموساً⁽¹⁵⁾. ووضع النويري لموسوعته خطة منسقة ومنهجاً دقيقاً لايجيد عنه ولا يزيغ شاملاً العلوم والفنون والموضوعات الاخرى فوزع كتابه على خمسة فنون وهي(السماء والانسان والحيوان والنبات والتاريخ) ، وكل فن على خمسة اقسام ، وكل قسم الى ابواب ، وأن دعت الحاجة قسم كل باب الى فصول ، وأحياناً كان يذيل باباً خاصاً بعينه لمعلومات لم تكن لتأتي ضمن مواد ذلك الباب ، وعلى هذا فان الكتاب شمل على خمسة فنون و(25)قسم و(139) باباً واذا أضفنا اليه الأبواب الأربعة من تذييل القسم الثالث من الفن الخامس يصبح عدد الأبواب (143) باباً و(27) فصلاً مع الذيلين⁽¹⁶⁾، وهو بذلك يكون اشبه بدائرة المعارف لما وصل اليه العلم عند العرب في عصره .

ثانياً : اسباب ظاهرة الغلاء

أن العوامل المحفزة في حدوث ظاهرة الغلاء مردها الى عاملين بالدرجة الاولى هما العوامل البشرية(السياسية كالفتن والثورات وما اليها من أمور أخرى)، والعوامل الطبيعية كالجفاف والسيول والجراد والعواصف وغيرها .

أ- العوامل البشرية

يتأثر المجتمع بالاحوال السياسية السائدة في البلاد ، فالدولة القوية والحريضة تمتلك زمام أمرها وتعتمد على أصحاب الخبرة والكفاءات في إدارة شؤون البلاد واحتواء المشاكل من القوات ، مما يؤدي أشاعه الأمن والاستقرار في المجتمع .

أن تدهور الاوضاع الامنية يؤدي الى سوء الأوضاع الاقتصادية فتؤدي الى صراعات داخلية وأزمات إدارية حادة وهذا ما اشار اليه النويري عند ارتفاع الأسعار في بغداد عام 308هـ عندما ضمن الوزير حامد بن العباس أعمال الخراج السواد والاحواز واصبهان ، وقد عدّ محتكراً ومالكاً لها وأدى ذلك الى ارتفاع الاسعار وازدياد مظاهر الشغب التي كان من محصلتها ضياع هيبة الامن من جراء ذلك والنص الاتي يوضح ذلك " تحرك السعر ببغداد فثارت العامة والخاصة لذلك، وأستغاثوا وكسروا المناير وكان حامد يخزن الغلال ، وكذلك غيره من القواد ، فأمر المقتدر باحضار حامد فحضر من الاحواز ، فعاد الناس الى شغبهم ، فانفذ حامد جماعة لمنعهم ، فقاتلهم العامة ، وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجن ونهبوا دار صاحب الشرطة " (17) .

لم يكن للغلاء اثاره وانعكاساته على الواقع الاقتصادي فحسب وانما انعكاساته على الواقع الاجتماعي وذلك من خلال ما قام به الناس من اعمال تخريب وسلب ونهب بسبب تضمين الوزير حامد بن العباس لخراج السواد واحتكاره لكميات كبيرة من القمح ، وقد بين الوزير علي بن عيسى الجراح للخليفة المقتدر ارتفاع الاسعار واضطراب الاوضاع بقوله " ان سبب غلاء الاسعار انما هو ضمان حامد لانه منع بيع الغلال في البيادر وخزنها" (18) ، ولحل هذه الازمة اتخذ الخليفة المقتدر اجراءات استثنائية فتدخل بعد سلسلة من الاضطرابات الى " فتح مخازن الحنطة والشعير التي خزنها حامد ووالدة الخليفة

المقتدر وغيرهما ، وبيع ما فيها فرخصت الاسعار وسكنت الناس" (19) ، ولجأ الى التسعير وقد سعر الغلال بنقصان خمسة دنانير في الكر (20) الواحد ودعى التجار والباعة الى الالتزام بهذه التسعيرة واوكل الى المحتسب مراقبة حالة السوق ، وأضحى سعر الكر المعدل خمسين ديناراً ، وأخيراً امر بفسخ ضمان حامد وأحمد الفتنة (21) .

يتبين هنا موقف الدولة في محاولتها للحد من ظاهرة الغلاء من خلال تحديد الاسعار للبضائع الاساسية ، ولكن مثل هذا الاجراء لا يتم الا ضمن الحدود التي تتدخل الدولة فيها مع رجال السلطة نفسها ؛ خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار هنا طبيعة الازواج السياسية التي تعيشها الخلافة العباسية في هذه المرحلة في بداية الضعف السياسي وسيطرة القادة الاتراك على مقاليد الامور ، لذا هذا الاجراء يتوقف نجاحه أو فشله على ذلك إضافة الى تمادي الامر الى أبعد من ذلك ، ووصوله الى كبار التجار من خلال احتكارهم للبضائع باغلاق مخازنهم بوجه قرار الدولة وبوجه العامة من الناس أمام رغبتهم بارتفاع أسعار بضائعهم وتفشي ظاهرة الغلاء وأرتفاع الاسعار بقدر أكبر من السابق مما تظطر الدولة عند ذاك الى التراجع عن قرارها (22) .

ومما يعضد ذلك ما أثر عن الصراع العسكري الذي دار بين القادة في عهد امرة الامراء (324-334هـ) لفرض سيطرتهم على البلاد ، ومارافقه من تخريب للاراضي الزراعية ولشبكات الري في بغداد اسهمت في انقطاع المواد الغذائية لاسيما في عام (329 هـ) " فاشتد الغلاء والوباء وكثر الموت... ورخص العقار والاثاث ببغداد حتى بيع ماثمنه دينار بدرهم" (23) ومقابل ذلك أرتفع سعر الكر الواحد من الدقيق "مائة وثلاثين دينار" (24) .

اشار النويري في سنة 333هـ الى حالة التذبذب والغلاء في اسعار الحنطة في بغداد لاسيما في ايام الخليفة المتقي لله (329-333هـ) " وكان في أيامه غلاء وشدة حتى بيع كر الحنطة بمائتين وعشر دنانير ، وخرج عدة من الخدم من قصر الخلافة بالرصافة ينادون الجوع الجوع " (25) .

وشهدت سنة (334هـ) سيطرة البويهين على العراق وقد عانت الخلافة العباسية من تدهور الاوضاع الاقتصادية في هذه المدة بسبب سيطرة البويهين على خزينة الدولة وكذلك سيطرتهم على المزارع والغلات اذ ادى ذلك الى ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، وهذا يتضح جليا في الحرب التي جرت بين معز الدولة في الجانب الغربي من بغداد وبين ناصر الدولة متضمن الموصل وماحولها شطريها الشرقي والغربي (26) ، ففي الجانب الشرقي كانت الاسعار اُعتيادية "لورود الزواريق من الموصل بالدقيق" (27) ، بينما شهد الجانب الغربي ارتفاع كبيراً في الاسعار بسبب تسلط الجند على غلات الناس (28) ، " فأنهم كانوا يحصدونها ويدرسونها ويحملونها الى معسكرهم " (29) . وكذلك حاول ناصر الدولة الحمداني سنة (330هـ) القضاء على هذا النقود المزيفة فسك نقوداً جديدة على وزن جيد، وهنا نلاحظ أن الصيارفة يميلون إلى هذا الشيء لأنهم يحققون فيه أرباحاً بسبب فرق العملة (30) . وأشار المقريزي ان الدراهم تدهورت في العصر البويهي بإضافة نسبة عالية من الخليط الرخيص، بحيث أصبح سعر صرف الدينار سنة (389هـ) يساوي (150) درهماً، وهي نسبة قليلة إذا ما قورنت بالفترات السابقة (31) .

هكذا تعرضت بغداد الى ازمت الغلاء المتكررة بسبب الصراع العسكري وسوء

تدبير الحكام الذي ادى الى تفكك الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وكان للصراعات السياسية أثر واضح على ظاهرة الغلاء وارتفاع الأسعار لاسيما في سنة 363هـ بعد وقوع الفتنة بين الأتراك والديلم إذ أوعز عضد الدولة بمنع الميرة عن بغداد من أجل تضيق الخناق على الأتراك مما أدى هذا الى غلاء الأسعار ببغداد⁽³²⁾.

وفي سنة (383هـ) أشتد الغلاء " وبيعت الكارة⁽³³⁾ الدقيق بمائتين وستين درهم والكر⁽³⁴⁾ الحنطة سبعة الاف وستمائة درهم"⁽³⁵⁾، في حين ذكر ابن الاثير⁽³⁶⁾ بلغ كر الحنطة أربعة آلاف درهم. يبدو أن النويري بالغ في ارتفاع سعر كر الحنطة وحاول أن يضفي على أسلوبه عامل التشويق فعلا أشتد الغلاء في هذه السنة في العراق وأحدثت جماعة ولقي الناس حتفهم من الجوع وتظاهر الناس ومنعوا قيام صلاة الجمعة على حد قول ابن الاثير ولكن لم يصل كر الحنطة الى هذا السعر ؛ وأنعدمت الاقوات بارتفاع الاسعار في سنة (449هـ) اذ بلغ " سعر الكاره الدقيق السميذ بثلاثة عشر دينار والكاره الشعير والذرة بثمانية دنانير"⁽³⁷⁾.

حتى بلغ الامر بهم عجزهم عن دفن الموتى فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة⁽³⁸⁾. ولا بد أن هذا العجز عن دفن الموتى هو نتيجة لتردي الوضع الاقتصادي بحد ذاته وأنقطاع رغيف العيش مما أدى الى كثرة الموتى حتى أصبحوا عاجزين مع هذا الوضع السيء عن دفن موتاهم.

والواقع ان العراق تعرض الى ازمتات كثيرة ومنها الغلاء ولكن معظمها سببها الصراعات والخلافات السياسية لاسيما ما حدث سنة 520هـ بين الخليفة المسترشد بالله (485هـ-529هـ) وبين السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي وكذلك ما يمر به العراق من وهن وضعف بسبب والي الحلة ديبس بن صدقة (463هـ-529هـ) فاشتد

الغلاء "لعدم الغلات والاقوات" ⁽³⁹⁾، وغلت الاسعار ايضا في سنة 543هـ بسبب الخلاف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ودخلوا بغداد وحدث القتل والسلب فيها ⁽⁴⁰⁾.

اما في مصر فقد زادت الاضطرابات السياسية التي لها تأثير سلبي على استقرار البلاد وتسبب أزمة اقتصادية وارتفاع الاسعار لاسيما بعد وفاة كافور الاخشيدي ⁽⁴¹⁾ صاحب مصر وبلاد الشام سنة 356هـ عندما وقعت حروب كثيرة بين الامراء والجنود اذ أدى الى "غلاء شديد وفناء عظيم" ⁽⁴²⁾.

نتيجة لسوء الأوضاع السائدة في مصر للمدة من (450هـ-466هـ) تدهور الوضع الأمني وصراعات داخلية وأزمات إدارية حادة اذ تولى في هذه الفترة مايقارب عن أربعة وخمسون وزيراً واثنان وأربعون قاضياً ⁽⁴³⁾، لم يتمكن بعضهم من مزاوله وظائفه سوى أيام معدودة وهذا يعكس مدى ضعف مركز الدولة وضعف الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي كان عاجزاً عن تدبير الأمور، وسقوط صقلية، وخروج المغرب عن سلطته، وخلعت الحجاز عن طاعته سنة 462هـ، وازدياد قوة السلاجقة اذ تسير الأوضاع من سيء الى أسوء ⁽⁴⁴⁾، كل هذه العوامل ساهمت بما يعرف بالشدة العظمى التي استمرت سبع سنوات متتالية في مصر (457هـ-465هـ) وشبهت بسني يوسف (عليه السلام) لاسيما عام 462هـ بيع " رغيف الخبز باربعة عشر ديناراً أو درهما وبيع الاردب بمائتي دينار" ⁽⁴⁵⁾، لم يكن هذا الغلاء بسبب نقص النيل وإنما كان لاختلاف الكلمة وحروب الاجناد وتغلب المنقبيين على الأعمال ⁽⁴⁶⁾، وكذلك انعدام الامن واندلاع الحروب بين الجنود فصارت اراضي الناحية باثرة لم تزرع لعدم توفر الايدي العاملة

من الرجال فكان الجندي يخرج بنفسه هو وجماعته يخرجون ويزرعون في البلاد لعدم وجود الفلاحين⁽⁴⁷⁾ ، بسبب هجرتهم من مصر الى العراق والشام هربا من الجوع والفتنة وعدم توفر القوت وغلاء الاسعار عام 461هـ⁽⁴⁸⁾ . ومما يعكس سوء الاوضاع السياسية في مصر وأنعكاس ذلك على الاوضاع الاقتصادية بارتفاع الاسعار والغلاء الفاحش في القوت اليومي لعامة الناس ؛ ماجرى للخليفة نفسه اذ نهب جواهر قصر الخليفة وتحفه فجردوا الخليفة المستنصر واصبح لايملك سوء سجاداته التي يجلس عليها ، وكان يستعير من صاحب ديوان الانشاء بغلته ليركب عليها⁽⁴⁹⁾ ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بأنه لم "يبق في مصر دابة تمشي على اربع سوى حمار يركبه الخليفة المستنصر"⁽⁵⁰⁾ بعد ان كان لديه عشرة الاف مابين فرس وجمل ودابة⁽⁵¹⁾ .

والى جانب ذلك انهارت القوة الشرائية للعملة ، وارتفعت أسعار المواد الغذائية ، حتى أن حارة بالفسطاط بيعت بطبق خبز ، كل رغيف منه بمنزل ، فعرفت لذلك بحارة الطبق⁽⁵²⁾ .

نستنتج مما تقدم عجز النظام السياسي القائم حينذاك عن ايجاد حل للتناقضات بسبب ضعف السلطة المركزية والفتن والمنازعات وتزايد نفوذ السلطة العسكرية ؛ امام عجز وضعف هيكلتها الاقتصادية .

ب- العوامل الطبيعية

من العوامل الطبيعية التي لها تأثير سلبي على اقتصاد البلاد هي ارتفاع أو انخفاض مناسيب الأنهار ، اذ عند ارتفاع مناسيب الأنهار تؤدي الى تدمير مشاريع الري وأغراق الدور والبنيات وأتلاف الممتلكات الزراعية ، وعند انخفاض مناسيب الأنهار يحدث

الجفاف ويحدث الغلاء في كلا الحالتين يؤدي الى ازمت اقتصادية عديدة وبما ان في العراق فيه نهري دجلة والفرات وفي مصر نهر النيل والذي هو محور الدراسة سنطلع على مدى تأثير هذه الانهار على ظاهرة الغلاء ، اذ تعتمد جميع اراضي مصر في ارواء اراضيها على نهر النيل " اذ وفي النيل ستة عشر ذراعاً- وهي قانون الري-فرح عظيم" (53). اذ كانت جميع اراضي مصر تروي في ست عشر ذراعاً غامرها وعامرها لخبزتهم في بناء الجسور وتشيد القناطر والخلجان (54)، فمتى قصر النيل عن هذا المقدار "غلت الاسعار" (55). فمع كل زيادة مفرطة او نقصان لمياه النيل تحدث ازمة اقتصادية وتسبب غلاء للاسعار وتتفاوت ظاهرة الغلاء في حدتها فمنها ماكان شديداً أستفحل امرها سنوات متعدده كما هو الحال في الازمة الاقتصادية عندما نقص ماء نهر النيل فبلغ اثني عشر ذراعاً سبب هذا الانخفاض الى "غلاء شديد وفناء عظيم" (56) وفي سنة 356هـ وزاد في هذه الحدة المشاكل السياسية التي حدثت بعد وفاة كافور الاخشيدي (57).

واستمر انخفاض مياه نهر النيل في السنوات (444هـ و 447 و 457-464هـ) فشهدت مصر أسوأ ازمة اقتصادية مرت بها في العصر الاسلامي حيث نزع السعر وتزايد الغلاء واعقبه الوباء حتى تعطلت الاراضي عن الزراعة واستولى الجوع على الناس لعدم وجود الاقوات حتى " أن الواحد كان يموت في البيت فيموت في بقية اليوم او الليلة كل ما بقي منهم" (58) الامر الذي سبب عجزاً عن موااة الاموات ، لذا صار الناس يحفرون الحفر الكبيرة ويلقون فيها الاموات بعضهم فوق بعض ، حتى اذا امتلأت الحفر بالرمل من الرجال والنساء والصغار والكبار أهيل عليهم التراب (59).

واستمرت ظاهرة الغلاء الى حد انه اكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، ثم أكل الناس بعضهم بعضاً " وأكلوا اولادهم والميته"⁽⁶⁰⁾ ، وفي هذا الصدد أشار المقريري أن الناس خافوا على أنفسهم فكانت بعض الجماعات تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد القوها عليه ، ونشله في اسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه⁽⁶¹⁾ . وأشار النويري الى تعداد الموتى في العام 694هـ بلغ سبعمائة الف وخمسمائة وارتفع هذا العدد الى الف شخص يوميا" وبعض الاموات لم يجدوا من يواريهم في قبورهم فاكلتهم الكلاب واكل الاحياء الكلاب"⁽⁶²⁾ واستفحل امر الغلاء الى ان اضطر الناس الى اكل الجيف والميتات والكلاب والقطط والحمير ولحم البشر ، وشهدت مصر هجرة الكثير من الناس الى الشام بسبب الجوع والحرمان⁽⁶³⁾ .

وهنا يجد الباحث أن مسألة أكل الناس بعضهم البعض كأنهم أكلي لحوم البشر فيها من المبالغة الشيء الكثير والتي لا يستوعبها منطق العقل والدين الاسلامي . وربما هدف من نقل الرواية هو من أجل اكتساب الشهره من خلال وضع رواية غريبة في الحدث .

وأن للطاعون أثر على الحياة الاقتصادية لاسيما وانه يتسبب في خلق ازمتات غلاء بحياة الكثير من الناس نتيجة لقله الاقوات ويتزامن وباء الطاعون مع الفقر نتيجة لتعطل العمل اليومي وأنقطاع اسباب كسبهم ، فتكثر نسبة الوفيات وتنتشر الجثث في الطرقات لعدم وجود من يقوم بدفنها⁽⁶⁴⁾ .

وكان للأفات الزراعية آثار سلبية على المنتوجات فتتسبب بفساد الزرع ودمارها مما يؤدي الى ارتفاع أسعار المواد الغذائية ومن هذه الآفات الجراد والديدان والنمل والخنافس والعناكب والذباب وغيرها⁽⁶⁵⁾.

وقد روى النويري عدة حوادث حول ظاهرة الغلاء إذ ذكر أن امرأة كان لها حُلبي باعت مايوازي الف دينار بثلاثمائة دينار وأشرت بالمبلغ حنطة ، فنهب منها في الطريق ، فنهب مع من نهب ، فحصل لها ماجاء رغيفاً واحداً⁽⁶⁶⁾، وكذلك روى قصة مشابهة ، إذ أن بعض أهل الثراء وقف بباب قصر الخليفة المستنصر وصاح واستصرخ الى أن أحضر بين يدي الخليفة ، فطلب منه أن يعرض حاجته ، فقال له: يامولانا، هذه سبعون قمحة وقفت عليّ بسبعين ديناراً، كل قمحة بدينار ، في أيامك ، وهو أني أشرت ارب قمح بسبعين ديناراً ، فنهب مني فنهب مع من نهب ، فوقع في يدي هذه⁽⁶⁷⁾.

وكان من اسباب هذا الغلاء وتزايد بمصر هو خلو الاهراء السلطانية⁽⁶⁸⁾ من الغلال " وذلك أن السلطان الملك الاشرف كان قد فرق الغلال وأحلى الاهراء منها بالاطلاقات للامراء وغيرهم حتى نفذ ما في الاهراء وقصر النيل بعد ذلك فاحتاج وزير الدولة الى مشتري الغلال للمؤونة والعليق فتزايدت الاسعار بسبب ذلك "⁽⁶⁹⁾.

وفي سنة 383هـ ظهر الجراد والكماء على جبل المعظم بمصر ما لم يعهد مثله فخرج الناس اليه وجعلوا يدخلون القاهرة ومصر في كل يوم ، فبيع الجراد اربعة أرطال بدرهم والكماء سبعة ارطال بدرهم⁽⁷⁰⁾.

يبدو أن الجراد اثر على المحاصيل الزراعية فاضطر الناس الى شراء الجراد لاستخدامه للطعام لان بعض الناس يضطرون الى اكله في حالة انعدام الاقوات.

وفي سنة 619هـ أظهر الملك المعظم أن ببلاد العجم طائر يقال له السمرمر يأكل الجراد وأنفق الملك المعظم على إحضاره من بلاد العجم ولكن بعد الأنفاق وعندما عاد البكري الذي بعثه الملك المعظم للمفاوضة حول الطائر كان الجراد قد قل بالبلاد⁽⁷¹⁾.

وفي سنة 709هـ غلت اسعار المواد الغذائية ولاسيما الحبوب بعد ان توقف ماء نهر النيل عن الزيادة فبلغ سعر القمح الى خمسين درهماً ثمن كل اردب⁽⁷²⁾، فحدث غلاء على غرار ماحدث في عام 695هـ فخرجوا الناس برفقة خطباء الجوامع لاداء صلاة الاستسقاء واستسقى الناس بالمصلى بالقرافة الكبرى وزاد نهر النيل الى ستة عشر ذراعاً وزرع الناس فانخفضت الاسعار⁽⁷³⁾.

اما أهل العراق وماشده من أزمات اقتصادية لتفشي ظاهره الغلاء فقد أشار النويري في أحداث سنة 502هـ زيادة نهر دجلة " زيادة عظيمة انقطعت فيها الطرق وغرقت الغلال الشتوية والصيفية وحدث غلاء عظيم في العراق وعدم الخير"⁽⁷⁴⁾.

ومما اشار اليه النويري أن واقع الازمات الاقتصادية كان أخف على اهل العراق لم يصل بهم الامر الى بيع الاولاد وأكل الميتة⁽⁷⁵⁾ كما حدث في مصر بسبب كثرة خيرات العراق، باستثناء الموصل في سنة 718هـ كان الغلاء وبيع الاولاد فيها حتى خلت الدور من اهلها بعد أن باعوا كل عزيز ونفيس وأكلوا الميتة وأن بعض أهلها باعوا ولده باثنى عشر درهما⁽⁷⁶⁾ وكانوا لا يشترون اولاد المسلمين تأثماً فكانت المرأة تصرخ بانها نصرانية ليشتري منها ولدها لتنتفع من ثمنه ولتامن عليه من الهلاك⁽⁷⁷⁾. وان سبب الغلاء قلة الامطار، ووصف النويري حالة العراق في سنة 717هـ اذ حكى " أن رجل دخل ثلاثمائة وستين قرية زرع منها ست قرى وخرب باقيها لانقطاع ماء دجلة عنها والنخل

اصابه برد وسقط عليه الثلج فافسد بعضه واطرف بعضه وانقطع المطر⁽⁷⁸⁾ ، لقد بالغ النويري في هذه الرواية اذ كيف يدخل رجل وحده الى ثلاثمائة وستين قرية ويزرع ست قرى وحده بدون مساعدة فهذا أمر غير منطقي . وكذلك ظهور الجراد فافسد المزروعات في سنة 716هـ⁽⁷⁹⁾ وهذا مما سبب الى غلاء وارتفاع اسعار المواد الغذائية . وصف النويري احوال العراق في عام 718هـ " أشد الغلاء وعظم البلاء لقلة الامطار وموت الفلاحين وجلاهم من البلاد لما نالهم من جور التتار وغارات كانت ببلادهم من جهة الشام والاكراد"⁽⁸⁰⁾

وفي سنة 725هـ زادت دجلة زيادة عظيمة ودخل الماء بغداد وخذقها فوق بعض سورها وادى الى غرق مدينة بغداد اذ لا يستطيع الناس الخروج من البلد وانحصروا ولكنهم أجتهدوا في عمل السكور⁽⁸¹⁾ وتساوى في العمل الرئيس والمرؤوس والكبير والصغير ونقل التراب حتى الحكام والقضاة في حجورهم وبقيت بغداد جزيرة في وسط ماء اذ خربت كثير من البساتين والدور وشار النويري الى حجم الخراب الذي عم بغداد بسبب الغرق " قال عشر سنين مايمكن عمارة ماخرب في الجانب الغربي فإنه غرق أكثره وغلت الاسعار اياماً ، ثم نقص الماء بعد أن أشرف الناس على الهلاك...وماخرب من البيوت بالجانب الغربي خمسة آلاف وستمائة بيت"⁽⁸²⁾ .

يتضح مما تتقدم أن ارتفاع وانخفاض مناسيب الانهار يرجع الى إهمال مشاريع الري وعدم الاهتمام بالسدود والقناطر لمجابهة خطر الفيضانات أو خزن المياه الزائدة وإخراجها وقت الحاجة لتلافي خطر الجفاف ، وكذلك الآفات الزراعية ، وهذا كله يرجع الى

اضطراب الأوضاع الداخلية والخارجية للبلاد وبالتالي أدى هذا الإهمال الى إلحاق ضرر كبير بالاقتصاد وتفاقم ظاهرة الغلاء .

ثالثاً/ سبل معالجة الغلاء

أشار النويري الى الاجراءات التي اتخذتها الدولة من أجل حل أزمة الغلاء أو الحد منها ، فكانت الدولة تتدخل عند وجود احتكار يؤدي الى غلاء السعر والى تدمير الناس الذي يهدد بالاضطرابات والفتن فضلاً عن الظواهر الطبيعية كارتفاع وانخفاض مناسيب الانهار أو أنحباس الامطار والفيضانات وغيرها .

ففي عام 18هـ عند أنحباس المطر في الجزيرة العربية أصاب المسلمين مجاعة شديدة وجذب وقحط وهو عام الرمادة ، فقام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بنجده عماله على الاقاليم ومنها مصر فكتب الى عمرو بن العاص وبعث عمرو بن العاص قوافل كبيرة تحمل المواد الغذائية وعندما وصلت قام الخليفة بتوزيعها على أهل المدينة فخصص الى أهل كل بيت بالمدينة وماحولها بغيراً بما يحمل من الطعام فكلف عبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص (رضي الله عنه) بتوزيعها على الناس " فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر " (83).

لم يكن احتكار البضائع على التجار فحسب وإنما من قبل الوزراء والامراء فكانوا يحتكرون الاقوات ويخزنونها دون عرضها في الاسواق مما يؤدي الى ارتفاع اسعارها للحصول على ارباح مضاعفة ، والاجراءات التي اتخذت ازاء هؤلاء ففي عام 307-308هـ عند احتكار الوزير حامد للغلال وضجر الناس من ارتفاع الأسعار فأمر الخليفة

بفسخ الضمان وخفض السعر وطلب من المحتسب أن يسعر بأقل من السعر القديم كما أشرنا سلفاً .

ولجأت الدولة من اجل معالجة الخلل النقدي وتدهور قيمة العملة المحلية قامت بمراقبة دور الضرب، ونوعية النقود المسكوكة وجودتها، وظهرت هذه في القرن الرابع الهجري ففي سنة (366هـ) ورد كتاب من الخليفة المطيع إلى الأمير ناصر الدولة الحمداني "والى ولاية العيار بتصفية عين الدراهم والدينار من كل خبث وتخليصها من كل غش وضربها على "الأمام" أي أحسن الدراهم وزناً الذي يضرب عليه العين والورق بمدينة السلام، ومنع التجار الذين يوردون الذهب والفضة إلى دور الضرب من تجاوز ذلك وتعديه وعقوبة من يخالف بما يوجب جرمه ويقتضيه" (84).

وكثيراً ماكانت الدولة عند قيامها بالتسعير تستشير أهل الرأي والبصيرة في ذلك فذكر النووي بخصوص التسعير "لايجوز أن يسعر على الناس الأقوات في رخص ولا غلاء، وأجاز مالك رحمه الله في الأقوات مع الغلاء" (85) فإذا اراد الامام مثلاً أن يسعر شيئاً جمع اهل ذلك السوق وسألهم عن السعر الذي يشترون ويبيعون به وذلك حلاً لازمة الغلاء وحفاظاً على توفير القوت للناس (86).

ولعرض توازن عملي العرض والطلب فاصدر جوهر الصقلي (87) في عام 358هـ عدة قرارات ومنها تحديد اسواق بيع الغلال وخصص مكاناً معيناً جمع فيه تجار الغلال وسماسرتها وأصدر اوامره ان لاتباع الغلال الا في المكان المخصص ، وجعل له طريقاً واحداً فقط للدخول والخروج ، فكان لا يخرج منه قدح من القمح الا والمحتسب له علماً به " ومن عنده قمح فليخرجه ، وفرق الصدقات على الناس " (88).

وعندما وصلت الانباء الى الخليفة الفاطمي المعز بفتح مصر وسيطرة القائد جوهر الصقلي على البلاد المصرية ، أسرع بالارسال امدادات غذائية عن طريق السفن المحملة بالحبوب وهذا مما ادى بدوره الى تخفيف وطأة وشدة الازمة الاقتصادية الخانقة التي حدثت بمصر رغم ذلك كله استمرت حتى عام 360هـ وانتهت عام 361هـ عندما ارتفعت مناسيب النهر اخضبت الارض بغلالها وهذا ادى بدوره الى كثرة الغلال المنتجة وكان سبباً رئيساً في انخفاض اسعار الغلات الزراعية وحل الرخاء (89) .

وفي عهد الخليفة الظاهر وتحديدأ عام (426هـ) أنخفض منسوب النيل، وكان الطبيعي أن تنتشر الحشرات والفأران على ما تبقى من الحاصلات فأصاب الفلاحين الضرر مما حدا بالخليفة تقديم معوقات مادية للفلاحين ففرق بينهم الأموال لغرض تعويضهم عما أصابهم (90) .

ففي سنة 465هـ عند حدوث الشدة العظمى وارتفاع الاسعار في عهد الخليفة المستنصر قام الخليفة باستدعاء بدرالدين الجمالي والي عكا لمساعدته في وضع حلول مناسبة لماعرف عنه من حسن ادارة فدخل الجمالي الى مصر سنة 466هـ وقد استطاع فور دخوله واستقراره في مصر من مراسلة التجار خارج مصر من الحضور فيها فاخذت القوافل الى البلاد من كل حد و صوب وبذلك انخفض مستوى الازمة لتتلاشى حدتها (91) ، ومما لاشك فيه ان مهمة انقاذ البلاد من هذه المآسي تحتاج الى قوة عسكرية قادرة على فرض النظام وأثناء حالة الفوضى ، وهذه القوة ينبغي أن تتمتع بالمهابة والقدرة ، وقد تمثلت ببدر الجمالي . ومن هنا نفهم دوافع دعوة المستنصر بالله لبدر الجمالي وإستجابة الاخير لها ، ولو بشروط . فقد رأى فيها الخليفة محاولة أخيرة لانقاذ البلاد من

المأزق الذي وقعت فيه وإعادة الهبة للدولة ،أما بدر الجمالي فقد وجد في الاستجابة لطلب المستنصر فرصة ذهبية يحقق من خلالها طموحه في تبوء مراكز عليا في الدولة (92) .
ومن الاجراءات الاخرى التي اتخذتها الدولة هي تسعير الاقوات والزام بيعها في اوقات الازمات ففي عام 627هـ " سعر الملك الكامل القمح بعشرين درهماً ورقاً الاردب وأمر مستخدمى الاهراء السلطانية ببيع القمح بخمسة وعشرين درهماً ومنع الناس من شراء الكثير من الا المتونه " (93) .

وفي سنة 662هـ عندما غلت الاسعار بمصر هبوط النيل عن الحد المطلوب حيث توقفت زيادة النيل ، ،وأدى ذلك الى ارتفاع اسعار الغلال وقلة الخبز في الاسواق ، وأستمرت الاسعار في الزيادة حتى دخلت السنة الجديدة بمحاصيلها الجديدة وهبطت الاسعار وأنتهت الازمة ، وأستطاع الظاهر بيبرس (658-676هـ) أحتواء الازمة حيث أمر بجمع الفقراء وفرقهم على الامراء ، أخذ لنفسه منهم جانباً ، وأضاف لوالده الملك السعيد جانباً ، وأمر أن يعطى كل فقير مايكفيه لمدة ثلاثة شهور ويسلم نواب الامراء والاكابر والتجار الفقراء ثم قال السلطان "هؤلاء الفقراء جمعناهم في هذا اليوم وقد انقضى نصف النهار فليعطي كل منهم نصف درهم يتقون به خبزاً ومن غد يتقرر الحال " ولم يبقى أحد من الخواص والحواشي وارباب المناصب وغيرهم الا أخذ جماعة فانحطت الاسعار لذلك وكثر الخبز (94) .

وجد الباحث من خلال تصفح كتاب النويري أن الاجراءات في حل ظاهرة الغلاء في العراق تختلف عما في مصر وذلك بسبب سوء الاوضاع السياسية في العراق والتي سلبت من الخليفة أمور الحل والعقد ومايصدر من قرارات من الحكام والامراء كان

حسب منفعتهم أو تضررهم من هذه الحالة بذاتها ولا يهمهم ما يعانيه ابناء العراق عامة لذا لم نجد حلول مستفيضة في العراق لهذه الظاهرة .

الخاتمة

تبين لنا من خلال البحث أن المصادر التاريخية ولاسيما النويري كونه من المؤرخين الذين أسهبوا في ذكر ظاهرة الغلاء والتي لا تخلوا من مبالغة واضحة قد دونوا ذلك بدافع أما نعمة سياسية أو دينية .

وان ظاهرة الغلاء هي احدى الظواهر التي اصابت العراق ومصر بسبب الكوارث الطبيعية المتمثلة بنقصان او زيادة منسوب الانهار في كل سنة ، ولم يجد من يزرع الاراضي، وعوامل طبيعية مختلفة كانتشار الاوبئة والامراض وغيرها . فضلاً عن الصراعات والنزاعات العسكرية كالفتن والحروب وكثرة البذخ والإسراف والثراء غير المشروع لبعض الوزراء والكتاب ، فضلاً عن فترة الفوضى السياسية التي كان لها أثرها السيئ على ميزانية الدولة، وخاصة عند خلع الخلفاء والوزراء ورجال الدولة الكبار، ومبايعة خليفة جديد، فالجند يستغلون هذا الاضطراب السياسي فيقومون بأعمال نهب للأموال الخلفاء والوزراء وذخائرهم من الجواهر والفضة والأواني الفضية والذهبية والتحف والذخائر الثمينة . فعكست ظاهرة الغلاء أثرا ليس على الناحية الاقتصادية فحسب وإنما على الناحية الاجتماعية والسياسية أيضاً.

فاضطرت الدولة في سبيل تأمين الأموال اللازمة لها للأنفاق فقامت بعدة إجراءات منها تقليص النفقات وضرب النقود لتأمين السيولة النقدية ومصادره أموال

الوزراء والكتاب الذين يتم خلعهم بل وحتى أموال قسم من الخلفاء، وإقتراض الأموال من التجار على أن تسدد لهم الأموال حال تحسن مالية الدولة.

الهوامش

- (1) النويري، ، نهاية الارب في فنون الادب ، ج1، ص416. الزركلي ، الاعلام ، ج1، ص165.
- (2) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج 7، ص109.
- (3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص73.
- (4) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، وهي قصبه صعيد مصر، ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع ، ج3، ص1133.
- (5) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج10، ص67.
- (6) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج7، ص109.
- (7) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج7، ص109.
- (8) ابن عباد : لم نجد له ترجمة .
- (9) الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستطرف ، ص3 مقدمة الكتاب .
- (10) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج14، ص189-190. حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج2، ص1985.
- (11) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج9، ص399.
- (12) النويري، نهاية الارب، ج1، ص416. الندوي، منهج النويري ، ص33.
- (13) النويري، نهاية الارب، ج1 ، ص416.
- (14) الادفوي ، الطالع السعيد، ص46.
- (15) الندوي، منهج النويري ، ص81.
- (16) الندوي ، منهج النويري، ص81.
- (17) نهاية الارب ، ج23، ص56.

- (18) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص56.
- (19) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص56.
- (20) الكر : يعادل الكر حالياً 2925كغم .هنتس ،فالتر ، المكايل والاوزان الاسلامية ، ص69.
- (21) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص56. ينظر : ابن الجوزي ،المنتظم ،ج13 ،ص194. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج 6،ص633.
- (22) سعد ، فهمي عبدالرزاق ، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين ،(بغداد- 2013)،ص186.
- (23) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص162.
- (24) مسكويه ، تجارب الامم ، ج 2 ،ص 8 .
- (25) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص178.
- (26) النويري، نهاية الارب ،ج26،ص186.
- (27) مسكويه ، تجارب الامم، ج2،ص90-91.
- (28) النويري ، نهاية الارب ، ج26،ص186.
- (29) مسكويه ، تجارب الامم، ج2،ص90-91.
- (30) عبدالعزیز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 248.
- (31) إغاثة الأمة، ص 62.
- (32) النويري ، نهاية الارب ، ج26،ص203.
- (33) الكاره:يساوي الكاره قفيزين، وكانت كاره القمح تساوي 240 رطلاً =5،97 كغم أي حوالي (120) لتر. هنتس ، المكايل والاوزان ، ص69.
- (34) الكر: يساوي 2880 كغم قمحاً في العراق. هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية، ص 69.
- (35) النويري ، نهاية الارب ،ج23،ص210.
- (36) الكامل في التاريخ، ج8،ص145.
- (37)النويري ، نهاية الارب ، ج 23 ، ص 222.

- (38) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص222.
- (39) النويري ، نهاية الارب ، ج23،ص268
- (40) النويري ، نهاية الارب ، ج27،ص51.
- (41) كافور الاخشيدي :هو كافور بن عبدالله الاخشيدي ولد سنة 292هـ ، كان عبدا اسود حبشياً قدم الى مصر وله من العمر عشر سنوات في سنة 310هـ واعتقه الاخشيدي ملك مصر ثم اصبح في خدمة الامير ابي بكر محمد بن طفج الاخشيد فعظمه عنده منزله وعين من قبل الخليفة المطيع على الحرب والخراج "وجميع امور مصر والشام والحرمين" فلم يبدل لقبه فخاطبه رجال الدولة بالاستاذ ثم حصل من الخليفة المطيع كتاباً بتقليده بعد علي بن الاخشيد وتوفي سنة 357هـ .المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ج1،ص330.
- (42) النويري ، نهاية الارب ، ج28،ص60.
- (43) ابن حجر العسقلاني ، رفع الاصر عن قضاة مصر ، ج1،ص199-201.
- (44) سالم ، تاريخ مصر الاسلامية ، ص197 .الطنطاوي ، تاريخ العصور الوسطى ،ص153.
- (45) النويري، نهاية الأرب ، ج28،ص234
- (46) النويري ، نهاية الأرب ، ج28،ص234.
- (47) ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج1،ص61.
- (48) النويري ، نهاية الأرب ، ج28،ص233.
- (49) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص34.
- (50) القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ج2،ص817.
- (51) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5،ص16.
- (52) المقريزي ، إتعاض الحنفا ، ج2،ص297.
- (53) النويري ، نهاية الارب ، ج1 ، ص264.
- (54) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ج1،ص60.
- (55) النويري ، نهاية الارب ، ج1،ص264.
- (56) النويري ، نهاية الارب ، ج28،ص60.

- (57) النويري ، نهاية الارب ، ج 23،ص187.
- (58) النويري ، نهاية الارب ، ج 28،ص233.
- (59) المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج 2، ص 297-300.
- (60) النويري ، نهاية الارب ، ج 29،ص13.
- (61) المقرئزي ، أغاثة الامة ،ص59.
- (62) النويري ، نهاية الارب ، ج 31 ، ص 294.
- (63) النويري ، نهاية الارب ، ج 29، ص 13. المقرئزي ، إغاثة الامة ، ص 33.
- (64) النويري ، نهاية الارب ، ج 29، ص 82. المقرئزي ، أغاثة الامة ، ص 76-77. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج 2 ، ص 291-292.
- (65) النويري ، نهاية الارب ، ج 8،ص267.
- (66) النويري ، نهاية الأرب ، ج 28،ص 234.
- (67) النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 234.
- (68) الاءراء السلطانية : يوضع بها مايجزن من الغلال المتنوعة لانفتح الا عند الضرورة وتفتح الاءراء في كل حين ويصرف منها مايقضي صرفه . ابن شاهين ، ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص 122-123.
- (69) النويري ، نهاية الارب ، ج 31 ، ص 294.
- (70) النويري ، نهاية الارب ، ج 28،ص162.
- (71) النويري ، نهاية الارب ، ج 29،ص 119-120.
- (72) النويري ، نهاية الارب ، ج 32، ص 32،ص 145.
- (73) النويري ، نهاية الارب ، ج 32، ص 145.
- (74) النويري ، نهاية الارب ، ج 23،ص258.
- (75) النويري ، نهاية الارب ، ج 32،ص292.
- (76) النويري ، نهاية الارب ، ج 32،ص292.
- (77) النويري ، نهاية الارب ، ج 32،ص292. ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج 18،ص175.

- (78) النويري ، نهاية الارب ، ج32،ص293.
- (79) النويري ، نهاية الارب ، ج29،ص82.
- (80) النويري ، نهاية الارب ، ج32،ص269.
- (81) السكور: يقال سكر النهر ونحوه سده وحبسه والسكر مايسد به النهر والجمع سكور .النويري ، نهاية الارب ، ج33،ص196.
- (82) نهاية الارب ، ج33،ص196. سوسه ، فيضانات بغداد ، ص355.
- (83) النويري ، نهاية الارب ، ج19 ، ص351.
- (84) الصابي، رسائل الصابي، ص 141 ؛ عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 248.
- (85) النويري ، نهاية الارب ، ج6،ص212.
- (86) صباح الشيخلي ، الأصناف ، ص153.
- (87) جوهر الصقلي : جوهر بن عبد الله الرومي، باني مدينة (القاهرة) والجامع (الأزهر) كان من موالي المعز العبيدي (صاحب إفريقية) وسيره من القيروان إلى مصر، بعد موت كافور الإخشيدى، فدخلها سنة 358 هـ وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها. ومكث بها حاكما مطلقا إلى أن قدم مولاه المعز (سنة 362 هـ فحلّ المعز محله، وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها، إلى أن توفي، بالقاهرة سنة (381هـ) . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج1،ص118.
- (88) النويري ، نهاية الارب ج28، ص130. المقرئزي، اتعاظ الحنفا ، ج1 ، ص120.
- (89) المقرئزي ، السلوك ، ج2، ص300 .
- (90) النويري: نهاية الأرب، ج28، ص267 .
- (91) النويري ، نهاية الارب ، ج28، ص234. ابن ميسر ، أخبار مصر ، ج2، ص36-58.
- (92) دخيل ، الدولة الفاطمية ، ص73.
- (93) النويري ، نهاية الارب ، ج29، ص161.
- (94) النويري ، نهاية الارب ، ج30 ، ص96.

قائمة المصادر والمراجع

- 1-الابشيهي ، بهاء الدين ابو الفتح محمد بن احمد بن منصور(ت854هـ) المستطرف في كل فن مستطرف ، ط3، دار صادر ،(بيروت-2007).
- 2-ابن الاثير ،عزالدين علي بن محمد (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر ، (بيروت-1967).
- 3-الادفوي ، ابو الفضل جمال الدين جعفر بن مغلب(ت748هـ)،الطالع السعيد الجامع أسماء أنحاء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (مصر:1996م)
- 4-ابن أبياس،محمد بن أحمد(ت930هـ)،بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة ،(القاهرة-1972)
- 5-ابن تغري بردي ،جمال الدين أبو العباس(ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق أحمد يوسف (القاهرة -1956).
- 6-ابن الجوزي ، ابو الفرج عبدالرحمن بن محمد (ت597هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا وآخرون ، دار الكتب العلمية ،(بيروت-1992) .
- 7-حاجي خليفة .كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، (بيروت-د.ت).
- 8-ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي (ت852هـ) ، رفع الاصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبدالمجيد وآخرون ، الادارة العامة للثقافة ، وزارة التربية والتعليم ،(القاهرة -1961).
- 9-دخيل ، محمد حسن ،الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للاسرة الجمالية ، مؤسسة الانتشار العربي ، (بيروت -2009) .
- 10- الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، دار العلم للملايين ،ط5، (د.م-2002).
- 11-سالم ، عبدالعزيز ،تاريخ مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة ،(الاسكندرية- د.ت).
- 12-السخاوي ،شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت902هـ) ،الضوء اللامع لاهل القرن التاسع (القاهره-1354هـ).
- 13-سعد ، فهمي عبدالرزاق ، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين ،(بغداد-2013).

- 14- سوسه ، أحمد. فيضانات بغداد في التاريخ ، مطبعة الاديب ، (بغداد- 1963) .
- 15- ابن شاهين ، غرس الدين خليل الظاهري ، (ت873هـ) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ، 1893م
- 16- الطنطاوي ، أحمد صادق ، تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب ، دار الطباعة الاهلية ، ط2 ، (القاهرة- 1966) .
- 17- ابن عبد الحق ، صفى الدين عبد الرحمن البغدادي (ت739هـ) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ، 1955 .
- 18- عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن اربع الهجري ، ط2، دار المشرق، (بيروت- 1974).
- 19- القلقشندي ، شهاب الدين ابو العباس أحمد بن علي (ت821هـ) ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ط2 ، (الكويت- 1985).
- 20- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت774هـ) ، البداية والنهاية ، تحقيق علي شير ، ط1 ، (بيروت- 1988).
- 21- مسكويه ، أبو علي احمد بن محمد (ت 421هـ) ، تجارب الامم ، (ليدن ، بريل ، 1913م).
- 22- المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ) ، أغاثة الامة بكشف الغمه ، مؤسسة ناصر للثقافة ، (بيروت - 1980) .
- 23- المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقرئزية ، مكتبة المثني ، (بغداد- 1970)
- 24- ابن ميسر ، تاج الدين محمد بن يوسف بن حبيب (ت677هـ) ، إخبار مصر (المنتقى من إخبار مصر) اعتنى بتصحيحه، هزي ماسية، (القاهرة: 1919م) .
- 25- النويري، احمد عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم (ت733هـ) . نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب والوثائق القومية ، (القاهرة - 1423هـ).
- 26- هنتس ، فالتر ، المكايل والاوزان الاسلامية ، ترجمة كامل العسلي ، (عمان- 1970).

27- ياقوت الحموي، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ)، معجم البلدان، ، دار صادر
(بيروت ، 1977م).

الوضعية العامة للثورة الجزائرية عقب هجومات 20 أوت 1955 بالشمال القسطنطيني

د/ مختار هواري / جامعة باتنة-1-

ملخص بالعربية: تعتبر هجومات الشمال القسنطيني 20 أوت 1955 من المحطات الهامة في تاريخ الثورة الجزائرية و من خلال هذا المقال سأتناول كيفية توظيف جبهة التحرير لهذه الهجومات في أديباتها، و كيف أثرت على نفسية الجزائريين و على النشاط العسكري للثورة و مدى تأثيرها على تأطير جبهة التحرير الوطني؟ و كيف أثرت الهجومات أيضا على المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي بفرنسا و الجزائر مستعينا في دراستي على تقارير عسكرية فرنسية

Résumé :

La situation générale de la révolution algérienne après les attaques du 20 août 1955 dans le nord constantinois.

Les attaques du nord constantinois du 20 août 1955 sont considérées comme une étape très importante dans l'histoire de la révolution algérienne. A travers cet article, je compte traiter la manière dont le front de libération a exploité ces attaques dans ses écrits, et comment ces événements ont influencé la psychologie des algériens et l'activité militaire de la révolution et son encadrement par le front de libération nationale. Et comment ces attaques ont influencé les algériens supplétifs de l'armée française en

France et en Algérie, en m'appuyant dans mon étude sur des documents militaires français.

الكلمات المفتاحية:

هجمات 20 أوت 1955 - المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي - جبهة التحرير - العمليات العسكرية - الولاية الأولى

مقدمة

خطت الكاتبة الأمريكية جوان جليسي في كتابها الجزائر الثائرة عن هجمات 20 أوت 1955 تقول: " إنه أول هجوم جزائري موسع وشامل يكشف عن إعداد دقيق ووجود قوات نظامية هامة، وأهمية المساعدة من الجماهير، إنه يمثل منعرجا لحرب التحرير الجزائرية سواء من الناحية الشمولية أو من ناحية اختيار الأهداف "بومالي، أ (استراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى ، المتحالفون للمجاهد) ص 246¹. أما الكاتب إيف كوريير في كتابه حرب الجزائر فقد كتب هو الآخر عن هجمات 20 أوت 1955 يقول: " إنه الهجوم الأول الحقيقي في حرب الجزائر". وأضاف: " بعد هذا الهجوم، دخلت حرب الجزائر مرحلتها النشيطة، الأقنعة ستسقط والسياسات ستتطور. من الآن فصاعدا سيكون هناك قبل 20 أوت وما بعد 20 أوت"¹ Courrière.Y (1993, pp 175-193).

²وعليه، ما التأثير الذي خلفته هذه الهجمات على بعض الأوضاع بالجزائر؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال محاولة استنطاق مجموعة من التقارير الفرنسية المدنية والعسكرية التي خصصت لذلك.

1- هجمات 20 أوت 1955 في أدبيات جبهة التحرير الوطني

بعد هجومات 20 أوت 1955، كما هي العادة، وزعت تعليمة لتقييم نتائج عملية 20 أوت 1955 وخاصة ما تعلق بالخسائر. وفي الكرمة قرب كوندي سمندو- زيغود حاليا- عُقد الاجتماع برئاسة زيغود يوسف رفقة مساعديه؛ علي كافي، إسماعيل رزيقات، صالح بوبنيدر، عبد المجيد كحل الرأس، البشير بوقادوم، الشيخ بولعراس، مسعود بوجريو لتقييم التقارير الواردة من كل أنحاء المنطقة دوار دوار، قرية قرية و مدينة مدينة وكان الرقم حوالي 12 ألف شهيد جزائري أغلبهم من الجماهير العزل. وجلهم من مدينة سكيكدة ثم عين أعبيد والخروب (كافي. ع....) ص 85...³

بعد العمليات، أذاعت جبهة التحرير الوطني بيانا جاء فيه: «لقد تحطمت قبضة العدو، وقد تنفس الشعب الصعداء وعادت الثقة إلى النفوس، وقد ربخنا معركة الولاية بصورة مؤكدة، وعلى الصعيد القومي أقمنا الدليل بأنه في استطاعتنا عندما نريد أن نهز إدارة العدو وجهازه العسكري» رزقي ع ، 20 أوت 1955-20 أوت 1956: الذكرى المزدوجة ليوم المجاهد (1) ص،69.

وفي ردود فعلهم حول ما قام به زيغود يوسف، وصف شيحاني بشير ما حدث بالعملية الانتحارية. أما عبان رمضان وبن مهدي فقد كانت لهما بعض الملاحظات التي مست ثلاث زوايا: AGERON, Ch, R, « L'insurrection du 20 Aout 1955 dans le nord constantinois: De la résistance armée à la guerre du peuple », La Guerre d'Algérie et les Algériens 1954-1962, Actes de la table ronde organisée à Paris le

26-27 mars 1996, Paris, Armand COLIN, 1997, p4

:5

- الأولى أن الهجوم على مدنيين فرنسيين دون سلاح كان من شأنه أن يؤدي إلى ضرب الثورة بإيقاعها في فخ اتهامها بالتعصب.

- الثانية أن النتائج التي تحققت جراء الهجومات لم تكن في مستوى التضحيات حيث أعلن زيغود يوسف عن استرجاع 700 قطعة سلاح، في حين أعلن الجانب الفرنسي عن استرجاع 149 قطعة سلاح في منطقة الحروش وحدها.

- الثالثة أن زيغود يوسف قد اتخذ القرار بالهجومات وإقحام المدنيين الغير مسلحين بها دون استشارة، وقد كان بإمكانه أن يفعل ذلك وأن تعمم العملية على كل الجزائر وهو ما لم يحدث. مع ذلك، وفي منشور وزع في 03 سبتمبر 1955 تم نشره بالجزائر العاصمة، عرفت جبهة التحرير الوطني نفسها وجيشها بالقول: «لقد حملنا السلاح من أجل أن نتحصل الجزائر على حريتها وعلى استقلالها... نحن جزائريون ونسعى لنبق كذلك لأننا فخورون بذلك» -

JEANSON, F (1955) L'Algérie hors la loi Paris, Editions du SEUIL , p. 317. ⁶ . وبحلول 01 نوفمبر

1955، وزعت منشورا آخر تناول ذكرى يوم 20 أوت وقد جاء فيه: «يمثل يوم 20 أوت الأخير عرضا كبيرا أثبتنا فيه للاستعمار وللعالم ككل أن العمل الثوري الذي يستمر منذ نوفمبر 1954 ليس عمل عصابات ولكنه عمل شعب يريد

الحرية مهما كانت التضحيات» A.O.M 93/4409: Rapports (mensuels vus par l'IGAME) ⁷ . كما أذاعت بيانا ورد فيه: «لقد

تحطمت قبضة العدو، وقد تنفس الشعب الصعداء وعادت الثقة إلى النفوس، وقد ربخنا معركة الولاية بصورة مؤكدة، وعلى الصعيد القومي أقمنا الدليل بأنه في

استطاعتنا عندما نريد أن نهز إدارة العدو وجهازه العسكري» رزاق، ع. 20. أوت 1955-20 أوت 1956: الذكرى المزدوجة ليوم المجاهد (1)، ص. 69. ⁸ وقد اعتبرت دعاية الجبهة بعد ذلك هجمات 20 أوت 1955 إشعاعا وطنيا حفز الفلاحين. A.O.M 93/4409, Rapport mensuel... , 9^e mois de septembre 1955.

2- تأثير الهجمات على الوضعية النفسية للجزائريين

بعد هجمات 20 أوت 1955 وإجراءات القمع المتبعة من قبل السلطات الفرنسية ردا على الهجمات، كان للأوضاع المحلية والدعاية التي صاحبت ذلك من جانب إذاعة القاهرة وكذا الصحف الفرنسية التي اهتمت بالمجازر المرتكبة في حق الجزائريين دور كبير في إثارة الأذهان والعقول حسب ما سجلته جل التقارير الفرنسية A.O.M 18F/13:Rapports du commandement civils et militaires du sud constantinois ¹⁰. مع ذلك سجلت نفس هذه التقارير تعميم حالة الخوف الكبير في صفوف السكان حول تداعيات الأمر عليهم. ترجم هذا الخوف في صفوف الشباب بأن أصبح الحذر هو السمة الغالبة على تصرفاتهم وكذا العدد المتزايد من حالات الفرار نحو فرنسا في صفوف المدنيين والريفيين من شباب وشيوخ (800 في شهر أوت عن المنطقة الثانية) والسبب حسب ما تداولته هذه التقارير هو الخوف من أن يتم إيقافهم في حملات تفتيش واعتقال فرنسية. وعليه، كان لحالات الفرار هذه ونشاط جيش التحرير الهادف إلى ضرب الاقتصاد الفرنسي، تأثير على الأوضاع الاقتصادية التي عرفت تدهورا كبيرا بفعل نقص المنتج الفلاحي وصعوبة التنقل بين المناطق حتى في وضوح النهار خاصة بمنطقة الشمال القسنطيني A.O.M 81F/14:Situation en

Algérie; Evolution de la situation en Algérie 1954-1955¹¹.

في نهاية شهر أوت، تقوت فعالية الإحساس بالتضامن نحو هذه الحركة الوطنية بفعل نشاط تناقل الأخبار الذي تم خلال هذه الفترة، إضافة إلى نشاط المنتخبين والصحف الجزائرية المتروبولية والشرق أوسطية. غير أن حالة الخوف والقلق تنامت ومعها موجة من الكره الكبير تجاه العنصر الأوروبي الذي أصبح لا يتوانى في استخدام الرصاص ضد العنصر العربي أينما وجده. لقد تحدثت جل تقارير هذه الفترة عن تنامي حالة (الخوف الكبير) في صفوف الجزائريين، خوف من الأوروبيين مدنيين كانوا أو عسكريين A.O.M 93/4409: Rapport mensuel d'information, mois d'aout 1955¹².

بجول شهر سبتمبر، تقوى الإحساس بالتضامن مع الجبهة أكثر فأكثر. ففي مواجهة الانتصارات العسكرية التي كانت الجيوش الفرنسية تحققها خلال هذه الفترة، لم يعد لهذا الأمر تأثير على السكان الذين كانوا يبدون اهتماما كبيرا به قبل شهرين من هذا التاريخ. لقد أصبحت الأنفس حسب التقارير الفرنسية مخدرة بما كان من وقائع، وبما هو موجود من وقائع، وبما تناقلته الصحف والراديوهات والأفواه، ما زاد في تأجج هذا الإحساس أكثر خلال شهر سبتمبر حدثين: الأول تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الأمم المتحدة يوم 30 سبتمبر 1955 بـ 28 ضد 27 وامتناع 05، والثاني موقف كتلة 61.

إن هذه الأعمال قد قطعت الطريق على السياسيين المحترفين الذين كانوا حتى 19 أوت ما زالوا يخلصون بإمكانية إيجاد حركة تجمع الجزائريين والأوروبيين في إطار أخوة جديدة ترفض العنف؛ و من بينهم كتلة الـ 61 المكونة من النواب الجزائريين في المجلس الجزائري والمستشارين العامين والإداريين على إثر الإجماع الذي

عقدوه في 26 سبتمبر حيث أصدروا لائحة يعلنون فيها رفضهم لسياسة سوستيل الإصلاحية ويطالبون بالاعتراف بالكيان الجزائري، وقد جاء في هذه اللائحة: « الأغلبية العظمى للشعب الجزائري هي الآن مع فكرة الوطن الجزائري - عن هذه الفئة، صرح بن باحمد في 11 أكتوبر 1955: « إنها لمسألة أمانة من جانبنا نحن المنتخبين نحوكم- يخاطب زملائه النواب الفرنسيين- ونحو الأمة الفرنسية أن نصارحكم بان الشعب الجزائري أضحي لا يتبعنا، وقد طرح جانبا ما كان يريجه ويطلب به منذ أحيان. وأصبحت له أماني جديدة ». قال بن جلول: « لا يوجد في الواقع من ينظر بعين الجد إلى نظرية الإدماج فيتحتّم إذا أن نرسم سياسة جديدة، ولكن ما هي؟ لا نستطيع أن نعرض عليكم شيئا فعليكم بسؤال الشعب. إن الانتخابات الحرة هي التي تمكنكم من تبيان حقيقة الأمر. » قال علي قاضي: « إن من واجبنا أن ننبه من يتولون السلطة العامة إلى مسؤولياتهم وأن نقول لكم ليس هناك من إصلاحات تستطيع ان تبعث من جديد التعاون والتقارب بين الفرنسيين والمسلمين وأنكم لا تملكون الحق في أن تندمجوا (في أمتكم) سكانا بالرغم منهم على حين أنهم يريدون الإحتفاظ بشخصيتهم وتقاليدهم ودينهم ولغتهم. وقد حان الوقت الذي يريدون فيه التخلي عن سياسة الأوهام - - .¹³ المنتخبون الممضيون أدناه يرون أن من واجبهم أن يوجهوا عملهم نحو تحقيق هذه العملية - (1988) p 107 TEGUIA M,

14

في هذه الفترة، سجلت السلطات الفرنسية اختفاء تام للعنصر الذكر من منطقة توجد على بعد 10 كيلومتر من الجنوب الغربي لكول دي أوليفي (عين بوزيان حاليا) والجنوب الغربي لواد الزناتي

مع بدايات شهر أكتوبر أصبح المجاهدون (الفلاقة حسب التعابير الفرنسية) في نظر الجزائريين هم الوطنيون الشجعان، ذوي التضحيات، الذين يستحقون كل التقدير والاحترام¹⁵ A.O.M 93/4409: Rapport mensuel (... , mois d'octobre 1955).

فبعد 20 أوت إذا، تميزت جبهة التحرير بميزات قوت نفوذها رغم حداتها: في صيف 1955 استفادت من التحاق العائلات البورجوازية بها نذكر على سبيل المثال لا الحصر: بن قانة، بوطالب، بن صيام، حاج حمو، بودرية، علي خوجة،... فمكناها الدعم المادي من الحفاظ على قوتها على الأقل بين عامي 1955-1957

بعد استسلام حكومة غي - موليه في 06 فيفري 1956 إثر المظاهرات الصاخبة للقائين بالجزائر الفرنسية، منحت الجمعية الوطنية الحكومة أوسع الصلاحيات للإمعان في القمع. عندئذ عدل الجناح المعتدل من الأحزاب السياسية الجزائرية عن ترده، وانضم إلى جبهة التحرير الوطني كما حذا مناضلو كل من الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والعلماء حذو زعيميهما فرحات عباس وتوفيق المدني اللذين انظما رسميا إلى صف جبهة التحرير الوطني في أبريل 1956. أما الحزب الشيوعي الجزائري الذي حل بدوره في 12 سبتمبر 1955، فقد عاد إلى السرية واعترف لجبهة التحرير الوطني بدورها القيادي في معركة التحرير الوطني ولم يبق أمام جبهة التحرير الوطني إلا الحركة الوطنية الجزائرية عقبه أمامها الشيخ، س، ص. ص. 91-92¹⁶.

3- تأثير الهجومات على النشاط العسكري بمختلف مناطق الثورة

تذهب مجموع التقارير الفرنسية التي استطعت الإطلاع عليها إلى أن وقع الهجومات على مختلف مناطق الثورة قد كان كالتالي:

بالمنطقة الأولى (الأوراس)، استمر الثوار في نشاطهم من منطقة النمامشة إلى غاية مدينة وادي سوف، وبقيت الحالة مقلقة للسلطات الفرنسية في منطقة سدراتة ومنطقة أم البواقي. كما انتشر الثوار وتوسع نشاطهم إلى منطقة بلزمة ومدينة خنشلة¹⁷.
A.O.M, 81F14: Evolution de la situation en algérie 1954-1955

بعد إلقاء القبض على البعض من الثوار في منطقة تيشطاط في 20 أوت 1955، وفي منطقة خنقة سيدي ناجي وبعد تصريحات الملتحقين بفرنسا من الثوار في منطقة مشونش اتضح للسلطات الفرنسية أن الثورة تعرف مشاركة موسعة للمرأة بمختلف الصور، وأن المجاهد عاجل عجول يقود جماعة من الثوار وصل عددهم نحو 800 شخص وأنه يملك وجماعته 03 بندق رشاشة 7 أو 8 مسدسات وأن العدد الكبير من الثوار بالمنطقة الأولى للثورة هم من قبيلة بني بوسليمان وهم مقسمون إلى جماعات ويعملون خارج دوار زلاطو A.O.M 81F/13¹⁸. وقد تم التوسع العسكري للعمليات إلى بلزمة وملتيلي وإلى الزيبان نحو الغرب من بسكرة A.O.M : 93/4409 : Rapport mensuel¹⁹ ، وقد تقوى التواجد العسكري في شمال المرتفع عند بلزمة وتقوت السيطرة على باستور (سريانة) والمعذر²⁰ بريكة وملحقة بسكرة : Rapport mensuel A.O.M : 93/4409²¹. وقد تحصلت المنطقة على 650 بندقية صيد من زيغود يوسف : A.O.M : Rapport mensuel 93/4409²².

بالمنطقة الثانية(الشمال القسنطيني)، تمركز عدد كبير من سكان دواوير التي شاركت في الهجومات بقالمة والمنطقة الجبلية الموجودة شمال عين موكرة و انطلقت حملة للتجنيد في المنطقة الجنوبية لبنتيافرا، أما العمل على جمع الأسلحة فتواصل في إيدوغ Rapport mensuel : A.O.M : 93/4409

²³. بحلول شهر سبتمبر، تقوت مجموعات زيغود يوسف المرابطة في الميلية بحوالي 519 قطعة سلاح، وقد عادت المجموعات العسكرية المشاركة في الهجومات إلى مناطق نشاطها بالقل، تامالوس، فليغلة، بني مجالد، طاية، ماصونة، الناظور و بني صالح، وقد ظهرت حالة من الهيجان بدواوير أخرى من القل، الميلية، سكيكدة والركنية كما زاد عدد المكونين للمجموعات التي لم تتضرر بفعل القمع الفرنسي جراء انضمام السكان. وتوسع النشاط إلى عين فكرون، عين بعيدة، مسكيانة، منتيكالم (تاملوكة حاليا)، سدراتة Rapport : A.O.M : 93/4409 mensuel ²⁴.

احتلت منطقة الشمال القسنطيني بعد الهجومات مرتبة الصدارة من حيث عدد العمليات المنفذة على مجموع التراب الجزائري، لقد أصبحت الوضعية هناك خطرة جدا: كمائن، رمي قنابل، تحطيم و حرق منازل غابية، محاصيل،... قدرت المصادر الفرنسية حصيلة ما كان بها من عمليات تجاه المتعاونين مع الإدارة الاستعمارية مثلا خلال الفترة من 20 أوت 1955 إلى 20 سبتمبر 1955 على النحو التالي Rapport mensuel : A.O.M : 93/4409 ²⁵.

قتل 72 خائن (صديق فرنسا) منهم 02 رؤساء جماعة، 06 وقاف، 05 حارس بلدي، 09 نبلاء، 03 خوجة، 45 عون اتصال وواشي مقرب من فرنسا.

جرح 10 خونة منهم 01 حارس غابة، 01 نبيل، 08 عون اتصال وواشي مقرب من فرنسا.

18 حالة اختطاف ومفقود منهم 02 قائد، 02 حارس غابة، 01 نبيل، 13 عون اتصال وواشي مقرب من فرنسا.

04 مشوهين منهم 01 حارس غابة، 03 مقربين من فرنسا.

و قد قدرت السلطات الفرنسية عدد قوات جيش التحرير الوطني في 1 جانفي 1956 بمقاطعة قسنطينة وحدها بلغ²⁶:

المنطقة الشمالية: 1500 جنديا مسلحا و مؤطرا.

3000 إضافي مسلح.

المنطقة الشرقية: 1300 جنديا مسلحا و مؤطرا

3000 إضافي مسلح

المنطقة الجنوبية: 1800 جنديا مسلحا و مؤطرا.

3000 إضافي مسلح.

المنطقة الغربية: 1000 جنديا مسلحا ومؤطرا.

1300 إضافي مسلح.

المجموع: 5 آلاف إلى ستة آلاف جنديا مسلحا ومؤطرا.

بباقي المناطق، كان للهجمات وقع بسيكولوجي. عبر جيش التحرير الوطني عن تواجده عن طريق مناشير وزعت خلال هذه الفترة تدعو للمقاطعة الاقتصادية، تهديد، تهديم لكل ما يمثل الوجود الفرنسي من مدارس، مزارع، منازل غابية، أبراج،²⁷ . فبالمنطقة الثالثة (القبائل)، ارتفعت العمليات (الاعتداءات حسب الفرنسيين) والهجمات المركزة على المراكز العسكرية. وقد تم التوسع العسكري لجيش التحرير إلى فج أمزالة، منطقة جيجل، جنوب بجاية،

غرب قرقور، البيبان، مرتفعات الصومام، جنوب الطاهير، من تينيرون نحو البيبان (مجانة)، البابور (بني ورتلان)، الميلية نحو تامسغيدة في حين شهدت المنطقة الرابعة وخاصة الجزائر العديد من الإعتداءات - حسب تعبيرهم - ، تفجير قنابل في البويرة والأبيار وهجومات في الساحل A.O.M : 93/4409 :²⁸ أما بالمنطقة الخامسة فقد ظهرت عناصر ومجموعات تحمل سلاحا في مناطق نور، ندرومة، مغنية، سبدو، تيران (صابرة حاليا) على صلة بعناصر مغربية من الريف على السواحل الفرنسية والإسبانية، و الهجوم على مراكز إيواء الجند بالقنابل والمتفجرات A.O.M 93/137:Effectifs de la rebellion²⁹ .

وقد سجلت جريدة صدى وهران - بعد وصول الأسلحة-عمليات تهديم كبيرة في جنوب وهران، بني ونيف، بشار حيث نسفت الجسور ودمرت السكك الحديدية على نحو كبير. وقد ركزت تلك العمليات على قطاع المواصلات بغرض شله حيث حطمت 273 منشأة في مدة ستة أشهر، 13 قاطرة من أصل 17 تشتغل في نقل الحبوب. وبناءً على المذكرة التي قدمها وفد القاهرة فإن حصيلة العمل العسكري خلال الفترة من 01 أكتوبر 1955 إلى 30 ديسمبر 1956 بالجهة الغربية اشتملت على قتل 15 ضابطا استعماريا، 50 ضابط صف، 100 عون من رجال الشرطة، حجز 100 قطعة سلاح، مع إتلاف 40 سيارة وقتل 120 خائنا، 30 مدنيا عاملا بجهاز الشرطة. وقد شهدت جبال العمور هي الأخرى على غرار جبال الجرف معركة على جانب كبير من الأهمية بها 500 جنديا و خلال أسبوع كامل فقد جيش التحرير خلالها 04 شهداء، وسجل 1375 قتيل فرنسي منهم 72 دفنوا بتيارت A.O.M 93/4409: Rapport mensuel³⁰ .

وقد جاء في إحصائية أخرى بالعمليات المنفذة من طرف عناصر جيش

التحرير الوطني من 01 نوفمبر 1955 إلى جانفي 1956 A.O.M 81F14³¹:

هجمات على ثكنات وضياع: 17 بعمالة وهران، 35 بعمالة الجزائر، 221 بعمالة قسنطينة، والمجموع 273 هجوما.

هجمات باليد المسلحة: 130 بعمالة وهران، 425 بعمالة الجزائر، 1440 بعمالة قسنطينة والمجموع 1995 هجوما..

هجمات بالقنابل: 20 بعمالة وهران، 57 بعمالة الجزائر، 87 بعمالة قسنطينة والمجموع 164 هجوما..

إتلاف خطوط الإتصال: 136 بعمالة وهران، 385 بعمالة الجزائر، 675 بعمالة قسنطينة والمجموع 1196 هجوما.

حرائق: 100 بوهران، 266 بالجزائر، 722 بقسنطينة والمجموع 1088 هجوما..
قطع الطرقات: 24 بوهران، 43 بالجزائر، 161 بقسنطينة والمجموع 228 هجوما..
عمليات مختلفة: 39 بوهران، 183 بالجزائر، 567 بقسنطينة والمجموع 789 والمجموع العام 5741.

أما عن عدد القتلى في صفوف جيش التحرير فتقول الإحصائية حسب العمالات:

الشهداء (القتلى حسب التعبير الفرنسي) : 96 بوهران، 212 بالجزائر، 2643 بقسنطينة، والمجموع 2951 شهيدا.

الجرحي: 25 بوهران، 34 بالجزائر، 302 بقسنطينة، والمجموع 361 جرحيا.
المساجين: 80 بوهران، 35 بالجزائر، 1592 بقسنطينة والمجموع 1707 سجينا.

الاعتقالات: 2086 بوهران، 21199 بالجزائر، 15937 بقسنطينة (A.O.M 81F14)³².

ومن جهة أخرى كتب الجنرال نواري " NOIRET " في تقرير قدمه في 06 مارس 1956 يقول أن التمرد قد دخل مرحلة جديدة حيث اتسع نشاطه وأضحى يغطي مجموع البلاد وأن وحدات المسلمين الفرنسيين في الجيش قد فقدت قيمتها وأن معنويات الجيش الفرنسي قد انخفضت بشكل محسوس شريط ، ل (2007) ص 275.³³

بعد مرور سنة عن 20 أوت 1955 قامت جبهة التحرير الوطني في مؤتمر الصومام بتهنئة نفسها ورأت أن هجومات 20 أوت قد أحدثت صدمة بسيكولوجية ، حررت الشعب من الخوف، و أيقظته من سباته. وقد كتب حسين زهوان عن تأثير الهجومات في نفس السياق يقول: « لقد ترك سلاح الصيد مكانه لسلاح الحرب... لقد كانت صدمة بسيكولوجية أسست لنفسية النار... لقد بدأت مرحلة تفتحت إلى غاية نهاية 1958 رأت التقدم لجيش التحرير الوطني على الصعيد العسكري، السياسي والإداري » A.O.M 81F14³⁴.

4- تأثير الهجومات على مستوى التأطير السياسي لجبهة التحرير

الوطني:

جاء في إحدى التقارير الفرنسية: « مارست الجماعات المسلحة خلال هذه الفترة في المناطق التي تركزت بها إرهابا تنوع بين الضغط على السكان، تأديبهم، محاكمتهم أو خنقهم بمجرد أن يقع اختيارها على دوار من الدواوير إلا وتضع به جهازا سياسيا عسكريا كركيزة تجريبية بالمنطقة أكثر منها منهجية. يحافظ هذا الجهاز على السكان في شرك محكم وتجبره على أن يظهر موقف الخضوع الصارم وإلا فسيحكم عليها بالإعدام. مستشار سياسي، أعضاء محكمة، جامعي

تبرعات، هم في الدوار لكي يذكروا السكان في كل وقت وفي كل مكان بواجباتهم تجاه جيش التحرير الوطني» A.O.M 81F14³⁵ ليستدرك بعد ذلك بالقول: « يبقى السكان بالمناطق التي لم يتمركز بها جيش التحرير سديدي الرأي بشرط أن يحسوا أنهم محميين من جانبنا. غير أن هذا الأمر غير صحيح في الكثير من جوانبه لأن توالي الأحداث قد غير كثيرا في طريقة رؤية هؤلاء للأمر واستشراف المستقبل. لقد بدأت فكرة التطور وحتى فكرة الاستقلال تشق طريقها حتى في الوسط الريفي»³⁶. وكتبت جيرمان تيون تقول: « قبل 1956، لم يكن الجهاز الثوري معروفا لدى الرأي العام المسلم، وإلى هذا التاريخ ظل الشعب في الجبال يخلط بين جيش التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني. مع ذلك، ترك الشعب نفسه بداية من ديسمبر 1955 يهيكل من طرف الشبكات الوطنية. وبداية من فيفري إلى أفريل 1956 عُممت الحركة بسرعة غير معقولة و بدأ الانضمام في شكل جماهيري والبحث عن اللقاء بقيادة الجبهة والجيش وتقديم الدعم المادي³⁷. ومع نهاية 1956 تحققت العملية وانتهت³⁸.

5- تأثير الهجومات على نشاط المجالس المنتخبة بالجزائر:

يبدو أن تأثير الهجومات على المنتخبين في المجالس المحلية و النيابية كان واضح المعالم فقد جاء في تقرير قدمه جاك سوستيل بتاريخ 27 أوت 1955 إلى وزير الداخلية حول نتائج 20 أوت بمنطقة قسنطينة: لقد كان لعمليات 20 أوت آثارا على سياسة المسلمين، فالعمليات المنفذة ضد بعض القادة المنتمين إلى الحزب الإجتماعي (الممثل بن باحمد) وإلى الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (عباس علاوة ابن أخ فرحات عباس والحاج السعيد المستشار العام) جعلتهم يغيروا من سياستهم وكثرت انتقاداتهم للإدارة الفرنسية³⁹.

لقد كان لهجوم 20 أوت 1955 إذا وقع على السياسيين المحترفين الذين كانوا حتى 19 أوت 1955 ما زالوا يلمون بإمكانية إيجاد حركة تجمع الجزائريين والأوروبيين في إطار أخوة جديدة ترفض العنف من بينهم كتلة الـ 61 المكونة من النواب الجزائريين في المجلس الجزائري والمستشارين العامين والإداريين. فعلى إثر الاجتماع الذي عقده في 26 سبتمبر 1955، أصدر هؤلاء لائحة يعلنون فيها رفضهم لسياسة سوستيل الإصلاحية ويطالبون بالإعتراف بالكيان الجزائري. جاء في هذه اللائحة: « الأغلبية العظمى للشعب الجزائري هي الآن مع فكرة الوطن الجزائري. المنتخبون الممضيين أدناه يرون أن من واجبهم أن يوجهوا عملهم نحو تحقيق هذه العملية »⁴⁰. وعن ذلك، صرح بن باحمد في 11 أكتوبر 1955: « إنها لمسألة أمانة من جانبنا نحن المنتخبين نحوكم - يخاطب زملائه النواب الفرنسيين - ونحو الأمة الفرنسية أن نصارحكم بأن الشعب الجزائري أضحى لا يتبعنا، وقد طرح جانبا ما كان يرجوه ويطالب به منذ حين. وأصبحت له أماني جديدة »⁴¹. وقال بن جلول: « لا يوجد في الواقع من ينظر بعين الجد إلى نظرية الإدماج فيتحتّم إذا أن نرسم سياسة جديدة، ولكن ما هي؟ لا نستطيع أن نعرض عليكم شيئا فعليكم بسؤال الشعب. إن الانتخابات الحرة هي التي تمكنكم من تبيان حقيقة الأمر »⁴² أما علي قاضي فقد صرح: « إن من واجبنا أن ننبه من يتولون السلطة العامة إلى مسؤولياتهم وأن نقول لكم ليس هناك من إصلاحات تستطيع ان تبعث من جديد التعاون والتقارب بين الفرنسيين والمسلمين وأنكم لا تملكون الحق في أن تدجوا (في أمتكم) سكانا بالرغم منهم على حين أنهم يريدون الاحتفاظ بشخصيتهم وتقاليدهم ودينهم ولغتهم. وقد حان الوقت الذي يريدون فيه التخلي عن سياسة الأوهام »⁴³.

وقد جاء في تطور ردود فعلهم في تصريح 07 جانفي 1956: نطالب بالاعتراف... دون شرط بالوجود الحر للأمة الجزائرية وشخصيتها، حكومتها ومجلسها المنتخب الحر. ومن المستقلين نجد⁴⁴:
عن الغرفة الثانية:

مقاطعة الجزائر: ساطور قدور

مقاطعة وهران: أحمد فرنسيس

مقاطعة قسنطينة: فرحات عباس (سطيف)

آيت شعلال (رومل) سحبها

عفور صالح (الميلية)

بن سالم عيسى (المسيلة)

علي قاضي (بلزمة)

مشري عبد المجيد (تبسة) سحبها

مناطق الجنوب: بيوض حاج إبراهيم (غرداية)

كما قدم استقالتهم المستشارون العامون:

مقاطعة الجزائر: دالي باي رشيد (الجزائر)

مقاطعة قسنطينة: هجرس صادق (ميزون كاري)

لشاني محمد وآخرون

من جهة أخرى قدم القياد، الحراس، الخوجة، رؤساء الجماعات استقالاتهم وهو ما سبب خللا في الإدارة الفرنسية. وقد استقال في 10 جانفي 1956: 437 من مجموع 683. كما قدم استقالتهم مستشاري الإتحاد الفرنسي. عن القبائل وحدها قدمت الإحصاءات التالية في صفوف المنتخبين⁴⁵:
26 حالة إستقالة في أكتوبر 1955.

46 حالة في نوفمبر 1955.

69 حالة في جانفي 1956.

108 حالة في أفريل 1956.

وعليه فقد حلت الحكومة الفرنسية المجلس الجزائري في 09 أفريل 1956 وبحلول 22 أفريل 1956 وصل أحمد فرنسيس، توفيق المدني، وعباس إلى القاهرة وأعلنوا الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني في ندوة 29 أفريل 1956.

في هذه الفترة أيضا، انخفضت نسبة المسائل التي تعالجها المحاكم الشرعية الفرنسية إلى نحو 30 بالمائة بالجزائر وإلى 100 بالمائة بالقبائل⁴⁶ وظهرت محاولات للإضراب في بعض المؤسسات العمومية الفرنسية بالجزائر⁴⁷.

6- تأثير الهجومات على المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي

بفرنسا والجزائر

لقد أثرت هجومات 20 أوت 1955 كذلك على جانب من المجندين الجزائريين بفرنسا والجزائر وكمثال على ذلك نذكر أن 70 بالمائة من الأشخاص الذين كانوا في سن التجنيد سنة 1956 لم يلتحقوا بالجيش الفرنسي مقابل عدم التحاق 17 بالمائة سنة 1953⁴⁸، وقد ارتفعت نسبة الفرار من الجيش الفرنسي. ففي شهر مارس 1956 مثلا فرت كتبية كاملة بسلاحها وذخيرتها والتحقت بالثورة بناحية سوق أهراس حيث أعد الخطة وهياً عملية الفرار عبد الرحمن بن سالم ومحمد عواشيرة وكلاهما قد كانا بصف ضابط بالجيش الاستعماري. وقد وفرت الكتبية التي هدمت المركز العسكري الفرنسي عن آخره 06 مدافع هاون من عيار 80 مم، 12 مدفعا رشاشا. وكان رد فعل الإدارة الاستعمارية أن عملت على تحويل الجزائريين إلى القوات الفرنسية الموجودة بألمانيا⁴⁹.

وتذكر المصادر في هذا الإطار الإحصاءات التالية⁵⁰:

17 حالة فرار في ديسمبر 1955.

18 حالة فرار في جانفي 1956.

65 حالة فرار في فيفري 1956.

للإشارة فإنه من بداية الثورة إلى غاية بداية 1956 سجلت نحو 30 حالة فرار شهريا. بحلول شهر فيفري 1957، قدر الجنرال ديلاك نسبتها بـ 07 بالمائة في مجموع الجزائر، غير أن النسب تختلف بين 23 بالمائة لوهراڻ 48 بالمائة للجزائر و 60 بالمائة لقسنطينة⁵¹.

هذا وتشير تقارير أخرى إلى أن نسبة الفرار من الجيش الفرنسي قد ارتفعت من 0.75 إلى 1.25 من الألف. وعليه، اضطرت القيادة العسكرية الفرنسية إلى رفع تعداد الأوربيين بالجيش بالجزائر إلى 40 ثم إلى 50 بالمائة وإنقاص نسبة المستدعيين الجزائريين إلى سلك الرماة إلى نحو 10 بالمائة وإنقاص عدد الجند من 17000 إلى 6000 في الفترة التي كانت فيها جبهة التحرير الوطني تمسك بزمام المبادرة. وللوقوف في وجه ذلك قامت القيادة أيضا بتأطير الأرض والذي احتاج إلى عدد أكبر من الجند الأوربيين تحول من 200.000 إلى 400.000 خلال الفترة من جانفي إلى سبتمبر 1956⁵².

خاتمة

يبدو من خلال ما تم استعراضه من فحوى عديد التقارير الفرنسية أن هجمات 20 أوت 1955 قد كان لها الوقع الكبير على نفسية الجزائريين وعلى نشاطهم. فمن المنطوقين في صفوف جبهة وجيش التحرير الوطنيين إلى الشعب إلى المتعاملين مع الإدارة الاستعمارية كان الرد في معظمه واحد وهو إدراك أن ما

يحدث ثورة حقيقية وأن الوقت قد حان لتحديد المسار هل أنت مع أم ضد الثورة.

الهوامش:

¹ - أحسن بومالي، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى، الجزائر، المتحف الوطني للمجاهد، د س ط، ص. 246.

² - Yves Courrière, Le temps des léopards, Alger, Edition Rahma, 1993, pp. 175-193.

³ - علي كافي، مرجع سابق، ص. 85.

⁴ - عبد الرحمن رزاق، « 20 أوت 1955 - 20 أوت 1956: الذكرى المزدوجة ليوم الجهاد »، رسالة المسجد، العدد الأول، أوت 2003، ص. 69.

⁵ - Charles Robert AGERON, « L'insurrection du 20 Aout 1955 dans le nord constantinois: De la résistance armée à la guerre du peuple », La Guerre d'Algérie et les Algériens 1954-1962, Actes de la table ronde organisée à Paris le 26-27 mars 1996, Paris, Armand COLIN, 1997, p. 4

⁶ - Francis et Colette JEANSON, L'Algérie hors la loi, Paris, Editions du SEUIL, 1955, p. 317.

⁷ - A.O.M 93/4409: Rapports mensuels vus par l'IGAME, Rapport mensuel d'information sur l'activité musulmane dans le département de Constantine, mois de novembre 1955.

⁸ - عبد الرحمن رزاق، « مرجع سابق، ص. 69. »

⁹- A.O.M 93/4409, Rapport mensuel..., mois de septembre 1955.

¹⁰- A.O.M 18F/13:Rapports du commandement civils et militaires du sud constantinois,synthèse de renseignements politiques,période 11 au 31 Aout 1955,p.01.

¹¹-A.O.M 81F/14:Situation en Algérie;Evolution de la situation en Algérie1954-1955.

¹²- A.O.M 93/4409: Rapport mensuel d'information, mois d'aout 1955

¹³- عن هذه الفئة، صرح بن باحمد في 11 أكتوبر 1955: « إنها لمسألة أمانة من جانبنا نحن المنتخبين نحوكم- يخاطب زملائه النواب الفرنسيين- ونحو الأمة الفرنسية أن نصارحكم بان الشعب الجزائري أضحى لا يتبعنا ،وقد طرح جانبا ما كان يرجوه ويطالب به منذ أحيان.وأصبحت له أماني جديدة » .قال بن جلول: « لا يوجد في الواقع من ينظر بعين الجد إلى نظرية الإدماج فيتحتّم إذا أن نرسم سياسة جديدة ،ولكن ما هي؟ لا نستطيع أن نعرض عليكم شيئا فعليكم بسؤال الشعب .إن الإنتخابات الحرة هي التي تمكنكم من تبيان حقيقة الأمر. » قال علي قاضي: « إن من واجبنا أن ننبه من يتولون السلطة العامة إلى مسؤولياتهم وأن نقول لكم ليس هناك من إصلاحات تستطيع ان تبعث من جديد التعاون والتقارب بين الفرنسيين والمسلمين وأنكم لا تملكون الحق في أن تدجوا (في أمتكم)سكانا بالرغم منهم على حين أنهم يريدون الإحتفاظ بشخصيتهم وتقاليدهم ودينهم ولغتهم .وقد حان الوقت الذي يريدون فيه التخلي عن سياسة الأوهام » أنظر:عبد الرحمن بن محمد بن العقون،مصدر سابق،ص ص.514-515.

¹⁴ -Mohamed TEGUIA, Op.cit,p.107.

¹⁵- A.O.M 93/4409: Rapport mensuel ..., mois d'octobre 1955.

- ¹⁶ - سليمان الشيخ، مرجع سابق، ص ص 91-92.
- ¹⁷ -A.O.M 81F14: Evolution de la situation en algérie1954-1955 : Conséquences des évènements sur la situation économique de l'Algérie au 1^{er} janvier 1956.p.1.
- ¹⁸ -A.O.M 81F/13, Op.Cit.
- ¹⁹ - A.O.M 93/4409 : Rapport mensuel..., mois de septembre 1955.
- ²⁰ - A.O.M 93/4409 :Rapport mensuel...,mois d'octobre1955.
- ²¹ - A.O.M 93/4409 : Rapport mensuel... ,mois de janvier 1956.
- ²² - A.O.M 93/4409 :Rapport mensuel...,mois de septembre1955
- ²³ - A.O.M 93/4409 : Rapport mensuel..., mois d'aout 1955.
- ²⁴ - A.O.M 93/4409: Rapport mensuel..., mois de septembre 1955.
- ²⁵ - A.O.M 81F/14,Op.Cit.
- ²⁶ -A.O.M 93/137:Effectifs de la rebellion
- ²⁷ -A.O.M 93/4409: Rapport mensuel ..., mois de septembre 1955.
- ²⁸ -A.O.M 81F14,Op.Cit,p.4
- ²⁹ - A.O.M 81F14,Op.Cit,p.01

³⁰ - لخضر شريط وآخرون، إستراتيجية العدو الفرنسي لتصفية الثورة الجزائرية، الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 01 نوفمبر 1954، 2007، ص.275.

³¹ - A.O.M 81F14, Op.Cit, p.4

³² - Ibid, p.6

³³ - لخضر شريط وآخرون، مرجع سابق، ص.253.

³⁴ - Maurice FAIVRE, Les combattants musulmans de la guerre d'Algérie: Des soldats sacrifiés, Paris, Edition l'Harmattan, 1995, p.19

³⁵ - A.O.M 93/4409 : Rapport mensuel..., mois de décembre 1955.

³⁶ - A.O.M 93/4409 : Rapport mensuel..., mois de décembre 1955.

³⁷ - Germaine TILLON, Les ennemis complémentaires : Première partie 1957, Paris, Editions de Minuit, 1957, p.169.

³⁸ - Ibid, p.17.

³⁹ - A.O.M 81F/13, Op.Cit

⁴⁰ - Mohamed TEGUIA, L'Algérie en guerre, Alger, O.P.U, 1988, p.107.

⁴¹ - عبد الرحمن بن ابراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر:

الفترة الثالثة 1947-1954، ج3، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص.514.

⁴² - المرجع نفسه، ص.514.

⁴³ - المرجع نفسه، ص ص.514-515.

⁴⁴ – A.O.M81F/ 881:Le nationalisme algérien dans sa phase insurrectionnelle: Les évènements du 20 août 1955 dans le constantinois, Rapport du 20 Septembre 1955.

⁴⁵ –Sylvain BARTET, « Les Sections Administratives Spécialisées en Grande Kabylie 1955–1962 :Ambigüités et échecs d'une politique de pacification », Mémoire de maîtrise d'histoire, Sous la direction du Professeur de Jean-Louis TRIAUD, Université de Provence, 1997, p.118

⁴⁶ – أحسن بومالي، مرجع سابق، ص.246.

⁴⁷ – Yves Courrière, Op.Cit, pp.175–193.

⁴⁸ – Charles Robert AGERON, Op.Cit , p.343.

⁴⁹ – لخضر شريط وآخرون شريط وآخرون، مرجع سابق، ص.251.

⁵⁰ – المرجع نفسه، ص.250.

⁵¹ – Charles Robert AGERON, « La guerre psychologique de l'armée de libération nationale algérienne », », La guerre d'Algérie et les Algériens, Actes de la table ronde organisée à Paris le 26–27 mars 1996, Paris, Armand COLIN, 1997, p.343

⁵² – Ibid , p.343.

سليمان باشا الباروني وموقفه من الدولة العثمانية في آخر عهدها

د. لخضر بوطبة / قسم التاريخ والآثار / جامعة محمد لمين دباغين / سطيف 2

boutebalakhdar@yahoo.fr

الملخص باللغة العربية

يعالج المقال أحد أبرز زعماء الإصلاح ومقاومة الاستعمار الحديث في البلاد العربية وموقفه من الدولة العثمانية في آخر عهدها، كما يعالج فصل من فصول الصراع الذي ظهر جليا مع مطلع القرن التاسع عشر بين الدولة العثمانية ممثلة الخلافة الإسلامية والدول الأوروبية الطامعة في اقتسام تركتها بعد تصفيتها، ففي الوقت الذي اختار البعض الوقوف ضد الدولة العثمانية لسبب أو لآخر، بقي المصلح والمجاهد سليمان باشا الباروني وفيها لهذه الدولة، حرصا منه على وحدة الصف على الرغم مما لاقاه من ظلم على يد بعض ممثلي هذه الدولة في طرابلس الغرب، وعاش والفرنسية الباروني حياته يجاهد ضد الجهل وجاهد العدو بلسانه وقلمه وسيفه دون ملل أو كلل.

Résumé

Cet article traite l'une des figures de réforme les plus importants et la résistance au colonialisme moderne dans les pays arabes et la position de l'Empire ottoman dans leur dernier temps, aborde également un chapitre du conflit, ce qui était évident au début du XIXe siècle, entre l'Empire ottoman représentant du califat islamique et les pays européens pour Partager de l'héritage après la liquidation de cette Empire, alors

que certains ont choisi de se lever contre l'Empire ottoman pour une raison ou une autre, le réformateur et El Moudjahid Suleiman Pasha El Baroni est resté fidèle à cet état, pour le bien de celui-ci sur l'unité, malgré ce qui est arrivé à l'injustice par certains représentants de cet Etat à Tripoli, El Baroni a vécu sa vie en luttant contre un L'ignorance de l'ennemi et a lutté avec sa langue et sa plume et l'épée sans l'ennui ou la fatigue.

مقدمة:

تحتل ليبيا موقعا استراتيجيا في إفريقيا الشمالية، وتعتبر حلقة وصل بين المغرب والمشرق العربيين،¹ وهي تتربع على مساحة شاسعة وغنية بالثروة الطبيعية، تعرضت ليبيا كغيرها من بلدان المغرب العربي الحديث إلى تحرشات الدول الأوروبية المسيحية في العصر الحديث، وآخر من قام باحتلالها واستعباد أهلها فرسان القديس يوحنا²، في مطلع القرن السادس عشر، الأمر الذي جعل سكان ليبيا يطلبون النجدة من السلطان العثماني لتخليصهم من الغزاة، فاستجاب الخليفة العثماني حينئذ سليمان القانوني (1520-1566م) لندائهم ولم يجد صعوبة في طرد فرسان القديس يوحنا عام 1556،³ لسببين: أولهما قوة الدولة العثمانية في المنطقة بعد إلحاق الجزائر بها خاصة من جهة؛ ورغبة سكان ليبيا في الانضواء تحت راية الخلافة العثمانية من جهة ثانية.

وكان إخضاع إقليم طرابلس الغرب على يد درغوث ريس الذي عينه السلطان العثماني سليمان القانوني أول حاكم على هذا الإقليم، وكان درغوث ريس هذا أحد الرجال الذين تتلمذوا على يد خير الدين بربروس باشا⁴، وبذلك قضى على أحلام

وطموحات الإمبراطور الإسباني شارل الخامس الذي تحطمت أحلامه من قبل في هزيمته أمام مدينة الجزائر (1541)، كما لاحقه الأتراك في تونس كذلك إلى أن يتم إلحاقها بالباب العالي فيما بعد (1574).⁵

صراع الدول الأوروبية مع الدولة العثمانية من أجل إضعافها واقتسام

تركها:

لم تتوقف محاولات الدول الأوروبية طوال الحكم العثماني للمنطقة عن القيام باحتلال المنطقة والقضاء على حكم العثمانيين بها، في إطار الحروب الصليبية كما سبقت الإشارة، فكللت جهود هذه الدول بالنجاح حينما تمكنت فرنسا من احتلال الجزائر عام 1830 لتكون فاتحة للانقضاض على باقي الدول أو الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني الواحدة تلو الأخرى، ولا شك أن الضعف الذي كانت تعاني منه الخلافة العثمانية بداية من القرن التاسع عشر الميلادي كان له دور هام في تجرؤ هذه الدول عليها، فلم تلبث أن سقطت تونس في أيدي الفرنسيين عام 1881 ثم مصر على يد الأنجليز عام 1882 وذلك في إطار التآمر على الدولة العثمانية أو ما أسموه حينها برجل أوروبا المريض من أجل اقتسام تركتها، فلم تكن ليبيا بعيدة عن الأطماع الأوروبية،⁶ فقد تعرضت هي الأخرى لمحاولات عديدة للاستيلاء عليها، فتمكن الإيطاليون من الاستيلاء عليها عام 1911،⁷ وقبل تنفيذ الاحتلال بلغت الوقاحة بحكومة إيطاليا أن طلبت من الباب العالي تسهيل مهمة الاحتلال في إنذار شديد اللهجة لم يرد عليه الباب العالي ردا قويا لأن الموقف العثماني كان ضعيفا حينئذ،⁸ وقد أظهر الليبيون ومعهم الأتراك مقاومة باسلة لمنع الإيطاليين من الاحتلال، إلا أن تفوق الإيطاليين في العدد والعدة حال دون نجاحهم في صد الاحتلال.⁹

وقد ظهر جليا عجز الدولة العثمانية عن الدفاع عن ولاياتها منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، وساعد الإيطاليين في نجاحهم في الاستيلاء على ليبيا تفوقهم العسكري وغياب قوة عسكرية وطنية منظمة ومدربة لمواجهة العدو، إضافة إلى الثورات التي انتشرت في جسم الدولة العثمانية هنا وهناك (في اليمن والبلقان على الخصوص) مما ساهم في إضعافها من الداخل وهو ما خططت له الدول الأوروبية بإحكام.

وفي ظل الحكم العثماني تمتعت ليبيا في بالاستقلال الداخلي تحت حكم الأسرة القره مانلية¹⁰ منذ عام 1711.

وتجدر الإشارة هنا إلى حركات الإصلاح والنهضة العربية التي ظهرت بالموازاة مع تنامي الحركة الاستعمارية، ونشطها العديد من زعماء النهضة والإصلاح أمثال الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والباروني¹¹ وآخرون، وقد أدت الظروف العصبية التي كانت تمر بها الدول العربية والخلافة العثمانية إلى حدوث تقارب كبير بين الدولة العثمانية وليبيا في الإطار الديني¹².

مقاومة الاحتلال الإيطالي وعلاقة سليمان الباروني بالدولة العثمانية:

رغم التفوق الإيطالي إلى أن الوطنيين الليبيين عزموا على التصدي للمؤامرة الاستعمارية رغم الإمكانيات المحدودة والتفرقة، وكان الشيخ سليمان باشا الباروني أحد أقطاب الفكر والجهاد والإصلاح في طرابلس الغرب وصاحب جريدة الأسد الإسلامي¹³، إذ يذكر أبو القاسم سعد الله أنه كان بحكم القناعة والوظيفة من أنصار الجامعة الإسلامية¹⁴ التي كان الأفغاني رائدها، بل ظل متمسكا بها حتى بعد الإطاحة بالخلافة الإسلامية وصعود كمال أتاتورك إلى الحكم، حيث تعاون مع الاتحاديين والألمان

للإطاحة بالإيطاليين خلال الحرب العالمية الأولى، وكان مصير الباروني الاضطهاد والتشريد مثل المجاهدين الليبيين الآخرين الذين قاوموا الاحتلال الإيطالي بشتى الوسائل والطرق¹⁵.

و من المهموم التي كان يحملها سليمان باشا الباروني اختلاف الأمة الإسلامية وتفرقتها، وهو يرى الخطر الأوروبي الداهم يحدق بها¹⁶.

إن أول ما يستلفت نظر الباحث في حياة" سليمان الباروني" الشاب، هو حبه للأدب، وإخلاصه للدين، وتطلعه إلى بناء دولة إسلامية ترقى إلى ما يليق بها من مستوى بين أمم الأرض. وهكذا كان إعجابه بالغا بالدولة العثمانية، التي تجمع بعض الشعوب العربية والإسلامية والتي كانت تمثل الخلافة الإسلامية، وهي كل ما تبقى من عز الأمة العربية والإسلامية، ومن الوقائع التي حدثت له بسبب إعجابه وحبه للدولة العثمانية ولسلاطينها أنه في إحدى المرات كان يمرن يده على الخط العربي ، كان يطيب له أن يجلو خطه بكتابة أسماء سلاطين آل عثمان الذين يحبهم فقلد متأنقا الطغراء العثمانية الشهيرة فأمعن في تسليته فخط على وريقة صغيرة، طغراء باسمه، فكتب السلطان سليمان الباروني ثم جعل هذه الوريقة بين أوراقه الخاصة ولم يكن يدرك أن ذلك الرسم سيحلب له المتاعب والمشاق حيث عثرت عليها السلطات في إحدى عمليات التفتيش التي خضع لها كما سيأتي ذكره.

وكان الباروني صاحب فكر نير، وبعد نظر يؤمن بفكرة الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة وله في ذلك مواقف ونوادير، منها أنه كان في مجلس أستاذه الشيخ اطفيش¹⁷،

الذي كان ينكر التصوير الفوتوغرافي ويعده بدعة وكانت الحرب حينئذ قائمة بين الدولة العثمانية واليونان، فأخذ الباروني الشاب يحدث أستاذه عن انتصارات العثمانيين المظفرة على أعدائهم، ويطلععه في ذلك على مجلة مصورة، شارحا له ما فيها من صور تمثل أبطال آل عثمان وهم على صهوات خيولهم، وجنود اليونان صرعى هنا و هناك فراق له ذلك ولم يخف إعجابه بالمشهد¹⁸.

والظاهر أن متاعب سليمان الباروني بدأت مبكرة وهو لا يزال شابا حيث تعرض إلى المضايقات و الاستجابات، و الأحكام بالسجن و النفي ، من طرف الحكام العثمانيين، بتهمة السعي إلى فصل طرابلس الغرب عن الدولة العثمانية، و التعاون مع فرنسا عقب عودته من وادي ميزاب 1898م؛ حيث اعتقل في المرة الأولى، بعد أن وجد في أمتعته مسودات الكتاب الذي كان بصدد تأليفه عن المذهب الإباضي، و الرسالة التي جاءت من أحد الناقمين على العثمانيين. وكان شائعا حينئذ عن المذهب الإباضي أنه لا يعترف بالخلافة العثمانية، ويحض على الخروج عليها وقرءوا، في رسالة بين أوراقه الخاصة، كان قد تلقاها من ناظم على العثمانيين "وأما الدولة العثمانية، فهي أشبه بسراب، يحسبه الضمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا دليل ثانٍ، أشد من الأول نكرا وأما الثالثة فتلك الطغراء المقلدة، التي خطها الشاب سليمان يوما، وتأنق في خطها السلطان سليمان الباروني وهي أدلة كفيلة بأن تضرب عنقه في ذلك العهد وفي كل عهد يشيع فيه الدس والتجسس والتأويل ، وهو المتفاني في حب آل عثمان وأنى له أن يبرى فحوكم وحكم عليه بالحبس المؤبد فالتهم كانت جسيمة، وتصب كلها في جريمة واحدة العمل

ضد أمن الدولة وهاج الناس لما تسامعوا بالحكم . واستاء العقلاء، ومنهم الوالي العثماني هاشم باشا نفسه، نظرا لما يعرفون من براءة الباروني، وصدقه، وإخلاصه وتسكيننا للخواطر أخلت محكمة الاستئناف سبيله بكفالة جماعة من الأعيان، على أن يحلف على المصحف على الإخلاص للدولة والسلطان¹⁹ .

وقد تسبب اعتقاله في حدوث احتجاجات شديدة قام بها العامة و العقلاء ضد هذا القرار، الذي اعتبروه جائرا و متعسفا في حقه.²⁰ إن الوقفة التي سجلها هؤلاء مع الرجل لدليل كاف بمكانة الرجل وعظمة شأنه لدى الناس، فقد أدركوا أن سجن الباروني أو نفيه إنما يعود بالخسران على المنطقة برمتها.

ولكن حكم البراءة رُفِع في حينه عام 1898 إلى المراجع العليا في الآستانة عاما آخر. فرأت المحكمة أن الأدلة دامغة، وحكم المحكمة بالبراءة مناف للقانون فردت الدعوة إلى طرابلس، وطلبت إعادة النظر فيها من جديد، على مقتضى الحق والعدل، وتم إلقاء القبض عليه من جديد، في عام 1900 فاضطر قائمقام فسَّاطو، محمد بك الأسير البيروتي إلى أن يتولى بنفسه القيام بهذا الإجراء القاسي، ترافقه قوة من الدرك والمشائخ، وتلقى سليمان الباروني الحكم بالحبس مدة خمس سنين على أن يقضيها في جزيرة رودس، واضطرب الجبل الغربي لهذا الحكم فرأى النائب العام إبقاء السجين في طرابلس، خشية الفتنة فلبث في سجن طرابلس، فترة كان خلالها الوالي الآخر حافظ باشا، يقوم بمساعٍ حميدة لتخفيف الحكم، عنه فأطلق سراحه بعد عام، بضمانة أعيان الجبل الغربي وأعيان طرابلس، على أن يبقى تحت أعين الشرطة، فلا يتجاوز سور طرابلس

طوال العام التالي، وكان وهو وراء القضبان قوي الإيمان بعدالة الله، لم يتسرب الوهن إلى نفسه قط.²¹

ويبدو أن علاقة سليمان الباروني بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني²² كانت طيبة إذ نجده يرسل له شكوى بعد أن أَلقت السلطات الحاكمة في ليبيا عليه القبض وهو راجعا إلى طرابلس قادما من وادي ميزاب بالجنوب الجزائري، وقد اتهمته بالتمذهب والتحضير للتمرد باسم سكان الجبل الغربي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وتبع شكواه بقصيدة طويلة يمدح فيها هذا السلطان.

إلا أن متاعب الباروني يبدو أنها لم تنته، فرغم عواطفه الميالة للدولة العثمانية، وحبها لها ولسلاطينها، فإنه مُنع من دخول تركيا في عهد كمال أتاتورك بحجة أنه انتقد سياستها القائمة على اللائكية.

وكانت لسليمان الباروني مراسلات مع بعض الزعماء والرفقاء في السلاح أمثال الأمير علي بن الأمير عبد القادر²³ وكانت تلك المراسلات تتمحور حول محاربة الإيطاليين ومناصرة العثمانيين ودعم القضية الإسلامية.²⁴

ولا شك أن السلاطين العثمانيين أدركوا مكانة وقدر الشيخ الباروني لدى أهله من طرابلس الغرب والجبل الغربي، وسمعتة الطيبة الواسعة فقاموا بتعيينه رسمياً عضواً في مجلس الأمة العثماني (مجلس المبعوثان) ممثلاً طرابلس الغرب حينما كانت من بين ولايات الدولة العثمانية كان ذلك في 24 يوليو 1907م، كما عين عضواً في مجلس الأعيان العثماني فلبث فيه إلى سنة 1919 ميلادية في عهد مصطفى كمال.²⁵

ورغم ما تعرض له الباروني من متاعب ومشاق على يد رجال الدولة العثمانية، إلا أن ذلك لم يغير من مواقفه اتجاه الباب العالي في شيء، لأنه كان يدرك أن الولاء للدولة واجب تقتضيه الظروف الراهنة في وقت كانت الدولة العثمانية في أمس الحاجة إلى الالتفاف حولها، والتضامن معها ضد الأعداء المتآمرين في الداخل والخارج، فظل سليمان الباروني يجاهد بسيفه وقلمه ولسانه الغزاة الإيطاليين، بتدعيم من الدولة العثمانية واستطاع أن يؤسس مع مجموعة من رفاقه سنتي 1918-1919 مجلس الجمهورية الطرابلسية، وكان هو أحد أعضاء هذا المجلس، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى خابت آماله بانتصار الحلفاء على ألمانيا وتركيا، وذاقت الأرض بالباروني فلم يعد مرغوبا فيه لا في تونس ولا في الجزائر حيث كان الاستعمار الفرنسي يسيطر على الدولتين، ولا في تركيا، فاستقر به المقام في الحجاز بادئ الأمر، ثم دعاه الملك فيصل إلى بغداد التي أقام بها مدة من الزمن ليرحل بعدها إلى مسقط.²⁶

وكان المجاهد سليمان الباروني من أشد المعارضين لقبول السلطات العثمانية التفاوض مع الإيطاليين في الشأن الليبي،²⁷ حيث احتج بشدة في مجلس المبعوثان الذي كان عضوا فيه حيث قال: (إننا إلى الآن نحارب باسم العثمانيين والطرابلسيين، فإذا أبرم الصلح على ما لا يرضينا أمكننا الاستمرار في الحرب باسم الطرابلسيين فقط إلى آخر قطرة من دمائنا، وليس بيننا متقاعس عن الحرب أو ميال إلى العدو أو مسالم له، وقد أوجبنا الحرب على كل قادر دون استثناء، ومادامت الدول العظمى ملتزمة بالحياد، فإننا نحارب باسم دولتنا وموطننا، وقد ظهر منها الوقوف في طريق انتصاراتنا وقوف غير مشروع فإننا نعد ذلك تعصبا ولذلك سنحارب باسم الدين فقد،²⁸ ولم يكثر لتلك المعاهدة واستمر في جهاد الطليان، إلى أن اضطر إلى السفر إلى اسطنبول عام 1913

وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عاد إلى طرابلس عام 1915 وذلك بعد أن عينته السلطة العثمانية حاكما عليها. فظل يكافح الطليان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.²⁹

وكان سليمان الباروني رجل مجاهد ذا شخصية فذة لا يخشى في الله لومة لائم ولا يسكت على الباطل ولا على إهانة أو مس بكرامته، فقد رد في رسالة على القائد الإيطالي الذي حاول النيل من شخصه و من مقاصده في الكفاح في رسالة قوية قائلاً: (ليكن في علمكم إنني لست متقلبا، ولا غدارا ولا محبا للمال، ولا معاديا للإصلاح والمدنية ولكني رجل عارف قيمة الوطن، ومعنى الدين ولذة الحرية وفضيلة الشرف... وإني لأستسهل من جنب حرية النفس كل صعب، وها أنا آكل من الطعام أحسنه، وأنام على الأرض متوسدا سرج فرسي، وأشرب الماء المالح تارة والمر أخرى، وأسير في الليل المظلم الممطر، ولا أرى هذا إلا ألد من الشهد، ولا يزيد جأشي إلا ثباتا)³⁰

ورغم المفاوضات التي جرت في ظروف حرجة كانت تمر بها الدولة العثمانية ، إلا أن الباب العالي ظل يدعم الليبيين في جهادهم، حيث أعلن السلطان العثماني استقلال ليبيا الذاتي وأسند قيادتها إلى السنوسي.³¹

كان سليمان الباروني من أبناء جيله المغاوير الذين كانوا يعتزون بأصولهم ومذهبهم، وكان شديد التعلق بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني، وأثناء الحرب العالمية الأولى عينته الدولة العثمانية واليا على طرابلس فقاد حركة الجهاد بها ضد الإيطاليين، وكان ينسق مع الألمان ولجنة الاتحاد والترقي، وبعد نهاية الحرب لم تف إيطاليا المنتصرة بوعودها للشعب الليبي الذي يبدو أنه لم يكن معني بمبادئ ولسون المتعلقة بحق الشعوب في تقرير مصيرها.³²

ومهما يكن من أمر فقد ظل الباروني وفيما إلى الدولة العثمانية حتى بعد أن باعت طرابلس على حد تعبير أبو القاسم سعد الله، وحتى أن بدّل كمال أتاتورك وغيره، وبعد أن منعت السلطات العثمانية التركية من دخول أراضيها.³³

ومن خصال الباروني ثباته على مواقفه، إذ نجده كان من أشد المعارضين لثورة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية وظل على نفس الخط حتى عندما كتب إلى الشريف حسين يستأذنه في السماح له بأداء فريضة الحج، وكان قد كتب مقالا في جريدة ينتقد فيه سياسة الشريف حسين وتحالفه من الإنجليز، ولكي يبين له موقفه الثابت أرسل له نص المقال مع الطلب، فسمح له الشريف حسين بأداء فريضة الحج واستقبل هناك بحفاوة.³⁴

وكان الشيخ سليمان باشا الباروني يتطلع فيما كان يتطلع إلى إصلاح المجتمع في وطنه الصغير ليبيا وفي وطنه الكبير العالم العربي والإسلامي، وكان يأمل إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية من خلال المشاريع الإصلاحية التي أطلقها، وجهوده التعليمية والثقافية التي بذلها في سبيل العمل على إخراج الأمة مما كانت تتخبط فيه من جهل وتخلف وضعف، كما تجلّت آماله في الإصلاح من خلال الإخلاص التام الذي أبداه اتجاه الخلافة الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية، إدراكا منه بأن قوة الدولة العثمانية هي قوة للإسلام الذي أخذ الغرب يتربص به الدوائر، فظل حريصا في حياته بعظمة المسؤولية، فكان يسعى جاهدا لربط علاقات ثقافية واجتماعية مع كل الزعماء الإسلاميين بما فيهم شيخه وقدوته ومنهجه الشيخ محمد بن يوسف أطفيش.³⁵

خاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول أن الشيخ سليمان باشا الباروني كان مجاهدا من الطراز الأول وقد قال عنه أحمد الشريف السنوسي أنه دافع عن طرابلس وبرقة وأنه الرجل المجرب والعاقل، أما عبد العزيز الثعالبي فقد قال إن الباروني اكتسب مجده بالسيف³⁶، وظل الباروني وفيما للدولة العثمانية لفكرة الجامعة الإسلامية فكان معارضا لثورة الشريف حسين في الحجاز ضد الدولة العثمانية.

كما ظل الباروني وفيما ومعجبا بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي تبني فكرة الجامعة الإسلامية بعد جمال الدين الأفغاني، رغم تعرضه للمضايقات والاعتقالات على يد الدولة العثمانية، فلا شك أنه كان يرى أن السبيل الوحيد لتوحيد كلمة المسلمين وبالتالي تغلبهم على الخطر الداهم يتمثل في الالتفاف حول فكرة الجامعة الإسلامية التي كان يرى أنه من الممكن تحقيق وحدة المسلمين لأن كل الشروط الموضوعية متوفرة.

المصادر والمراجع:

¹ زهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 409.

² كان مركز فرسان القديس يوحنا جزيرة رودس، وبعد أن تمكن الأتراك العثمانيون من إخضاع هذه الجزيرة لسلطتهم نقل هؤلاء الفرسان نشاطهم البحري إلى جزيرة مالطة، وكان يقودهم القرصان الشهير أندري دوريا المعروف بتعصبه للدين الكاثوليكي وتحالفه مع الإمبراطور الإسباني شارل الخامس الذي أغار على منطقة المغرب العربي بهدف السيطرة والتوسع والقضاء على الإسلام في إطار حروب الاسترداد التي أعلنها جده فرديناند الكاثوليكي والملكة إيزابيلا ضد المسلمين بتحريض من أسقف كنيسة طوليدو الكاردينال فرانشيسكو خيمينيس Francisco Xéminès المعروف بعداءه للمسلمين، وملاحقتهم في البلاد المغاربية، فتعرضت السواحل المغاربية إلى الغزو الإيبيري (الإسباني والبرتغالي)، وشهدت مدنه حملات عسكرية إسبانية مسعورة انتهت باحتلال معظمها.

³ عزيز سامح إتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، دار النهضة العربية ، ط1، 1989.

محمد فريد بك: الدولة العثمانية العلية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت.

⁴ محمد العربي الزيري: مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1985، ص29.

⁵ لمزيد من المعلومات ينظر، عزيز سامح إتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، دار النهضة العربية ، ط1، 1989.

وكذلك ، محمد فريد بك: المرجع السابق.

⁶ حول مؤامرة الاستيلاء على ليبيا راجع، د. سلام محمد علي حمزة الأسدي: «الغزو الإيطالي لليبيا 1911 بين التسويات الدولية والاستعداد العسكري 1878-1911»، دراسة تاريخية وثائقية تحليلية، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، عدد 33، أيلول 2013.

⁷ عبد المنعم الهاشمي: الخلافة العثمانية، دار ابن حزم، بيروت، 2004، ص 571.

⁸ كان الباب العالي يمر في هذه الفترة بظروف لم يكن يحسد عليها حيث أثارت الدول الأوروبية التنافسة عليه شعوب البلقان وحرضتها على الثورة والاستقلال، كما كان الدب الروسي يبحث عن منفذ بحري يوصله للمياه الدافئة فكان هو الآخر يثير المشاكل على الحدود مما جعل مركز الباب العالي ضعيف أمام كثرة الأعداء من الداخل والخارج.

⁹ لمزيد من الإطلاع حول الاحتلال الإيطالي ومقاومة الليبيين راجع:

أحمد رفعت عبد العزيز سيد، محمد أحمد الطوير: تاريخ الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي 1911-1931، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 1965.

عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي 1516 - 1922، منشورات دار المعرفة، الجامعية، 1997.

عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة 1815 إلى 1960، بيروت، دار النهضة العربية، 1974.

بالخير، الهاشمي محمد، الهاني: الغزو الإيطالي وبداية حركة المقاومة المسلحة، 1985.

¹⁰ مؤسس الأسرة هو أحمد باشا القره مانلي وهو من أصل تركي تمكن من أن ينشئ لنفسه ملكا في ليبيا كما فعل محمد علي باشا بعده في مصر. واستمرت الأسرة في حكم ليبيا حتى قيام الثورة الليبية عام 1969.

¹¹ لمزيد من التفاصيل ينظر، إبراهيم أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، المطبعة العربية، الجزائر: 1959م.

¹² جعلت العديد من الحركات السياسية في الوطن العربي في الفترة نفسها من القومية العربية منطلقا لها في عملها السياسي والأدبي. كما في سوريا ولبنان على سبيل المثال.

¹³ جريدة دينية سياسية أدبية أسبوعية، صدرت في أوائل سنة 1907م، و كان شعارها الآية الكريمة: ﴿و قل جاء الحق و زهق الباطل كان زهوقا﴾، توقفت عن الصدور بعد ثلاثة أعداد (العدد الأول: 12 أوت 1907م، العدد الثاني: 14 أبريل 1908م، العدد الثالث: 23 أبريل 1908م).

¹⁴ حول موضوع الجامعة الإسلامية ينظر، ينظر محمد عمارة: الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية- نموذج مصطفى كامل، ط1، دار الشروق، بيروت، القاهرة: 1994م، ص124 و ما بعدها.

¹⁵ أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003، ص216.

¹⁶ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص393.

¹⁷ الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف أطفيش - 1305 (1385 هـ/1888-1979) هو رجل دين وأديب وفقهه إباضي جزائري من أهل بني يزقن في وادي ميزاب،

كان من كبار العاملين في سبيل وحدة المسلمين كما في تعبير بعض من ترجموا له. وانتقل في مرحلة من مراحل حياته إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وشارك في حركة تونس الوطنية بزعامة عبد العزيز الثعالبي، ولا سيما في مقاومة الفرنسيين مما اضطرهم لإبعاده إلى مصر. وفي مصر أنشأ مجلة المنهاج، وعمل في دار الكتب المصريّة، فشارك في تحقيق بعض كتب التراث، ثم كان ممثلاً عن دولة إمارة عُمان في جامعة الدول العربيّة، ورئيساً لوفدها الرسمي في هيئة الأمم المتحدّة، وكان قبل ذلك قد أسّس أول مكتب سياسي لعُمان في القاهرة. كان الشيخ أطفيش يكتب المقالات، وله العديد من المقالات السياسيّة والاجتماعيّة كانت تنشر في بعض المجلّات والصحف المصريّة.

¹⁸ فاضل السباعي وآخرون: سليمان الباروني (المعلم المقاتل)، ص ص 6-7.

¹⁹ فاضل السباعي: المرجع نفسه، ص 11.

²⁰ يُنظر إبراهيم أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، المطبعة العربية، الجزائر: 1959م

²¹ فاضل السباعي وآخرون: المرجع نفسه، ص ص 10-11.

²² أسالت الكتابة عن السلطان عبد الحميد الكثير من الخبر، فكتب عنه الأصدقاء والأعداء، وكثر المهتمون بالكتابة حول حياته السياسيّة والخاصة، كما اهتموا بإنجازاته، ومن ضمن الشخصيات البارزة التي كانت معجبة به نذكر على سبيل المثال لا الحصر الثائر والمصلح جمال الدين الأفغاني الذي قال فيه: « إن السلطان عبدا لحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جلسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته سواء من ذلك الملك والأمير والوزير والسفير.

ويقول أيضاً: أما مارأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموماً، فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين، أن الممالك الإسلاميّة في الشرق لا تسلم من شرك أوروبا،

ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها ، وفي الأخير ازدهارها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم « .المصدر: عبد العالي سعد الرشيدى: السلطان العثماني عبد الحميد الثاني المفترى عليه، منتدى صيد الفوائد، <https://saaid.net/Minute/693.htm> لمزيد من المعلومات حول هذا السلطان يُنظر:

علي حسون: العثمانيون والروس.
تيلماز أوزتونات : تاريخ الدولة العثمانية

علي محمد الصلابي: السلطان عبد الحميد وأسباب زوال الخلافة العثماني، المكتبة العصرية، السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية 1891-1908، مؤسسة الرسالة. الأميرة عائشة عثمان أوغلي: والدي السلطان عبد الحميد الثاني. علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط.

²³ لمزيد من المعلومات حول تعاون الباروني مع أحفاد الأمير عبد القادر في جهاد الإيطاليين أنظر:

سومية بوراس: "أسرة الأمير عبد القادر في المشرق بين السياسة العثمانية والسياسة الفرنسية"، جامعة قسنطينة2- جامعة عبد الحميد مهري، الجزائر. 2015.

²⁴ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص405.

²⁵ موسى بن ذاکر الحربي: مصطفى كمال وإلغاء الخلافة، منتدى صيد الفوائد، <https://saaid.net/Minute/693.htm>

²⁶ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص398-399.

²⁷ أثمرت المفاوضات بين إيطاليا والدولة العثمانية لصالح الإيطاليين بتوقيع معاهدة الصلح نصت على توقيف الحرب بين الطرفين وسحب الدولة العثمانية الجيوش والموظفين من ليبيا، وبنود أخرى ليست في مصلحة الليبيين الذين لم يشاركوا في هذه المفاوضات. لمزيد من التفاصيل يُنظر:

محمد مصطفى بازامة: تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، في العهد القرمانلي، في العهد العثماني الثاني، 3 أجزاء، قبرص: دار الحوار، 1994.

و محمد مصطفى بازامة: العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا. طرابلس، مكتبة الفرجاني، 1965.

²⁸ فاضل السباعي: المرجع نفسه، ص 6.

²⁹ زهية قدورة: المرجع نفسه، ص 435.

³⁰ فاضل السباعي: المرجع نفسه، ص 8.

³¹ زهية قدورة: المرجع نفسه، ص 431.

³² أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 408.

³³ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 406-407.

³⁴ فاضل السباعي: المرجع نفسه، ص 11.

³⁵ من أعلام الفكر الإباضي، الشيخ سليمان الباروني باشا،

³⁶ أنظر، أبو اليقظان: سليمان الباروني، ج2، المطبعة العربية، الجزائر، ص 107.

أحمد بن بلة و الفكر القومي الناصري و ملامح تجسيده

في قيادة الدولة الجزائرية

د/سفيان لوصيف /جامعة محمد لمين دباغين /سطيف 2

sofianeloucif@yahoo.fr

الملخص:

يعالج المقال بالدراسة و التحلي شخصية أحمد بن بلة الرئيس الأول للجزائر المستقلة، و الذي تأثر إلى حد بعيد بفكر الرئيس المصري جمال عبد الناصر، و هذا منذ بدايات الثورة الجزائرية، فقد اعتبره بن بلة قائد مشروع الوحدة العربية، و عمل على التأسيس لفكره في بناء الدولة الجزائرية المستقلة، لاسيما مسألة التخلص من الإرث الاستعماري الفرنسي القائم أساسا على مشروع الفرنسية، و عمل على استعادة مقومات الشخصية الجزائرية خاصة مسألة التعريب، هذا الأخير سوف يعرف خلافا بين مختلف النخب السياسية و الثقافية.

Summary:

The article deals with the study and personalization of Ahmed Ben Bella, the first president of independent Algeria, which was greatly influenced by the thought of Egyptian President Gamal Abdel Nasser. Since the beginning of the Algerian revolution, Ben Bella has considered him the leader of the Arab unity project. The Algerian independent state, especially the issue of dispossession of the French colonial heritage based on

the French project, and worked to restore the characteristics of Algerian personality, especially the issue of Arabization, the latter will know the difference between different political and cultural elites.

مقدمة:

كان الرئيس أحمد بن بلة ناصري الفكر، و عروبي التوجه و الإيديولوجيا، اعتنق الفكر القومي العربي و ناضل من أجله منذ ثورة الجزائر ضد الفرنسيين، التي اعتبرها المخلصة من عبودية الاستعمار، و كان جمال عبد الناصر و مصر خير معين له، فاستقبل بالقاهرة و هناك تشبع بالعروبة أيام كانت مصر حامية لها، و حين قاد دولة الاستقلال في الجزائر رئيسا عكف أحمد بن بلة على تجسيد أفكاره، التي آمن بها رغم صعوبة المهام لحداثة الاستقلال و إرث الاحتلال الفرنسي الذي زاد عن قرن و ثلاثين سنة، نذكر منها فكرة عروبة الجزائر و تحقيقها على أرض الواقع من خلال تقليص هيمنة لغة المحتل الفرنسي التي سادت و عمت.

أولاً: أحمد بن بلة: سيرة زعيم عربي

ولد أحمد بن بلة سنة 1916 في مدينة مغنية ولاية تلمسان غرب الجزائر، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه، ثم واصل تعليمه في المرحلة الثانوية بتلمسان، و بعدها لم تسمح له سلطات الاحتلال الفرنسي بمواصلة التعليم، و خلال الحرب العالمية الثانية أجبر على التجنيد الإجباري في صفوف القوات الخاصة الفرنسية، و حتمت عليه الظروف أن يخوض المعارك القتالية في ساحة الحرب إلى جانب فرنسا و حلفائها، و قد أظهر شجاعة و بطولة في القتال بالجبهة الإيطالية مما دفع بالجنرال ديغول آنذاك منحه وسام الاستحقاق¹.

و بعد مجازر ماي 1945 التي ارتكبتها الفرنسيون في حق الجزائريين التحق بالنضال الوطني، و انخرط في صفوف حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، و خاض مع حزبه الانتخابات و انتخب نائبا لرئيس بلدية مغنية، و خلال تشكيل المنظمة الخاصة الجناح العسكري للحزب كان أحمد بن بلة مسؤولا في توعية و توجيه و تنظيم المناضلين الوطنيين القادرين على حمل السلاح في خلايا سرية، ثم تولى مسؤولية الإشراف على القطاع الوهراني في غرب الجزائر، و لكفاءته و خبرته العسكرية أصبح مسؤول المنظمة السرية على المستوى الوطني، فخطط و دبر و شارك مع رفاقه في عملية الاستيلاء على أموال البريد المركزي لمدينة وهران سنة 1949 التابع آنذاك للإدارة الاستعمارية، و بعد اكتشاف المنظمة الخاصة قبضت عليه السلطات الفرنسية، و حكم عليه بالسجن و عذب عذابا شديدا، و استطاع الفرار من السجن سنة 1952، و ربط الاتصالات بين قيادة و مناضلي الحزب عبر التراب الجزائري من جديد.

استقر في القاهرة و هناك عمل في مكتب لجنة تحرير المغرب العربي رفقة المغاربة في التنسيق و التشاور و العمل المشترك لتوحيد صف المقاومة المسلحة المغاربية ضد عدو واحد، لنيل أقطار المغرب العربي الثلاثة المغرب، الجزائر، تونس الاستقلال التام، و الانضمام إلى الجامعة العربية مع رفض فكرة الدخول في الاتحاد الفرنسي بأي شكل من أشكاله و فكرة السيادة المزدوجة، و عند اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954 عين منسقا عاما في الخارج لجلب الأسلحة².

في 22 أكتوبر 1956 اعتقل أحمد بن بلة و رفاقه محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، محمد خيضر، بعد عملية قرصنة جوية لطائرة مغربية على متنها زعماء الثورة الجزائرية، كانت متجهة من المغرب نحو تونس، و أرغمت على النزول في مطار الجزائر، و تم سجن الزعماء الخمسة بسجون فرنسا إلى غاية إيقاف القتال 19 مارس 1962

حيث تم إطلاق سراحهم، و بعد إعلان استقلال الجزائر تولى أحمد بن بلة قيادة الدولة الفتية إلى غاية 19 جوان 1965³.

ثانيا: أحمد بن بلة و الفكر القومي الناصري:

لما قامت الثورة المصرية سنة 1952 جعل منها جمال عبد الناصر من فكرة وطنية إلى فكرة قومية، و قبله كانت لا توجد في مصر إلا إشارات إلى العرب أو العروبة ككل، و إنما كانت الفكرة الراسخة في مناهج التعليم و في الصحافة و الإعلام و الشعر هي الشعارات الوطنية، و بعد أن جاء جمال عبد الناصر أنشأ إذاعة صوت العرب، و الصحافة العربية، و الفكر العربي، و الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، فأجج الفكر العربي القومي، من خلال دعمه للحركات التحريرية العربية و دعم مختلف القضايا و الاهتمامات العربية.

يقر أحمد بن بلة أنه كان من المتأثرين بجمال عبد الناصر، الذي كان يحظى بسمعة جماهيرية عربية واسعة، و قد أيد جمال عبد الناصر الثورة الجزائرية و كان يدعمها بالسلاح، و أعطى كل التسهيلات و الإمكانيات لوفد جبهة التحرير الوطني الذين أقاموا في القاهرة، و منها شرعوا في التعريف بالثورة الجزائرية في العالم العربي و العالم. في حصة شاهد على العصر مع أحمد منصور ذكر أحمد بن بلة أن مصر كانت من أوائل الدول العربية التي ساعدت الثورة الجزائرية في البداية، و عانت كثيرا من أجل ذلك، مبينا إلى تعرضها في عام 1956 للعدوان الثلاثي من قبل فرنسا و بريطانيا و إسرائيل، و تحدث عن علاقاته بالرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر، مؤكدا أن الجزائر و مصر كانتا في ذلك الوقت "صوتا واحدا و اتجاهها واحدا و تعاوننا واحدا"، و غداة استقلال الجزائر لم يتنكر بن بلة لفضل عبد الناصر على الثورة الجزائرية فعزم التنسيق و العمل المشترك مع مصر في كل المستويات و خصوصا فيما يتعلق بالقضايا العربية الفاعلة و تدعيم حركات التحرر في العالم الثالث.

ثالثا: بن بلة و استعادة عروبة الجزائر

كانت مسألة التعريب تطرح و بشكل حاسم يدفع اللغة العربية إلى الأمام، فالنصوص السياسية موجودة، فبعد صدور ميثاق طرابلس سنة 1962 أكد دستور الجزائر سنة 1963 أنها اللغة الوطنية و الرسمية، لكن تجسيد ذلك في ظل وجود أطراف معارضة يعد أمرا ليس بالهين، هذا ما جعل موقف القيادة السياسية للبلاد تصر على التعريب، فتصريحات أحمد بن بلة ظلت لفترة كانت دائما تصف حالة الوضع المعرقل للتعريب مثل قوله⁴: « بخصوص التعريب أشير إلى أنه مشكل عويص، لم يغب عنا لأننا حاولنا أن نقدم حلا مؤقتا لأنه ليس بالسهل حله بين يوم و آخر ».

كان التعريب منذ الاستقلال محل خلاف بين المثقفين، بظهور توجهين أحدهما يؤمن بالتعريب و الآخر يدعو للازدواجية، و هذا ما فتح المجال للمفاضلة بين اللغتين و طرح مسألة أيهما أصلح، معرفة مطالب كل طرف و حججه تستلزم معرفة الخلفية التي ينطلق منها كل واحد و الأهداف التي يصبوا إليها، الفرق بين الفئتين هو طبيعة الثقافة التي يستلهم منها كل توجه أفكاره، فالمناصر للتعريب يتحكم في قواعد اللغة العربية و آدابها و يمثل نمط الثقافة العربية الإسلامية و له إحساس الانتماء إليها، أما المتأثر بالثقافة و اللغة الفرنسية يأخذ رموزه من العالم الغربي الذي يكون الدخول إليه باللغة الفرنسية⁵.

تعتبر إشكالية التعريب أكثر صعوبة في التناول و التحليل لتعدد مكوناتها، فدعاة التعريب يعتبرون أن العربية تستمد شرعيتها في الجزائر من مصدرين اثنين الإسلام و كفاح التحرير الوطني، و كلاهما ضد الاستعمار ومنه فالفرنسية ببساطة لغة المستعمر، أما العربية عنصر أساسي من عناصر الكيان الحضاري للمجتمع الجزائري و شخصيته الوطنية، فهي كما عبر عنها العربي ولد خليفة بقوله⁶: « هي البداية و النهاية و إلى الأبد خزان تراثنا المشترك و الرابطة التي تجمع شعبنا، و بجملة واحدة هي نحن ضعفا و مهانة قوة و مهابة هي مرآة ما نحققه من تقدم ».

يستند دعاة التعريب إلى أفكار الفلاسفة و الباحثين في قضايا علم الاجتماع و التربية، الذين يرون أن اللغة الوطنية لغة الإبداع و أن ما هو وطني لا يمكن أن يكون إلا بها، يقول الفيلسوف الألماني فخته ' Ficht ' ⁷: «اللغة تؤثر في الشعب الذي يتحدث بها تأثيرا لا حد له يمتد إلى تفكيره و عواطفه و تصوراته و إلى أعماقه، و أن جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير و متكيفة به»، و منه يمثل التعليم أهم قناة لتلقين اللغة الوطنية و تنشئة الأجيال على ذوق جمالها، و وسيلة لبث القيم الحضارية حتى تثبت دعائمها كهوية وطنية و حججهم في ذلك أن:

- جعل الازدواجية في النظام التربوي لا ينتج إلا متعلما ضائعا بين التعريب و الفرنسية، فاللغة سواء لقت باعتبارها لغة و حسب أو وسيلة لتدريس مواد لابد و أن تحمل ضمنا مجتمعه الأصلي، ذلك أنها أكثر ارتباطا بالحوامل أو الخلفيات الإيديولوجية و الحضارية ⁸.

- اللغة ليست شكلا فقط بقدر ما أنها هي روح التربية، فقراءة النص الأدبي لا ينقل منه فقط جميل الأدب بل الفكر، و فهما لتجربة معينة في بلد له خصوصياته الثقافية و اللغوية حسب ما يقول مالك حداد ⁹: «ليس هناك إلا توافق تقريبي بين فكرتنا العربية و ألفاظنا الفرنسية»، فاللغة مسألة وطنية نابعة من ذاتية الأمة لا تعار أو تستعار من الغير.

يدافع دعاة الازدواجية ببقاء الفرنسية في الجزائر كغنيمة حرب، كونها وسيلة تتيح للجزائر الانفتاح على العلوم الحديثة الموظفة في تنميتها الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية ¹⁰، و حسب دعاة هذا الاتجاه أن اللغة لا تمثل سوى أداة لنقل المعارف و المفاهيم بطريقة محايدة، و أن الفرنسية - هي الأجدر كلغة حية - تمثل منفذا للعصر الحديث و الحضارة الغربية ¹¹، بينما اللغة العربية متقدمة جدا لا تلائم أبدا الحاضر المبني على العلم و التقدم، و راجت هذه الأفكار في الأوساط التي أظهرت عداة للتعريب و الوقوف ضده مدافعين عن الفرنسية و حججهم في ذلك أن:

- الفرنسية لغة مرنة لها القدرة على التفاعل مع العلوم و التقنية.
- اللغة وسيلة للتعبير و الاتصال فالمهم هو نوعية الأفكار التي توفرها.
- الفرنسية لغة الفكر والعقل جاء في قول أحدهم¹²: « بتعليمي الفرنسي لا أستطيع التخلي بسهولة عن طريقتي الديكارتية في الاستنتاج، و هو ما يجعلني اختلف عن المتعلمين بالعربية ».

ظلت مسألة التعريب عالقمة بتشبث كل طرف برأيه، و أضحي الموضوع يثير الحساسية المفرطة هذا ما جعل أسلوب تناوله يتعد عن متطلبات البحث العلمي المنهجي ليصبح ضربا من الحماس العاطفي المنفعل، الذي لا ينجر عنه سوى إثارة المشاحنات و المناقشات الفارغة يقول عبد الله شريط¹³: « التعريب عندنا ظل سنوات طويلة محل نقاش بين الطرفين لا يفهم أحدهما الآخر، فكان شبيها بنقاش الصم البكم الذي لا يسمع بعضهم البعض، و كل واحد يرد على الآخر بما يتوهم من أفكار أو يظن، بحججهم العاطفية في الغالب لدى الطرفين ».

مثلت الناصرية المشروع القومي الأكثر واقعية في نظر بن بلة، حيث نجحت في بناء دولة و إطلاق مشروع تحديث واسع و بناء هوية قومية صلبة، و انعكس ذلك في ممارسات بن بلة على مستوى الفعل، فانطلق الفكر القومي العربي للجزائر و رئيسها، كشعور و انتماء و وعي بالمصالح القومية، في ظرف تميز بالتركة الاستعمارية الثقيلة.

فقد كانت وضعية اللغة العربية في العهد الفرنسي بين مد و جزر، يحاول المستعمر محاربتها عن طريق الفرنسية و يرد عليها الجزائريون بالمقاومة و الدفاع عنها، بتعليمها كرمز لثقافتهم و لغة دينهم، و لاشك أن الطرفين أدركا دور اللغة كوسيلة للتعبير عن الثقافة، و كانت المجابهة عنيفة بينهما انتهت بتضرر اللغة العربية، و بعد حرب تحريرية كان لا بد أن تعود اللغة العربية إلى مجراها الطبيعي، كلغة ثقافة و دين و مدرسة لكن هل الأمر سهل بهذه البساطة ؟

سعت الدولة الجزائرية منذ سنة 1962 إلى استرجاع مقومات الثقافة الجزائرية، التي سحقتها الاستعمار الفرنسي وفق مشروعه الثقافي الهادف إلى الفرنسية، فكانت غاية استعادة اللغة العربية و تمكينها في التعليم و الإدارة و الإعلام هدفا يطمح إلى تجسيده على أرض الواقع، لكن المهمة لم تكن سهلة في ظل وجود مصاعب و عراقيل تعيق عملية التعريب و تطبيقها، لاسيما في استمرار الإرث اللغوي الفرنسي في الجزائر، بوجود تيارات تدافع عن استمرار الفرنسية كلغة رسمية في الجزائر، مما أفرز سجالا حادا بين دعاة التعريب و الرافضون له، مما استلزم على الدولة سن قوانين و تشريعات خاصة بفرض اللغة العربية في شتى القطاعات.

رابعا: تكريس اللغة العربية في الموثائق الرسمية و الخطاب السياسي - ميثاق طرابلس 1962:

انعقد ليحدد تصوراته للدولة المستقلة و منها المسألة الثقافية و قد أبرز الانتماء الوطني للثقافة، و جمعها بين الوعي الثوري و الحرص العلمي وذلك بإعطاء اللغة العربية مكانتها الحقيقية، و إعادة بناء التراث الوطني و محاربة الهيمنة الثقافية و التأثير الغربي، اللذان ساهما في تلقين الكثير من الجزائريين احتقارهم لغتهم و قيمهم الوطنية جاء فيه:¹⁴ « استعادة الثقافة الوطنية و التعريب التدريجي للتعليم اعتمادا على أسس علمية، و هذه مهمة من أصعب مهام الثورة إذ تتطلب وسائل ثقافية عصرية و لا يمكن تحقيقها بالتسرع دون خطر التضحية بأجيال كاملة ».

دستور 1963:

اعتبر دستور 1963 و هو الأول في تاريخ الجزائر المستقلة اللغة العربية لغة رسمية في الجزائر جاء في المادة الخامسة منه¹⁵ ' إن اللغة العربية هي اللغة الوطنية و الرسمية للدولة ، اختيار سياسي أساسي فهي محور و أساس سياستها اللغوية و الثقافية، فمنذ سنة 1962 أعربت الجزائر عن اندماجها في الرقعة الحضارية و الثقافية للأمم العربية و هذا

استمرار للنضالات الثورية، و الوسيلة لبلوغ الغاية تتمثل في وضع سياسة التعريب، و هي الإمكانية الوحيدة للجزائر للقضاء على آثار الاستعمار الثقافي و الدمار الناجمة عن سياسة الاستعمار.

ميثاق الجزائر 1964:

أشار ميثاق الجزائر الأول سنة 1964 إلى بعض المعالم التي يجب أن تتبعها القيادة السياسية آنذاك، و ذلك من أجل ترسيخ الهوية اللغوية و طريقة تحصينها في مختلف مناحي الحياة، و خصوصا التعليم و الإدارة اللذان يكونان أرضا خصبة لنشر أية لغة، بصفتها حاملا أمينا لعناصر كثيرة من عناصر الهوية الوطنية و قد تضمن بشأن اللغة العربية¹⁶: « دور الثقافة الجزائرية كثقافة قومية يتمثل بدرجة أولى في إعادة اللغة العربية بوصفها اللسان المعبر عن القيم الثقافية لبلادنا، كرامتها و فعاليتها كلغة حضارة تستعمل في إحياء و إعادة تقييم التراث الوطني و التعريف به ».

و لهذه دعا مؤتمر الجزائر إلى ضرورة تعميم اللغة العربية و ذلك بنهج الخطوات

التالية:

- الإسراع في تعريب التعليم.
- تقوية الروابط لاسيما الثقافية مع العالم العربي، و ذلك يعني بصفة خاصة مضاعفة الوسائل الموضوعية تحت تصرف الهيئات المكلفة بإنشاء مثل هذه الروابط.
- القيام بخطوات توسيع ملحوظ لمجال الدراسات العربية في الجامعة¹⁷.
- صرح أحمد بن بلة عشية الاستقلال في تونس قائلا¹⁸: « نحن عرب، نحن عرب، نحن عرب، نحن عرب » و تحدث في مناسبة أخرى مشيرا للصعوبات التي تنتابه يقول¹⁹: « بخصوص التعريب أشير إلى أنه مشكل عويص، لم يغب عنا لأننا حاولنا أن نقدم حلا مؤقتا لأنه ليس بالسهل حله بين يوم و آخر »، كثر حديث أحمد بن بلة عن التعريب و عن

ضرورته يقول²⁰: «التعريب ضروري لأنه لا وجود للاشترابية دون تعريب... لا مستقبل لهذه البلاد دون تعريب».

بذل الرئيس بن بلة جهودا لمعالجة الوضع و تحديد التوجه اللغوي للبلاد، لكن ما أضعف جهوده الضغوط الممارسة عليه، نتيجة المغالطات التي كان يقدمها له المكتب السياسي للحزب أدت به أحيانا إلى تردده في تعريب التعليم، أما من حيث المبدأ فتصريحاته تؤكد تجذر الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر يقول²¹: «أننا إذا كنا لا نملك بشكل كامل اللغة العربية، فإن هذا يبعدها في أن نحس أننا عرب في عمق قلوبنا... إن التعريب لا يمكنه أن يكون إلا نمط حياة و تفكير، و ليس هناك مستقبل لهذه البلاد إلا في التعريب».

ما يتعلق بالقرارات الرسمية فإنه لم يصدر أي قرار باستثناء المرسوم 46 - 145، الذي صدر 22 ماي 1964 المتضمن إنشاء مدرسة عليا للترجمة بجامعة الجزائر²²، و الغرض من هذا القرار هو تدعيم حركة التعريب عن طريق تكوين هيئة من المترجمين، يتمتعون بمستوى مرتفع في اللغة العربية من أجل استغلالهم في إقامة علاقات خارجية، و في الإرشاد و المصالح العمومية و لجان التسيير لدفع عجلة التعريب، فهذا المرسوم صدر بعد مرور سنتين من الاستقلال.

تأكيدا لهذا جاء في ميثاق طرابلس أن 'استعادة الثقافة الوطنية و التعريب التدريجي للتعليم اعتمادا على أسس علمية، و هذه المهمة من أصعب مهام الثورة إذ تطلب وسائل ثقافية عصرية ولا يمكن تحقيقها بالتسرع دون خطر التضحية بأجيال كاملة'²³، و إذا كان الاستعمار الفرنسي قد خرج بجنوده فثقافته بقيت صرح ديغول في مذكراته قائلا²⁴: «و هل يعني أننا إذا تركناهم يحكمون أنفسهم يترتب التخلي عنهم، قطعا لا فالواجب يقتضي منا مساعدتهم، لأنهم يتكلمون لغتنا و يتقاسمون معنا ثقافتنا».

اتخذت إستراتيجية ديغول طابعا منظما تجلت بوضوح في اتفاقيات إيفيان، ورد في فصل التعاون الثقافي أن يشجع كل بلد في أرضه دراسة اللغة و التاريخ الخاص بالبلد الآخر²⁵، هذا البند في تطبيقه كفيل باستمرارية الثقافة الفرنسية، فلم يتوان الفرنسيون في إرسال البعثات التعليمية تحت غطاء التعاون الثقافي المتفق عليه، فتم إنشاء المكتب الجامعي و الثقافي لإدارة نحو ستين منشأة ثقافية و تعليمية منها أربع ثانويات.

أثناء المناقشات التي كانت تثار في المجلس التأسيسي سنة 1962 أثبتت أسئلة النواب عن لغة التعليم فرد أحدهم بقوله:²⁶ « أن التعليم المقدم بسخاء هو باللغة الفرنسية... و هذا المشكل خطيرا لا يجب معالجته بسطحية » استمر الجدل طويلا بين مختلف الفئات السياسية و الثقافية، و تجسد بوضوح سنة الاستقلال بين النواب في المجلس التأسيسي و في صفوف اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، و كان الوصول إلى موقف واحد خلال الاجتماعات أمرا مستحيلا، و رغم تشكيل لجنة التعريب سنة 1964 لم تكن هناك مواقف صريحة عند المسؤولين تجاه المسألة بين الغموض أحيانا و التجاهل أحيانا أخرى، فالقرارات التي كانت تصدرها اللجنة تبقى حبرا على ورق يفسر محمد حربي ذلك بقوله²⁷: « إن لامبالاة القادة من مسألة التعريب بعد سنة 1962 أصل الارتباك، فمن دون شك لم تكن لديهم الإمكانيات لحلها، إلا أنه كان عليهم أن يطرحوها و يتخذوا إجراءات حتى لا يبقى المثقفون بالعربية الأقارب الفقراء ».

غداة الاستقلال كان هناك نقص مخيف في عدد المعلمين والأستاذة المعربين، وهذا راجع أساسا إلى سياسة الاستعمار التي لم تكن برامجها التعليمية تشتمل على العربية كمادة تدرس، ومنه لم يكن من المعلمين المعربين إلا النزر القليل فوَقعت الحكومة سنة 1962 في حيرة من أمرها، أن تعيد للعربية مكانتها كلغة وطنية من جهة وتوفر الإطار المعرب من جهة أخرى²⁸، أمام هذه العراقيل ما هي الإجراءات التي ستتبعها الدولة ؟

هل تركت الوضع الموروث على حاله أم أحدثت ثورة في التعريب؟ إلى أي مدى استطاعت نصوص التعريب أن تتوافق مع الواقع؟

التزمت الحكومة بميثاق طرابلس الذي أكد صعوبة التعريب والوصول إليه بطريقة تدريجية لصعوبة المهمة وخطرها على مستقبل الأجيال، إذ لم تعتمد على أسس علمية ومنهجية ومراعاة الظرف الذي يتميز بوجود أغلبية من المتعلمين بالفرنسية²⁹، فاستبدال العربية بالفرنسية حيناً ليس أمراً هيناً، وعليه عملت وزارة التربية منذ أول موسم دراسي 1962-1963 على إدخال العربية في جميع المستويات التعليمية من الابتدائي حتى العالي بحجم معين من الساعات، بلغت سبع ساعات في التعليم الابتدائي وخمس ساعات في التعليم المتوسط والثانوي، فرغم الوضع الصعب إلا أن العزم كان يجذب بعض الأطراف لتغيير المدرسة الجزائرية، وإضفاء الطابع الوطني عليها حيث تم توظيف 3452 معلم أسندت لهم مهمة تعليم العربية³⁰، خاصة في المدرسة الابتدائية كقاعدة للتعليم ينطلق منها التعريب، لأن التجربة تثبت أن هذه المرحلة هي الأنسب لغرس قواعد اللغة وفنونها في ملكة الطفل العقلية فتترسخ وتصبح لغة تفكيره³¹.

خلال موسم 1963-1964 تقرر تعميم إجراء الموسم الماضي في المناطق التي لم يشملها فارتفع مجمل معلمي العربية إلى 4303 من أصل 26.582³²، تنم هذه الأرقام عن الفرق الشاسع بين عدد معلمي العربية و الفرنسية، وهذا لا يعني سيادة الازدواجية فقط بل الهيمنة المطلقة للفرنسية في التعليم، و أمام هذا الوضع أخذت بعض الأصوات من المثقفين ورجال التربية يطالبون بتعريب كامل للسنوات الأولى، مستدلين في ذلك بالمشاكل التربوية التي تنجر عن تعلم لغتين³³، و هكذا تم في الدخول المدرسي الثالث 1964-1965 تعريب السنة الأولى من التعليم الابتدائي تعريباً كاملاً في سائر البرامج، و فيه تقرر تعريب مادة التاريخ في السنة السادسة ابتدائي و إلغاء تدريس اللغة اللاتينية و خلالها ارتفع عدد معلمي العربية إلى 10.961³⁴.

كانت المواد الأدبية في مرحلة التعليم المتوسط تدرس بالعربية عدا الجغرافيا في حين المواد العلمية تدرس بالفرنسية، وقد أقيمت 15 مؤسسة معربة تماما وبعض الأقسام المعربة في المتوسطات المزدوجة اللغة، في حين أن التعليم الثانوي كان مغايرا للمرحلتين الابتدائية والمتوسط حيث كان يعاني من قلة الإطار المعرب، فالمستعمر الفرنسي لم يسمح للجزائريين مواصلة التعليم المعرب بقدر يمكنهم من ممارسته في التعليم الثانوي بعد الاستقلال، لأنهم لا يملكون شهادات تعليمية بمستوى هذه المرحلة، كما أنه لم ينشأ مدارس تكوينية في الجزائر لتخريج الأساتذة المعربين، فظلت تسيطر الفرنسية على معظم البرامج التعليمية فيه³⁵، ونظرا لوجود عدد هائل من الطلاب الذين زاولوا تعليمهم في مدارس التعليم الحر بالعربية أنشأت ثانويات معربة³⁶ تضمن استكمال تعليمهم في مناطق مختلفة من الوطن³⁷.

- تعريب الإدارة:

باشرت الدولة المستقلة سياستها التعريبية بالعناصر التي تذكرها بواجبها في الحفاظ على الأصالة، و ربطت تلك السياسة بهدف يتمثل في إعداد لغة وطنية، لغة تؤدي أداء دقيقا في سائر وظائف اللغة العصرية و تنقل محتوياتها العصرية، ثم التشديد على اللغة الوطنية أي اللغة الرسمية الوحيدة، و تحديد اللغة العربية بهذا الشكل سيقودها إلى التشبه باللغة الفرنسية، باللغة التي يجب عليها أن تحل محلها في وظائفها و معجمها و انتشارها في المجتمع، فسيتمثل المشكل في جعل اللغة العربية تنقل مجموع المحتوى الثقافي الذي كانت اللغة الفرنسية تنقله سابقا.

أدركت القيادة الفتية التي تولت زمام الأمور في الجزائر بعد الاستقلال فظاعة تغييب اللغة العربية، فتقدم مجموعة من أعضاء المجلس التأسيسي بمشروع لفرض التعريب و جاء في مذكرتهم ما يلي³⁸: «منذ تأسيس الحكومة الفتية واجتماع المجلس الوطني التأسيسي وقع الكلام كثيرا عن التعريب، إن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري تريد

التعريب، لأن اللغة العربية هي اللغة الوطنية و مع ذلك ما تزال تعيش على الهامش كلغة أجنبية في وطنها». ³⁹

رغم ما بذل من جهود لمواجهة العراقيل فإن المشكل المتعلق بالإطار المغرب بقي مطروحا، حيث لم تعمل الجزائر على تطبيق قرارات مؤتمر المعلمين العرب المنعقد في بيروت سنة 1962، الذي حث الدول العربية على التعاون مع الجزائر و قد تقدمت كل من مصر و العراق و سوريا للمشاركة في فتح المعاهد على نفقتها الخاصة ³⁹، لكن وزارة التربية لم تول للأمر أهمية و اكتفت بالاعتماد على الممرنين رغم تدني مستواهم العلمي و التربوي، و من أجل تحسين المستوى التعليمي لجأت وزارة التربية إلى أسلوب التكوين المكثف للمعلم باللغة العربية، و هذا من خلال تنظيم فترات تكوين مدتها شهرا يلتحق بعدها المكون مباشرة بمجال عمله ⁴⁰.

خاتمة:

ناضل الرئيس أحمد بن بلة من أجل فكر قومي عربي موحد من المحيط إلى الخليج، و كان وفيما مخلصا لعقيدته العروبية كثائر ضد المستعمر الفرنسي الذي احتل بلده، و كرئيس أول للجزائر المستقلة مخلدا كلمته ' نحن عرب، نحن عرب، نحن عرب '، فراح يجسد فكرته على أرض الواقع و في مختلف القطاعات التي كانت الفرنسية سائدة فيها، لاسيما التعليم و الإعلام و الثقافة، و ظل بن بلة مدافعا عن القضايا العربية في مختلف الهيئات و المحافل الدولية مثل فلسطين و لبنان و العراق، و غيرها من المواقف التي تقتضي الدعم و الحشد العربي، و سجل اسمه في تاريخ القومية العربية كأبرز روادها في المغرب العربي عامة و الجزائر خاصة.

الهوامش:

¹ محمد فنطاري: أحمد بن بلة محرر و منقذ الجزائر، جريدة الجمهورية، وهران.

² المرجع نفسه.

³ المرجع نفسه.

⁴Ministère de l'orientation national: Les discours du président Benbella, ministère de l'orientation national, Alger: 1963, p.115.

⁵ Khaouala Taleb Ibrahim: : Les Algérienne et leurs langues, deuxième édition, El hikma, Alger:1992, p.76.

⁶ محمد العربي ولد الخليفة: المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص.234.

⁷ مولود قاسم نايت بلقاسم: إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1975، ص.420.

⁸ محسن مصطفى: في المسألة التربوية نحو منظور سوسولوجي منفتح، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002، ص.76.

⁹ عثمان شوبوب: "من اللغة تبدأ ثورة التجديد" مجلة الأصالة، عدد خاص بالتعريب، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص.7.

¹⁰ أحمد معوض نازلي: التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص.170.

¹¹ محمد العربي ولد خليفة: المرجع السابق، ص.98.

¹² صالح فيلاي: "إشكالية الثقافة في الجزائر المبادئ الأساسية والإيديولوجية الممارسة، الأزمة الجزائرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص.446، 447.

¹³ Abdellah cheriet: Opinion sur la politique de l'enseignement et de l'arabisation, SNED, Alger: 1983, p.8.

¹⁴ Front de libération nationale : Les textes fondamentaux de la révolution : Appel du 1 novembre 1954, plate forme de la

Soummam1956, texte du congrès de Tripoli1962, édition A.N.E.P, 2008, p p.106, 107.

¹⁵ حزب جبهة التحرير الوطني: دستور 1963، المطبعة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1963، ص.07.

¹⁶ حزب جبهة التحرير الوطني: ميثاق 1964، ص.43.

¹⁷ المصدر نفسه، ص ص.43، 44.

¹⁸ Ministère de l'orientation national: Les discours du président Benbella, ministère de l'orientation national, Alger, 1963, p.115.

¹⁹ Ibid, p.117.

²⁰ Ibid, p.117.

²¹ Ibid, p.117.

²² الجريدة الرسمية: مرسوم رقم 64-145 الصادر يوم 22 ماي 1964، المتضمن إنشاء المدرسة العليا للترجمة.

²³ Front de libération nationale: Op-cit, p.106.

²⁴ شارل ديغول: مذكرات الأمل، منشورات عويدات، بيروت، ص.55.

²⁵ محمد الطيب العلوي: التربية بين الأصالة والتغريب، منشورات دحلب، الجزائر، ص ص.185، 186.

²⁶ المرجع نفسه، ص ص.185، 186.

²⁷ محمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تعريب كميل قيصر داغر، ط 1، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1983، ص.117.

²⁸ محمد مصايف: في الثورة والتغريب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1973، ص.56.

²⁹ حزب جبهة التحرير الوطني: ملفات وثائقية، المصدر السابق، ص.45.

³⁰ عبد الرحمان سلامة: التغريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص.73.

³¹ مصطفى محسن: المرجع السابق، ص.123.

³² Mahfoud Bennoune: Education culture et développement en Algérie, E.N.A.G, marinoor, Alger: 2000, p.229.

³³ وزارة التعليم الابتدائي والثانوي: "تكوين المعلمين في الجزائر منذ 1962"، مجلة التكوين والتربية، ع 9، الجزائر، 1975، ص.390.

³⁴ الطاهر زرهوني: التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر: 1984، ص.44.

³⁵ المرجع نفسه، ص.72.

³⁶ عددها خمس وهي: ثانوية بن باديس بقسنطينة، وعباس لغرور بباتنة، و ثانويتي الثعالبية للبنات و ابن خلدون بالعاصمة، وثانوية وهران.

³⁷ وزارة التعليم الابتدائي والثانوي: المصدر السابق، ص.394.

³⁸ Abdellah Cheriet: Op-cit, p.34.

³⁹ عثمان سعدي: التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفرانكفونية، دار الأمة للطباعة، الجزائر، 1993، ص ص.53، 54.

⁴⁰ Mahfoud Bennoune: Op-cit p.228.

الصحافة والنخبة المثقفة في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي.. المقاومة الثقافية
للترسنة الحربية

**The press and intellectual elite in Algeria during the
occupation.. cultural resistance against the military
arsenal**

د. حجام الجمعي / جامعة العربي بن مهيدي / أم البواقي

hadjameldjemai@gmail.com

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى استحضار بعضا من ومضات الكفاح المشرق للصحافة والنخبة المثقفة في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي ، وتسليط الضوء على ظاهرة ثقافية خالدة تبقى تلهم الاجيال في الوطن وخارجه بصفتها المنيرة كنموذج راق لركوب غمار الفعل التحرري وبأسلوب الكتابة الصحفية الحضاري ليكون بمثابة درس للإنسانية جمعاء. فالصحافة والنخبة المثقفة في الجزائر جسدوا أحلى صور للكفاح التحرري الثقافي والفكري عبر التكيف الايجابي مع المناخ الخانق للحرية والمصادر للوجود ، فبرهنوا للعالم أن سلاح الافكار والأقلام أشد قوة وأعمق أثرا من دوي المدافع فصنعت الصحافة عبر النسيج الفكري للنخبة المثقفة الجزائرية بكتابها وشعرائها وعلمائها ومصلحيها وسياسيها الوطنيين حصنا منيعا للشخصية الجزائرية ولقومات الدولة وكانت إسهاماتهم واضحة في التأسيس للنهضة الجزائرية الحديثة وترسيخ جزائرية الجزائر للأبد.

لتبقى بذلك الصحافة الثقافية الجزائرية خلال فترة الاحتلال ، سواء الصحافة الاصلاحية او صحافة المقاومة القلمية والسياسية أو الصحافة الاستقلالية مدرسة في إنتاج الوعي التحرري والقيم الانسانية

ونموذجا رائدا ورائعا في التمسك بشرف المهنة وجهاد الكلمة لتخليص البلاد والعباد من أغلال الاحتلال.

Abstract:

the aim of this article is to evoke some of the bright struggles of journalism and intellectual elites in Algeria during the period of the French occupation and to highlight on an immortal cultural phenomenon that will inspire generations at home and abroad with its illuminated pages as an excellent model to engage in the libertarian act and civilizational style of press writing to serve as a lesson for humanity. The press and educated elites in Algeria embodied the best images of the cultural and intellectual liberation struggle through positive adaptation to the atmosphere that is suffocating the freedom and confiscating the existence , demonstrating to the world that the weapon of the ideas and pens is stronger and more profound than the sound of guns. The press has fabricated impregnable fortress of the Algerian personality and the ingredients of of the state , that had been through the intellectual fabric of the Algerian intellectual elites and their contributions were clear in the establishment of the modern Algerian renaissance and the consolidation of Algerian Algeria forever. Thus the Algerian press during the period of occupation whether the reformist press, the press of

pen resistance or the independent press , remains a school in the production of liberation consciousness and human values and a pioneering and wonderful model in sticking to professional honor and the struggle of the word to rid the country and the people from the shackles of occupation.

مقدمة: قال نابليون بونابرت -صاحب مشروع الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس- "إني أخاف من صرير الأقلام أكثر مما أخاف من دوي المدافع". وعليه فقد أدركت معظم الدول سيما القوى العظمى بالأمس كما اليوم وعلى مر التاريخ الدور الكبير للصحافة والإعلام في هندسة الوعي الاجتماعي وتشكيل الرأي العام حول مختلف المسائل ذات الاهتمام المشترك وحفظ الموروث الثقافي والحضاري للدول والشعوب وتحصينه من كل أشكال الغزو والتفكيك القيمي ، علاوة على دعم وإسناد القضايا المصرية والتحررية الإقليمية ودوليا وبينت التجارب أن الصحافة كانت دوما في قلب المعارك السياسية والثقافية الكبرى ، وكانت رافدا من الروافد المهمة التي تمد الدول والمجتمعات بمختلف الأفكار الخلاقة والمبادئ القيمية والأخلاقية والتربوية والدينية والفنية والتقنية وتساهم بفعالية كبيرة في إنتاج قيم المواطنة وتكريس الولاء للوطن وتعزيز الثوابت الوطنية. لكن يجب التسليم بالمقولة القائلة بأن الصحافة سلاح ذو حدين ، بحيث يمكن أن تكون سلاحا فعالا في البناء كما يمكن أن تتحول إلى سلاح فعال بل وأكثر فعالية في الهدم ، ومن المفارقات الجيدة ، أن تستخدم قوى الاستكبار والشر العالمي الصحافة والإعلام بوسائلها التقليدية والحديثة لدعم وتشجيع خططها الإمبريالية والتوسعية

وتسهيل عمليات الغزو الثقافي والفكري للأوطان والشعوب ، وفي المقابل تستخدم الدول المستضعفة والمحتلة الصحافة والإعلام كأسلحة مضادة لمقاومة الاحتلال والتصدي لمختلف مخططاته الاستدمارية سيما تلك المستهدفة غزو العقول وتدمير البنية الفكرية للمجتمع وطمس الموروث الثقافي والحضاري المشترك. ومن بين أهم عوامل القوة في قوة الصحافة قوة النخب التي تكتب فيها وتساهم في إثراء النقاشات الفكرية المثارة على صفحاتها ، فهي بمثابة الخزان الإستراتيجي الذي يمدّها بدفق الأفكار المساهمة في إنتاج الأنساق الفكرية والأنماط السلوكية ودعم القدوات الاجتماعية والتمكين للرموز الثقافية. ومن هذا المنطلق فلا توجد صحف كبيرة خاضت معارك كبيرة بدون صحفيون كتاب وكتاب صحفيون كبار". فالصحافة التي تعد السلطة الرابعة كما ترد على ألسنة رجال الصحافة يعتبرها البعض "من أبرز عوامل النهضة في المجتمعات الغربية والعربية الحديثة ، وكان ظهورها في القرن التاسع عشر مؤشرا على نماء الوعي لدى رجال الفكر الذين سعوا إلى الدفاع عن قضاياهم . وهي أحد الروافد الأساسية في تزويد الجماهير بالثقافة والمعرفة التي عن طريقها يستطيع القارئ أن يتعرف على أخبار وأحوال العالم"⁽¹⁾.

ويمكن القول أن هذه المقاربة تتشابه مع المشهد الثقافي والإعلامي الجزائري خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي فرغم أن الجزائر والجزائريون عرفوا الصحافة عن طريق المحتل إلا أن بعض المثقفين تمكنوا من إتقان فنونها التحريرية وإدراك تأثيرها السحري واستلهموا من المدرسة الصحفية الكولونيالية القيم الخيرية والسياسة التحريرية واجتهدوا في توظيفها في استنهاض الوعي وتحريك الحماسة الشعبية نحو التحرر والاستقلال.

وتربط الكثير من الدراسات فهم الصحافة المكتوبة في الجزائر بالسياق العام للبيئة الثقافية خلال وقبل الاحتلال الفرنسي ، وانطلاقا من التحولات التي عرفتتها الحركة الوطنية باعتبار أن "تاريخ الصحافة الوطنية يرتبط ارتباطا كبيرا بتاريخ الحركة الوطنية في الجزائر".⁽²⁾ فبعد قرن من الزمن أي خلال الفترة الممتدة من 1830 إلى 1930 وبعد تجارب الصحافة الكولونيالية وصحافة أحباب الأهالي والصحافة الإصلاحية وصحافة المقاومة القلمية والسياسية "ظهرت الصحافة الجزائرية التي لا تعترف بالوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وهو ما عرف بالصحافة الاستقلالية حيث بمجرد ظهورها أخذت تحارب بشدة الأفكار الاستعمارية وكل ما له علاقة بالوجود الاستعماري على أرض الجزائر وتنشر ما يقوي الوعي السياسي بوجود أمة جزائرية وبضرورة افتكاك الحرية من أيدي المحتل الغاصب والحصول على استقلال الجزائر سواء كانت هذه الصحافة تنطق بالعربية أو بالفرنسية ، فوق التراب الجزائري أو خارجه".⁽³⁾

فكيف ساهمت صحافة المقاومة القلمية والسياسية في إنتاج الوعي التحرري في الجزائر المحتلة؟ وكيف ساهمت النخبة المثقفة الجزائرية في إنتاج الوعي التحرري للمطالبة بالاستقلال الوطني في الصحافة الإصلاحية وصحافة المقاومة القلمية والسياسية؟ وما هي أهم الأساليب المنتهجة لتجاوز مختلف العراقيل والصعوبات التي ضيقت الخناق على الصحافة الثقافية التي كان تغذيها النخب المثقفة بإسهاماتها الفكرية والعلمية والأدبية والسياسية لتحرير العقول من التفكير الأسطوري المشبع بالقدرية والحتمية الكولونيالية؟

1-مدخل عام لماهية الصحافة المكتوبة وأهم تطوراتها في الجزائر

1-1- ماهية الصحافة: الصحافة لغة، الصحافة إسم لمهنة من يجمع الأخبار والأفكار والآراء وينشرها في صحيفة والصحفي هو من يزاول مهنة الصحافة. وعرفت الموسوعة الاعلامية "الصحافة بكسر الصاد من صحيفة جمع صحائف أو صحف ، والصحيفة هي الصفحة وصحيفة الوجه أو صفحة الوجه هي بشرة جلده ، والصحيفة أو الصفحة هي القرطاس المكتوب أو ورقة كتاب بوجهيها وعلمها أو فنها سمي صحافة والمزاويل لها يسمى صحفيا بكسر أو ضم أو فتح الصاد".⁽⁴⁾

قال الجوهري في معجمه تاج اللغة وصحاح العربية: "الصحيفة هي الكتاب". وعرف المعجم الوسيط الصحافة (بكسر الصاد) بأنها مهنة من يجمع الأخبار والآراء وينشرها في صحيفة وقد استعملت الصحيفة قديما في معنى كل ما فيه خبر أو إعلان أو معلومات... مثل الصحيفة التي علقت على جدار الكعبة تنص على مقاطعة الرسول - صلى الله عليه و سلم - و من اتبعه.⁽⁵⁾ وفي القرآن الكريم وردت دالة على ما كان ينزل على الأنبياء والمرسلين من أخبار الأمم ومن الشرائع السماوية: "إِنَّ هَذَا لَفِي الصَّحَفِ الْأُولَىٰ صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ".⁽⁶⁾ " رسولٌ من الله يتلو صحفًا مطهرةً ".⁽⁷⁾

أما الصحافة من الناحية الاصطلاحية فقد تعددت وتنوعت التعريفات الاصطلاحية للصحافة ، وتختلف باختلاف البيئات الثقافية والسياسية والظروف الاجتماعية والاقتصادية للباحثين والدارسين، وتعني صناعة إعداد وإصدار الصحف بمختلف أنواعها. عرف أديب مروة الصحافة "بأنها تسجيل الوقائع اليومية بدقة وانتظام وذوق سليم مع

الاستجابة لرغبات الرأي العام وتوجيهه والاهتمام بالجماعات البشرية وتناقل أخبارها ووصف نشاطها ثم تسليتها".⁽⁸⁾

والصحافة حسب الدكتور أحمد زكي: "هي صناعة إصدار الصحف وذلك باستقاء الأبناء ، ونشر المقالات والإعلام ونشر الرأي والتعليم والتسلية ، كما أنها واسطة تبادل الآراء والأفكار بين أفراد المجتمع وبين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة".⁽⁹⁾ ويرى الأخصائي والباحث بيار ألبر Pierre ALBERT أن "تشعب الصحافة يرجع إلى أنها تجمع في الوقت نفسه بين طبيعتها "كمنتجات صناعية وابداعات فكرية" إضافة إلى تنوع وظائفها إعلام، تربية تسلية، وتعدد أنواعها وعناوينها".

1-2- توضيح الإطار المفاهيمي للدراسة: تتعرض هذه الدراسة لمتغيرين أساسيين وهما الصحافة والنخبة المثقفة في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي ، فكلاهما عامل مهم في صناعة وتوجيه الرأي العام عبر إنتاج الانساق الفكرية والأنماط السلوكية. الصحافة التي ظهرت في أعقاب الاحتلال الفرنسي والتي أنشأها الجزائريون إدارة وتحريراً وتمويلاً ، سايرت ظروف ومراحل تحول النضال السياسي والثقافي للنخبة المثقفة والسياسية الجزائرية. وكانت بمثابة المثقف للشعب في تحريره من مختلف أنماط التفكير الأسطوري وتوعيته بضرورة خوض غمار تحرير البلاد والعباد من الاحتلال الفرنسي.

ب. صحافة المقاومة القلمية والسياسية: هي صحف جزائرية إدارة وتحريراً وتمويلاً ، بادر إلى إنشائها المثقفون الجزائريون وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن صحافة الاحتلال من حيث الأهداف والسياسة التحريرية ، تبنت نهج المقاومة بالقلم المدر للأفكار وفقاً

لمنهج التصدي الثقافي فكريا وعلميا ودينيا للمشروع الاستدماري ، عبر استقطاب كتابات النخبة المثقفة ذات النزعة التحررية من الاحتلال الفرنسي.

ج. الصحافة الإصلاحية: هي الصحف التي كانت تنتج الافكار والاراء التي تدافع عن الجزائر والجزائريين وتطالب بالاصلاحات العميقة في تفكير ومعتقدات الجزائريين ومحاولة تخليصهم من التفكير الخرافي والاسطوري الذي تريد بعض الزوايا الطرقية المدعومة من الاحتلال ترسيخه كثقافة ، واقترنت الصحافة الإصلاحية بصحف جمعية العلماء المسلمين وشيوخها المتنورين بالثقافة العلمية في فهم الدين.

د. الصحافة الإستقلالية: هي تنويج لصحافة المقاومة القلمية والسياسية والصحافة الإصلاحية ، بحيث جهرت بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره وبناء دولته ذات السيادة ، فطالب روادها باستقلال الجزائر والجزائريين عن الاحتلال الفرنسي ودحضت أكاذيب فرنسا الاستيطانية ونجحت في إنتاج وعي تحرري وطني وإبطال مقولة "الجزائر فرنسية مقابل تجسيد وترسيخ عقيدة "الجزائر جزائرية".

هـ. النخبة المثقفة الجزائرية: النخبة تعني لغويا الصفوة من الناس أو أفراد المجتمع ، أما من الناحية الاصطلاحية فتعني بأنها "فئة من الفئات المتميزة في المجتمع سواء وظيفيا أو فكريا أو تعليميا مما يؤهلها للقيام بدور قيادي أو بأدوار المسؤولية في المجتمع ، وهي أكثر فئات المجتمع تأثيرا في الحياة العامة وقدرة على صناعة واتخاذ القرار".⁽¹⁰⁾ ونقصد بالنخبة المثقفة في هذه الدراسة جميع المثقفين الجزائريين بمختلف منابعم الفكرية واتجاهاتهم السياسية الذين حازوا نصيبا من الثقافة والعلم والوعي التحرري ، والذين رافعوا بأفكارهم ودافعوا بأقلامهم وجهرها بالحق عبر مختلف الفضاءات التعبيرية خاصة من

خلال الصحف أمام سلطة الاحتلال الجائرة لإنتاج الوعي التحرري والمساهمة في تحرير البلاد والعباد من الاحتلال الفرنسي.

2-السياق التاريخي والثقافي لظهور وتطور الصحافة المكتوبة في الجزائر.

تفيد الكثير من الابحاث والدراسات حول التاريخ الثقافي في الجزائر أن الحياة الثقافية الجزائرية كانت مقبولة وتعتمد على التعليم الديني بالأساس وكانت الكتابات والزوايا ذات إسهام كبير في الحركة الثقافية والعلمية في الجزائر. قبل أن يهاجم الاستيطان الفرنسي هذه البنية الثقافية مستهدفا تنصير المجتمع واجتثاثه من اصوله المتجذرة في التفكير الجمعي. وحسب المؤرخ الفرنسي "بولار" فقد شرعت فرنسا في تنفيذ خطة طويلة المدى تهدف إلى تدمير المجتمع الإسلامي ، فنجحت في القضاء على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر كما أغلقت نحو من ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر قبل الغزو".⁽¹¹⁾ وعلى الرغم من بساطة الحياة الثقافية وتمحورها على التعليم الديني إلا أنها تحمل مؤشرات واضحة ودلالات على القابلية للتحويل نحو الأحسن . "ويؤكد عبد القادر جغلول أنه كان من ثمار أزيد من 176 مؤسسة دينية تعليمية أن بلغت نسبة الجزائريين الذكور الذين يعرفون الكتابة والقراءة في وقت الغزو حوالي 40 بالمائة ، لكن الاحتلال الاستيطاني الذي فرضته فرنسا ابتداء من دخولها الجزائر عام 1830 ، جعل سياسة الفرنسة والتنصير على حساب التعليم الأصلي للأهالي ، بالإضافة إلى التواجد المكثف للمستوطنين الأوروبيين يحدث تراجعا حادا في المستوى التعليمي وخطلا كبيرا على مستوى القيم والعادات العامة".⁽¹²⁾ "ولقد تم تدعيم هذا التدخل الاستدماري في مجال التعليم بإجراءات تنص خاصة على

هدم الجهاز التربوي والديني بصورة مباشرة وتضييق اسسه المادية والاجتماعية وبالاستيلاء على الأملاك الوقفية الداعمة خاصة للمؤسسات التعليمية والدينية مع شن حملات تنصيري واسعة وبناء جهاز تعليمي بديل مفرنس للقلوب والعقول".⁽¹³⁾ فقد أشاع دخول الفرنسيين في الأوساط العلمية والأدبية اضطرابا شديدا فهجر معظم الاساتذة الكبار مراكزهم ، وقدر عدد الطلاب قبل 1830 بمائة وخمسين ألف طالب ولم ينح من المدارس القديمة إلا بعض المدارس الصغيرة وحرمت أجيال من التعليم".⁽¹⁴⁾

وفي هذا الاتجاه كان مؤرخ الصحافة الجزائرية الزبير سيف الإسلام قد تساءل في مستهل كتابه "رواد الصحافة الجزائرية" كيف عرف الجزائريون فن الصحافة؟ وأجاب قائلا: "عرف الشعب الجزائري فن الصحافة بدخول الفرنسيين الذين بدأوا الغزو الفكري إلى جانب الغزو الاستعماري ولم يعر شعبنا هذا الفن أي اهتمام في بادئ الأمر".⁽¹⁵⁾ بسبب "جهل الشعب لهذا الفن الصحفي، خاصة وأنه كان يكتب بلغة لا يفهمها إلا أشخاص يعدون على الأصابع وأن هذه الصحافة كانت تهتم بشؤون الغزاة من إدارة وجيش ومعمرين، علاوة على أنه سلاح يخدم مصالح الغازي الغشوم".⁽¹⁶⁾

إن الدراسات التي أجريت حتى اليوم تثبت أن الصحافة كوسيلة إعلامية عصرية لم تكن موجودة في الجزائر قبل 1830، كما أن الصحافة كظاهرة اجتماعية وسياسية في المجتمع الجزائري وعبر مختلف مراحل تطورها البنيوي والأسلوبي وفي علاقتها مع الجمهور تميزت بالضعف الهيكلي واللغوي خاصة في بدايتها.⁽¹⁷⁾

ولكن ومع مرور الايام وتغلغل الاستعمار في داخل البلاد وتحصنه في العاصمة، بدأت نخبة الأعيان المثقفين من ابناء الجزائر الاحتكاك بهذا الفن. خاصة وأنهم كانوا على ثقافة

عالية عند وصول الفرنسيين واحتلالهم للعاصمة".⁽¹⁸⁾ وقد عرفت الخمسة عشر سنة الأولى للاحتلال الفرنسي وتيرة متسارعة في إصدار الصحف كوسيلة اتصال رأى فيها المحتل ضرورة للتواصل مع الأهالي وإطلاعهم على مختلف القرارات والقوانين وواصلت سلطة الاحتلال مساعيها لإنتاج آليات التلاعب بالعقول واهتدوا إلى آلية يتجاوزون من خلالها العقبة اللغوية لإقناع الجزائريين فأصدروا بعد سبعة عشر سنة جريدة المبرشر 1847. وانطلاقا من هذا التاريخ وبواسطة هذه الجريدة ذات الاغراض الاستدمارية عرف الجزائريون الصحافة العربية وفن تحرير الصحف باللغة العربية بعدما عرفوه باللغة الفرنسية".⁽¹⁹⁾

إذن الصحافة كوسيلة إعلامية عصرية ، هي اكتشاف غربي ظهرت في أوروبا ثم انتقلت إلى العالم العربي في بداية القرن الثامن عشر مع حملات الاحتلال المختلفة. التي قامت بها فرنسا إلى مصر أولا ثم إلى الجزائر ثانيا ، وأول جريدة ظهرت في الجزائر هي جريدة "بريد الجزائر" 1830 L'Estafette d'Alger باللغة الفرنسية تلتها العشرات من الصحف تهدف جميعها إلى التبشير بالإحتلال وتلميع أغراضه الاستيطانية. وقد شجعت فرنسا الصحافة الناطقة باللغة الفرنسية سواء كانت صحافة رسمية أو صحافة المعمرين ، لأنها كانت تهدف من ذلك إلى القضاء على اللسان العربي في الجزائر وخلق طبقة من المثقفين بالفرنسية يؤمنون بحضارة الغرب ، وتأهيلهم للسيطرة على الشعب الجزائري عن طريق الصحافة والاحزاب والتمثيل النيابي".⁽²⁰⁾ ولكن ونظرا لكون تلك الصحف لم تحظ بالقبول والاهتمام بسبب لغتها الدخيلة ، فقد اهتدى المستدمر الفرنسي عبر حاكمه العام لويس فيليب إلى إصدار أول جريدة باللغة العربية الركيكة وهي جريدة

المبشر 1847 "التي عرف من خلالها الجزائريون فن الصحف تحريراً وترجمة وقراءة".⁽²¹⁾ وسلط الاحتلال كل أنواع الاضطهاد والقمع على الشعب الجزائري، حتى أن بعض الفرنسيين أبدوا تعاطفهم مع الجزائريين ، حيث حاولوا أن يمدوا يد الإعانة إلى المسلمين ورأوا أنه من الضروري السماح لهم بالكلام حتى يتسنى لهم التعبير عن شعورهم وعن مطالبهم وأحسن وسيلة لذلك هي الصحافة وهي الصحافة التي سميت بصحافة أحباب الأهالي وفشلت هذه الصحف في الصدور بصفة دائمة أو لمدة طويلة وذلك لاعتبارات كثيرة منها : "عدم تغير الوضع القومي الذي فرضه الاحتلال، انهيار المستوى الاقتصادي والاجتماعي للجزائريين وانتشار الجهل والأمية وانهيار المستوى الثقافي".⁽²²⁾ وتجسدت أهمية الإعلام سواء في مرحلة ما قبل الثورة أو ما بعدها أو خلالها ، توليدها بدور المقاومة الثقافية والإعلامية التي تدحض الأكاذيب والصناعات الدعائية للمحتل الفرنسي.

3-عروض تصنيفية لأهم مراحل تطور الصحافة المكتوبة في الجزائر:

يتطلب فهم ومعرفة التطور التاريخي للصحافة المكتوبة الإمام بمختلف الكتابات العلمية الأكاديمية والإعلامية المهنية وبالتالي الإطلاع على المصادر والمراجع التاريخية وروافدها من المقالات العلمية والصحفية سواء الصادرة في الجزائر أو خارجها وسواء كتبها الجزائريون أو الأجانب. للعلم فقد تعددت وتنوعت الكتابات والرؤى لظهور وتطور الصحافة المكتوبة في الجزائر، وتعددت أيضا التصورات للدور التي تحملتها الصحافة المكتوبة في الجزائر عبر مختلف مراحل بناء الدولة الجزائرية.

وقد أورد البروفيسور فضيل دليو⁽²³⁾ في كتابه الشامل حول تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة عدة عروض تصنيفية لكبار رواد الباحثين في تاريخ الصحافة المكتوبة في الجزائر، كالتصنيف التاريخي لشاعر الثورة مفدي زكريا^(♦) لكن هذا التصنيف لم يبرز محطة البدايات الأولى للنشاط الصحافي الجزائري خلال سنوات 1893... وكذا التطور النوعي في الصحافة الفرنسية في الجزائر في فترة 1870 و 1881.⁽²⁴⁾ إضافة إلى تصنيف الباحث والمؤرخ زهير إحدادن^(♦) لتطور الصحافة المكتوبة في الجزائر وقد ابدى فضيل دليو على هذا التصنيف مجموعة من الملاحظات أهمها "أن هذا التصنيف لا يأخذ بعين الإعتبار صحافة ما قبل 1848 ولا يتضمن الصحافة الفرنسية غير الحكومية أي التابعة للمستوطنين والتي لا تنتمي لأحباب الأهالي"، وثانيا أنه فصل بين "الأهلي" و "الوطني" فحصر صفة الوطنية في الصحافة الإستقلالية. ويرى دليو أن إطلاق صفة الصحافة السياسية أدق توصيفا من الصحافة الوطنية. لأن الصحافة الأهلية قامت بأدوار وطنية مقاومة وتوعوية داخل الجزائر ولولاها لما توفرت للصحافة الوطنية الأرضية الحاضنة لها".⁽²⁵⁾

كما أورد فضيل دليو تصنيف تاريخي لشيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله^(♦) هذا التصنيف استبعد الفترة السابقة لظهور الصحافة الجزائرية 1890 - 1893 إضافة إلى الصحافة الفرنسية في الجزائر من 1830 إلى 1893. ولم يأخذ بعين الإعتبار التطورات النوعية التي ميزت مرحلة ما بعد الإستقلال.⁽²⁶⁾

أما التصنيف الأخير فهو تاريخي للزبير سيف الإسلام^(♦) ويلاحظ على هذا التصنيف توقفه عند بدايات النشاط الصحافي الجزائري وربط التطور الإعلامي بالتطور السياسي والتحول في منظومة الحكم الفرنسية.

وفي الأخير وبعد استعراض لأهم الجهود العلمية للتأريخ لتطور الصحافة المكتوبة في الجزائر يهتدي فضيل دليو إلى إقرار تصنيفين مختلفين واحد نوعي وآخر تاريخي.⁽²⁷⁾

1- تصنيف ثنائي حسب طبيعة الصحف: صحافة فرنسية صادرة في الجزائر وصحافة جزائرية. صحافة الإحتلال بقطبيها الإقصائي والإدماجي. الصحافة الجزائرية بثالوثها الإدماجي الإصلاحية والسياسية.

2- تصنيف تاريخي يعكس طبيعة التطورات الحاصلة في المجال السياسي وانعكاساتها على النظام الإعلامي وباقي الأحداث التي تأثرت بها الجزائر.⁽²⁸⁾

1- صحافة فرنسية خاضعة للسلطات الرسمية: 1830 - 1870.

2- فترة حرية الصحافة الفرنسية وظهور صحافة أحباب الأهالي: 1870 - 1892.

3- نشأة الصحافة الجزائرية وبداية المقاومة القلمية: 1893 - 1918.

4- مرحلة إنتشار الصحافة الإصلاحية والسياسية: 1919 - 1954.

5- صحافة فترة الثورة التحريرية: 1954 - 1962.

يمكن القول أن هذا التصنيف يعتبر الأشمل والأكثر دقة وتفصيلا لأنه يعتمد على مقارنة تاريخية وسياسية وعلى منهجية علمية متكاملة. على الرغم من ضرورة الإقرار بالصعوبة المنهجية في إعتقاد تصنيف واحد ونهائي لأن كل العروض التصنيفية تركز إما على جانب من الجوانب كاللغة مثلا أو التطورات السياسية..، أو تركز على فترة زمنية معينة ، أو

على نوع معين من الصحافة كصحافة الإحتلال أو الصحافة الأهلية أو الصحافة الإصلاحية..إلخ. ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى أنه ظهرت عدة جهود لبناء تصورات علمية لعروض تصنيفية للصحافة المكتوبة خلال فترة الاستقلال وتناولت جهود الباحثين الجوانب التاريخية والثقافية والسياسية والاقتصادية للصحافة المكتوبة في الجزائر.

4-الصحافة المكتوبة في الجزائر..من صحافة الاحتيال الفرنسي إلى الصحافة الاستقلالية

بالاستناد إلى العروض التصنيفية سالفه الذكر سنرصد باختصار لمختلف مراحل تحول الصحافة المكتوبة في الجزائر بداية من صحافة الاحتيال وميلاد صحافة أحباب الأهالي مروراً بميلاد الصحافة الجزائرية إدارة وتحريراً وتمويلاً وصولاً إلى صحافة المقاومة القلمية والصحافة الإصلاحية والسياسية فالاستقلالية.

1-مرحلة ظهور صحافة الإحتلال الفرنسي في الجزائر 1830 – 1893.

اعتمد الاحتلال الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر وإنزاله العسكري في 14 جوان 1830 على سلاح الإعلام لإسناد حملاته الدعائية للمشروع الإستدماري الاستيطاني باعتباره مشروعاً حضارياً ، ولقد أيقنت فرنسا أن تمرير هذا المشروع يجب يكون عبر تحالف سلطة مؤسسات التربية والتعليم والإعلام والمؤسسات الدينية. "ولقد تم تدعيم هذا التدخل الإستدماري في مجال التعليم بإجراءات تنص خاصة على هدم الجهاز التربوي والديني بصورة مباشرة وتضييق أسسه المادية والاجتماعية ، وبالاستيلاء على الأملاك الوقفية الداعمة خاصة للمؤسسات التعليمية والدينية، مع شن حملات تنصيرية

واسعة وبناء جهاز تعليمي بديل مفرنس للعقول والقلوب".⁽²⁹⁾ وحسب فضيل دليو أنه يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى مرحلتين أساسيتين وهما: مرحلة صحافة التأيد المطلق للاحتلال والتي تمتد من 1830 إلى 1870. ومرحلة حرية الصحافة الفرنسية وظهور صحافة أحباب الأهالي 1870 إلى 1893.

1-1 صحافة الاحتلال الفرنسي 1830 – 1870 :

تجمع الدراسات والبحوث التي أجريت حول تاريخ الصحافة المكتوبة في الجزائر أن الصحف التي ظهرت خلال الفترة الممتدة من 1830 إلى 1870 والتي أصدرتها فرنسا بشكل مباشر أو غير مباشر تميزت بتأييدها المطلق لسلطات الاحتلال والحكوماتها المتعاقبة. ومن بين أهم صحف هذه المرحلة. صحيفة بريد الجزائر **L'estafette d'Alger** صدر عدد الأول بتاريخ 01 جويلية 1830 تزامنا مع الإنزال العسكري للمحتل الذي جلب معه مطبعة لنفس الغرض، وقد كانت الجريدة ذات أهداف تاريخية وسياسية وعسكرية أتبعها المحتل الصحيفة الأسبوعية المرشد الجزائري **Le Moniteur Algerien** يوم 27 جانفي 1832. عملت على تشويش الرأي العام الجزائري في فترة المقاومة الوطنية الأولى ، برفع قيمة الخونة وتمجيد أعمال المحتل وتشويه بطولات المقاومين والتفرقة بين القبائل والعروش والإعلان عن احتلال المدن قبل سقوطها الفعلي وتشجيع على الإستيطان الأوروبي في الجزائر". وبعد حوالي ربع قرن من الاحتلال ، أي منذ سنة 1843 تم توسيع دائرة الاحتلال عسكريا وإعلاميا ، فعمد المحتل الفرنسي إلى دعم تغلغه العسكري في الشرق والغرب إلى تدعيم هذا الاستيطان إعلاميا، وبعدها انتهج المستعمر الفرنسي أسلوب الزحف والانتشار الإعلامي في

الشرق⁽³⁰⁾ والغرب⁽³¹⁾ مع تكثيفه في العاصمة والوسط⁽³²⁾ كمركز للانطلاق في بناء خطته التوسعية، مستهدفا بدعايته المغرضة وقهره السيكولوجي أكبر عدد من السكان، وكانت هناك إصدارات متعددة ومتنوعة للكثير من الصحف واقترن استمرارها باستمرار ولائها المطلق للاحتلال الاستيطاني الفرنسي.

وفي الأخير يجدر التذكير بأن هذه الصحف يمكن اعتبارها فاشلة بالنظر إلى محدودية مقروئيتها لأسباب وعوامل سياسية ولغوية، وكان سحبها متواضعا لمحدودية عدد المستوطنين وعدم إقبال الجزائريين عليها لوعيهم بدعمها لمشاريع الإحتلال ، علاوة على ضعف إمكانياتها وأطقم تحريرها سواء المدنيين أو العسكريين وبعدهم عن التخصص. لكن مكنت هذه الصحف الجزائريين من معرفة الصحافة ووعي أهميتها ومكنت بعض الشباب المتعلم الذي سيتمكن فيما بعد من إنشاء صحف جزائرية إدارة وتحريراً.⁽³³⁾

2-العصر الذهبي للصحافة الفرنسية وظهور صحافة أحباب الأهالي 1870 - 1893.

تمثل هذه المرحلة بداية التأسيس للجمهورية الثالثة في فرنسا إبتداء من سنة 1870 وبالتالي التحول للنهج الليبرالي، ومن الطبيعي أن تتأثر الصحافة بهذا التوجه الجديد ويعتبر الكثير من الباحثين أن هذه المرحلة تمثل بداية للعصر الذهبي للصحافة الفرنسية مع فتح متنفس للصحافة في الجزائر لكن هذا لم يمنع من استمرار سياسات التهديد والوعيد والترغيب والترهيب للصحافة الجزائرية وروادها ، غير أن الجديد هو ظهور صحافة أحباب الأهالي التي أبدت نوع من التعاطف مع الأهالي وتبني الدفاع عن بعض الحقوق الاساسية للمواطنين الجزائريين. وربما هذا كمنطلق برامجاتي بحثا عن التعايش والأمان بين المحتل

والأهالي. كما تأثرت الممارسة الإعلامية في هذه المرحلة بصدور قانون الأهالي 1880 وصدور قانون وزير العدل الفرنسي ذي الأصول اليهودية كريميو 24 أكتوبر 1870 والذي منح الجنسية الفرنسية لليهود ، وهو ما زاد من حدة الصراع بين المستوطنين والأهالي. وأصدرت فرنسا تزامنا مع إقرار التوجه الليبرالي قانون حرية الصحافة سنة 1881 وقد "سأهم في اشتداد المواجهة السياسية الإعلامية بين المستوطنين المطالبين ببعض الحقوق للجزائريين لفرنستهم وإدماجهم والمستوطنين المتطرفين الداعين لإقصائهم وقمعهم عاكسين بذلك النقاش السياسي الذي كان سائدا في الجزائر وباريس واشتد قبيل المعارك الإنتخابية".⁽³⁴⁾

وقد عرفت الممارسة الإعلامية حركية ونشاطا غير مسبوق في هذه المرحلة ودعمته وكالة هافاس للأنباء بحيث فتحت هذه الوكالة مكتبا لها في الجزائر العاصمة سنة 1880 لتزود معظم الصحف بالبرقيات فظهر في العشرية الأولى فقط من حياة الجمهورية الثالثة 1871 - 1881 في عمالة قسنطينة 31 عنوانا جديدا معظمها لم يعمر طويلا 14 في مدينة قسنطينة ، 07 في سكيكدة ، 05 في عنابة ، 03 في سطيف ، 01 بجاية ، 01 سوق اهراس. وفي العشرية الموالية 1881 - 1891 ظهرت 89 صحيفة بينما لم يتجاوز عدد الصحف في عمالة العاصمة 15 جريدة وعمالة وهران 16 نشرية 1886.⁽³⁵⁾

ويذهب الزبير سيف الإسلام إلى أنه خلال الفترة الممتدة 1848 إلى 1891 ظهرت 123 جريدة في القطر الجزائري من بينها 83 جريدة في عمالة قسنطينة. كما ظهرت خلال هذه الفترة صحف الراديكاليين والانتهازيين ، ومحاولات للصحافة الرياضية

والساحرة والمحافظه الدينية والانتخابية والمناسباتية و المسيحية التي كانت تركز على الفترة التاريخية المسيحية التي مرت بها شمال افريقيا وتعمل على جمع التبرعات لبناء الكنائس وتنصير المسلمين. وقد ظهرت الصحافة الإدماجية أو صحافة أحباب الأهالي قصد التصدي للنهضة الإسلامية الوافدة من المشرق ، والتي كانت تخترق التراب الجزائري وتتغلغل في العقلية الجزائرية في وقت عجزت السلطات الكولونيالية في منع الصحف المشرقية الحاملة لهذه النهضة.

3-نشأة الصحافة الجزائرية وبداية المقاومة القلمية 1893 – 1918.

صحافة المقاومة القلمية هي تلك الصحف التي بادر إلى إنشائها المثقفين الجزائريين إدارة وتحريراً والمتبنية لمنهج التصدي الثقافي فكريا وعلميا ودينيا للمشروع الاستدماري، والمستقطبة لكتابات النخبة المثقفة ذات النزعة التحررية من الاحتلال الفرنسي. وقد أدركت فرنسا حجم أهمية الصحافة الثقافية في تحرير العقول ونشر الفكر التحرري الوطني، فلم تسمح بنشر أفكار المثقفين الجزائريين. ويذهب مؤرخ الصحافة الجزائرية الزبير سيف الاسلام إلى التأكيد أنه "منذ أن ظهرت الصحافة و فن الصحافة في ديار الجزائريين عام 1830 إلى 1852 لم يظهر إسم صحفي جزائري أو كاتب جزائري أو مترجم جزائري على صفحات الجرائد العديدة التي انتشرت في كل مدينة من وهران إلى عنابة رغم احتكاك المجتمع الجزائري بهذا الفن منذ 22 سنة".⁽³⁶⁾

وقد ساهمت مجموعة من العوامل في ظهور صحافة المقاومة القلمية ، كصدور قانون الأهالي 1881 والشروع في تطبيقه 28 جوان 1881 وهو قانون عنصري يؤسس للتمييز والتفرقة بين الإحتلال والمستوطنين والأهالي.⁽³⁷⁾ وصدور قانون الإعلام أو

قانون حرية الصحافة 1881 والذي فتح المجال نوعا للصحافة الفرنسية لتتمرير بعض النقد لبعض الممارسات للاحتلال الفرنسي، كما شكل متنفسا للنخبة المثقفة خاصة بعد مراكمة الخبرة في الصحف الفرنسية وصحف أحباب الأهالي. كما ساهمت زيارة بعض الوفود البرلمانية الفرنسية إلى الجزائر وتعاطفهم مع بعض مطالب الأهالي في تحفيز بعض النخب للانخراط في العمل الاعلامي النضالي والمقاوم. ويرى البعض أن زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر 1903 والتقاءه ببعض العلماء كانت نقطة تحول في تبني النهضة الفكرية والثقافية كعامل تصدي للاحتلال الفرنسي.

وبالرغم من أن معظم صحف الأهالي كان ضعيف اللغة وكثير الأخطاء -إلى أن ظهرت صحافة جمعية العلماء- فإن النشاط الفردي المقاوم لأصحابها مثل بوضربة ، الحاج عمار ، الصادق دندن ، عمر بن قدور⁽³⁸⁾ عمر راسم⁽³⁹⁾، والأمير خالد.. كان له دور كبير في بعث صحافة الأهالي قبل الحرب العالمية الأولى وفي التحول الذي عرفته صحافتهم لاحقا. وقد عمل معظمها في الدفاع عن حقوق الجزائريين الثقافية والاجتماعية دون التشكيك علنا في فرنسية الجزائر، لأنه كان شرطا أساسيا للسماح بصدور مختلف الصحف.⁽⁴⁰⁾

4-مرحلة انتشار الصحافة الإصلاحية والسياسية 1919 – 1954.

أدت المراحل السابقة للصحافة في الجزائر أدوارا كبيرة في ظهور صحافة جزائرية مقاومة سياسيا وثقافيا وبلهجة اشد وأكثر صراحة من سابقاتها، ويمكن تقسيمها إلى صحافة فردية وصحافة جموعية. وكان فشل مؤتمر باريس 1936 دورا ايجابيا على الصحافة بحيث

التحقت النخب الاندماجية بالمطالبة بالجمهورية الجزائرية التي انكرت وجودها في السابق بسبب اليأس من الاحتلال ومن عودته الإندماجية الزائفة.

ويرى فضيل دليو أن إطلاق تسمية مرحلة المقاومة السياسية على صحافة هذه المرحلة لا يعفيها من مهامها الإصلاحية التي اضطلعت بها "فالمقاومة الإصلاحية كانت ملازمة لها بحيث كان من أهم خصائصها تشديد اللهجة الاعلامية للصحافة الإصلاحية وتكثيف النشاط السياسي عبر تأسيس حزب الشعب خلفا لحزب نجم شمال افريقيا 1937. كما كانت الصحف السياسية متنوعة الانتماءات (اندماجية، شيوعية، إصلاحية وطنية) وتغلب عليها اللغة الفرنسية وذلك بخلاف الإصلاحية التي كانت تغلب عليها اللغة العربية".⁽⁴¹⁾

وتشير بعض الدراسات إلى تمكن "الصحافة الأهلية في هذه المرحلة من بناء بعض نقاط قوتها، رغم أن بعض الجمعيات والهيئات المختلفة كانت ترى في الوجود الفرنسي ضرورة حتمية".⁽⁴²⁾ لكن مجموعة من العوامل المؤثرة في الاحداث داخليا وخارجيا غيرت شيئا فشيئا من هذه النظرة التقديسية للمستدمر الفرنسي وكان لأحداث 08 ماي 1945 تأثيرها العميق في تفكير المجتمع الجزائري وقيادات الحركة الوطنية وبعض النخب الاعلامية، فتبلور تفكير جدي في ضرورة مجابهة الاحتلال لانتزاع الاستقلال.

5- الصحافة والنخبة المثقفة الجزائرية خلال فترة الاحتلال.. المقاومة القلمية والسياسية في مواجهة الترسانة الإعلامية والحربية الفرنسية.

تقول الروائية أحلام مستغانمي "إذا أنت أشهرت سلاحا فأنت جندي في معركة ، أما إذا أنت أشهرت قلما فأنت جيش في معركة". وكان الفيلسوف الفرنسي الذي ناصر في

بعض مواقفه القضية الجزائرية جون بول سارتر قد أكد بأن للصحافة القدرة الكبيرة والهائلة على تثقيف وتوعية وتنوير الشعب". وبالتالي لم يكن غريبا أن تستقطب الصحافة كبار الفلاسفة والمفكرين والعلماء بمختلف تخصصاتهم وحقولهم المعرفية ، لنشر أفكارهم وآرائهم ونتائج دراساتهم وبحوثهم ومقترحاتهم عبر صفحاتها للنهوض بالقيم الإنسانية اللازمية كالحرية والعدالة والحق والكرامة الإنسانية⁽⁴³⁾ . وتجدر الإشارة هنا إلى العلاقة الجدلية بين المثقفين عامة والصحافة المكتوبة ، وتطور علاقات التأثير والتأثير بينهما وامتداداتها للفضاء الاجتماعي والتشابك مع السياق الثقافي وتداعياتها على العلاقات الاجتماعية ومستوى الوعي العام. فمن الطبيعي أن يبحث المثقف الحقيقي وتحت سطوة ضميره أو "وجدانه المعذب" على حد تأكيد جون بول سارتر عن الفضاء الثقافي المستوعب لخطابه النقدي سواء العلمي أو الفكري أو القيمي أو السياسي أو التربوي أو النضالي التحرري.. إلخ. فلجأ الكثير من المثقفين والشخصيات السياسية الفاعلة إلى إنشاء صحف خاصة بهم كمنابر تعبيرية وفضاءات ثقافية لنشر أفكارهم والدفاع عن مواقفهم في نصرة القضايا العادلة للشعوب والأوطان⁽⁴⁴⁾ . وقد بادر العديد من المفكرين والعلماء والأدباء والفلاسفة سواء في الدول الغربية أو العربية إلى إنشاء صحف بغرض النشر الثقافي وتفعيل النقد الفكري ، وكانت العديد من الصحف في الكثير من دول العالم فضاءات ثقافية لتفعيل النقاش الحر حول مختلف القضايا الفلسفية والفكرية والسياسية التي تطبع كل مرحلة. "فلا وجود لمثقف كبير دون صحيفة"⁽⁴⁵⁾ .

أما في الجزائر فطبيعة العلاقة الجدلية بين المثقفين والصحافة هي علاقة جدلية من نوع خاص تقترن ليس فقط بالبحث عن هوامش الحرية الصحفية في التعبير والكتابة لكن

تمتد لتحمل هموم الشعب والوطن، أي تحرير البلاد والعباد من الاحتلال الاستيطاني الفرنسي الذي يريد استئصال البلاد والعباد.

ورغم عدم التوازن في الإمكانيات والوسائل الإعلامية والحربية ، فالشعب الجزائري الأعزل وجد نفسه في مواجهة قوة وجبروت الدولة الفرنسية كواحدة من القوى الدولية العظمى المدعومة بالحلف الأطلسي وكانت آلية النشر الثقافي والفكري والعلمي لمقالات بعض المثقفين الجزائريين في مختلف الصحف خاصة صحافة المقاومة القلمية والسياسية والصحف الإصلاحية من أهم آليات فك الحصار على الفعل الثقافي وتوسيع قاعدته الجماهيرية لتتوسع أعداد المنتفعين بالثقافة والعلم والفكر والأدب وبالتالي اتساع دوائر الوعي السياسي والثقافي لدى الكثير من الفئات الشعبية لاكتساب الوعي التحرري. إن الأدوار الثقافية الفكرية والعلمية والمعرفية التي اضطلعت بها الصحافة المكتوبة الجزائرية خلال الحقبة الإستعمارية وعبر مساهمتها في توفير فضاءات تعبيرية للنشر الثقافي الفكري والعلمي والمعرفي لمختلف النخب المثقفة العلمية والدينية والسياسية الجزائرية. ورغم أنها لم تكن متطورة في بنيتها المادية ولم تكن تمتلك الإمكانيات اللوجيستية الضرورية للتطوير الذاتي ورغم هوامش الحرية المحاصرة إلا أنها حاولت أن تساهم ولو بالشيء اليسير في الإنخراط الجاد في مسار بلورة الأفكار المنتجة للوعي التحرري ضد الاستعمار الفرنسي". (46)

وفي ظل الفضاء الثقافي السابق لمرحلة الإستعمار من الطبيعي أن تستنبت بذور جيدة للمقاومة الثقافية التي كانت المقاومة القلمية⁽⁴⁷⁾ والصحف من أهم نقاط القوة فيها. فمنذ الفترة الإستعمارية كان للصحف الثقافية الفكرية والأدبية الأدوار البارزة في

إستكتاب المثقفين بمختلف فئاتهم وتخصصاتهم العلمية والفكرية والأدبية والسياسية وتوحيدهم على هدف واحد وهو مناهضة الإستعمار عبر سلاح إعتبره نابليون بوناپرت أكثر وقعا من دوي المدافع ألا وهو "القرطاس والقلم".⁽⁴⁸⁾

"والصحافة الجزائرية لم تكن صحافة متخصصة ، بل صحافة أجبرتها الظروف القائمة عند إنشائها على دخول معترك المقاومة الفكرية والسياسية الذي ليس له من فاصل يفصله عن ثقافة الاستعمار الفرنسي إلا فيصل إسلامي أو غير إسلامي ، عربي وغير عربي ، مما جعل الصحف المكتوبة باللغة العربية تتخندق في خندق الدفاع عن اللغة والثقافة والقضايا الجزائرية ، وهذا ما جعل المحتل الفرنسي يشدد عليها الخناق ويطاردها بالمصادرة والتوقيف باعتبارها تشكل خطرا على وجوده في الجزائر وهذا ما تؤكد مواقف شيوخ جمعية العلماء في شخص الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حدد معالم الهوية والشخصية الجزائرية في نشيده "شعب الجزائر مسلم" ، فالعمل الثقافي بالنسبة للصحافة الجزائرية هو عمل سياسي ولا يمكن فصلهما سواء في الصحف ذات التوجه السياسي أو تلك التي لها توجه جمعي إصلاحي".⁽⁴⁹⁾

إن المثقف الجزائري الذي كتب في الصحف هو إما أن يكون معلما مصلحا ومربيا وشاعرا ألقى بالأساليب الجمالية جانبا وجعل من قلمه سيفا حادا وجرسا قويا لإيقاظ شعبه وترشيده إلى طريق الخلاص بدل أن يبقى في برجه العاجي ، أو يسلك سلوك شعراء وأدباء المدرسة الرومانسية التي كانت سائدة وقتئذ من خلال مدارس أبولو والرابطة القلمية التي اعتنقها شعراء المهجر والمشاركة عموما لأن المثقف والشاعر الجزائري لم يكن له الوقت الكافي للغزل والتغني بالطبيعة ، بل كان همه هو تخليص وطنه من الاحتلال

الجاثم على أنفاسه الذي عمل على اقتلعه من جذوره".⁽⁵⁰⁾ وقد إعتبر الشاعر والصحفي الكبير أبو اليقظان الصحافة بمثابة "مثقّف للشعب" ويقول في مطلع إحدى قصائده:

إن الصحافة للشعوب حياة والشعب من غير اللسان مواءة

الشعب تلميذ وهي مثقف ومهذب إذ تخلص النيات

وتشير الأبحاث والدراسات التاريخية حول الصحافة الجزائرية أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى (1919-1954) كانت مرحلة تحول نوعية في أداء الصحافة الجزائرية الفكرية والثقافية والسياسي أو "مرحلة إنتشار الصحافة الإصلاحية والسياسية".⁽⁵¹⁾ فقد شجع صدور قانون 19 فيفري 1919 أو "إصلاحات قانون جونار" المسلمين الجزائريين للمطالبة بحقوقهم طمعا في أن تعترف لهم فرنسا ببعض الفضل الذي قدموه لها إبان الحرب العالمية الأولى، فاتخذوا من الصحافة وسيلة لذلك.⁽⁵²⁾ هذه الاصلاحات فتحت نسبيا المجال أمام النخبة الجزائرية للتعبير عن مواقفها، إضافة إلى بعض الآثار الإيجابية للحرب العالمية الأولى التي زادت الجزائريين إطلاعا وتوعية بمجريات الأمور السياسية والنضال الوطني، تشكيل بعض الأحزاب والجمعيات التي عملت على إصدار صحف خاصة بها تخدم مبادئها وتدعوا إليها، إضافة إلى تحسن مستوى التعليم ونوعيته خاصة بعد عودة الأفواج الأولى من خريجي المدارس والجامعات العربية والأزهر. كل هذه العوامل بالإضافة إلى الخبرات الإعلامية الجزائرية التي راكمتها سنوات الاحتلال منذ 1830، تضافرت لبعث صحافة جزائرية مقاومة ثقافيا وسياسيا وبلهجة أشد وأكثر صراحة من سابقاتها.⁽⁵³⁾

ومن بين أهم رواد الصحافة الإصلاحية الأمير خالد^(♦) الذي أنشأ صحيفة الإقدام 1919 ، التي تفرغ لها فيما بعد وأعطى كل جهوده لخدمة الفكرة الوطنية خطابة وصحافة. "وراحت الإقدام تعرب عن اتجاهها الوطني الواضح رافضة التجنس رفضاً قاطعاً ، مطالبة بتمثيل الأهالي في البرلمان الفرنسي ومقاومة نزعة المعمرين العنصرية الحاكمة. ومن هنا فإن جريدة الإقدام تعد أول جريدة عربية تصدر في الجزائر يمثل هذه الروح الوطنية الخالصة ، وبهذا الأسلوب القوي المتدفق وكانت إلى هذا الجانب السياسي الذي عرفت به تنشر المقالات التربوية والاجتماعية وتهتم بالانتاج الأدبي الجزائري شعراً ونثراً".⁽⁵⁴⁾

ومن بين الجرائد التي استقطبت كتابات الكثير من الكتاب الجزائريين أسبوعية النجاح 1919-1956 والتي أسسها عبد الحفيظ بن الهاشمي ، وكان الشيخ عبد الحميد ابن باديس مساعداً في تأسيسها ، مشاركاً في تحرير مقالاتها ولكنه ما لبث وأن تخلى عنها لخلاف حول نهجها الإصلاحي. كانت تحتوي على المقالات المتنوعة دينا واجتماعاً وثقافة إلى جانب الخواطر والقطع الشعرية".⁽⁵⁵⁾ وشارك في تحريرها الشيخين " الأمين العمودي و عبد الحميد ابن باديس كما شارك في تحريرها بعض رجال الإصلاح كأحمد بن العابد الجليلي ، المولود الصديق الحافظي الأزهري ، محمد السعيد الزاهري، محمد الهادي السنوسي الزاهري ، محمد الصالح خبشاش ، محمد السعيد أبو يعلى الزواوي ، محمد العلمي ، العربي التبسي.. وغيرهم. وعرف خطها الإفتتاحي خلال فترة تعميرها الطويلة عدة تحولات ، فبعد أن كانت تدافع عن العربية وقضايا الوطن في مرحلتها الأولى ، أصبحت تعادي الحركة الإصلاحية ، وتعرض على جمعية العلماء مع تغطيتها لجميع

نشاطات الإدارة الفرنسية التي تمولها وتعبيرها في الغالب عن مواقف الانتهازيين والعملاء والمؤيدين لوجود الاحتلال الفرنسي في الجزائر ولدعوته التصفوية لمعارضيه ولصحافتهم، وقد توقفت بأمر من قيادة جبهة التحرير الوطني عام 1956.⁽⁵⁶⁾

وقد تميزت مرحلة 1925-1937 بنشاط إعلامي مكثف ونوعي وبجهود فردية للعديد من المصلحين وكذلك الصحف الجمعية بالخصوص صحف جمعية العلماء المسلمين، وصحف جمعية الوفاق. ومن بين أهم المصلحين الجزائريين عبد الحميد ابن باديس، أبو اليقظان، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الطيب العقبي بوكوشة، الزاهري، أحمد أبو شمال... وغيرهم.

وكان الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الحركة الإصلاحية والثقافية بامتياز، فقد جاهد من خلال صحيفتيه "المنتقد" 1925، الشهاب 1925-1939. وضمنهما مقالات تمتاز بالدفاع عن حقوق الجزائريين وهويتهم الحضارية ومكافحة السياسة التخديرية لبعض الزوايا المشيعة للبدع والخرافات، ويرى البعض أن لصحافة العلامة عبد الحميد ابن باديس الفضل في التأريخ للنهضة الفكرية الحديثة في الجزائر وفي المساهمة في تأصيلها وبعثها.⁽⁵⁷⁾ وكانت صحيفة "المنتقد" بحق لسان حال الشباب الناهض في القطر الجزائري، فهي تعد الجريدة العربية الجزائرية الأولى التي جمعت الأقلام الإصلاحية المتمثلة في الشباب العربي المثقف العائد من جامع الزيتونة والأزهر ومعاهد الشام والحجاز بعد الحرب وكان هدفهم واحدا يوجزه شعار الجريدة "الوطن قبل كل شيء" وخطتهم مشتركة وهي "الإصلاح الداخلي أولا في سبيل إصلاح كل شيء". ومن هنا اتجهت جريدة المنتقد إلى الإصلاح الديني توليه عناية فائقة وتدحض أساطير الطرفين المنطلقة

من شعار "إعتقد ولا تنتقد" وقاومت أفكار الفرنسية والتغريب. ويخلص محمد ناصر إلى التأكيد أن جريدة المنتقد تعتبر تحولا مهما في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر لأنها تختلف كل الاختلاف عن الصحف التي سبقتها سلاسة أسلوب ، ومتانة لغة ، وعمق أفكار.. فهي بأعدادها الثمانية عشر كانت في بنیان النهضة ثمانية عشر سندا". (58)

ولم يستسلم الشيخ عبد الحميد ابن باديس لمكر سلطات الاحتلال الفرنسي ، فبعد تعطيل "المنتقد" أصدر جريدة "الشهاب" 1925 - 1939 وتوحدت فيما بعد إلى مجلة ثقافية راقية تؤرخ للحركة الفكرية الجزائرية على نهج سابقتها "المنتقد" مع اصطناع نوع من المرونة في تحريرها". وضمنها مجموعة من الأركان التوعوية والتنويرية والفضاءات التعبيرية والمناظرات لمختلف النخب المثقفة مع الإنفتاح على العالم وإطلاع الجزائريين على ثمار العقول عبر رصد كل ما يستجد في ميدان الإنتاج الفكري ، وبالتالي يعود الفضل "للشهاب" في بعث الثقافة العربية الأصيلة في الجزائر وحماية مقوماتها، كما تعتبر من أهم المراجع التي تؤرخ للنهضة الفكرية الحديثة في الجزائر ما بين الحربين العالميتين". (59)

وأسس محمد السعيد الزاهري صحيفتي "الجزائر" 1925 ، "البرق" 1927 " تميز شعارها بالجرأة غير المعهودة "الجزائر للجزائريين". وتبنت النهج الإصلاحية على خطى صحيفة "الإقدام" للأمرير خالد وصحف رائد النهضة الجزائرية عبد الحميد ابن باديس، الذي علق آمالا كبيرة على صحيفة "الجزائر" لنزعتها الوطنية قائلا فيها "أنها جريدة سياسية أدبية دينية أخلاقية إجتماعية ، بها مقالات بليغة ، في متانة تعبير ، وسمو فكر ، ونبالة مقصد". (60) وجاءت صحيفة البرق لتخلف صحيفة الجزائر التي منعت من الطبع بعد العدد الثالث والعشرون ، "وقد نجحت "البرق" في تكوين مجموعة من الكتاب البارعين

المعروفين بنزعتهم الإصلاحية المتحمسة واسلوبهم الناري ، على رأسهم محمد السعيد الزاهري ، محمد الأمين العمودي ، الشيخان مبارك المليي ، والطيب العقبي ، والمولود الحافظي الأزهري الذي بدأ مصلحا وانتهى طريقا". ويؤكد محمد ناصر ان "صحيفة البرق" تعد مجالا لا يستغنى عنه لدراسة الأدب الجزائري الحديث نثره وشعره ، بل إن الذين يدرسون الفكر الجزائري سياسة وتاريخا لا يمكنهم تجاوزها لأنها تؤرخ لمرحلة دقيقة من مراحل تاريخ النهضة الجزائرية".⁽⁶¹⁾

ومن الصحف الثقافية والمنتهجة لأسلوب المقاومة القلمية ، صحف الطيب العقبي ، وأحمد العقبي الإصلاحية 1927. كأسبوعية "صدى الصحراء" (1925-1926) التي تداول على تحريرها وإثرائها بالمادة الثقافية الفكرية والإصلاحية محمد الأمين العمودي ، الطيب العقبي ، محمد العيد آل خليفة ، أبو يعلى الزواوي ، أبو اليقظان ، مبارك المليي ، محمد العزوري ، أحمد رضا حوحو ، الطيب العقبي... تبنت قضايا الإصلاح الديني والاجتماعي وكان شعارها "درء المفسدة قبل جلب المصلحة".⁽⁶²⁾ وكانت صدى الصحراء مجالا فسيحا لبعض الأقلام التي عرفت بالاندفاع والجرأة والثورة.. وكانت أغلب موادها تتكلم عن بداية النهضة الفكرية والأدبية والوطنية.. قبل أن تنحرف عن اتجاهها الإصلاحي وتعرف سياستها التحريرية بعض الاضطرابات التي افقدتها قيمتها الأدبية والفكرية".⁽⁶³⁾ كما أصدر الطيب العقبي بمساعدة محمد العيد آل خليفة "أسبوعية الإصلاح 1927، وتميز صدورهما بالاضطراب بسبب الصعوبات المادية والإدارية".⁽⁶⁴⁾ لكن هذا لم يثن من إرادة الداعية الإصلاحية الكبير الطيب العقبي الذي كان متحمسا لتنوير وتهذيب الرأي العام الجزائري ، كما كان شديد الحماس للفكرة الإصلاحية والنهضة

الاجتماعية والثقافية. وكانت مقالات الشيخ العقبي وأفكاره مدعومة بمقالات مبارك المليبي ، محمد الأمين العمودي ، محمد السعيد الزاهري ، أحمد توفيق المدني ، إضافة إلى أشعار محمد العيد آل خليفة ومفدي زكريا وأبو اليقضان... إلخ. الذين كانوا يدعون إلى الأخذ بفكرة الإصلاح ومقاومة التخلف الفكري والجمود العقلي.⁽⁶⁵⁾

كما بادر أبو اليقضان إلى تأسيس عدة صحف إصلاحية⁽⁶⁶⁾ خلال الفترة الممتدة بين 1926-1938 وكانت تدافع عن حقوق الجزائر وعن المغرب العربي وعن الإسلام والوحدة الوطنية والتصالح المذهبي بالإضافة إلى تشريحها للأمراض الاجتماعية".⁽⁶⁷⁾

وتعتبر صحيفة "وادي ميزاب" 1926 من أهم هذه الصحف ، وقد تحدث الظروف القاسية لتكون ليس فقط إمتدادا للصحافة الاصلاحية بنهجها المقاومة الثقافية والقلمية بل والأكثر من ذلك "تميزت وانفردت على باقي الصحف بجرارة اللهجة في مخاطبة السلطة الاستدمارية وصراحة مباشرة في معالجة الأمور ومواقف ثابتة في محاربة الظلم والاضطهاد وتعقب علي لكل مظاهر الانحراف".⁽⁶⁸⁾ وراحت صحيفة وادي ميزاب بأفكارها ومفكرها تسير ضمن خطة مرسومة بدقة وإحكام مستوحاة من واقع الأمة الجزائرية في بداية نهضتها ، فوجهت اهتماماتها الكلية إلى توجيه الجزائريين وتوعيتهم في جميع الميادين الحيوية ، اجتماعا واقتصادا وسياسة وثقافة ، وأشد ما كانت عنايتها ملحة وأكيدة هو بناء الشخصية الوطنية والتشبث بمقوماتها".⁽⁶⁹⁾ وأبانت اهتماما بالغاً بالميدان

التربوي والثقافي وتشجع على التعليم بل وربطت الوطنية بالتعليم كما شجعت أيضا على الانتاج الفكري ودعم كل المواهب في هذا الاتجاه فنضجت على صفحاتها أقلام شابة كثيرة على غرار شاعر الثورة مفدي زكريا ، بكير بن سليمان ، أحمد بن الحاج يحي ،

رمضان حمود ، محمد الهادي سنوسي ، عيسى بن عبد الله ، الكاملي بوراس عبد الله.. إلى جانب الكتاب الذين تمرنوا على الكتابة كأمثال عمر بن قنور ، مبارك المليي ، المولود الحافظي الأزهري.. وغيرهم. ولم تنس في الميدان الثقافي أن تفيد قراءها ببعض المقالات ذات الطابع العلمي ، لا سيما في الموضوعات الفيزيائية ، والفلاحية والمخترعات ، وفي الميدان الاقتصادي : فتحت أعين الأهالي على النظريات الاقتصادية العالمية".⁽⁷⁰⁾ وقد واصل أبو اليقضان معاركه الفكرية والثقافية وجند عقله وقلمه لصناعة رسالة صحفية مستنيرة عبر مختلف الصحف التي أنشأها ليكتسب بحق لقب مجاهد الكلمة.

وأصدر محمد الأمين العمودي⁽⁷¹⁾ وهو من الكتاب الذين يمتلكون ثقافة عالية وجرأة كبيرة في التعبير عن أفكاره وكان قلمه مسلطا على الظلم والتخلف ومن مؤسسي جمعية العلماء ، صحيفته "الدفاع la défense 1934-1939 من منفاه بأفلو ولاية الأغواط. وقد تعمد صاحبها إصدارها باللغة الفرنسية للدفاع عن حقوق ومصالح المسلمين وتعريف الأوساط المثقفة الفرنسية بأهداف الحركة الإصلاحية".⁽⁷²⁾

وإذا كان بدير بورديو ينعت الأحزاب السياسية والجمعيات والاتحادات المهنية "بالمثقف الجماعي" فقد أبدت جمعية العلماء المسلمين (1933 - 1956) براعة فكرية وثقافية وحنكة سياسية كبيرة في المرافعة للإصلاح وتشكيل الوعي الوطني التحرري. وكانت صحفها الأشهر والأكثر تأثيرا في بلورة معالم الشخصية الجزائرية ، والمؤسسة للمناهضة الثقافية والفكرية للمحتل الفرنسي. ومن بين صحف جمعية العلماء المسلمين ، أسبوعية السنة المحمدية 1933 . توقفت وحلقتها "الشرعية النبوية المحمدية 1933" . تلتها أسبوعية "الصراط السوي 1933-1934" ثم تلتها صحيفة "البصائر 1935-1956"

. وتعتبر أهم صحيفة جزائرية محضة عرفتها الجزائر المحتلة ، وتعاقب على رئاسة تحريرها وإثرائها بالمضامين الثقافية والفكرية ، الطيب العقبي ، مبارك المليبي ، البشير الإبراهيمي... وغيرهم. "ولقد كانت حامية اللغة العربية وناصره الدين الإسلامي بلا منازع وقلعة أدبية بيانية راقية وذات مستوى أدبي ممتاز".⁽⁷³⁾ كما تعتبر جريدة البصائر من أهم العوامل التي ساعدت على تطوير الحركة الأدبية والفكرية في الجزائر ، ففتحت المجال واسعا لأقلام المثقفين اللامعين من الكتاب والشعراء وكانت تخصص ركنا متميزا "للمباحث الأدبية والعلمية".⁽⁷⁴⁾

ومن بين الكتاب الذين كانوا ينشرون فيها إنتاجهم الفكري والشعري باستمرار نذكر: الشيخ البشير الإبراهيمي ببيانه المشرق ، ولغته العربية الراقية ، الشيخ عبد الحميد ابن باديس بفكره المتنور والشيخ الطيب العقبي، فرحات الدراجي ، محمد خيرالدين ، أبو يعلى الزواوي ، وحمزة بوكوشة ، في فصوله عن الأدب وقضاياها في ركن شؤون وشجون ، وأحمد بن العابد الجيلالي بأسلوبه القصصي الجميل ، وعلي مرحوم ، وأبو مدين الشافعي ن ومن أبرز الشعراء وأجودهم محمد العيد آل خليفة... وهكذا سارت "البصائر" سيرا حثيثا ومنتظما وبلغت من الرقي والانتشار ما لم تبلغه أي جريدة عربية في الجزائر".⁽⁷⁵⁾

ولا تزال جريدة البصائر مستمرة في الصدور ومحتفظة باتجاهها الإصلاحية المشخص لكل الأمراض الاجتماعية والمنتقدة للأوضاع السياسية ، ويتميز خطها التحريري بجرأة كبيرة في نقد السياسات العامة ، وهي فضاء مفتوح لكل الإسهامات العلمية والفكرية والأدبية الأصيلة المدافعة عن القيم المركزية للمجتمع ولا تزال قلعة متينة في التصدي لكل

محاولات طمس معالم الشخصية الجزائرية وبالخصوص بعض المناورات والمآمرات القديمة الجديدة المتربصة بالثواب والقيم الوطنية والخلقية للمجتمع الجزائري.⁽⁷⁶⁾

وفي نفس الاتجاه في نهج تبني المقاومة الثقافية المغذية للمقاومة السياسية ظهرت "صحافة المقاومة السياسية" التي أعقبت المرحلة الممتدة 1937-1954، ومن بينها أسبوعية "المغرب العربي" 1937 أصدرها الأديب حمزة بكوشة وهو من مؤسسي جمعية العلماء. وكانت خطة الجريدة إصلاحية وطنية وتقاوم الفساد الإداري والاجتماعي.⁽⁷⁷⁾ وأصدر الأديب إسماعيل العربي مجلة "أفريقيا الشمالية" 1946، وهي مجلة فكرية تجمع بين التيار الإصلاحي للعلماء والاتجاه الوطني لحزب إنتصار الحريات. إضافة إلى مجلة "العبقرية" 1948 للأستاذ عبد الوهاب بن منصور. كما بادر الأديب محمد رضا حوحو إلى إنشاء "أسبوعية الشعلة" 1949-1951، وكانت موالية للعلماء واتجاهها إصلاحي وطني، وبالرغم من كونها أسبوعية فكرية عامة فقد شملت محتوياتها مهاجمة الطريقة والإحتلال وأنصار الإدارة الفرنسية، وكان من كتابها "أحمد حماني، أحمد بوشمال، عبد الرحمان شيبان وموسى الأحمدي.⁽⁷⁸⁾

ومن رواد الصحافة الجزائرية أيضا عمر بن قدور مؤسس أسبوعية الصديق، الفاروق، أبو بكر جابر الجزائري "جريدة اللواء" 1952. وخلفتها جريدة "القبس الأدبية" 1952. أدارها أبو القاسم ديقير، وترأس تحريرها محمد الهادي السنوسي. وتعد جريدة الشباب المسلم *le jeune musulman* 1952-1954. لسان حال شباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحت رعاية الشيخ العربي التبسي، وإدارة "عطاء الله سفاري". "وكانت موجهة لأنصار الإصلاح المتعلمين بالفرنسية وللرأي العام الفرنسي وقد شارك

في تحرير موادها مثقفون جزائريون من مشارب فكرية وحساسيات سياسية مختلفة جمعت بينهم قضايا الإصلاح والعدالة والتحرر. وكان من أهم كتابها على التوالي : أحمد طالب الإبراهيمي ، علي مراد محمد الشريف ساحلي ، مالك بن نبي ، عمار أوزقان ، مصطفى الأشرف ، هاشمي التيجاني ، عبد العزيز خالدي ، أحمد شامي ، توفيق المدني (محرر إفتاحية عددها الأول) ، العربي التبسي.. وبعد أكثر من نصف قرن عاودت الصدور تحت إشراف جمعية العلماء المسلمين "لإنارة طريق الشباب لكي يتعرفوا على القيم الحقيقية للمجتمع الجزائري وعلى الإرث العلمي العظيم الذي خدم به أسلافهم المسلمون الإنسانية". (79)

ومن بين أبرز الصحف السياسية التي ظهرت في المرحلة التي سبقت الثورة التحريرية المباركة جريدة الشعب 1937 التي أصدرها حزب الشعب باللغة العربية وتكفل بإصدارها شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا ومحمد قنانش بالجزائر العاصمة. وقد استشعر الاحتلال الفرنسي خطر هذه الجريدة على مصالحه ، فسارع إلى الإطباق على العدد الثاني من الجريدة وهو ما يزال فوق آلات الطباعة". لكن وحسب تأكيد محمد ناصر فإن الأثر الذي تركته الشعب بعمرها القصير لم تتركه الجرائد الانتفاعية بعمرها الطويل". (80) ومن بين الصحف السياسية التي ظهرت باللغة العربية صحيفة "صوت الأحرار 1943-1945 ، أما باللغة الفرنسية فظهرت أيضا مجموعة من الصحف "يومية الجزائر" و "العمل الجزائري" 1941. وكان من أبرز كتابها وبنصوص أدبية مصطفى الأشرف. كما أصدر حزب إنتصار الحريات الديمقراطية ، البديل عن حزب الشعب مجموعة من الصحف بالفرنسية على غرار "دفاتر جزائرية" و "الأمة الجزائرية" في

باريس 1946-1948 . كبديل عن جريدة الشعب و "الجزائر الحرة 1948-
1954. إضافة إلى أسبوعية المنار 1951-1954 وكانت تستقطب مشاركات
ومساهمات قلمية من مختلف الاتجاهات وبالخصوص المناصرين لحزب الشعب.⁽⁸¹⁾
وأصدر الحزب الشيوعي بالجزائر عقب إعلان إستقلاله التنظيمي عن الحزب الشيوعي
الفرنسي في 1934 . صحيفتين بالفرنسية "أسبوعية الحرية 1943-1955. و"دفاتر
الشيوعية ، والنشرية الشهرية غير المنتظمة "الجزائر الجديدة 1943-1947-1955).
وكان فرحات عباس قد أنشأ جريدة "المساواة 1944 . ثم حولها بعد 1946 إلى
"الجمهورية الجزائرية République Algérienne. كتعبير عن تغيير آرائه
وقناعات حزبه الجديد⁽⁸²⁾

لقد صدرت عشرات الجرائد في الجزائر من بداية القرن العشرين إلى الخمسينات منه ،
استعرضنا منها بعض النماذج المقاومة ثقافيا ، وكانت معظم الجرائد التي تصدر بالعربية لا
تعمر طويلا فتوقفها سلطة الاستعمار وكثيرا ما تصدر متقطعة. "وكل الصحافة التي
صدرت قبل الحرب العالمية الأولى ومابين الحرب العالمية الأولى والثانية كانت تلتف حول
موضوعات ذات طابع سياسي يقاوم من أجل الشخصية والهوية الجزائرية وسط ثقافات
أوروبية متعددة تعمل كلها من أجل تكريس مقولة الجزائر فرنسية".⁽⁸³⁾

ويخلص فضيل دليو إلى القول "لا يمكننا بهذا الصدد إلا الإشادة بالعمل الإعلامي
العظيم المنجز من طرف الصحافة الجزائرية وخاصة العربية منها في ظل ضعف الوسائل
المتاحة والعراقيل الإدارية القمعية حيث كانت تجدد إصداراتها وتتحايل شكلا ومضمونا
على المحتل لتصل إلى المثقفين والميسورين منهم عبر قراءات مرفقة بتعليقات إلى الأمين

والفقراء ، لتشحذ هممهم وتعمق حسهم الوطني وانتمائهم الحضاري".⁽⁸⁴⁾ فالصحافة الجزائرية أدت دورا مهما من أجل الحفاظ على الهوية والتاريخ والخصائص الجزائرية منذ الاحتلال إلى الاستقلال وعملت على إبراز الثقافة الجزائرية التي استطاعت أن تفرض نفسها على المستويين العربي والدولي".⁽⁸⁵⁾

خاتمة: يمكن التأكيد على مقولة جاك ليكرك "أنه لا وجود لمثقف كبير بدون صحيفة" فالملاحظ وخلال مختلف المراحل الانتقالية في تاريخ الدولة الجزائرية ، أن معظم المثقفين الجزائريين سواء مراحل ما قبل الحرب التحريرية أو خلال المرحلة التحريرية ، أو ما بعد الاستقلال انخرطوا بقوة في الكتابة في الصحف أو إنشاء صحف أو المشاركة في إنشاء صحف لنشر أفكارهم وبلورة تصوراتهم والدفاع عن مواقفهم المختلفة تجاه مختلف القضايا والمسائل الوطنية. فاستمر دفع مداد حبر النخبة المثقفة الجزائرية بكتابها وشعرائها وسياسيها ومصلحيها، لمسايرة نبض الحياة الثقافية والاجتماعية للجزائريين المليئة بالبؤس والظلم الاستدماري وتحدى المثقفون الجزائريون بذلك كل أشكال القهر السيكلوجي والتنكيل الفيزيولوجي والمصادرة الموضوعية للتفكير وآليات الاشتغال على الفكر. فكانوا وبصحفهم مثل الشموع تحترق لتنير الجوانب المظلمة من حياة شعب يتم تجهيله وتجويعه ومحاولات استئصال ثقافته وشخصيته يوم بعد يوم. فكان صرير الأقلام فعلا أكبر وأخطر على الاحتلال الفرنسي من دوي المدافع وكان لبناء الحصانة الثقافية للشخصية الجزائرية أكبر عامل لقيام نهضة ثورت العقول والقلوب للوقوف صفا واحدا في وجه الاحتلال فكان وهج الأفكار الإصلاحية والنهضوية الوقود الحيوي لإشعال فتيل الثورة التحريرية المباركة في الفاتح من نوفمبر 1954.

- (1) حياة عمارة: أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من التأسيس إلى عهد التعددية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب، كلية الآداب واللغات، جامعة تلمسان، 2013/2014. ص 2.
- (2) نايلي نفيسة: محاضرات في الصحافة المكتوبة في الجزائر، مطبوعة مقدمة لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص صحافة وإعلام إلكتروني قسم العلوم الانسانية كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2014/2015. ص 5.
- (3) حياة عمارة: مرجع سبق ذكره، ص 02.
- (4) محمد منير حجاب: الموسوعة الاعلامية، ط1، مصر، دار الفجر، مجلد4، 2003. ص 1489.
- (5) حياة عمارة: أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من التأسيس إلى عهد التعددية، مرجع سبق ذكره، ص 2.
- (6) سورة الأعلى، الآية 18. 19.
- (7) سورة البينة، الآية 2.
- (8) عبد العالي رزاقى: المهنة صحفى محترف قوانين الاعلام وأخلاقيات الصحافة في 22 دولة عربية، ط1، الجزائر، دار هومة، 2013. ص 22.
- (9) أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات الإعلامية، ط1، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1985. ص 124.
- (10) حنان جنير: دور الاعلام في تكوين تصورات النخبة حول مفهوم الإرهاب، مجلة البحوث الإعلامية، ع 18، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، 2002. ص 440.
- (11) عواطف عبد الرحمان: الصحافة العربية في الجزائر دراسة تحليلية لصحافة الثورة التحريرية، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985. ص 15.
- (12) فضيل دليو: تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة 1830-2013، مرجع سبق ذكره. ص 14.
- (13) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص 15.
- (14) عواطف عبد الرحمان: مرجع سبق ذكره، ص 15.

- (15) الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر رواد الصحافة الجزائرية، ط1، القاهرة، مطابع دار الشعب، 1981. ص 09.
- (16) نفس المرجع، ص 10.
- (17) حياة عمارة: أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من التأسيس إلى عهد التعددية، مرجع سبق ذكره. ص..
- (18) الزبير سيف الإسلام: مرجع سبق ذكره، 10.
- (19) نفس المرجع، ص 11.
- (20) عواطف عبد الرحمان: مرجع سبق ذكره، ص 17.
- (21) الزبير سيف الإسلام: مرجع سبق ذكره، ص 11.
- (22) حياة عمارة: مرجع سبق ذكره، ص
- (23) أ.د فضيل دليو: تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة 1830 - 2013، ط1، الجزائر، دار هومه، 2014. ص ص 17. 21.
- (♦) تصنيف تاريخي لمفدي زكريا: صحافة الإحتلال: 1830 - 1907، صحافة المقاومة القلمية: 1907 - 1923، صحافة جمعوية: 1923 - 1936، صحافة المقاومة السياسية: 1936 - 1954، صحافة فترة الثورة التحريرية: 1954 - 1960.
- (24) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص 17.
- (♦) يركز تصنيف الباحث والمؤرخ زهير إحدادن على أربع مراحل رئيسية في تطور الصحافة المكتوبة في الجزائر: الصحافة الحكومية 1848 - 1882، صحافة أحباب الأهالي 1882 - 1893، الصحافة الأهلية 1893 - 1919، الصحافة الوطنية (الإستقلالية) 1930.
- (25) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص 19.
- (♦) يقسم أبو القسم سعد الله مراحل تطور الصحافة المكتوبة في الجزائر إلى أربع مراحل: مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى: 1890 - 1914، مرحلة ما بين الحربين: 1919 - 1939، مرحلة ما بين الحرب العالمية الثانية وحرب التحرير: 1954 - 1962، مرحلة الإستقلال: 1962 إلى اليوم.
- (26) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص 20.

- (♦) يبرز مؤرخ الصحافة المكتوبة في الجزائر ثلاثة مراحل أساسية لتطورها في الجزائر: مرحلة نشأة الصحافة الفرنسية في الجزائر المحتلة: 1830 – 1850. عهد الإمبراطورية الثانية: 1850 – 1870. عهد الجمهورية الثالثة: 1870 – 1900.
- (27) دليو فضيل: مرجع سبق ذكره، ص 20.
- (28) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص 21.
- (29) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص 15.
- (30) ففي قسنطينة صدرت صحيفة قسنطينة 1848، وصحيفة نهضة قسنطينة 1851، صحيفة المستقل 1859 واستمرت إلى غاية 1909. وفي سطيف ظهرت صحيفة "صدى سطيف" 1860. وفي عنابة "سيبوس جريدة بونة 1843 أصبحت فيما بعد "السيبوس".
- (31) في وهران صحيفة "بريد وهران 1850، وصحيفة "صدى وهران" التي كانت يسارية حسب فضيل دليو. وفي مستغانم صدرت "بريد مستغانم 1863.
- (32) صدرت في الجزائر العاصمة صحف متعددة ومتنوعة كان أهمها: إضافة إلى صحيفة المبشر 1847، و "الأطلس" 1849 والتي كانت تنعت باليسارية وأوقفها الإحتلال رغم محاولات ظهورها بأسماء جديدة "كصدى الأطلس 1851، "المؤشر 1852، "الجزائري" 1852. كما ظهرت صحف "لأخبار" 1838، "صدى الجزائر 1849، "المرشد الجزائري 1832، "مرشد الجزائر" 1862، "صحيفة التل 1863 والتي استمرت إلى 1950. "الجزائر الجديدة 1858، "الرامي الجزائري 1858، "بريد الجزائر 1861، الأسبوعية السياسية "الجزائر" التي كان شعارها "الجزائر أصبحت فرنسية للأبد". وظهرت في البلدة صحيفة "الملاحظ البلدي" 1861.
- (33) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص..
- (34) فضيل دليو: تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة، مرجع سبق ذكره، ص 35.
- (35) فضيل دليو: تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة، مرجع سبق ذكره، ص 35. 36.
- (36) الزبير سيف الاسلام: مرجع سبق ذكره، ص 15.
- (37) نفس المرجع

- (38) يعد من رواد الصحافة الجزائرية ومن المتحمسين للقومية الاسلامية ولد بالجزائر العاصمة 1886 وتوفي بها سنة 1932 ومن الصحف التي أنشأها "صحيفة الفاروق 1913 . وقال بن قدور بأنه اختار لها هذا الاسم لتكون بمشربها الاعتدالي فارقة بين الحق والباطل وأمرة بالمعروف وناهية عن المنكر". (محمد ناصر: مرجع سبق ذكره ، ص36).
- (39) يعتبر عمر راسم المشهور بروحه الوطنية الثائرة من رواد الصحافة الجزائرية ومن الأوائل الذين كانت لهم الجرأة في الجهر برفضهم للاحتلال ، فكرس فكره وقلمه وجهده للمقاومة الفكرية والثقافية عبر الصحافة المكتوبة. فأنشأ جريدة "الإصلاح" ، بعدها صحيفة "الجزائر 1908 التي تعد أولى محاولات الصحافة الإصلاحية المخلصة للوطن ، وشارك في تأسيس صحيفة "الفاروق" ولم يستسلم لمضايقات المحتل الفرنسي فبادر إلى إنشاء صحيفة "ذو الفقار" سنة 1913 ونظرا لتفطن الاحتلال الفرنسي لذكاء عمر راسم وروحه الوطنية كانت دوما تسارع لمصادرة صحفه وكنتم انفساه.
- (40) الزبير سيف الإسلام ، مرجع سبق ذكره، ص59.
- (41) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص103.
- (42) نايلي نفيسة: مرجع سبق ذكره، ص6.
- (43) حجام الجمعي: المثقفون الأكاديميون والصحافة المكتوبة في الجزائر، دراسة في الأبعاد الإتصالية والثقافية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، كلية علوم الإعلام والإتصال، جامعة الجزائر3، 2016/2015، ص283.
- (44) حجام الجمعي: المثقفون الأكاديميون والصحافة المكتوبة في الجزائر دراسة في الابعاد الاتصالية والثقافية، مرجع سبق ذكره، ص 297.
- (45) جيزار ليكرك: سوسيولوجيا المثقفين ، تر جورج كتورة ، ط1، بيروت ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، 2008 ، ص86.
- (46) حجام الجمعي: المثقفون الأكاديميون والصحافة المكتوبة في الجزائر، دراسة في الأبعاد الإتصالية والثقافية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، كلية علوم الإعلام والإتصال، جامعة الجزائر3، 2016/2015، ص284.

(47) (صحافة المقاومة القلمية 1907-1923 وهي المرحلة الثانية لواحد من بين أهم التصانيف التاريخية لتاريخ الصحافة المكتوبة الجزائرية لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء : المرحلة الأولى : صحافة الإحتلال 1830-1907 . المرحلة الثانية: صحافة المقاومة القلمية 1907-1923. المرحلة الثالثة: الصحافة الجموعية 1923-1936. المرحلة الرابعة: صحافة المقاومة السياسية 1936-1954. المرحلة الخامسة: صحافة فترة الثورة التحريرية .(للتفصيل حول مختلف التصنيفات التاريخية للصحافة المكتوبة الجزائرية أنظر: فضيل دليو: تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة 1830-2013 ، الجزائر ، دار هومة ، 2014)

(48) حجاج الجمعي: المثقفون الأكاديميون والصحافة المكتوبة في الجزائر، دراسة في الأبعاد الإتصالية والثقافية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، كلية علوم الإعلام والإتصال، جامعة الجزائر3، 2015/2016. ص285.

(49) ابن تريعة: الصحافة الثقافية في الجزائر من التصدي للإستعمار إلى ترقية الذوق الفني، المساء، جريدة عمومية جزائرية، يوم 2013/10/21.

(50) ابن تريعة، نفس المرجع.

(51) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره ، ص74.

(52) محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ط1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980. ص46.

(53) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص.ص74.75.

(♦) الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ، تزعم الحركة الإصلاحية الوطنية في الجزائر ما بين 1919 – 1923 ، ولد بدمشق سوريا في 1875 وتوفي بها في سنة 1936. وحسب محمد ناصر فقد استقال من النيابة العامة سنة 1921 ليتفرغ للمقاومة القلمية والصحفية ، فتعرض للعديد من المضايقات والمحاکمات الإنتقامية فحكمت المحكمة على صحيفته "الإقدام" بألف فرنك غرامة وخمسة آلاف فرنك تعويضات، الشيء الذي أرهق الأمير خالد وجريدته التي توقفت سنة 1923 بعد صدور 120 عددا منها.

- (54) محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ط1، مرجع سبق ذكره، ص48.
- (55) محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ط1، مرجع سبق ذكره، ص43.
- (56) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره ، ص.ص81.80.
- (57) نفس المرجع، ص.ص85.87.
- (58) محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ط1، مرجع سبق ذكره، ص54 ، 55.
- (59) محمد ناصر: نفس المرجع، ص62.
- (60) محمد ناصر، نفس المرجع، ص55.
- (61) محمد ناصر: نفس المرجع، ص85.
- (62) حجام الجمعي: المثقفون الأكاديميون والصحافة المكتوبة في الجزائر دراسة في الابعاد الاتصالية والثقافية، مرجع سبق ذكره، ص 299.
- (63) محمد ناصر: نفس المرجع، ص63.
- (64) فضيل دليو: تاريخ الصحافة المكتوبة الجزائرية، مرجع سبق ذكره، ص87.
- (65) محمد ناصر: مرجع سبق ذكره، ص90.
- (66) أسبوعية "وادي ميزاب 1926-1929 " . ميزاب 1930-1931، "المغرب 1930-1931 ، النور 1931-1933 ، البستان 1933 ، النبراس 1933 ، الأمة 1933-1934 ، الفرقان 1938.
- (67) فضيل دليو: فس المرجع، ص90.
- (68) محمد ناصر: نفس المرجع، ص66.
- (69) نفس المرجع، ص67.
- (70) محمد ناصر: مرجع سبق ذكره، ص73.

- (71) من أبرز رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر من مواليد وادي سوف سنة 1890 كان كاتباً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين يجمع بين الثقافة العربية والفرنسية ، عمل محامياً في كل من بسكرة ، والعاصمة ، توفي مغتالاً بالجزائر العاصمة سنة 1959.
- (72) فضيل دليو: فس المرجع، ص92.
- (73) فضيل دليو: مرجع سبق ذكره، ص98.
- (74) محمد ناصر: مرجع سبق ذكره ، ص197.
- (75) محمد ناصر: نفس المرجع، ص198.
- (76) حجام الجمعي: المثقفون الأكاديميون والصحافة المكتوبة في الجزائر دراسة في الأبعاد الاتصالية والثقافية، مرجع سبق ذكره، ص301.
- (77) محمد ناصر: مرجع سبق ذكره ، ص206.
- (78) فضيل دليو: نفس المرجع، ص104.
- (79) نفس المرجع، ص105.
- (80) محمد ناصر: مرجع سبق ذكره، ص206.
- (81) فضيل دليو: تاريخ الصحافة المكتوبة في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص.ص.108.112 .
- (82) نفس المرجع، ص112.
- (83) أبو تريعة، مرجع سبق ذكره.
- (84) فضيل دليو: تاريخ الصحافة المكتوبة في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص102.
- (85) أبو تريعة : مرجع سبق ذكره.

النظام الإداري في منطقة وادي ريغ خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر
ميلادي (1854 – 1900م)

د. معاد عمراني / قسم العلوم الإنسانية/جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

mouad.amrani@yahoo.fr

الملخص: يتناول هذا المقال تطور النظام الإداري في منطقة وادي ريغ خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي، وذلك من خلال إبراز أهم خصائص هذا النظام والمراحل التي مرّ بها خلال هذه الفترة.

Abstract:

This article analyzes and examines the development of the french administrative system in oued righ region in the second half of 19 century.it focuses on the main characteristics of this administrative colonizing system and also on the different stapes this system had vedergone during the studied period

مقدمة

تقع منطقة وادي ريغ بالجنوب الشرقي الجزائري، ولقد استطاع المستعمر الفرنسي أن يخضع هذه المنطقة لسيطرته في خريف سنة 1854م، بعد أن كانت قبل ذلك تحت سيطرة عدّة أسر، منها أسرة بني جلاب والتي قاوم آخر سلاطينها القوات الفرنسية إلى

أن سقطت مدينة توقرت عاصمة وادي ريغ ، وبعد مقاومة شديدة سقط فيها العديد من أبناء المنطقة شهداء، دفاعا عن حريتهم وكرامتهم.

وكعادة المستعمر الفرنسي، الذي كان يقوم بتغييرات جذرية في نظام الحكم كلما احتل منطقة من الوطن، فإن منطقة وادي ريغ لم تشذ عن هذه القاعدة، فقد عرفت نظاما إداريا جديدا يتماشى ومصالحة القوات الاستعمارية بهذه المنطقة، وفي هذا المقال سنلقي الضوء على أبرز سمات وخصائص هذا النظام، وأبرز التطورات التي عرفها بوادي ريغ خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك من خلال النقاط الآتية:

-التعريف بمنطقة وادي ريغ.

-النظام الإداري بمنطقة وادي ريغ من 1854 إلى سنة 1871م.

-النظام الإداري بمنطقة وادي ريغ من 1871 إلى سنة 1900م.

-استنتاجات.

أولا-التعريف بمنطقة وادي ريغ.

أ- لمحة جغرافية:

يقع إقليم وادي ريغ في الشمال الشرقي من الصحراء الجزائرية في منخفض مستطيل الشكل، طوله 160 كم، وعرضه يتراوح ما بين 30 و 40 كم، يبتدئ شمالا من قرية عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا بقرية قوق¹، يحد الإقليم من الشمال، الجنوب الغربي لشط ملغيغ، ومن الجنوب مدينة ورقلة، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير،

ومن الغرب منحدر حصوي و هضبة ميزاب² ، وأهم ما يميز منطقة وادي ريغ من الناحية التضاريسية هو البساطة والاستواء، حيث تتميز بإنحدار خفيف من الجنوب إلى الشمال وبارتفاع عن سطح البحر مقداره 35م، مع مرتفعات بسيطة لا تفوق 300م³.

وقد سمي ياقوت الحموي إقليم وادي ريغ بالزاب الصغير أو ريغ⁴ ، وسماه ابن خلدون بلاد ريغ أو أرض ريغ⁵ ، وسماه ابن سعيد أيضا ببلاد ريغة⁶ ، أما في الوقت الحاضر، فيعرف بوادي ريغ، تميزا له عن وادي سوف و وادي ميزاب⁷.

كان إقليم وادي ريغ قبل الاحتلال الفرنسي، يتكون من حوالي 35 مدينة وقرية ودرشة، تشكل في مجموعها واحات وادي ريغ، ونذكر منها: منطقة المغير التي تضم (أم الطيور، نسيغة، سيدي خليل، البارد، تندلة، والمغير أيضا)، ومنطقة جامعة وبها (لغفيان، الزاوية، مازر، تقددين، سيدي عمران، تمرنة، سيدي يحيى، ناهيك عن جامعة) وكذا منطقة توقرت وتشمل(سيدي سليمان، لهرهيرة، مقر، القصور، غمرة، المقارين، توقرت، تماسين، قوق...) ⁸.

ب- لمحة تاريخية:

تشير الدراسات إلى أن الحياة في منطقة وادي ريغ تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، وذلك استنادا إلى الأبحاث التي قام بها الضابط الفرنسي جونفوت (Genvot) أثناء تنقيبه عن المياه في هذه المنطقة⁹، حيث اكتشف آثار تاريخية هامة في الشمال الغربي لكدية سيدي يحيى¹⁰ بها مجموعة من الوسائل والأدوات تعود لفترة ما قبل التاريخ¹¹.

وتتمثل هذه الأدوات في مجموعة من السهام المحددة والجميلة وبأشكال وألوان مختلفة، جماجم وبها أسنان بارزة وطولها 0,07، أدوات مقطوعة وبها رأس، محك (مكشط) ومجموعة من المديات برؤوس محددة وجميلة، أسنان أسماك، بقايا صدفات بيض النعام، صوان معالج (مستعمل)، مسامير، سهام، حجارة مصقولة¹².

أما في فترة المغرب القديم، فإنه لم يثبت أن الرومان قد احتلوا منطقة وادي ريغ، فهم في توسعهم لم يتجاوزوا منطقة الزاب، حيث اكتفوا بإنشاء معازل لهم في وادي جدي عند بسكرة¹³، فالصحراء لم تكن مغرية للرومان، فضلا عن كونها مجاهل محفوفة بالأخطار، وليس فيها من السكان والموارد ما يسوغ المغامرة في رمالها إلى أبعد من حافتيها الشمالية¹⁴، وهكذا، فعلى الرغم من أن الطبيعة الصحراوية حالت دون تواجد روماني بشري في الواحات، إلا أن هذه الأخيرة كانت تمثل أسواقا هامة للتبادل التجاري مع الشمال الخاضع للسيطرة الرومانية¹⁵.

أما في فترة الفتوحات الإسلامية، فإن الإسلام انتشر في الصحراء عموما نتيجة لعدة عوامل، منها التجارة، وكذلك تيار الهجرة من الشمال إلى الجنوب، ويقصد به هجرة القبائل البربرية، كزنانة وصنهاجة، وبعد دخول الإسلام إلى منطقة وادي ريغ انتشر المذهب الإباضي بقوة في هذه الربوع، خاصة في عهد الدولة الرستمية الإباضية، ثم خضع بعدها لنفوذ عدة دول، كملوك مراكش أو تلمسان، ثم لملوك تونس الحفصيين، كما تداول على هذا الإقليم عدة أسر، منها أسرة بني جلاب التي استمرت نفوذها في هذه المنطقة أكثر من ثلاثة قرون، إلى أن خضعت للمستعمر الفرنسي في خريف سنة 1854م¹⁶.

ثانيا-التنظيم الإداري قبل استقرار الفرنسيين بمنطقة وادي ريغ(1854-1871م

:(

بعد سقوط توقرت عاصمة وادي ريغ في أيدي القوات الاستعمارية في خريف 1854م، عمدت السلطة الاستعمارية إلى نظام يمكنها من إحكام قبضتها على المنطقة، باعتبار توقرت منطقة صحراوية مفتوحة، والظهور أمام الأهالي بملامح الحرص على مصلحتهم، فبعد الإطاحة بالإمارة الجلابية استبدلت السلطة الجديدة النظام الإداري الذي كان معمولاً به من قبل بنظام القيادة والخلفاء¹⁷، فجاء هذا الأخير بديلاً عن نظام السلطان، بحيث أصبح "القايد" بلقب الحاكم على توقرت و وادي سوف، ومقرّه في الغالب توقرت، ويعاونه نواب يدعون بالخلفاء¹⁸.

وتبعاً لذلك قامت السلطات الفرنسية بتعيين علي باي بن فرحات بن سعيد¹⁹ من عائلة بوعكاز آغا على توقرت و وادي سوف و ورقلة، إذ قام العقيد ديفو يوم 26 ديسمبر 1854م بالإعلان عن تنصيبه بالساحة العمومية بقصبة مدينة توقرت، وسلّمه برنوس الآغوية بحضور المشائخ ورؤساء القبائل بالمسجد الكبير، وقرئت الفاتحة، ثم تناول العقيد ديفو الكلمة مذكراً الأهالي بالمحن والصعاب التي واجهتهم تحت حكم الشيخ سلمان الجلابي، حيث طالبهم بنسيانها ونسيان صراعاتهم القديمة، والالتفاف حول الآغا الجديد، الذي نصّبته لهم فرنسا، وقد كان مقرّر حكمه -بايعلي- منتقلاً بين توقرت وسوف، وله خلفاء يسمّوهم هو، وينصبون باتفاق مع السلطة الفرنسية²⁰.

أما فيما يخص نظام الخلفاء والشيخوخ، فإن الخليفة هو الذي كان يخلف الآغا في تسيير شؤون وادي سوف عند غيابه في توقرت، مثل القايد العربي المملوك الذي كان خليفة لعلي باي بوادي سوف، ومنذ 1871م بدأ العمل بنظام الشيخوخ وهم ممثلو القبائل،

ويتبعون مباشرة للخلفاء، الذين بدورهم يتبعون القيادة، واستمر الحال على ذلك إلى عام 1877م عندما تحول الشيوخ إلى خلفاء مستقلين ومرتبطين مباشرة بيسكرة²¹.

فبالرغم من أن الإدارة الفرنسية أحدثت تغييرا في الألقاب، إلا أن علي باي كان عملة ذات وجهين، حيث أراد أن يعطي أكثر شرعية لحكمه على أهالي المنطقة، فادعى أنه ينتمي إلى أسرة بني جلاب، لكون هذا النسب يجعل له قيمة كبيرة في المدينة، وبما أن الجلابيين من قبل كانوا يتسمون باسم "الشيخ"، وبما أنه كان يجب أن يكون منهم، فإنه لم يستعمل اسم القايد إلا في معاملته مع الحكومة الفرنسية²².

وحسب روايات المجتمع المحلي، فإن علي باي كان حريصا على خدمة فرنسا أكثر من خدمة الفرنسيين لها، وكان مجبرا على تطبيق السياسة الفرنسية في المنطقة، وقد اتبع سياسة البطش والتقتيل اتجاه إخوانه، وكان لا يرحم كل من حاول الخروج عن سلطته، مما ولد كراهية في نفوس الأهالي ضد سياسته، الأمر الذي أدى إلى تعدد محاولات التمرد والثورة عليه في كل من توقرت و ورقلة و وادي سوف، فدبرت محاولة لاغتياله في توقرت من طرف أحد العبيد مقابل تحريره من سيده، لكن من حسن حظ علي باي أن حراسه اكتشفوا الأمر قبل تنفيذه، فقبضوا على الجاني وقتلوه²³.

إن سكان منطقة وادي ريغ لم يبقوا مكتوفي الأيدي أمام تصرفات علي باي، إذ انتهز أعيان توقرت ثورة الشريف بوشوشة، الذي ثار على المستعمر الفرنسي واستطاع أن يفتكّ واحة ورقلة من علي باي بن فرحات، فاتصلوا به، وأرسلوا له مجموعة من الرسائل عارضين عليه مساعدتهم للإطاحة بعلي باي وقواته، فلبى بوشوشة النداء، وهجم على توقرت يوم 13 ماي 1871م بقوة قدرت بـ900 مقاتل، حيث دخلها في جو من الزغاريد والتهليل²⁴.

ولما علم علي باي بما حدث لقواته في توقرت، توجه يوم 27 ماي 1871م إلى الزيبان، واحتج لدى الحاكم الفرنسي ضد عائلة بن قانة المنافس للدود، والتي اتهمها بالتواطؤ مع بوشوشة وأنصاره، لكن الحاكم الفرنسي وقف ضد علي باي واتهمه بالتقصير والإهمال في مراقبة المنطقة، ومراقبة تحركات المقاومين الراضين للاحتلال وحمله المسؤولية الكاملة، كما توعد بتقديمه للعدالة الفرنسية للنظر في شأنه²⁵.

ولقد قام علي باي بمحاولات عديدة لاسترجاع مدينة توقرت من أيدي بوشوشة، لكن مصيرها كان الفشل²⁶، وفي نفس الوقت كانت القوات الفرنسية تراقب كل هذه التطورات التي لم تكن لترضيها، وخصوصا بعد التأكد من فشل الباشاغات والقياد في الحفاظ على سلطتها ومن ثم، فقد أعطت الأوامر إلى الجنرال دولاكروا (Delacroix)، للزحف على توقرت التي وصلها يوم 27 ديسمبر 1871م، وتمكن من احتلالها من جديد، بعد أن خضعت لبوشوشة قرابة الثمانية أشهر²⁷.

بعد استرجاع مدينة توقرت من أيدي بوشوشة وأنصاره، شرعت السلطات الاستعمارية في تطبيق الإجراءات التالية:

- 1- مصادرة أملاك العائلات المتمردة.
- 2- فرض إتاوات الحرب، بدفع رسوم عينية من الأراضي أو من الأموال.
- 3- النفي المؤبد في حق العائلات المتواطئة مع الثوار إلى مختلف المستعمرات الفرنسية البعيدة²⁸.

التنظيم الإداري بعد الاستقرار النهائي للفرنسيين بالمنطقة (1871-1900):

بعد السيطرة الكاملة على منطقة وادي ريغ والقضاء على نشاط الحركة الثورية بها، وإصدار القوانين الردعية بحق السكان، قررت السلطات الاستعمارية إعادة التنظيم

الإداري لمنطقة وادي ريغ، وهذا وفق المعطيات والتطورات الجديدة، واختارت السلطات تعيين وجوه جديدة لحكم هذه المنطقة على أن تكون من أشد الموالين لفرنسا وخدمة أهدافها في المنطقة.

وبهذا لم ترغب السلطات الاستعمارية في إعادة تسليم المنطقة لعلي باي حاكم توقرت السابق، الذي لم يحافظ على استتباب الأمن والهدوء في أرجائها وقت الأزمة، وذلك بسبب رغبته في الانتقام من خصومه، ونظرا لاعتراضاته المشروعة ضد مرؤوسيه السابقين، لهذا لم يكن هذا القائد يصلح للتنصيب من جديد لا في توقرت ولا في ورقلة ولا حتى في وادي سوف²⁹.

ولم يكن يعقل أيضا وضع المنطقة تحت زعامة آل قانة، حيث أن دسائسهم هي التي تسببت في انتشار الفوضى ودفعت علي باي لارتكاب الأخطاء، ويسّرت السبل أمام بوشوشة، ليحرز بعض الانتصارات، ولهذا فقد قام الجنرال دولاكروا يوم 02 فيفري 1872م بإنهاء مهام علي باي من منطقة وادي ريغ، وتنصيبه على رأس قيادة باتنة³⁰، كما تقرر ترقية توقرت إلى مصف مقر الملحقة، وكان ذلك في 22 ماي 1872م، كما تقرر أيضا تنصيب ضباط فرنسيين فيها، لهم مهام التسيير الإداري المباشر في هذه المدينة والقرى المتواجدة في الضواحي، وذلك بمساعدة مجموعة من الشيوخ من بينهم عائلة بن إدريس³¹.

1- الآغا محمد بن إدريس: أصله من مدينة باتنة، ولد سنة 1839م وانتسب إلى الصبايحية يوم 15 أفريل 1853م، كما تعلم اللغة الفرنسية بنجاح ومنحت له الجنسية الفرنسية³²، وقد وصل إلى رتبة ملازم ضمن قوات الصبايحية، وكان منذ صباه صديقا

حميما لأسرة بن قانة، وهو شخص يتمتع بذكاء ملحوظ، وليست له انتماءات لأي من العائلات الكبرى، مما جعله لا يثق في أحد غير الفرنسيين³³.

شارك محمد بن إدريس في الحروب إلى جانب القوات الفرنسية على أرض فرنسا سنة 1870م و1871م، بعدها عاد إلى الجزائر يوم 14 جويلية 1872م، حيث عين آغا على ورقلة، وهناك كان وفيًا في وقوفه إلى صف الفرنسيين، وعيندا في مواجهة المقاومة الجزائرية خاصة مقاومة الشريف بوشوشة، وكرتية له في المناصب، عين بعد ذلك آغا على توقرت وورقلة ووادي ريغ مع ترقيته إلى رتبة ضابط في فيلق الشرف *Officier de la légion d'honneur*، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على المكانة التي تحظى بها توقرت في الجنوب الشرقي³⁴

وما يدل على أهمية توقرت كذلك، أن هذه الآغوية أعطيت لمحمد بن إدريس على أساس أنه الشخص الذي توفرت فيه الشروط التي كانت تبحث عنها فرنسا، فلقد قدم هذا الشخص الكثير من دلائل الولاء للاحتلال الفرنسي، و والده نفسه كان من المقربين إلى شيخ العرب بن قانة، وكان يسمى ثعبان الصحراء لشدة قسوته اتجاه الجزائريين³⁵.

لقد اتبع ابن إدريس سياسة عنيفة جدا اتجاه السكان، ولم تنج حتى الطريقة التيجانية من الصراع معه حول النفوذ السياسي في المنطقة، فقد كان يقوم بأكثر مما تطلبه منه فرنسا، وكان هو وأعوانه وإخوته اليد الطولى التي تضرب أية مقاومة في المنطقة، فبوشوشة نفسه عانى من ملاحقة هؤلاء الأعوان، وعلى يدهم تم أسره في نواحي عين صالح في مارس 1873م³⁶

ورغم الخدمات التي قدمها بن إدريس للفرنسيين، إلا أن حاجة المحتلين لنفوذ الزاوية التيجانية في كل من قمار وتوقرت كانت أكبر وأهم من حاجتهم إلى خدمات ابن

إدريس، فالفرنسيون أصبحت لديهم رغبة في تولي الحكم المباشر، وذلك عن طريق ما سمي فيما بعد بالمكاتب العربية، وهو ما جعلهم يعزلون ابن إدريس عن منصبه في توقرت، وذلك سنة 1877م³⁷، ثم تولى مكانه إسماعيل الوهراني مدة سنة ونصف ثم عزل عن منصبه، ثم تولى بعده إسماعيل مصري³⁸.

أما منطقة شمال وادي ريغ، فتقرر في شهر ماي 1872م إنشاؤها كقيادة إدارية جديدة، عهد برئاستها إلى سي حمو بن حرزالله من أولاد زكري، وكانت هذه المنطقة تمثل ما تبقى من مناطق تحت نفوذ حلف بوعكاز إضافة إلى ذلك، فهذا القائد لم تكن له حظوة كبيرة بين قبائل هذا الحلف، وكان وجوده بين المكتب العربي بتوقرت³⁹ من جهة، ومنطقة قيادة العربي المملوك⁴⁰ من جهة ثانية، وسلطة القائد الأعلى في بسكرة، يكفي حينئذ لإفشال الدسائس التي قد يدبرها آل قانة⁴¹ الخصوم التقليديين لآل بوعكاز.

2- الآغا إسماعيل مصري وإخوته :

ولد إسماعيل مصري في قسنطينة حوالي سنة 1825م من عائلة ذات أصول تركية، تولى منصب قائد أولاد عبد النور في سنة 1850م، وفي سنة 1860م نقل في نفس المرتبة إلى الحضنة، أما والده علي مصري، فقد كان من الأوائل الذين دخلوا في طاعة وخدمة الفرنسيين، حيث توفي بقسنطينة يوم 30 أفريل 1881م بعدما خدم فرنسا حوالي 44 سنة، حصل خلالها على العديد من النياشين و الدرجات⁴².

لقد أثبت إسماعيل مصري كأبيه تفانيا في خدمة الاستعمار الفرنسي وأهدافه، فخلال الحملات المتعددة التي شنّها الجيش الفرنسي على الطوارق، أظهر إسماعيل شدة تعلقه وخدمته للاستعمار، وبقي على حاله إلى أن توفي سنة 1893م، بعدما منحت له فرنسا

رتبة ضابط في فيلق الشرف (Commandant de la légion) (d'honneur)⁴³.

وترك إسماعيل عدة أولاد أكبرهم الدراجي، الذي بفضل خدماته للاحتلال الفرنسي، تمكن من الفوز بدرجة فارس فيلق الشرف (Chevalier de la légion) (d'honneur)، كما تولى منصب قائد على توقرت خلفا لأبيه⁴⁴، أما الابن الثاني عبد العزيز، فتولى منصب قائد تمرنة بضواحي جامعة⁴⁵، وقد ساهم بدور كبير إلى جانب الجيش الفرنسي في احتلال مدينة جانت سنة 1899م، ونتيجة لدوره البارز، رقي إلى رتبة فارس في فيلق الشرف (Chevalier de la légion d'honneur)⁴⁶.

الخاتمة:

لقد أظهرت الدراسة السابقة أن منطقة وادي ريغ، مرت بنظام إداري خلال النصف الثاني من القرن العشرين، يتماشى وظروف المستعمر الفرنسي آنذاك سواء في الجزائر عموما، أو في منطقة وادي ريغ على وجه الخصوص، خاصة وأن القوات الفرنسية لم تستكمل احتلال القطر الجزائري إلا في بداية القرن العشرين.

لقد مرّ النظام الإداري في منطقة وادي بمرحلتين، فالمرحلة الأولى (1854-1871م) اعتمدت فيها الإدارة الاستعمارية على العائلات الكبيرة في تسيير شؤون المنطقة مع مراعاة مسألة التوازنات فيما بينها، ونقصد بذلك عائلي بن قانة وبوعكاز، حيث تولت هذه الأخيرة- أي أسرة بوعكاز- حكم منطقة وادي ريغ، وذلك في إطار إعادة الاعتبار لهذه الأسرة.

أما في المرحلة الثانية (1871-1900م)، فإننا نلاحظ أن الإدارة الاستعمارية قد غيرت في سياستها الإدارية بمنطقة وادي ريغ، وذلك بعد القضاء على بوشوشة، فبعد أن

كانت تعتمد على العائلات الكبيرة في تسيير شؤون المنطقة مع مراعاة مسألة التوازنات فيما بينها، فإنها غيرت هذه المرة في سياستها، فاستغنت عن عائلي بوعكاز وبن قانة، واللتان كانتا تتصارعان منذ زمن طويل من أجل بسط سيطرتهم ونفوذهما على مناطق الحكم الجلابي، وعوّضتهما بأشخاص موالين لها أشد الولاء، ولا ينحدرون من عائلات كبيرة وعريقة تكون عصبا لهم، كما أصبح الفرنسيون يفضلون حكم منطقة وادي ريغ عن طريق أنفسهم مباشرة، وذلك بإنشاء المكاتب العربية.

الهوامش:

01 عبد الحميد قادري، التعريف بوادي ريغ، د.ط، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، تقرت، د.ت، ص.1

2 أبو عبد الله محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج.1، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص.85، وكذلك :

Bouzid Touati « les potentialités hydrique et la phoeniciculture dans la vallée de l'oued Righ , Bas-Sahara algérien» thèse de doctorat de 3eme cycle, laboratoire de géographie physique, université de Nancy, Février 1986, P.13.
3Rouvillois Brigol, **Oasis du Sahara Algérien**, Institut géographique National, Paris, 1978, p.09.

4 ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط.1، تح: فريد عبد العزيز جندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ / 1990م، ص.129.

5 عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ بن خلدون، د.ط، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، مج.7، ج.13، ص.98.

6 علي بن سعيد بن موسى، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970م، ص.190.

7 قادري، المرجع السابق، ص.1.

8 معاد عمراني « أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ، من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1962م، دراسة سياسية واجتماعية » مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1422هـ-1423هـ/2002م-2003م، ص90.

9 أول بئر حفر في منطقة وادي ريغ كان في سنة 1856م بمنطقة تمرنة التي تبعد بحوالي 40 كم شمال توقرت، لمعرفة الآبار التي تم حفرها في سنتي 1856 و 1857م، ينظر: جريدة المبشر، ع.245، 15 نوفمبر 1957م.

10 تبعد قرية سيدي يحيى بحوالي 60 كم شمال توقرت، و سميت بذلك نسبة للولي الصالح يحيى، ينظر: محمد الطاهر بن دومة، مذكرة أخبار تاريخية لواحة توقرت وبعض ضواحيها، تح: محمد السعيد بوبكر، محمد الطاهر عبد الجواد، المطبعة العصرية للواحات، توقرت، 1415هـ/ 1995م، ص.33.

11A.O.M, B.N° 10H76,stations préhistorique de L'Oued Rir, et (H) Jus, stations préhistorique de L'Oued Rir,in Revue d'ethnographie,T.6,Paris,1887,pp.344-343.

12 Ibid.

13 أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خوشيد، عبد الحميد يونس، دائرة المعارف الإسلامية، مراجعة: محمد مهدي علام، دار المعرفة، بيروت، د.ت، مج. 10، ص.319.

14 إسماعيل العربي «مسالك الإسلام و العروبة إلى الصحراء الكبرى » في الثقافة، ع.62، السنة 11، ربيع الثاني، جمادى الأولى والثانية، 1401 هـ / مارس - أبريل 1981م، ص.43.

15 محمد البشير شنتي «التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري، وآثاره الاقتصادية والاجتماعية» في الأصالة، عدد خاص، ص.24.

16 للمزيد من المعلومات، ينظر: عمراني « أسرة بني جلاب...»، مرجع سابق، ص ص.

17 شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي، ج.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م، ص.378-737.

18 علي غنابزية «مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م»، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001-2002م، ص.54.

19 هو علي باي بن فرحات بن سعيد، من عائلة بوعكاز الذوادية، وأصوله من ضواحي بسكرة، عينه الفرنسيون قائدا على توقرت خلفا لبني جلاب بعد سقوط حكمهم، وقد ادعى هذا القائد أنه من نسل بني جلاب، ولعله أراد بذلك أن يجعل لنفسه هبة لدى سكان توقرت، فاعتماده على هذا النسب يجعل له قيمة كبيرة في مدينة كان الحكم فيها مقتصرًا على بني جلاب منذ سنوات طويلة، ينظر: مالتسان هاينريش فون، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج.3، د.ط، ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر، 1980م، ص.177-178.

20 رضوان شافو «مقاومة منطقة توقرت وجوارها للاحتلال الفرنسي 1852-1875م»، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2006 - 2007م، ص.133.

21 غنابزية، مرجع سابق، ص.55.

22 هاينريش فون، مصدر سابق، ج.3، ص.178.

23 شافو «مقاومة...»، مرجع سابق، ص.136.

24 معاد عمراني «منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي (1854-1962م) دراسة سياسية»، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر2، بوزريعة، 2015/2016م، ص.78.

25 يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج.1، ط.2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1999م، ص.221.

26 لمعرفة تفاصيل هذه المحاولات، ينظر: عمراني «منطقة وادي ريغ...»، مرجع سابق، ص.79-81.

L.Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Alger, 27 1891, P.933.

28Ibid.

29 Ibid, P.973.

30Ibid.

31 Ibid.

32عبد الجيد بن نعمية «الاحتلال الفرنسي لتوقرت وأثره على المنطقة» الملتقى التاريخي الرابع،
توقرت (ولاية ورقلة)، أبريل 2003م، ص.86

33 Rinn , Op.cit , P.973.

34بن نعمية، مرجع سابق، ص ص.86-87.

35نفسه، ص.86.

36نفسه ، ص.87.

37نفسه، ص.87.

38محمد الطاهر بن دومة، مذكرة أخبار تاريخية ، ص.39.

39 ظهرت المكاتب العربية في الجزائر بمقتضى مرسوم وزاري مؤرخ في فاتح فيفري 1844م، وهي عبارة عن حلقة وصل ما بين الجنس الأوروبي، الذي استوطن الجزائر منذ سنة 1830م، والجنس الأهلي الذي يسكن الجزائر، ومن بين أهداف المكاتب العربية: التمكين للاستعمار والعمل على إخضاع القبائل للسلطة الاستعمارية، ومراقبة تحركاتها، وكذا مراقبة الزوايا، ومساعدة القادة العسكريين بالبلاد في إدارة الأهالي، واستخلاص الضريبة منهم، وقد أنشأ الفرنسيون المكتب العربي بتوقرت في 22 ماي 1872م، للمزيد من المعلومات، ينظر: صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844-1871م، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة (الجزائر)، 2006م، ص ص.18-20، شافو «مقاومة...»، مرجع سابق، ص.141.

40 العربي المملوك هو أحد الأعوان الفرنسيين من فرقة الصبايحية، وهو إيطالي ارتد عن الدين

الإسلامي، عهدت إليه الإدارة الاستعمارية بقيادة منطقة وادي سوف سنة 1872م، ينظر: Rinn,

Op.cit, P.974

41Ibid, P.974.

42Narcisse Faucon, *Le Livre D'or de L'Algérie*, T.1,

Challamel Editeur, Paris : 1882, PP.381, 507.

وكذلك: سعد الله ، الحركة، ج.1، مرجع سابق، ص.144.

43 بن نعمية، مرجع سابق، ص.88.

44 نفسه، ص.88.

45 تبعد عن توقرت بـ 45 كم في اتجاه الشمال.

46 بن نعمية، مرجع سابق، ص.88.

شهيد الجبل الأزرق مصطفى بن بوالعيد

(1956-1916)

د/الطاهر جبلي / قسم التاريخ / جامعة تلمسان.

Djebli_tahar@yahoo.fr

Abstract

Martyr of the Blue Mountain Mustapha Ben Boulaid(1917 /1956)

The revolution of November 1st, 1954 was associated with the brightest leaders who were known by their rare courageous which was built up from their high morals and qualities .Their political and military genius was appeared , challenging all the colonial obstacles and plans which were created by the enemy to crush the revolution .

The most distinguished Man , Mostapha Ben Boulaid was one of the nationalist pioneers and activists who believed in the futility of the political fight and one of the few formers who led the revolutionary project and mixed the papers in Matignon .He was that Man who divided his short life equally between the prison and the mountain.

The Occasion, then, is just for remembrance and a reminder of the powerful and strength elements and virtues of that Man who has done his best and has given his life and his personal wealth to serve the revolution for the sake of Algerian's

revival at a time when there was no signs of nearer political or military victory.

In this study, we will attempt to monitor the biography and the journey of the hero mustapha Ben Boulaid ,from his birth till his death on March 22nd,1956 and also through prominent stations of his struggle life in Algerian 's people party , victory movement for democratic freedoms ,and his position from the massacres of May 8th,1945. Then, his efforts in special organization, particularly in Aouras . In addition to this,his pioneer and distinguished role to prepare for the outbreak of the liberation revolution in November, 1st 1954.

The colonial writings also, confess that the liberation revolution in its first stage was the efforts of Ben Boulaid in vew of his role in structuring the revolution, collecting weapons and in organizing network of logistical help in Northern borders .

The end of the hero in this Epic was a surprise as he was martyred on March ,22 nd 1956 in a difficult circumstances which faced the revolution in its first stage.

مقدمة:

ارتبطت ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 بألمع القادة الذين عرفوا بشجاعتهم النادرة المشيدة بما يتحلون به من سامي الأخلاق ورفيع السجايا، وظهرت عبقريتهم السياسية والعسكرية، متحدية كل العقبات والمنحططات الاستعمارية التي وضعها العدو للقضاء على الثورة. الرجل المتميز، مصطفى بن بولعيد، واحد من الرؤاد الوطنيين النشطاء الذين آمنوا بعقم الكفاح السياسي،ومن ثلّة الأولين الذين قادوا والمشروع الثوري، وأخلطوا الأوراق في ماتيون، هو ذلك

الرجل الذي شاءت له الأقدار في الفترة القصيرة من عمر الثورة أن يقتسم فيها حياته بين السحن والجبل بنفس القدر.

فالمناسبة إذاً، ليست إلا من قبيل الذكرى، واستحضارا لعناصر القوة والبأس واستدراكا لفضائل هذا الرجل الذي أبلى البلاء الحسن، ووهب حياته واستثمر ثروته الشخصية لخدمة الثورة في سبيل أن تحيا الجزائر في وقت لم تلح فيه أية بوادر، ومؤشرات تبشر بانتصار سياسي أو عسكري قريب.

وإذا كانت الجزائر تحتفل بهذه الذكرى، فهي تتطلع إلى تخليد وتمجيد هؤلاء الشهداء والأبطال الذين ضحوا في سبيل الله، والوطن كي يحي حرا عزيزا بين الأمم، فما أحوجنا اليوم في هذه الظروف التي تعيشها البلاد إلى نساء ورجال في مثل حسيبة بن بوعلي ومصطفى بن بولعيد اللذين جسدا بتضحيتهما أسمى معاني الوفاء والإخلاص.

I) المولد والنشأة الأولى (جوانب من حياته الدراسية والاجتماعية) :

ولد مصطفى بن بولعيد في قرية "إينكرب" القريبة من أريس بالأوراس في يوم 05 فيفري 1917، وهو ابن أحمد بن عمار بن بولعيد وعائشة بركان، من عائلة أولاد تخريست من عرش التوابة¹، ترعرع الشهيد في أحضان أبويه مع أخيه الأكبر عمر وخمس أخوات، ثلاث شقيقات، إثنان من أبيه، فكان ابن بولعيد الابن ما قبل الأخير في العائلة المتكونة من سبعة أبناء².

ومنذ نعومة أظافره انكب ابن بولعيد على حفظ ما تيسر من القرآن الكريم على أيدي شيوخ قريته³، كما تعلم كذلك على يد الشيخ محمد بن ترسية⁴.

وفي بيئة متميزة بالعلم والمعرفة، واصل ابن بولعيد مشواره الدراسي حيث درس في باتنة، وتحصل على الشهادة الابتدائية بالمدرسة الأهلية (مدرسة الأمير عبد القادر حاليا)، ثم درس في المدرسة الابتدائية العليا باللغتين العربية والفرنسية، وبقي فيها سنتين قبل أن يعود إلى أريس⁵ لكن الأب الوقور أوقفه عن الدراسة خشية أن يتأثر الابن بالثقافة الأجنبية، ورغم توقف ابن بولعيد عم الدراسة إلا أنه لم ينحرف عن الطريق الذي رسمه لنفسه في طلب العلم والتوعية، حيث انخرط في

نادي الاتحاد بأريس الذي يرأسه الشيخ الأمير صالح، وكان الشهيد كثير التردد في طلب العلم والمعرفة على نادي الشعبية الأوراسية "الأحباب" التي ترأسها الشيخ عمر دردور في الثلاثينات⁶. وبعد وفاة أبيه سنة 1935 خلف الشهيد والده في مهنة التجارة، وأنشأ شركة للنقل "نقل المسافرين" على الطريق الرابط بين أريس وباتنة في سنة 1944، وقد سمح له نشاطه الحرفي بنمو ثروته الشخصية، ففي سنة 1952 أصبح يمتلك ضيعة مساحتها 93 هكتار لزراعة الحبوب وملكية فلاحية في فم الطوب ومعصرة في العفراء ومنزلا ومستودعا بأريس⁷ وأصبح رئيس تعاونية تجار الأقمشة في الأوراس⁸.

وفي هذا السياق يذكر جون موريزو "JEAN MORIZOT"⁹ الذي التقى به سنة 1941 في أريس «بأنه كان خجولا، وغامض، وظريف جدا، وشريف، وقد استطاع خلال مزاولته لنشاطه التجاري أن ينشأ صداقة مع جميع الدواير».

وفي سنة 1939 تمت تعبته للتجنيد الإجباري إذ شارك أثناء الحرب العالمية الثانية في صفوف الجيش الفرنسي لكنه أعفي بعد إصابته بجروح ليعود مجددا إلى الثكنة بمدينة خنشلة سنة 1942¹⁰. وأثناء وجوده في الثكنة أتهم بتحريض الشباب المجد من الجزائريين بالجيش الفرنسي على رفض بعض الأوامر، وقيامه بحركة تمرد على قيادة الجيش فألقي به في سجن قلمة العسكري إلى أن أطلق سراحه وتسريحه من الخدمة العسكرية¹¹، فعاد ابن بولعيد إلى الحياة المدنية بعد أن حاز على رتبة مساعد ومدالية عسكرية و صليب الحرب¹²، وفي سنة 1942 تزوج من عائلة ابن المناع وأنجب ستة أبناء و بنتا واحدة¹³.

في هذه البيئة المتميزة التي نشأ فيها مصطفى بن بولعيد والتي تميزت بظهور الوعي السياسي و بروز الأفكار الوطنية التي انتشرت في منطقة الأوراس بسبب العدد المتزايد للشباب الذين هاجروا إلى فرنسا، إضافة إلى دور العلماء في الإصلاح الاجتماعي وطبيعة المنطقة الأوراسية المعروفة بالتمرد والرفض لأي دخيل، برز الوعي السياسي لدى الشهيد ليكون ذلك بداية لدخوله معترك الحياة السياسية

(2) أدوار ومواقف في كفاحه القومي والسياسي :

عرفت منطقة الأوراس نشاطا سياسيا كبيرا بعد تأسيس أول تنظيم سياسي في أريس على يد السيد بكوش محي الدين المعروف في عنابة بولد الصادق الأمين الذي اعتقلته السلطات الفرنسية وأبعدته من عنابة إلى أريس.

ويعتبر هذا التنظيم السياسي النواة الأولى للحركة السياسية في منطقة الأوراس وتكون من أربعة مناضلين "مختاري الصالح، أسماحي أزاري، بعزي لخضر، قربازي لخضر"، واتسع هذا النظام مما اقتضى تعيين مسؤولي القسامات، ومن بين هؤلاء المسؤولين مسعود بلعقون الذي عين على قسمة أريس¹⁴، وفي هذا الجو المفعم بالنشاط السياسي دخل ابن بولعيد الحياة السياسية على يد المناضل الحاج أزاري أسماحي الذي أدخله في التنظيم السياسي الذي كان يشرف عليه مسعود بلعقون في منطقة أريس حيث أعطى نفسا جديدا بنشاطه وماله.

في سنة 1944 عين ابن بولعيد على رأس قائمة أحباب البيان في الأوراس التي لم تكن سوى تجمعا لجميع تيارات الحركة الوطنية ماعدا الحزب الشيوعي، وعندما علم بحقيقة مؤامرة الإدارة الفرنسية في 8 ماي 1945 قام بإلغاء الاحتفالات المقررة بأريس واختار المحافظة على صيحة المنظمة والمناضلين¹⁵.

إن الحوادث التي عرفتها مدن الشرق الجزائري، سطيف، قلمة، خراطة في 8 ماي 1945 والتي راح ضحيتها 45 ألف شهيدا كانت سببا مباشرا في إختيار نظام سري، والتحضير للعمل المسلح وبالفعل تأسس هذا النظام في منطقة الأوراس سنة 1947 بقيادة مصطفى بن بولعيد¹⁶.

فبين سنوات 1945 - 1948 إلتحق حوالي 50 مناضلا بالجناب وتولى ابن بولعيد هيكلتهم في الأوراس وبن بلة في وهران، وقد ظهر الدور الذي لعبه ابن بولعيد في هذه الفترة بحكم علاقته مع قيادة حركة الإنتصار للحريات الديمقراطية (M.T.L.D) في إشرافه على تنظيم سياسي محلي¹⁷ وفي تقرير للدرك الفرنسي، بباتنة بتاريخ 27 جوان 1947 تمت الإشارة إلى قيام ابن بولعيد بشراء الأسلحة، لكن المصالح الخاصة لم تكن لها أدلة قطعية على ذلك¹⁸، وفي الانتخابات الخاصة

بالمجلس الجزائري بتاريخ 04 أفريل 1948 فاز ابن بولعيد بـ 10 آلاف صوت لكن إدارة البلدية المختلطة بالأوراس ألغت النتيجة وعينت مكانه القاضي عبد القادر من جماعة "بني وي وي"¹⁹ الذي كان مترشحا في قائمة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA)²⁰، وبسبب هذا التزوير يعزو بعض المؤرخين إصابة ابن بولعيد بالقرحة المعدية وقد كان ذلك الفعل، هو الذي دفع ابن بولعيد إلى أن يتحول إلى أكبر منظم للثورة²¹، وبعد اكتشاف المنظمة الخاصة من طرف المصالح الفرنسية سنة 1950 تم إيقافه بعد عمليات المتابعة التي قامت بها الشرطة ضد أعضاء المنظمة، لكنه هرب من سجن عنابة سنة 1952 برفقة زيغود يوسف²²، وفي 23 فيفري 1954 قام ابن بولعيد بزيارة مصالي في منفاه بنيور NIORT في فرنسا من أجل الحصول على موافقته أو إعطاء إشارة للعمل المسلح ودامت المحادثات ثلاثة أيام وإنتهت دون جدوى لأن زعيم الحزب (مصالي الحاج) إعتبر بأن الوقت لم يحن بعد²³.

(3) التحضير للعمل المسلح (البطل والأدوار) :

أثبتت حوادث الثامن ماي 1945 عدم جدوى الكفاح السياسي، وشكلت منعطفا تاريخيا في مسيرة الحركة الوطنية الجزائرية، وكانت بمثابة نقطة اللارجع بالنسبة للكثير من القادة الوطنيين الذين يؤمنون بنجاعة العمل المسلح رغم الطروحات المختلفة التي أبدتها التيارات السياسية داخل الحركة الوطنية حول مستقبل الجزائر وقضية الاستقلال.

في هذا الجو المشحون بالتفاعلات السياسية داخليا وخارجيا إزداد، إيمان تلك الثلة التي آمنت بوجود الكفاح المسلح وبرزت فكرة إعادة بعث المنظمة الخاصة من جديد، وبدأ التحضير للعمل المسلح من طرف النشطاء، ويمكننا القول أنه اعتبارا من عام 1951 اتسع نطاق النظام العسكري بعملية التعبئة الشاملة في منطقة الأوراس بجمع الأسلحة ومنع الشعب من استهلاك البارود والذخيرة في الأعراس²⁴.

وعلى مستوى القيادة شارك ابن بولعيد في قرار إعادة تنظيم المنظمة الخاصة، أثناء انعقاد المؤتمر الثاني لحركة انتصار الحريات الديمقراطية بالجزائر من 4 إلى 6 أفريل 1953، رفقة بن عبد المالك

رمضان وبمجموعة أخرى ضمن أعضاء الجناح المسلح وزعيم الحزب، وكان على تلك اللجنة ضمان بعث النشاط من جديد²⁵ على إثر الزيارة التي قام بها ابن بولعيد إلى مصالي الحاج في منفاه بنيور في 23 فيفري 1954 للحصول على الضوء الأخضر للعمل المسلح، لكن اللقاء انتهى دون جدوى كما ذكرنا سلفاً، وبذلك عاد ابن بولعيد إلى الجزائر بقناعة راسخة، مسانداً بدعم بوضياف صديقه القديم في صفوف المنظمة الخاصة الذي كان مسؤولاً على الشمال القسنطيني على ضرورة القيام بتفجير الثورة²⁶، وفي شهر أبريل 1954 عقد اجتماع برئاسة ابن بولعيد بدار مسعود بلعقون في باتنة حضره كل من "بشير شبحاني، وعجال عجول، ولغرور عباس، والطاهر غمراس، محمد الطاهر أعبيدي، محمد خنطر، أحمد زروال، مسعود عايسى، أحمد نواورة، ناجي نجاوي، وعمار معاش، ومحمد الشريف وعكشة وبلقاسم بن شايبة"، وقد تمّ في هذا الاجتماع عرض التطورات السياسية في منطقة الأوراس والجزائر عموماً، وهنا صرح ابن بولعيد بأن موعد انطلاق الثورة قريب جداً وأكد على ضرورة مواصلة النضال²⁷ واستدعي إثنان وعشرون مناضلاً، عرفوا بالنشطاء، واجتمعوا في 25 جوان 1954، وقد وضعت هذه المجموعة بمنزل الياس دريس في المدينة هذه المجموعة وضعت على رأسها قيادة من خمسة مناضلين وهم : "مصطفى بن بولعيد، محمد بوضياف، ديدوش مراد، رابح بيطاط، العربي بن مهيدي" وكلفوا بالتحضير العاجل والفوري للعمل المسلح في كامل التراب الوطني²⁸.

4) بن بوالعيد الرجل الثائر (حنكة سياسية وموهبة عسكرية) :

نستطيع أن نقول اليوم دون أن نقع في مغبة الخطأ بأنه لو لم يكن مصطفى بن بولعيد، فإن "محاولة التمرد" في الجزائر، كان يمكن أن يكون لها منحنى آخر، ولو قدر انعدام ملجأ ثوري مسلح بالأرواس في 1 نوفمبر 1954، كان ذلك سيؤثر حتماً في صورة وخصوصية الثورة، إن صاحب هذا التعليق هو جون فوجور JEAN VAUJOUR²⁹ مدير الأمن العام في الجزائر³⁰.

وعلى هذا الأساس يحق للمرء أن يتساءل أمام هذا الإقرار أو الشهادة التي جاءت على لسان مسؤول سام في جهاز الأمن الفرنسي ما الذي كان يشكله ابن بولعيد من خطر على

"الجزائر الفرنسية"؟ وما هو حجم الدور الذي لعبه في العمل الثوري؟ حتى شهد له أعدائه بهذه المكانة في قيادة الثورة التحريرية.

إننا لن نقف على ما حققه ابن بولعيد من أجل المشروع الثوري إذا ما اقتصرنا على مساهمته المباشرة في الفترة القصيرة التي عاشها من عمر الثورة والتي اقتسمها الجبل والسجن بنفس القدر³¹.

لكننا بالعودة إلى الكتابات التاريخية يمكننا أن نتوقف عند محطات ومعالم زمنية تجسدت فيها ملامح العبقرية السياسية والموهبة العسكرية في شخصية ابن بولعيد، وأول قرار يُنمُّ على الفطنة والصواب في حياته النضالية تم عندما كان على رأس التنظيم المعروف بأحباب البيان والحرية في الأوراس في شهر ماي 1945، إذ قام بإلغاء الاحتفالات المقررة بأريس بعدما أدرك مرامي وأهداف المؤامرة الاستعمارية التي كانت تهدف إلى قمع المتظاهرين، وكانت ثمرة قراره بأنه حافظ على التنظيم والمناضلين وجموع سكان منطقة الأوراس³².

ومن مآثر ابن بولعيد في القيادة والتي كانت تنبع من إيمانه بالعمل الموحد، قيامه بعملية مصالحة بين قبيلتين من كبريات القبائل على هامش الأوراس، وهما قبيلته المعروفة بالتوابة، أو أولاد داوود وقبيلة بني سليمان حيث نجح في ضمهما إلى صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية³³. M.T.LD

ولم تتوقف جهود الرجل في جمع شتات منطقتيه من أجل العمل المسلح والقضية الوطنية فحسب، إنما قدر له التاريخ أن يكون أحد أبرز أفراد تلك الثلة التي أخرجت الحركة الوطنية من المأزق الذي عرفته لمدة سنوات، ففي ربيع 1954 جسد ابن بولعيد رفقة بوضياف، ديدوش، بن مهدي، بطاط ثم كريم بلقاسم نواة مشروع الثورة بإنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل C.R.U.A وهي الجنين الذي لم ينتظر تسعا ليولد جبهة وطنية للتحرير، ومع اندلاع الثورة لم يعد ابن بولعيد ذلك التاجر الصدوق والرجل الشريف كما وصفه "موريزو MORIZOT" في سنة 1941، كما لم يعد ذلك الوطني والسياسي المناضل فحسب بل أضاف إلى شمائله بأن أصبح ذلك

القائد المجاهد الباسل الذي لقبته الأوساط الاستعمارية العسكرية " بثعلب الأوراس"³⁴ آنذاك³⁵ ، كما اعترفت الأجهزة الاستعمارية الخاصة بقدرته التنظيمية وبدوره العسكري الذي تجاوز حدود الأوراس، فقد جاء على لسان العقيد "إيفرار EVRAR"³⁶ بأنه "من دون ابن بولعيد كانت المنطقة حتما سوف تدخل في فوضى ونزاعات بين الأعراش، لكنه استطاع أن يثبت النظام ويرسخ التفاهم ويفرض الانضباط"³⁷.

كما أقرت نفس الأجهزة بأن ابن بولعيد "كان أحد أعمدة التمرد" فهو الوحيد الذي استطاع أن يوحد منطقة من أصعب المناطق في الأوراس، التي كان فيها الرجال يتحاربون فيما بينهم من واد إلى واد، لكن مع ابن بولعيد أصبحت الوحدة قائمة وضدنا نحن"³⁸.

5) بن بوالعيد في الأسر (ظروف وملابسات حول عملية الاعتقال) :

تحصلت مديرية أمن الإقليم (D.S.T) في شهر فيفري 1955 على تقرير للشرطة الذي أوضح أن ابن بولعيد يحاول الوصول إلى طرابلس، لطلب السلاح من الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني المقيم بالقاهرة آنذاك، وعند مروره بقفصة استبدل دليله بهدف الدخول إلى ليبيا بواسطة الطريق الجنوبي، وقد مكّنت المعلومات التي تحصلت عليها الأجهزة الفرنسية من تونس والجزائر بإيقافه عند الحدود ، تظاهر في بادئ الأمر بأنه لبيي، ولكنه إعترف فيما بعد أمام محافظ أمن الإقليم بهويته الحقيقية وكان يحمل عند اعتقاله أوراق خاصة بجيش التحرير الوطني ووثائق أخرى تتعلق بالأوضاع السيئة التي كانت تعاني منها الثورة في الأوراس، وحسب هذه الرواية الفرنسية أن عدد المجاهدين لم يكن يتجاوز 359 مجاهدا يعوزهم المال والسلاح ووسائل الاتصال³⁹.

لكن ما أوضحه المجاهد الطاهر الزبيري في روايته حول قصة اعتقال الشهيد ابن بولعيد أن المصالح الفرنسية تمكنت من إلقاء القبض عليه بعد أن اعتقلت مرافقه المدعو "حجاج بشير"، الذي تعرض لصنوف شتى من أنواع العذاب وأقر بتاريخ ومكان اللقاء بإبن بولعيد وقد تكون المعلومات التي استقتها الأجهزة الفرنسية الخاصة قد تمت خلال استنطاق هذا الأخير⁴⁰.

ويذكر (فوجور JEAN VAUJOUR) أن الاعتقال كان صبيحة 11 فيفري 1955 بالقرب من الحدود التونسية الليبية في منطقة "بن قردان" عن طريق دورية المخازنية وتم استنطاقه في قفصه ثم في تونس على يد رئيس فرقة مراقبة الإقليم التونسي بحضور العديد من محافظي وضباط الشرطة القضائية للأمن العام في الجزائر الذين بعثت بهم المصالح الفرنسية، وفي هذا الإطار أعرب محافظ شرطة الاستعلامات العامة (P.R.G) ⁴¹ في باتنة السيد (لدوسال LEDOUSSAL) في تقريره "بأن الاعترافات الصادرة على لسان ابن بولعيد أخذها بتحفظ شديد لأنها كانت ناقصة وموجهة، وفي أغلب الأحيان خاطئة" ⁴².

ومن الأهمية بما كان أن نشير إلى أن اعتقال ابن بولعيد كان حدثا هاما بالنسبة للأجهزة الخاصة، فضلا عن الأوساط السياسية العليا، فبعد اعتقاله في تونس، أوفد (جاك سوستال J.SOUSTELLE) الرائد مونتاي MONTEIL لاستجوابه قبل الشروع في اتصالات مع جبهة التحرير الوطني.

وقد صادف اعتقال ابن بولعيد قدوم جاك سوستال ورئيس غرفته "مونتاي MONTEIL) إلى الجزائر في 15 فيفري 1955 وطلب هذا الأخير الإذن بلقاء مع ابن بولعيد في تونس، فيتم له ذلك وعندما دار الحديث بين الرجلين حاول مونتاي الحصول على أكبر قدر من المعلومات من ابن بولعيد لكن الرجل فضل الحديث عن السياسية وأبد صلابة وصبرا شديدين وقام بانتقاد سياسة الإدارة الفرنسية التي زورت الانتخابات في عهد "نيجلان NAEGELEN" وعلى القهر النفسي والاضطهاد الاجتماعي والسياسي الذي دفعه ومئات آخرين إلى الثورة، وحاول مخادعة محدثه بأنه يفضل حلا سياسيا عقلانيا مقبولا من الجميع، مما يمكن من استعادة السلم في الجزائر .

وأمام تهرب ابن بولعيد من الإجابة على ما يسعى إليه الرائد الفرنسي، مونتاي MONTEIL الذي ذكر ابن بولعيد بأنه لا يستطيع أن يفعل له شيئا، جاء ردّ ابن بولعيد صريحا صراحة أذهلت "مونتاي MONTEIL" عندما قال له "إنني لم أطلب شيئا لنفسني سيدي الرائد، نفسي لا تساوي

شيئا، إنني على استعداد تام على أن أوقع على ورقة أعلن فيها بأبني مستعد وموافق على أن أرمى بالرصاص إذا كان موتي ينفذ الجزائر"⁴³.

لكن شجاعة ابن بولعيد لم تشفع له لدى الإدارة الفرنسية الاستعمارية التي نقلته إلى الجزائر وحكمت عليه بالإعدام، وسجن في سجن لومبار "تازولت" بباتنة ثم نقل إلى سجن الكدية بقسنطينة الذي فرّ منه في 4 نوفمبر 1955⁴⁴.

(6) قصة الهروب من سجن الكدية :

يذكر المجاهد الطاهر الزبيري في شهادته أنه بعد اعتقال ابن بولعيد في شهر فيفري وإدخاله السجن، تمت محاكمته في يوم 18 أوت 1955 رفقة مجموعة من المجاهدين وتراوحت الأحكام الصادرة في حقهم بين الإعدام في حق ابن بولعيد وصاحب الشهادة والمجاهد سبي حجار وأحكام أخرى متفاوتة⁴⁵.

لكن في تاريخ 4 نوفمبر 1955 استطاع ابن بولعيد وعشرة من رفقائه الهروب من السجن بعد أن قضى به ما يقارب تسعة أشهر بعد أن حكم عليه بالإعدام كما ذكرنا سابقا⁴⁶.

لقد كانت عملية الفرار رائعة رغم أنها لم تثر اهتمام الكتاب والمؤرخين⁴⁷⁽⁴⁷⁾ وكان لها وقعا شديدا على السلطات الاستعمارية التي حاولت التقليل من أهميتها على الرغم من أن الأمر يتعلق بأحد أبرز قادة الثورة الجزائرية، وفي العديد من الكتابات التاريخية الفرنسية نصادف هذا التضليل المتعمد التي حاولت فيها تلك الكتابات ذر الرماد في الأعين بغرض التميويه والمغالطة.

(فايف كوريير YVES COURRIER) يذكر أن الفرار كان مسبقا بمقايسة ابن بولعيد⁴⁸ بستة⁴⁹ أو خمسة⁵⁰ من المظليين الفرنسيين الأسرى لدى جيش التحرير الوطني، وهنا حاول هذا المؤرخ الفرنسي ذو الارتباطات الوثيقة بالإستخبارات والأوساط العسكرية والسياسية الفرنسية أن يختزل العملية في كونها تمت في إطار تبادل أسرى بين الطرفين، لكنه يمكننا من جهة أخرى تنفيذ هذه الفكرة باعتراف "جون موريزو JEAN MORIZOT" تشير بأن ابن بولعيد بفراره نال حريته بنفسه، وتمت عملية تحرير المظليين الخمسة بعد فراره لمدة في منطقة فركان جنوب تبسة⁵¹، كما أنه يمكن

تفنيدها فرضية المبادلة بأن ابن بولعيد لم يكن وحده عند عملية الفرار بل كان برفقة مجموعة من المجاهدين.

وبعد أن استعاد ابن بولعيد حريته من جديد التحق بمعقل الثورة في الأوراس من جديد وتولى قيادة المنطقة الأولى في 22 ديسمبر 1955⁵²، التي وجدها تتخبط في جملة من المشاكل على رأسها ذلك التوتر الذي ساد بين صفوف الثوار عقب تصفية شبحاني على يد مقربيه، لكن ما أ، إستعاد ابن بولعيد التحكم في الأمور كعادته دائما لم يمهل القدر سوى أشهر قليلة بعد هروبه من السجن فكان استشهاده في ربيع 1956 .

(7) استشهاد البطل :

لم يكن استشهاد ابن بولعيد في 22 مارس 1956 بصورة عادية، فقد ذهب الرجل ضحية مصيدة محكمة وفتح رهيب صنعتها الأجهزة الفرنسية الخاصة بواسطة جهاز اتصال "مرسل - مستقبل" وبتواطؤ يد خفية لأحد عملاء الاستعمار في صفوف المجاهدين.

تبدأ القصة في أحد مقرات الجيش الفرنسي بمنطقة "منعة" داخل مكتب من مكاتب الأجهزة الخاصة، حيث تلقف العقيد إيفرار IVRARD مشروع تصفية أحد أعمدة الثورة الجزائرية والذي كان قد أعده النقيب "كروتوف KROTOFF"⁵³ الذي هلك قبل أشهر قليلة من استشهاد ابن بولعيد في عملية إنزال للمظليين بالأوراس، ومن هنا يمكن أن نفهم الخلفية الإنتقامية لاغتيال ابن بولعيد على يد جنود النقيب الفرنسي الهالك.

كانت الفكرة التي آمن بها "كروتوف KROTOFF" للقضاء على الثورة تقوم على تصفية رؤوسها توفيراً للجهد ولو استدعى الأمر استعمال أساليب جهنمية، وهذه القناعة أورثها لخلفائه وبضوء أخضر من باريس، حاولوا تجسيدها ميدانيا وكان ابن بولعيد - "الثعلب" - كما لقبه الفرنسيون أول شخصية مستهدفة.

لكن امتلاك الثورة في الأوراس لعين بزعامة قائد فذ وفطن، صعب مهمة دهاقنة الاستخبارات الفرنسية فإضطرهم الأمر إلى ضرورة استعمال الجهاز المفخخ الذي كان هيكله من مادة متفجرة قد تكون من البلاستيك^{54 55}.

ولا يصل الطرد الفخخ بين يدي ابن بولعيد قامت طائرة حربية فرنسية من طراز D.C.3 المسماة "داكوتا DAKOTA" بأوامر من عقيد المخبرات إيفرار "EVRAR" ومساعدته "لبريس LABRESSE" بالطيران فوق محور "تامشت - منعة - نارة" وقامت بإلقاء طردين محملين بكمية من الأرز في المرحلة الأولى وطرد ثالث يحتوي على الجهاز المفخخ، عندما كانت في أجواء منطقة تشكل هامش حركة لعناصر جيش التحرير الوطني⁵⁶، وللتمويه، وحرصا على السرية التامة أمر مدبروها المجموعة الخفيفة للتدخل G.L.I وهي وحدة رئيسية تابعة لفريق "الصدمة 11 - CHOC" فرقة⁵⁷ العمل التابعة للاستخبارات الفرنسية بالخروج وتمشيط المنطقة التي سقطت فيها الطرود لإستعادتها وتعمدت الإبطاء والتماطل ليقينها بأن الثوار لن يلبثوا أن يستولوا على تلك الغنيمة المسمومة، ويذكر مهندس اغتيال ابن بولعيد أن الذي قام بإيصال الجهاز كان أحد رجاله بين صفوف المجاهدين وهو المدعو "بعازي علي" وتم أخذه إلى ابن بولعيد في 17 مارس 1956⁵⁸ لكن عملية تشغيله استدعت إحضار بطارية ذات قوة (6-V فولت)، ولذلك كلف ابن بولعيد المجاهدين "عبد الحميد العمراني - ومحمد بن عكشة" بإحضارها من مدينة بسكرة⁵⁹.

ورغم أننا لا نتوفر على معطيات تحدد لنا أجواء الاستشهاد بدقة إلا أن المصادر التاريخية أجمعت على أن حركة واحدة من يد ابن بولعيد امتدت لتشغيل الجهاز كانت كافية ليستقط شهيدا رفقة إخوانه في الجهاد المقدس في صبيحة يوم من الأيام الأولى لربيع 1956 بالجبل الأزرق⁶⁰.

*الخاتمة:

إن ملامح العبقرية السياسية والموهبة العسكرية في شخصية ابن بولعيد في مسيرته النضالية، ورغم الفترة الوجيزة التي قضاها في أحضان الأوراس من عمر الثورة التي لم تبلغ حولين كاملين، جعلت أعدائه يشهدون له بهذه المكانة في التخطيط والتوجيه والقيادة.

هذه الاعترافات التي جاءت على لسان شخصيات رفيعة المستوى في أجهزة الإستخبارات الفرنسية في حربها ضد الجزائر كفيلة لمعرفة حقيقة الرجل الموهبة.

إن مآثر ابن بولعيد في القيادة كانت نابعة من إيمانه بالعمل الوحدوي من أجل نجاح المشروع الثوري، هذا الإيمان الذي كان وليد البيئة المتماسكة في عداها لأي دخيل والمعروفة بعلمائها الذين كان لهم الدور البارز في الإصلاح الاجتماعي، فالوطنية المتأصلة التي تشبع بها ابن بولعيد على يد علماء الإصلاح الاجتماعي في منطقة الأوراس رسمت له الاتجاه الأيديولوجي لمفهوم الثورة في بيان 1 نوفمبر 1954.

فالرجل كان بالفعل من الأبطال العظماء، لكن أكثرية العظماء تكون نهاية أدوارهم في الملحمة غير طبيعية تاركة ورائها الكثير من الأسئلة رغم تعطش الأجوبة إلى ما يرويها ظمأ معطيائها، استشهد البطل وتواصلت الملحمة.

الهوامش:

¹ إن انتماء مصطفى بن بولعيد إلى هذا العرش " التوابة" مهم جدا لفهم شخصيته، فأولاد داوود أو التوابة كان العرش الأكثر نفوذا والأكثر ثراء والأكثر تطورا في الأوراس الغربي، واحتل هذا العرش المنطقة الوسطى بين التل والصحراء (الهامش الأوراسي)، ويجب الإشارة إلى أن هذا العرش الأكثر نفوذا ينتمي إليه كذلك مسعود بلعقون (1895) الذي نشط في جمعية العلماء منذ نشأتها، وفي سنة 1938 انخرط في حزب الشعب الجزائري P.P.A وأصبح مسؤولا على منطقة الأوراس، كما قام لاحقا بتشكيل الخلايا الأولى للحزب في أريس التي كان ابن بولعيد أحد مناضليها الأوائل. أنظر: (Jean - Morizot) :Laures Ou Le Mythe De La Montagne Rebelle L'harmattan. Paris 1991, p 323.-

² محمد العيد مطمر، فاتحة النار، العقيد مصطفى بن بولعيد- عين مليلة، دار الهدى، 1990، ص 11.

³ لعبت الزوايا في هذه الفترة دورا بارزا في الإصلاح الاجتماعي بمنطقة الأوراس، حيث حوّل الشيخ عمر دردور الزاوية التي ينتمي إليها إلى تنظيم إجتماعي إصلاحي سنة 1936 هذا ما دفع به إلى السجن من طرف المصالح الفرنسية.

⁴ محمد العيد مطمر، نفس المرجع، ص 11.

⁵ Chenouf Ahmed Boudi-Mostafa :ben boulaïd leatitant de la cause nationale-memoria magazine N° 1-1 novembre- spécial 1er novembre et publicité. P.A.0- Alger.1997.p 30.

⁶ محمد العيد مطمر، المرجع السابق، ص 12.

⁷ Jean Morizot. Op.Citt- P 323.

⁸ Antoine Quentin, Un album de famille charge explosifs.in-historia magazine N° 195-29 Septembre 1971-P 44.

⁹ جون موريزو Jean Morizot خريج المدرسة العليا للتجارة عام 1930، دخل إلى الجزائر واشتغل في البنك، ثم في إدارة البلديات المختلطة حتى سنة 1962 وذلك بمنطقة الأوراس، كما أنشأ مركزا للدراسات الثقافية في لوزان حاليا وقد ألف كتب ومقالات حول مشاكل المغرب العربي.

¹⁰ Antoine Quentin, Op.cit. P 44.

¹¹ محمد العيد مطمر، المرجع السابق، ص 14.

¹² Antoine Quentin, Op.cit. P 44.

¹³ محمد العيد مطمر، المرجع السابق، ص 14.

¹⁴ محمد الطاهر عزوي- الإعداد السياسي والعسكري للثورة في الأوراس، 1 نوفمبر 1954، الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون/ مجلد 1- جزء 1- حزب جبهة التحرير الوطني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 237.

¹⁵Chenouf Ahmed Boudi- Op.Cit, P 30.

¹⁶ محمد العيد مطمر، المرجع السابق، ص 16.

¹⁷ مثل كل من مصطفى بن بولعيد مع مسعود بلعقون وعجال عجول حرك الانتصار للحريات الديمقراطية M.T.L.D في المؤتمر الذي عقد بتاريخ 16-17-1947 (بيلكور) والذي تم فيه تأسيس المنظمة الخاصة... أنظر:

Chenouf Ahmed Boudi- Op.Cit, P 30

¹⁸ Mohamed Harbi :Le F.L.N- mirage et réalité.1945-1962, et J.A France -1980-P 75.

¹⁹ benjamin.Stora :Dictionnaire Biographique de militants Nationalistes algériens 1926-1954, l'harmattan paris, 1982, p 273.

²⁰ jean vanjour ; de la révolte a la révolution aux premier jour de la guerre d'Algérie .Albine Michel .France 1980 . p 420.

²¹ Jean Morizot. Op.Cit- P 323.

²² Yves courrière — La guerre D'Algérie — Les fils de la toussaint, fayard-France, 1973- P 30.

²³ Jean Morizot. Op.Cit- P 224.

²⁴ محمد الطاهر عزوي، المرجع السابق، ص 252.

²⁵ Mohamed Harbi. Op.Cit- P 90.

²⁶ Jean Morizot. Op.Cit- P 224.

²⁷ محمد العيد مطمر، المرجع السابق، ص ص 18 - 20.

²⁸ jean morizot. Op.Cit. P 225.

²⁹ جون فوجر "JEAN VAUJOUR". "عامل PREFET" في منطقة الأوراس في الأربعينيات ومدير الأمن العام في الجزائر، يعرف بأنه صاحب التقرير المعروف باسمه " تقرير فوجور PAPPUR VAUJOUR " الذي قدمه لوزير الداخلية فرونسوا ميتران في 23 أكتوبر 1954 والذي تنبأ فيه باندلاع ثورة قبل نهاية السنة.

Historia Magazine-N° 195-29 Septembre 1972-P 32. أنظر:

³⁰ Historia Magazine-Ibid., 32.

³¹ عاش الشهيد مصطفى بن بولعيد الثورة 18 شهرا قضى 9 أشهر في سجن الكدية بقسنطينة و 9 أشهر أخرى في قيادة الثورة بجبال الأوراس.

³² jean morizot. Op.cit.P 30.

³³ Jean Vaujour. Op.cit. P 420.

³⁴ إن مدلول التسمية (الثعلب) ليس إهانة بل هو دليل على الدهاء والحنكة السياسية والعسكرية والأمثلة التاريخية غنية بذلك فالمارشال الألماني رومال إرقن ROMMEL الذي قاد الحملة على إفريقيا في فترة هتلر كان يلقب "بثعلب الصحراء".

³⁵ Historia Magazine-N° 197-13 Octobre 1972-P 106.

³⁶ إيفرار EVRAR . العقيد الفرنسي الذي أشرف على مهمة اغتيال مصطفى بن بولعيد وهي المهمة التي بدأها النقيب "كروتوف KROTOF".

³⁷ Erwan Bergot ;Le Dossier Rouge Services Secret Contre F.L.N- Bernard grosset —Paris - 1976. P 60.

³⁸ Ibid. PP 59,60.

³⁹ P-Lentin-Alger Colenest Eperviers —Historia Magazine N° 13 Octobre 1972-P 109.

⁴⁰ شهادة الطاهر الزييري-أضواء على اعتقال ابن بولعيد-مجل 1 نوفمبر-عدد 84 جوان 1987-ص 36.

⁴¹ (P.G.R) (شرطة الاستعلامات العامة-Police Des Renseignements Généraux)

⁴² P.Lentin. Historia Magazine —Op.Cit, P 109.

⁴³ Ibid. PP 59-60.

⁴⁴ Benjamin Stora. Op.cit. P 237.

⁴⁵ شهادة الطاهر الزييري. قصة "هرب الشهيد البطل مصطفى بن بولعيد من سجن الكدية بقسنطينة" مجلة أول نوفمبر . عدد 93-94-ماي . جوان 1988. ص 10.

⁴⁶ Jean Morizot. Op.cit. P 236.

⁴⁷ Messaoud.Maadad. Guerre D'Algérie Chronologie Et Commentaire — Collection .Sad.Alger 1992-P42.

⁴⁸ Historia Magazine N.213-31 Janvier 1972, P 627.

⁴⁹ Messaoud.Maadad. .Op.Cit, P 42.

⁵⁰ Jean Morizot .Op.cit. 236.

⁵¹ Ibid., P 236.

⁵² Messaoud.Maadad. Op.Cit, P 30.

⁵³ النقيب "كروتوف kROTOFF" شخصية أسطورية من رجال الاستخبارات الفرنسية بالجزائر و الذي هلك في عملية إنزال للمظليين بمنطقة الأوراس، أشهر قليلة قبل استشهاد ابن بولعيد -أنظر

Erwan. Bergot-Op-cit-P 66

⁵⁴ لقد صنع هذا الجهاز "مرسل-مستقبل" في مصنع "سوكورت" بفرنسا الذي يعمل فيه العديد من الخبراء و رجال الاستخبارات و ينتج هذا المصنع حوالي 1000 نوع من هذه الأجهزة المفخخة .

⁵⁵ Chenouf Ahmed Boudi -Op.cit. 33.

⁵⁶ Erwan. Bergot.Op.Cit 66.

⁵⁷ هذه الفرقة "الصدمة 11- choc" كانت وراء اغتيال العديد من أبرز قادة الثورة مثل "محمد بونعامة في البليدة" و "بن بولعيد مصطفى في الجبل الأزرق".

⁵⁸ Erwan. Bergot. Op.cit.P 66.

⁵⁹ Chenouf Ahmed Boudi Op.Cit 35-60.

⁶⁰ هناك اختلاف بين المصادر التاريخية في تحديد اليوم الذي أستشهد فيه ابن بولعيد : "أييف كوريار Yves Couriere" يذكر في مقال له بمجلة (Historia Magazin عدد 213) أن ابن بولعيد أستشهد يوم 27 مارس، أما معداد مسعود في مرجعه السابق يذكر أن الاستشهاد كان في 23 مارس، أما المؤرخ "جون موريزو Jean Morizot" يذكره أنه استشهد يوم 27 مارس 1956، و هو نفس التاريخ الذي ذكره "أييف كوريار Yves Couriere".

التجربة الاسبانية في تحقيق المخطوطات العلمية الجزائرية . دراسة ميدانية بقسم

الفيلولوجيا بجامعة برشلونة . اسبانيا

د. نصيرة عزروودي. قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة

الملخص:

تعدّ المخطوطات العلمية العربية لبنة من لبنات الحضارة الإسلامية اهتم بها ثلّة من المستشرقين المتخصّصين، وفي ورقتنا هذه نُبيّن الدور العلمي الذي أولوه لمخطوطاتنا الفلكية، في الوقت الذي أهملها وتغافل عنها مؤرخي العلوم الجزائريين، كونها تشكّل عبئا وجهدا شاقّا عليهم لغناها بمصطلحات علمية دقيقة، هذه الصعوبة تجاوزتها المدرسة الاسبانية ببرشلونة، إذ وقفت عندهم على تجربة موضوعية دقيقة كونهم أهل اختصاص بعلمي الفلك والرياضيات.

من أعمدة هذه المدرسة العريقة العالم المحقق الضليع في تاريخ العلوم عند العرب والاسبان المستشرق البروفيسور خوليو سامسو مويّا (Julio SamsóMoya)، وطلابه الذين يزاولون حاليا التدريس بقسم الفيلولوجيا وأشرف على رسائلهم الأكاديمية نذكر منهم: مونتسي دياز فجاردو (MontseDíaz-Fajardo)، ومارك أوليبيراس (Marc Oliveras)، وخوسي كاسوليراس (Josep Casulleras)، ومونيكا ريوس (Monica RiusPiniés)

وفي هذه الجامعة العريقة تناول بعض الباحثين العرب تحت إشراف كبيرهم خوليو سامسو مويّا موضوعات تتعلق بمخطوطات فلكية جزائرية منهم: الباحث السّوري عمار سعيد الشّيب . والباحث المغربي رشيد السعيد.

رأيت لزاما عليا أن أقدم أعمال هذه النخبة العلمية المختصة كي نجعل من تحقيقاتهم وأبحاثهم عن تراث علم الفلك الجزائري نموذجا نحتذي به في الأبحاث المستقبلية.

كلمات مفتاحية: المخطوط العلمي؛ علم لفلك؛ قسم الفيلولوجيا. برشلونة؛ خوليو سامسو مويبا؛ مارك أوليبيراس؛ مونيكا ريوس؛ منتز دياز فخاردو.

Abstract:

The scientific manuscripts are considered as One of the pillars of the Islamic Civilization that third of the specialists Orientalists took care of. In this paper, we will show the specific role that they gave to our astronomical manuscripts in the time that we ignored them and the carelessness of the Algerian historians of science since they formed a burden and hard efforts for them because they are rich of precise scientific terminology. This difficulty was overcome by the Spanish school in Barcelona. It was a precise objective experience since they are specialised in Astronomy and Mathematics

One of the famous scientists in this famous ancient school was t School is the criticism in the history of science for the Arabs and Spanish the Orientalists professor julio and his students who are teaching in the Physiology department and he supervised their academic dissertations, we mention Montse Díaz-Fajardo, Marc Oliveras, Josep Casulleras, and Monica Rius Piniés.

In this ancient university, some Arab researchers under the supervision of Julio, dealt with topics that have a relationship

with Algerian astronomical manuscripts among them: the Syrian researcher Ammar Said Ashabib and the Moroccan researcher Rachid Assaidi

I found myself obliged to introduce the works of this specialized scientific elite so as to make their researches on the legacy of the Algerian Astronomy as a model to be followed in future studies.

Key words: The scientific manuscript - Astronomy. Physiology Department. Barcelona - Julio SamsóMoya - Marc Oliveras - Monica Rius Piniés - Montse Díaz-Fajardo

بدأت الدراسات الجادة لعلم الفلك الأندلسي والمغربي بفضل أبحاث الأستاذ خوسي ماريا ميلاس فاليكروسا (Josep María Millàs Vallicrosa) وأبحاث تلميذه خوان فيرنيه (Vernet, Joan)⁽¹⁾ مؤسسي مدرسة برشلونة لمؤرخي العلوم الأندلسية، وازداد الإنتاج العلمي لتلك المدرسة زيادة كبيرة منذ عقود التسعينات إلى يومنا هذا بفضل أستاذ الدراسات الفلكية الأندلسية بلا منازع البروفيسور خوليو سامسو مويا (Julio SamsóMoya) وطلابه الذي شرفوا البحث العلمي بأبحاثهم حول التصوص والآلات الفلكية الأندلسية والمغربية.

قبل الخوض في عرض هذه الدراسات ينبغي التأكيد على نقطة مهمة وهو أنّ أساتذة قسم الفيلولوجيا مملّون بعلم الفلك موضوع البحث، وبالطرائق الرياضية والقواعد المستعملة في النصّ الفلكي المحقق، استطاعوا فكّ لغته الفنية المتخصصة، فالمصطلح الفني للمخطوطات العلمية العربية كما هو معروف تعود إلى العصور الوسطى تختلف لغتها

تماماً عن المصطلح الفنيّ للغة العربية العلمية الحديثة، ولذلك فإنّ محقق المخطوط العربي في الفلك الذي يعود إلى العصر الوسيط، يقوم بدور مترجم للغة بدت استعمالها اللغوية بسبب الفجوة بين ذلك العصر والعصر الحديث، وبسبب الفجوة بين التعبير الأدبي والتعبير العلمي.

بالإضافة إلى امتلاكهم ناصية اللغة العربية بجدارة، الأمر الذي مكّنهم من الإلمام بالسياق التاريخي للمخطوط المراد تحقيقه، وبالاصطلاحات اللغوية الفنيّة الخاصة بعصر المخطوط مقابل الاصطلاحات الحديثة.

قائمة بعناوين الدراسات الإسبانية:

البروفيسور خوليو سامسو مويّا (Julio SamsóMoya):

اشتغل هذا المستشرق الإسباني كأستاذ للغة والآداب العربية في قسم الفيلولوجيا بجامعة برشلونة، عضو بعدة أكاديميات معتمدة، منها الأكاديمية الملكية للآداب الجميلة في برشلونة، والأكاديمية العالمية لتاريخ العلوم (باريس)، وعضو مراسل في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمديرد، عمل أميناً للصندوق في الاتحاد الدولي لتاريخ العلوم شعبة تاريخ العلوم من عام 1982 إلى عام 1989، وعضواً استشارياً في اللجنة 41 لتاريخ علم الفلك بالاتحاد الدولي لعلم الفلك من عام 1083 إلى عام 1985م، نظم العديد من المعارض منها معرض "آلات علم الفلك في إسبانيا العصر الوسيط وأثرها على أوروبا بسنتاكروز دي لا بالما سنة 1985م، ومعرض التراث العلمي في الأندلس بمديرد عام 1992م.

تقاعد حالياً، له مؤلفات وأبحاث في تاريخ العلم والأدب عند العرب، متخصص في تاريخ علم الفلك عند العرب عموماً والأندلس خصوصاً، له منشورات حول الآلات الفلكية بمختلف أنواعها، مهتم بكتب الأنواء خاصة، وتاريخ الأندلس الحضاري والعلمي وتاريخ الرياضيات.

قدّم دراسات دقيقة حول علم الفلك الأندلسي والمغربي وهو من العمالقة الكبار على المستوى العالمي، له العديد من المقالات والأبحاث والكتب المعمّقة الدّقيقة، ومساهمات عديدة في ضبط الأعلام والمصطلحات العلمية في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإسبانية والانجليزية، وآخر إصدار له حسب ما صرّح لي به أثناء إجراء لقاء علمي معه في ديسمبر 2014م، هو كتاب يعالج تاريخ علم الفلك في الجزيرة الأيبيرية والمغرب خلال العصر الوسيط، أمّا المقالات فينشرها تباعا دون توقف خاصة في صفحته الإلكترونية على الأكاديمية).
(<https://ub.academia.edu/JulioSams%C3%B3>)

اهتم بدراساته الجادة والرّصينة برصد بعضا من أعلام بلاد المغرب الأوسط الذين لهم باع في علم الفلك، وعلى رأسهم: أبو الحسن ابن أبي الرجال التيهري القيرواني الشيباني (ت. 462هـ/1034م)، وأبو القاسم ابن عزوز القسنطيني (ت. 755هـ/1354م)، وابن القنفذ القسنطيني (ت. 810هـ/1407م).

قام بنشر دراسات دقيقة على كتاب البارح في أحكام النجوم لابن أبي الرجال التيهري القيرواني (ت. 462هـ/1034م)⁽²⁾ وهي من أكثرها شيوعا، اهتم بها العلماء التالون له واعتبروها من الأراجيز التّعليمية الهامة التي يعتمد عليها الطالب لعلم الفلك، وهي أرجوزة في أحكام الفلك وقوانينه وأسس وقواعده وأرصاده، من أكثر الشروح اشتهارا شرح ابن القنفذ القسنطيني، ذكر فيه أساليب ممارسة التّنجيم المستعملة عند ابن أبي الرجال وأساليبه الخاصة.⁽³⁾

كما قدّم دراسات مستفيضة عن مخطوط الزيج⁽⁴⁾ الموافق لأبي القاسم ابن عزوز القسنطيني (ت. 755هـ/1354م)، برهن فيه على دقّة أرصاده التي أجراها في فاس حوالي سنة 1344م باستخدام الآلة المعروفة ذات الحلقة، وكان الهدف من هذه العمليات هو تصحيح جداول الحركة الوسيطة في زيج ابن اسحاق التونسي (عاش في

تونس ومراكش حوالي 589 . 619 هـ / 1193 . 1222 م)، ودقق في النتائج التي جرى الحصول عليها باستخدام خريطة صور البروج المستخدمة لكشف الطالع، وطرائق التسيير لأحداث تاريخية ماضية مثل معركة فحص طريف (السالادو) أو سقوط دولة الموحدين، وقيام مملكة بني مرين في فاس⁽⁵⁾.

قدّم أيضا أبحاثا دقيقة حول زيج ابن القنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م)، ومدى تأثير زيجه وتأثره بالأزياج المغربية والأندلسية.⁽⁶⁾

مارك أوليبيراس: (Marc Oliveras)

حقّق شرح ابن القنفذ القسنطيني لأرجوزة البارغ في علم النجوم لابن أبي الرجال تحت إشراف البروفيسور خوليو سامسو مويّا، معتمدا على ثماني نسخ مخطوطة، ولهذه الأرجوزة أهمية كونها تتناول الكواكب وحركتها ومكانتها وأزمنتها، ويستدلّ فيها بالتشكيلات الفلكية من أوضاع الكواكب مع المقابلة والمقارنة وغيرها على أحوال الجو والمعادن والنبات والحيوان⁽⁷⁾.

ودرس علاقة المضامين التنجيمية المذكورة في كتاب البارغ بالأحداث السياسية لمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي مدقّقا في الأسماء وطالع الحكام بها وما حدث في قسنطينة من تخريب أثناء الحصارات المتوالية عليها من قبل المرينيين⁽⁸⁾.

مونيكا ريوس: (Monica RiusPiniés)

تهتمّ هذه الباحثة المستشرقة بعمل دراسات مسحية شاملة لأساليب تحديد القبلة في كتابات المغاربة والأندلسيين، قدّمت لها بحثا قيّما في موضوع علم المواقيت مسلّطة الضوء على مخطوط "دلائل القبلة" لأبي علي المتّيجي⁽⁹⁾ عاش في القرن 6هـ/12م) قدّمت فيه عرضا دقيقا عن حياة ومنهج وطبيعة هذا المخطوط الفريد في فنّه، وقد برعت في ذلك كونها مختصة في علم التوقيت⁽¹⁰⁾.

كما قدّمت دراسة⁽¹¹⁾ عن مخطوط "تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي في معرفة الأوقات والحساب من غير آلة ولا كتاب"⁽¹²⁾ لعلّي بن محمد بن علي المقرّي (كان حيا سنة 786هـ/1385م)، ألفه يوم الخميس جمادى الأولى سنة 786هـ الموافق لـ 14 جويلية 1384م استجابة لطلب تلميذه أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي (ت. 786هـ/1384م)، وبعد النظر والتدقيق في كتاب أبو علي الحسن الأموي القرطبي (ت. 601هـ/1205م) المسمى "المستوعب الكافي والمقنع الشافي في الأوقات" بعد لاحظ فيه الإطناب وقلة الضبط، وفي ذلك يقول: "قال بعض الفضلاء من أهل العلم والدين من تلاميذه سيدي أبي عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي نفعنا الله به كلفني أن أجمع له أبوابها يستدل به على الأوقات والساعات وليعلم به أوقات الصلوات وكان عفا الله عنه أن يعلم ذلك تحقيقا لا تقليدا لما علم ما في ذلك من الجزيل والمثوبات، وقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى المستوعب الكافي والمقنع الشافي في الأوقات حيث قال وما أن جعل الله صومنا في أفضل الشهور كلّها في أفضل الأوقات وجب علينا أن نأتمر ونراعي ذلك حقّ المراعاة... وقد ألف القرطبي رحمه الله هذا الكتاب وأطنب فيه كل الإطناب وذكر كل شهر وما يخصّه من الساعات وأوقاته وارتفاعه وأقدامه فتأملت كتابه فوجدته مشتتبا من غير ضابط يضبطه ولا قانون يخصّه فجمعت هذا التأليف في هذا الفنّ الشريف، وذكرت له قواعد وضوابط وذكرت علائها ومعلولاتها وبراهينها حسبا يسّر الله علي في ذلك، وما نقلته عن الأشياخ وما ذكره أهل العلم.⁽¹³⁾

عالج هذا المخطوط مشكلة كانت تواجه الفقهاء وعامة الناس وهي صعوبة استعمال الآلات الفلكية في تحقيق الحساب ومعرفة الأوقات التي تستلزم دراسة وافية لكل آلة بمحتوياتها، وكيفية القياس بها، وعليه يندرج هذا المخطوط ضمن تبسيط علم الفلك في فرع علم المواقيت، واستخدام بعض الأساليب البسيطة والميسرة والفعالة في الحساب

وفي معرفة أوقات الصلاة، دون الاعتماد على ما شاع من الآلات الفلكية كالأسطرلاب وغيره، عمل على استقراء التقاويم والحسابات المتتالية لسنوات عديدة، وأصبحت له القدرة على تحقيق بعض الطرق الموصلة لمعرفة الحساب والأوقات دون آلة ولا كتاب عن طريق الحساب الذهني، ولا شك أن هذه العملية تعدّ تطوراً نوعياً نحو تقنين نظري ذهني لمعرفة الأوقات والحساب، وتعتبر من الأساليب والمناهج العلمية لتعميم المعرفة بأبسط الطرق وأيسرها، حتى يتمكن العامة من استخدامها في حياتهم الاجتماعية والخاصة⁽¹⁴⁾

مونتسي دياز فنخاردو (Díaz-Fajardo Montse)

كتبت هذه المستشرقة العديد من المقالات في شأن ما كتبه ابن عزوز من نظريات في مؤلفه الزيج الموافق، وتحديدًا حول تقنيات التنجيم من خلال جداول القوة لابن عزوز القسنطيني⁽¹⁵⁾.

كما سبق وأن قدّمت دراسة فلكية دقيقة على كتاب البارح في أحكام النجوم لابن أبي الرجال التيهري⁽¹⁶⁾.

خوسي كاسوليراس: (Josep Casulleras)

كتب مقالا حول ابن عزوز القسنطيني وما تعلق بجداوله الخاصة بحوسبة الكواكب، ورصد نظرياته في علم التنجيم، مقارنة إياها بأعمال ابن معاذ الطليطلي الجياني⁽¹⁷⁾.

قائمة ببعض العناوين لباحثين عرب في قسم الفيلولوجيا:

عمار سعيد الشبيب: (Said Al-Chabib, Ammar)

حقّق الباحث السوري تحت إشراف خوليو سامسو مويًا مخطوط دلائل القبلة لأبي علي المتيجي (عاش في القرن 6هـ/12م)⁽¹⁸⁾ بالاعتماد على نسخة وحيدة ضمن مجموع مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس (Biblioteca Nacional de París)

BNP)) تحت رقم 5311 (من الورقة 53 . 129)، قسّم المتّيجي كتابه إلى ثلاثة أبواب، الأول في بيان وجوه التوجه إلى القبلة، وبيان ضروب الطرق الموصلة إليها وبيان ضروب المصلين إليها، والثاني في بيان وجوب الاجتهاد في طلبها وكيفية البحث عنها ووجوب الرجوع إليها على من أخطأها، والثالث في بيان اختلاف الغالطين فيها وذكر أسباب غلطهم وذكر العلامة الفاسدة، وبيان وجوب إرشادهم وكيفية الردّ عليهم⁽¹⁹⁾.

وبعد اطلاعنا على عمله لاحظنا فيه ضعفاً وتقصيراً في تحقيقه من قبل الباحث سواء ما تعلّق بضبط الفترة الزمنية التي عاشها الفقيه والتي قدّرها بالقرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أو بأخطاء كثيرة ارتكبها في تحقيقه منها إغفاله العودة للتّصوص الفقهية المعتمد عليها في كتاب دلائل القبلة، أو تجاوز التعريف بكثير من المصطلحات الفقهية والعلمية، وضبط تراجم الأعلام الواردة في النّص المخطوط، وعدم تخرّج الأحاديث إلاّ حديثاً واحداً، كما لم يتدخل في إكمال الفراغات التي تركها النّاسخ إلاّ في القليل من المواضيع، بل هناك أخطاء في قراءة النّص المخطوط، كما أنه لم يضع عناوين للفصول التي تركت من قبل أبو علي المتّيجي.⁽²⁰⁾

تكمّن أهمية المخطوط كونه يعالج الطّرق الموصلة إلى معرفة القبلة، وبسط الأقوال فيها بالاعتماد على آراء متقدّمية من علماء المذهب المالكي، بغية تصحيح أخطاء قبلة محارب بلاد المغرب الإسلامي، وبيان أسباب هذه الأخطاء الذي أساسه التّقليد الأعمى الذي جعل المغاربة يسترسلون في الخطأ، وسوء تأويل الأحاديث، والتكلم في أمر القبلة بالجهل وعدم العلم مع إتباع هوى النفس ومعاودة الحق.

ألّف أبو علي المتّيجي كتابه "دلائل القبلة" في فترة استحكّم الخلاف فيها بين الفقهاء والفلكيين حول اتجاه القبلة في محارب المساجد المغربية، فبالرغم من محاولات الفلكيين لتصحيح تلك الأخطاء لكنهم اصطدموا بمواقف الفقهاء المتشدّدة فراضين رأيهم لأنّهم مدعّمون من قبل السلطة المرابطية.⁽²¹⁾

رشيد السعيدى: (Rashid Saidi)

حقّق هذا الباحث المغربي تحت إشراف خوليو سامسو مخطوط "نتائج الأفكار في شرح روضة الأزهار"⁽²²⁾ للفقير أبو عبد الله محمد الحباك التلمساني⁽²³⁾ (توفي بعد سنة 920هـ/1513م)، استخدم في تحقيقه نسختين نسخة من مكتبة لندن برقم 411/2 نسخها النّاسخ أحمد بن محمد الحسن بن محرز سنة 1082هـ/1670م بخطّ مغربي واضح، تحتوي على جداول قدرها 23 كتبت بعناية فائقة غير جدول واحد هو الجدول 8 حيث وقع النّاسخ فيه أخطاء كثيرة بسبب تداخل الحروف بعضها في بعض، فما كان أحيانا للدرج وضعه في خانة الدّقائق وبالعكس، وأمّا نسخة مكتبة القاهرة تحت رقم 4311 ك، فقد نسخت سنة 1183هـ/1769م مكتوبة بخطّ مشرقى عليها اسم النّاسخ بها سقط كثير.

وهذا المخطوط من أحد الكتب القيّمة التي لاقت إقبالا واستحسانا من طرف العلماء في فنّ التّوقيت وعلم الأزياج، فأقبلوا على شرحها وبسط مضامينها ورفع ما استشكل منها لأسلوبها الماتع.

قام المحقّق بتقديم براهين على بعض القواعد الرياضية التي اعتمدها الحباك في الحساب، واستخرج بعض القيم موضّحا ذلك ببعض الأشكال والرّسوم الهندسية تمّ عن تمرّسه وتمكّنه من المصطلح العلمي الفلكي.⁽²⁴⁾

حامد براني (Hamid Berrani)

هو باحث مغربي يقوم بتدريس مقياس اللّهجات بقسم الفيلولوجيا بجامعة برشلونة أوكل له البروفيسور خوليو سامسو تحقيق قواعد وجداول "الزيج الموافق لابن عزّرو القسنطيني"⁽²⁵⁾، لكن من خلال متابعتي لهذا التحقيق علمت من أساتذة الجامعة أنه توقف عن العمل عليه لظروف القاهرة، وسيستكمّله في المستقبل القريب.

أهم المجالات العلمية المختصة في تاريخ العلوم:

مجلة سهيل: (Suhayl)

هي مجلة دولية لتاريخ العلوم الدقيقة والطبيعية في الحضارة الإسلامية، تصدر بالتعاون مع لجنة تاريخ العلوم والتكنولوجيا في المجتمعات الإسلامية التابعة لقسم الفيلولوجيا بجامعة برشلونة، إسبانيا، جاءت ثرية بجميع أعدادها التي تهتمّ بنشر الدراسات العلمية خاصة الفلكية، صدر العدد الأول منها سنة 2000م، وحاليا وصلت إلى العدد 14 الصادر سنة 2015م.

يعدّ مؤسسها خوليو سامسو مويبا وطلابه أساسا كبيرا في دعم هذه الأبحاث المتميزة خاصة ما تعلّق بعلم الفلك الأندلسيين والمغاربة وأهم الفاعلين فيه من العلماء الأوائل، ودورهم في إثراء التراث الفلكي بالغرب الإسلامي، نذكر من أهم تلك الأعلام: خوليو سامسو مويبا (Julio Samsó Moya)، منتس دياز فجارديو (Montse Díaz-Fajardo)، ومارك أوليفراس (Marc Oliveras) وخوسيب كاسوليراس (Josep Casulleras)، وميكييل فورقاد (Miquel Forcada)، مونيكا ريوس (Monica Rius Piniés)، وجميل عيساني والتّهامي زمولي... إلخ

ومن بين المقالات التي أثارها الجزائريون في حقل الدراسات العلمية مقال بعنوان: جوانب من تقنيات التوقيت وأدوات الرصد في المغرب الإسلامي، لجميل عيساني وبكلي محمد رضا، وشادو إلهام، (أساتذة باحثون في جامعة عبد الرحمن ميرة ببجاية) نشر بمجلة سهيل (Suhayl)، المجلد 13 سنة 2014م، تطرّقوا فيه إلى الجوانب المتعلقة بتقنيات التوقيت، وأدوات الرصد في المغرب الإسلامي، وعرضوا المبادئ النظرية لقياس الوقت عند بعض الفقهاء، وعالجوا أيضا إشكالية مهمّة تخصّ تعديل الأسطراب

المطروحة في مخطوط حول الصّفيحة لمؤلف مجهول رجّحوا أن يكون هو شقيق الحبّاك، كما ناقشوا الأدوات الخاصّة بالرّصد كالمزاول منها مزولة المنصورة، وفي الأخير قدّموا نصوصا تاريخية تتعلق بالسّاعات المائية والرملية بالمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط⁽²⁶⁾.

بالإضافة إلى بحث قيم قدّمه التهامي زّموي من المدرسة العليا للرياضيات بالقبة نشر بالعدد 15 للعام 2015م، بعنوان "رسالة الوادي آشي وهندسة القياس بالأندلس خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين"، يهدف هذا البحث إلى تقديم عناصر وأدوات هندسة القياس كانت تمارس في الأندلس خلال الحقبة المشار إليها، كما تهدف هذه الرسالة من خلال مقدّمة تاريخية وتحليل رياضي وتحقيق نصّ الرسالة إلى تسليط الضوء على علاقة مضمون هذه الرسالة بمضمون مؤلفات هندسية أندلسية، اكتشفت ودُرست خلال العشرية الأخيرة⁽²⁷⁾.

الخاتمة:

. تهدف هذه الدراسة إلى البحث في أوضاع المخطوط العلمي من خلال حصيلة تجارب لكبار المختصين الاسبان.

. حاولت تقديم دليل ببيلوغرافي لمؤسسة عريقة قصد تيسير الاتصال مع باحثيها في ظل توفر بياناتهم العلمية في الأكاديمية (<https://www.academia.edu/>)، والعمل على إقامة التعاون العلمي معهم من أجل صقل التجارب الناضجة كي تكون أبحاثهم مرجعا لنا نبدأ منها ونؤسّس عليها.

. تقديم نصوصهم المحقّقة كنصوص نموذجية في تحقيق المخطوطات العلمية، تجمع خلاصة خبراتهم ومناهجهم المتميّزة في التّحقيق، وعليه ينبغي أن يكون من أولوياتنا التّعرف بدقة على تجارب تحقيق مختلف فروع التراث العلمي وإشكالاته، والإفادة من

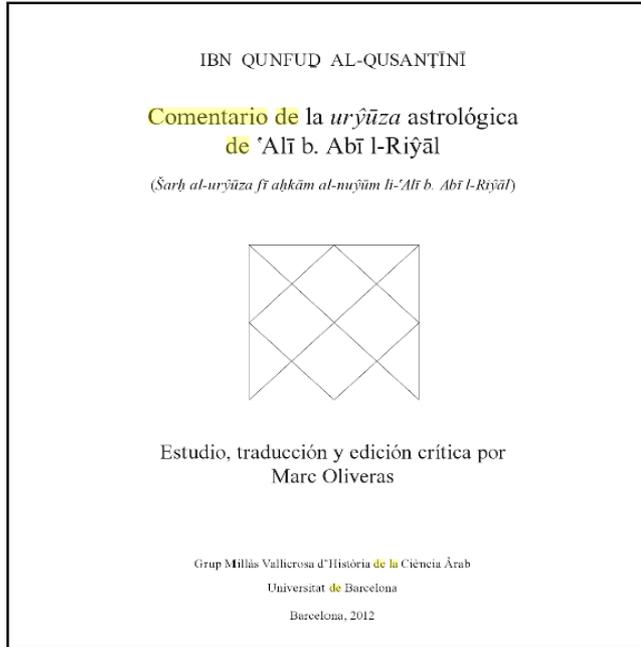
خبرات الاستشراق المختلفة، ومعرفة المناهج التي استخدمتها الجامعة الاسبانية في تحقيق النصوص العلمية.

. دعوة باحثينا للعمل على استخدام مناهج هؤلاء المستشرقين لاستكمال إخراج تحقيقاتهم صحيحة في متنها، مُحَقَّقة في مسائلها، مُوضَّحة في مصطلحها، واستخراج كل ما هو جديد فيها للاستدلال على إسهام الجزائريين في تكوين العقل الحضاري الإسلامي.

الملاحق:

1. شرح أرجوزة ابن أبي الرجال لابن القنفذ القسنطيني تحقيق مارك

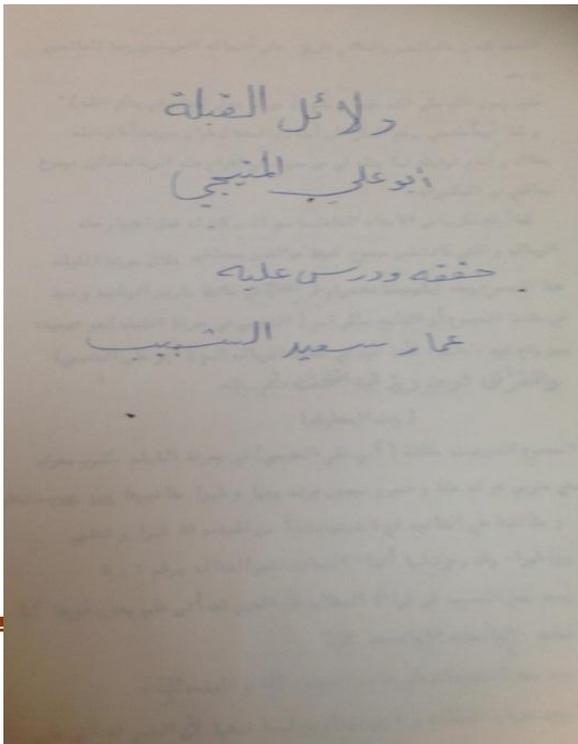
أوليبيراس:



2. نتائج الأفكار للحباك التلمساني تحقيق رشيد السعيدي:



3. دلائل القبلة تحقيق عمار سعيد الشيب:



4. دلائل القبلة تحقيق نصيرة عزرودي:



5. مقالات من مجلة سهيل:

رسالة الوادي أشي
وهندسة القياس بالأندلس
خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

التوهامي زكوي

ملخص: يندرج موضوع الرسالة المقدمة هنا ضمن امتداد تقليد هندسة القياس التي بدأت تتطور، في الأندلس، انطلاقاً من القرن التاسع الميلادي. إن مؤلف هذه الرسالة يتوجه إلى المتعلمين بتقديم عناصر وأدوات هندسة القياس كما كانت تُمارَس في تلك المنطقة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. تهدف هذه المقالة، من خلال مقامة تاريخية وتحليل رياضي وتحقيق نصن الرسالة، إلى تسليط الضوء على علاقة مضمون هذه الرسالة بضمون مؤلفات هندسية أندلسية، اكتشفت ودرست خلال العشرين الأخيرة.

الكلمات المفتاحية: هندسة تطبيقية، هندسة القياس، وحدات القياس، أندلس.

Abstract: The short treatise edited and studied here keeps on with the geometrical tradition of measurement of longitudes and surfaces developed in al-Andalus from the 9th century. It contains a set of instructions for beginners which provides some of the objects and tools of measurement as in use there during the 13th and 14th centuries. Together with giving an edition and a mathematical transcription of the text, the article shows the links existing between this treatise and the other geometrical works written in al-Andalus which were discovered and studied in the last ten years.

Keywords: Practical geometry, geometry of measurement, units of measurement, al-Andalus

مقدمة
إن ممارسة القياس ومسح الأراضي، كانت متواجدة بالأندلس منذ القرن الثامن الميلادي على الأقل، وهذا استناداً إلى بعض المؤلفات التي لم يعثر عليها بعد وإلى بعض النصوص التي وصلتنا والتي تنمض إلى مختلف جوانب القياس المحسوسة أو شبه المحسوسة لهذا النشاط الهندسي. ونشير إلى أقدم كتاب ألف في هذه المنطقة حول الموضوع، ومن

Subayt 14 (2015), pp. 7-39

جوانب من تقنيات التوقيت و أدوات الرصد في المغرب الإسلامي

يكنى محمد رضا، عيسى جيل، شادو إلهام

ملخص:
في هذه المقالة نتطرق إلى بعض الجوانب المتعلقة بتقنيات التوقيت و أدوات الرصد في المغرب العربي و التي لم نعالج بشكل تام من قبل. في البداية قمنا بعرض المفاهيم النظرية لقياس الوقت وفقاً لرسالة القرنين، كما تطرقنا إلى إشكالية تعديل الأسطرلاب المعروفة في مخطوط حول الصلحة من تأليف شفيق الجيازي، إلى جانب ذلك، أولينا أهمية خاصة لأدوات الرصد، بالخصوص مزارق المنصورة و جامع الزيتونة، و الأداة المعروفة بـ "جامعة البرداني" وفقاً لوصف معاصره العياشي في الأخير. قمنا أيضاً بعرض النصوص التاريخية المتعلقة بالساعات المائية و الرولية في المغرب الإسلامي خلال العصور الوسيط، و التي لم تدرس بشكل تام، إن اشرفنا إلى المؤلفات التي يحتفل أنه استجيب بها في تصويبها.

المفتاح:
المغرب، توقيت، مقياس، أسطرلاب، الساعة شمسية، الساعات المائية، الرولية.

Keywords: Maghreb, timekeeping, miqat, azrolsba, zundin, clepydrn, hourglass.

مقدمة
منذ القدر اهتمام الإنسان بالتوقيت و ما يتعلق به، تنظيم و إدارة جميع الأنشطة اليومية و تحديد أوقات إحياء الشعائر الدينية، لها علاقة بتعيين الوقت و ضبط الإزمنة، خصوصاً بعد مجيء الإسلام. لذا كان من الضروري تطوير أساليب و أدوات قياس أكثر دقة.

Subayt 13 (2014), pp. 7-44

الهوامش:

(1)-خوان فيرينيه، واحد من أهم المستعربين ومؤرخي العلوم المميزين، عمل منذ سنة 1954 أستاذ كرسي اللغة والأدب العربيين في جامعة برشلونة، وهو عضو في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، وأكاديمية الآداب الجميلة ببرشلونة، والأكاديمية العالمية لتاريخ العلوم بباريس، وعضو شرف في الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، تتضمن قائمة مؤلفاته الحديث عن التنجيم وعلم الفلك وسائر العلوم بالأندلس، كما أنجز ترجمات للقرآن ولألف ليلة وليلة.

(2)-ينتسب ابن أبي الرجال التيهري إلى أسرة عربية من شيبان، تتجاذبه ثلاث جهات: المغرب الأوسط الذي تنتمي إليه أسرته في تاهرت، والأندلس التي قضى بها شطرا من حياته، وإفريقية التي اكتسب بها الجاه والشهرة، كان على ثقافة عالية جمعت بين الشرعيات والأدب والرياضيات، اشتهر في بلاط المعز بن باديس الزيري، عمل على تربيته وتنشئته بأدب أهل السنة والجماعة، ودلّه على مذهب الإمام مالك، وحرّضه على الشيعة العبيدية بالقيروان. ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، حققه ح.س كولان، و أ، ليفي بروفنسال، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1980، 273/1 . 274 ابراهيم حركات، **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م**، ط1، العلوم الإنسانية والعقلية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م، 1/438.

³La Uryuza de Ibn Abi l-Riyal y su comentariopor Ibn Qunfu?:astrología e historia en el Magrib en los siglos XI y XIV (II) , [Al-Qantara: Revista de EstudiosÁrabes](#) 30 (2):321-360 (2009).

(4)- علم الأزياج، هو علم يتعرّف منه مقادير الكواكب السيّارة، منتزعا من الأصول الكليّة،ومن منافع هذا العلم معرفة موضع كل واحد من الكواكب السبعة بالنسبة إلى فلكه وإلى فلك البروج وانتقالاتها، ورجوعها واستقاماتها، وتشريقها وتغريبها، وظهورها واختفائها، ورجوعها في كل مكان وزمان، وما يلزم لذلك من اتّصال بعضها ببعض، وكسوف الشمس وخسوف القمر، وما يجري هذا

المجرى. أنظر، ابن الأَكْفَانِي، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تحقيق عبد المنعم محمد عمر، ومراجعة أحمد حلمي عبد الرحمن، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت ص 205.

(5) - هو أبو القاسم بن الحاج عزوز بن علّناس القسنطيني، ولد بمدينة "قسنطينة" في القرن الرابع عشر الميلادي، أصله من بني علناس، نزىل مدينة فاس، ارتحل إلى تونس واستوطنها وبها توفي، له مؤلفات عديدة في علم الفلك مقالة في الزّحل، رسالة في أدوار النّيرين . الزيج الموافق . الزيج الكامل، وثلاثة أعمال في علم التنجيم، كتاب الفصول في جمع الأصول . مقالة الحروز في شرح الرموز . مقالة مدخل الصناعة على مذهب الجماعة، ومؤلف في علم الفرائض، توفي بفاس سنة 755هـ/1354م. انظر، ابن القنفذ، الوفيات، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص 358.

(6) Andalusian Astronomy in 14th century Fez: al-Zīj al-Muwāfiq of Ibn ‘Azzūz al-Qusanṭīnī’, Zeitschrift für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften, 11 (1997)

-Horoscopes and History: Ibn Azzuz and his retrospective horoscopes related to the battle of El Salado (1340),.” In The Formation of al- Andalus, Part 2: Language, Religion, Culture and the Sciences, edited by Maribel Fierro and Julio Samsó, 1998

(7) An Outline of the History of Maghribī Zijes from the End of the Thirteenth Century’, Journal for the History of Astronomy 29 (1998)

(8) Comentario de Ibn Qunfuḍ al-Qusanṭīnī in La Ur̄yūza astrológica de ‘Alī b. Abī l-Riṣṣāl junto al comentario, Barcelona: Grup Millàs Vallicrosa d’Història de la Ciència Àrab, Publicacions de la Universitat de Barcelona, Barcelona, 2012

- Ibn Qunfudwithin the History of

Maghribi Medieval Astronomy, مقال شارك به في مؤتمر ابن الهيثم بقسنطينة،
al-Haytham International Colloquium ,pr 21, 2015.

(9) - لم تسعفنا كتب الطبقات والتراجم عن معرفة قدر من المعلومات عن حياة الفقيه أبي علي المتيجي، عثرنا على إشارة بسيطة عنه عند القاضي عياض (ت544هـ/1149م) في الغنية ذكره في معرض الحديث عن شخصية الفقيه عبد الله بن أحمد ابن خلوف الأزدي المعروف بابن شبون (ت533هـ/1143م) الذي عاصر الفقيه أبا علي المتيجي والتقى به في أغمات، وأثنى عليه كثيرا، يعدّ مرجعا فقهيا هاما، اشتهر بمدينة أغمات في أيام يوسف بن تاشفين (400 . 500هـ/ 1106 . 1009م)، وعاش بها إلى عشر الثلاثين والخمسمائة. انظر، القاضي عياض، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق زهير جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1982، ص155- العسقلاني، أحمد بن علي ابن حجر، تبصير المنتبه بتحرير المشته، تحقيق علي محمد البجاوي، مراجعة محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، القسم الرابع، ص1394.

(10) La orientación de las mezquitas según el Kittibdala'il al-qibla de al-Mattiyyi (s. XII)", De Bagdad a Barcelona, J. Casullerasy J. Samsó, eds. Barcelona, 1996

(11) Mesurar el temps al Magrib: la determinació de les hores d'oraci, Actes D'Historia De La Ciència I De La Técnica Novaépoca/Volum 1, (1) / 2008, p. 265 – 266.

(12) - مخطوط الخزانة الحسنية الصبيحية بسلا (المغرب) تحت رقم 5/137، وتوجد نسخة أخرى بنفس الخزانة تحت رقم 10/169، 4/305.

(13) علي بن محمد بن علي المقري، تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي في معرفة الأوقات والحساب من غير آلة ولا كتاب، مخطوط بالخزانة الحسنية، ورقة رقم 396 وجهه.

⁽¹⁴⁾ عبد الجليل قريان، العلوم العقلية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633 . 962هـ/1235 . 1554م) أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة قسنطينة 2، 2017، 1/503.

⁽¹⁵⁾ Al-Zīy al-Mustawfā de Ibnal-Raqqām y los apogeosplanetarios en la tradiciónandaluso-magrebí', Al-Qanṭara 26,1(2005)

-Les Techniques Mathematiques Dans L'Astrologie: La Table De Force D'Ibn Azzūz al-Qusanṭīnī, مقال في الملتقى المغاربي العاشر في تاريخ الرياضيات العربية (تونس، 29 إلى 31 ماي 2010)

-The Ptolemaic concept of the Ruler (al-Mustawlī) Planet in Ibn 'Azzūz'sastrologicalwriting", Archives Internationales d'Histoire des Sciences/ International Archive of the History of Science 63 n°170-171, Juin/June- Décembre/December 2013,Brepols.

⁽¹⁶⁾EL CAPÍTULO SOBRE EL TASYĪR EN AL-BĀRI, DE IBN ABĪ-L-RIĪĀL Y SU TRADUCCIÓN ALFONSÍ 1, THE CHAPTER ON TASYĪR IN IBN ABĪ L-RIJĀL'S BOOK AL-BĀRI, AND ITS CASTILIAN TRANSLATION, Al-Qantara , 2011, vol. XXXII, num. 2, p. 333-368

⁽¹⁷⁾ Ibn Azzūz al-Qusanṭīnī's tables for computingplanetary aspects, Suhayl. Journal for the History of the Exact and Natural Sciences in Islam, 2007, vol. 7, p. 47-114

⁽¹⁸⁾ El Tratado sobre la determinacióndelacimut de la alquibla de Abu Alt Al-Mattyt(o Al-Tuytbt), Tesisdoctorals,Universitat de

Barcelona,[19-?]

(19) - عرفت أنه باحث سوري من خلال الدكتورة "مونيكا ريوس" (Monica RiusPiniés)، لم نعثر على تاريخ مناقشة هذه الرسالة رغم حصولنا عليها كاملة وتحري ذلك، وحتى عندما ولجنا الفهرس الإلكتروني للرسائل الجامعية ببرشلونة على الموقع التالي: <https://cataleg.ub.edu/> لم نعثر على أي بيانات تخص التاريخ وجدنا فقط علامة: [19--?]، واستعنا أيضا بالدكتورة "مونيكا ريوس" (Monica RiusPiniés) الباحثة في علم التوقيت لكنها أيضا تجهل تاريخ مناقشتها.

(20) - قمت بتحقيقه ونشر من طرف مؤسسة عبد الحميد بن باديس التعاون مع مطبعة دار الهدى بعين مليلة في شهر أفريل 2027م، ونظرا لبعض الأخطاء المطبعية والنحوية قمت بإدخال تصحيحات وإضافات وسيتم إعادة طباعته في دار الكتب العلمية ببيروت.

(21) Hājī, Muḥammad, L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque sa'dide, 1 volumes, Activité intellectuelle au Maroc à l'époque sa'dide, Rabat, [Maroc] : Dar El Maghrib, 1976-1977, p345

(22) أبو عبد الله محمد الحباك، نتائج الأفكار في شرح روضة الأزهار، رسالة دكتوراه تخصص الكترولنيك، جامعة برشلونة، 2015م.

(23) هو الإمام الفقيه العالم الفرضي الفلكي، قال عنه التنبكي: « كان فقيها علامة صالحا عدديا فرضيا معدلا»، له بغية الطلاب في علم الاسطرلاب، وتحفة الحساب في عدد السنين والحساب، شرح تلخيص ابن البناء، ونظم رسالة الصّفار في الأسطرلاب، وشرح على التلمسانية في الفرائض، ونيل المطلوب في العمل بربع الجيوب. انظر. التنبكي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد بن عبد الله الهرامة، طرابلس، 1989، ص 543. كفاية المحتاج، 184/2. أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجنفان، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2011م، ص 108. نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 143. وللمزيد حول مؤلفاته وأهميتها، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، 118. 115/1

(24) أثبتت المصادر التي ترجمت له أنفا أنه توفي سنة 868هـ/1464م، لكننا أثبتنا تاريخ الوفاة بعد سنة 920هـ/1513م بناء على معطيات أثبتناها في كتابه نتائج الأفكار في شرح روضة الأزهار، نذكر منها:

استخدم الحباك العدد 900 لأنه كان يعيش في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، كما أنّ هذا العدد يقبل القسمة على 30 دور الكسر، وذلك في قوله: "وصفة العمل أن تأخذ ما زاد على تسعمائة من سني الهجرة بالنسبة التي تريد واقسمه على ثلاثين أبداً"، وقوله "وإصلاح هذه القاعدة (الازدلاف) لزماننا هذا الذي هو عشرون وتسعمائة أن تأخذ ما زاد على تسعة وعشرين وسبعمائة..."، وفي حديثه عن مواضع الشمس في بدايات الشهور في سنة 920هـ/1513م ذكر الحباك أنّ مقدار حركة تقدّم الاعتدالين تساوي 13؛40، ممّا يدلّ أنه كان حيا ما بعد سنة 920هـ/1513م، وقوله عند حديثه عن ابن اسحاق التميمي الراصد "الذي قلّده أهل المغرب من عصره إلى زماننا هذا نحو الثلاثمائة سنة وثلاثة وأربعين سنة (343 سنة)"، وقوله "وحركة الكواكب الثابتة من أول سنة الهجرة إلى آخر سنة عشرين وتسعمائة للهجرة"، أبو عبد الله محمد الحباك، نتائج الأفكار في شرح روضة الأزهار، ص 20 + 35 + 90 + 285.

(25) - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم د/2461.

²⁶Mohamed Réda Bekli, Djamil Aissani, Ilhem Chadou, Jawanib min tiqniyat al-tawqit wa-adawat al-rasad fi l-Maghrib al-Islami, Suhayl. International Journal for the History of the Exact and Natural Sciences in Islamic Civilisation, 2014: Vol.: 13, (p7-44)

(27) Zammuli al-Tuhami, Risalat al-Wadi Ashi wa-handasat al-qiyas bi-l-Andalus khilal al-qarnayn al-thalith "ashar wa l-rabi" "ashar al-miladiyayn, Suhayl. International Journal for the History of the Exact and Natural Sciences in Islamic Civilisation , 2015: Vol.: 14, (p. 7-39)

مخطوط المهذب الرائق لأبي عمران موسى المازوني وأهميته التوثيقية في تاريخ

المغرب الأوسط أواخر العصر الوسيط

أ/ رفيق خليفي /قسم العلوم الإنسانية/جامعة عباس لغرور / خنشلة

khelifirafik4025@gmail.com

Abstract:

The manuscript "Al-Muhadhab Al-raiq" of Qadi Abu Imran Musa Al-mazouni is considered one of the most important books of Applied Fiqh (jurisprudence). This book has maintained the basic materials of documents dealing with public affairs, daily life and economy of Middle Central Maghreb society, despite the loss of the origins of those documents which allows us to employ this book as a tool to date the marginalized fields in the sphere of the Central Maghreb during Zayanidera and to study its neglected themes such as the categories of elites and public, urbanism, work order and partnerships, issues related to water, Casuistry, Hisbah, archiving and the judiciary and everything concerned with it such as litigations, punitive and criminal proceedings. In this communication, I am going to concentrate on the study of some samples from these subjects.

الملخص

يعد مخطوط "المهذب الرائق" للقاضي أبي عمران موسى المازوني من أهم كتب الفقه التطبيقي التي احتفظت لنا بالمواد الأساسية لمختلف وثائق الشؤون العامة والحياة اليومية لمجتمع المغرب الأوسط واقتصادياته، رغم فقداننا لأصول تلك الوثائق، مما يسمح

لنا بتوظيفه في التأريخ للمساحات المهمشة في فضاء المغرب الأوسط خلال العصر الزياني، ودراسة موضوعاته المغفلة كفئات النخب والعامّة، وتنظيم العمران، وتنظيم العمل والشركات، ومسائل المياه، والخطط الدينية كالفيتا والحسبة والتوثيق والقضاء وما يتعلق به من أصول التقاضي من إجراءات جزائية وجنائية، وفي هذه الورقة سأركز على دراسة نماذج من هذه الموضوعات.

تمهيد

الحياة اليومية في العصر الوسيط كفيلة بإنتاج كم معتبر من الوثائق إن على مستوى السلطة الزمنية بمختلف أجهزتها ودواليبها السياسية والاقتصادية والعسكرية في شخوص الوزراء وكتاب الإنشاء والعمال والولاة والجباة والسفراء والقضاة وغيرهم، وإن على مستوى النخب من علماء ومدرسين.. وحتى على مستوى العامة من تجار وحرفيين وعبيد... إلخ، لكن مع غياب تقاليد حقيقية للأرشفة وحفظ الوثائق في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط،¹ ضاعت مختلف تلك الوثائق كعقود التولية والإقالة والظواهر والمعاهدات وغيرها من وثائق الوقف والبيوع ومختلف المعاملات المالية والمنازعات، لكن بعض المصنفات التقليدية احتفظت لنا ببعض أصول هذه الوثائق كمجاميع الرسائل والمؤلفات الأدبية أو الكتب التاريخية، والمصنفات البيوغرافية، وحتى الكتب الفقهية.²

ومخطوط "المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق"³ لأبي عمران موسى بن عيسى المازوني (ق 9 هـ/15م)⁴ واحد من أهم تلك المصنفات التي سدت الفراغ الوثائقي في المغرب الأوسط الذي يعد الأفقر في هذا المجال.

فما هي قيمة مخطوط "المهذب الرائق" التوثيقية والتاريخية؟ وكيف يمكن التعويل عليه في التأريخ للمساحات المهمشة في الإستوغرافيا التقليدية؟، وما هي المناهج الكفيلة باستنطاق نصوصه واستدراار دوائنه؟.

الصبغة التوثيقية للمهذب الراق

يندرج مخطوط "المهذب الراق" ضمن ما يعرف بمصنفات الفقه العملي أو الفقه التطبيقي إذ يتقاطع في جوانبه المتعددة مع كتب النوازل والأجوبة، وهو نوع برع فيه فقهاء المالكية في الغرب الإسلامي خلاف نظرائهم في المدرسة المصرية الذين اشتهروا بتخريج الأصول والتنظير أو أصحاب المدرسة العراقية الذين نبغوا في الخلافات والردود.

ويعد من جهة أخرى حلقة مفردة في المنظومة القانونية الفقهية الواقعية للمغرب الأوسط الذي لم يشهد ازدهار هذا النمط من الكتابة الفقهية قبل عصر المؤلف عكس ما يشاع.⁵

ويكتسي المخطوط -رغم الإهمال الذي لفه- أهمية بالغة في كشف الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الحياة الدينية والثقافية في المغرب الزباني خصوصا، وعموم الغرب الإسلامي، كما يسهم في دراسة النخب والفئات كالقضاة والمفتين والموثقين والأطباء والمرضى والصناع والمزارعين والأعراب واللصوص وغيرهم، بالإضافة إلى العلاقات الدبلوماسية مع ما اصطلح عليه في الخطاب الفقهي بـ"دار الحرب"، كما يعمق معارفنا بجزئيات تتعلق بالنظم الإدارية والخطط الدينية كالقضاء والتوثيق والحسبة، إذ يفيض بمعلومات نادرة لم تكن مستهدفة في الإستوغرافيا التقليدية.

ولنا أن نتساءل عن الصبغة التوثيقية لمخطوط "المهذب الراق"؟؛ فرغم تصنيفه الفقهي إلا أن مؤلفه جمعه مما وقعت يده على وثائق ومحاضر القضاة والشهود والموثقين الخاصة بالمرافعات الجزائية والجنائية بين المتخاصمين حسب ما تقتضيه أصول التقاضي في التشريع الإسلامي، إذ كان يكتب المتخاصمان خصومتها في وثيقة ويكتب الشهود شهادتهما على الخصمين، ويكتب القاضي حكمه في وثيقة رسمية، وقد تكون للمتخاصمين وثائق يقدمونها للقاضي للإطلاع عليها كأدلة إثبات الملكية أو حق الميراث أو الوصايا والكراء والوكالة أو براءة الذمة من الدين وغيرها،⁶ فالمازوني بحكم وظائفه

العدلية بدأً بالشهادة والتوثيق وانتهاءً بالقضاء، كان ينسخ هذه الوثائق وينسخ معها ما وصل إليه من حكم شرعي قرأه في أمهات كتب الفقه المالكي أو سمعه من شيوخه،⁷ فلما تراكم لديه الرصيد الوثائقي، أخذ في ترتيبه وتدوينه بعقلية القاضي الفقيه وليس بعقلية الموثق أو المؤرشف الجماعة ولا بعقلية المؤرخ، لذا حور في طبعة الوثائق إذ عمد إلى إبراز جوهر الوثيقة وهو الحدث أو المشكلة المتخاصم فيها ورسم إزائها الحل الشرعي العملي المطابق لها، وهذا ما صنعه أيضا ابنه يحيى المازوني (ت 1478/883) في نوازله وغيره من أصحاب النوازل.

المهذب الرائق مصدرا من مصادر التأريخ للنظم الدينية والمهن والفئات في المغرب الزياني

النظم والمهن والفئات التي استهدفها المصنف متعددة منها الدينية والعلمية ومنها المهنية الحرفية، من قضاة ومفتين ومدرسين وأطباء وموثقين ومزارعين وخماسة وتجار ولصوص ومرضى وأيتام وعبيد... إلخ، لكن لمحدودية هذه المساهمة سأقتصر على ثلاث فئات فقط وهما فئة القضاة والأطباء والأعراب.

القضاة وخطة القضاء

أشار المازوني إلى ابتدال خطة القضاء وما اتصل بها من الشهادة والتوثيق في العصر الزياني المتأخر، واشتكى من الحال الذي وصل إليه القضاة ومعاونوهم الذين جعلوا تلك الخطط الدينية مطية إلى التكسب والتربح واستدرار السؤدد والجاه في المجتمع، ولم يقف الأمر عند ذلك حتى امتهن القضاة من هو عري عن أدنى شروطه ومستلزماته، من العلم والفقه والورع والأمانة والجرأة في الحق وغيرها، كما نعى ضياع خطة القضاء في بوادي المغرب الزياني خصوصا؛ لتملق المتخطفين بهذا المنصب "للعوام" ومسايرتهم لهم في أهوائهم وتغاضيهم عن منكرات "الغوغاء" وباعة الأسواق بها، وتقاعسهم عن أداء ما تستوجبه خطة القضاء، مما انعكس سلبا على نظرة المجتمع لهذا المنصب "الشريف"

ولتولييه، فلحظ القضاة بعين "الاحتقار" ورمق "الشهود بمقلة الاستصغار"، حين صار القضاء "لعبة" بتعبيره، وقد تمثل بالبيت الذي سار مثلاً:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس.

ويؤكد المؤلف أنه تولى القضاء بمازونة -بلده- في هذه الظروف وذلك الزمان الذي سماه "زمان فتنة" الذي كثر فيه إخوان السوء والمتفيعهين،⁸ وصورة القضاء التي جلاها الخطاب الفقهي "المهذبي" مناقضة لما صورته المصنفات البيوغرافية من خلال تراجم القضاة تحديداً، حيث تشير إلى سمو رفعة القاضي ونبيل خطة القضاء وشرفها.

والواضح أنه لما افتقر المغرب الأوسط إلى أمير عادل زمن المازوني افتقر معه إلى القاضي العادل، ويستشف من كلامه أن الأمراء بأهوائهم تعمدوا تسليط الجهلة والمستكبرين على المجتمع في الأقاليم، رغم أن بعض فقهاء العصر الزياني لم يجيزوا تولي المقلد في المذهب القضاء، فكيف بالجهلة، لكن لما خلا الزمان من المجتهدين كيّف الفقهاء الواقع وأسقطوا شرط الاجتهاد في القضاء، واكتفوا بشرط العلم بالأحكام وحفظ أقوال الأئمة في المسائل.⁹

في مقابل هذا الوضع المتراخي حاول القاضي المازوني العودة بخطة القضاء إلى مكانتها الشريفة من خلال الفقه التنظيري، إذ أكد أن تولية القاضي من قبل السلطة الزمنية أو المجتمعية من ضروريات الاجتماع البشري ومصالحهم، من فصل الخصوم وكف التعدي وصيانة الحقوق لمستحقها، ولتحقيق ذلك أعاد إنتاج الشروط المعروفة كأن يكون القاضي ذا عدالة وعلم وبصيرة و"معه صلابة وافرة على ذوي الأمر غير هَيُوب، متأن غير عجول، فطنا غير مخدوع ولا بليد، متواضعا نزيها عما في أيدي الناس قليل الأطماع والتشوف لما في أيديهم، مشاورا فيما يُشكل عليه، حسن الأخلاق حلو الشمائل، غير ملتفت لقول الوشاة، حليما عن الخصم، محمود السيرة في أخلاقه"، لكن ذلك لا يكفي -حسب المازوني- لضمان إصلاح المنظومة القضائية؛ فينبغي أن يختار القاضي والأمير

هيئة التقاضي التي تضم المشاورين والكتاب والمزكين والشهود والأعوان من بطانة الخير، ويضم إليهم من يتحسس له أخبار الناس فيه وفي حكمه، حتى يتدارك أخطائه ويعرف من أي الثغور يُؤتى، أمّن قبل نفسه أم من قبل أعوانه، كما ينبغي أن يصون مجلسه عن اجتماع معارفه فيه لغير حاجة التقاضي، حتى لا تسقط هيئته عندهم فيستهينون به وبأحكامه.¹⁰

والمازوني في معرض تقمصه لدور النصيح للسلطة الزيانية يوصي الأمراء بتقصي أحوال قضاتهم في المدن والبوادي، ودعمهم، واختبار المرشحين للقضاء قبل توليتهم بما فيهم قاضي الجماعة، فيستبعد الفاشل ويولى من ثبتت أهليته للقضاء ويجبر عليه إن امتنع بالسجن والتهديد وبالضرب أيضا إذا كان الأمير معينا للقضاة على خطتهم، ويعلل المازوني فساد خطة القضاء في زمانه بتساهل العلماء والأمراء في النظر في هذه المسائل.

11

كما يُعرض المؤلف بضعف أجور فئة القضاة في زمانه،¹² ويفيدنا أن من الفقهاء من تولى القضاء وهو فقير مُدَان مما استدعى دعوة السلطة إلى سداد ديونه أو إسقاطها عنه، ويؤكد أن السلطة لم تتوان في صرف رواتب القضاة من أموال مشبوهة، جبيت بطرق غير مشروعة، كأموال المكوس والأموال التي تفرض على أهل الذمة غير الجزية الشرعية،¹³ وهو ما يجعل المتورعين من القضاة يأبون قبولها.

ويشير المصنف إلى أن المغرب الزياني لم يشهد ظهور دار التقاضي (المحكمة)؛ حيث مجالس القضاء كانت تعقد في المساجد وفي بيوت القضاة وغيرها، وهو يميل إلى تفضيل تلك التي تعقد في المساجد لسهولة وصول المتخاصمين إليها دون حرج، ويربأ بالقضاة أن يجعلوا حُجَّابا على أبوابهم يمنعون الناس عنه، وهذا المجلس يعقد في وقت معلوم لا يتخلف عنه القاضي، وهناك أوقات يستحسن تجنبها كأيام المواسم والأعياد وأيام المطر وأوقات الظلمة، وأوقات تعبته هو.

ويظهر أن قضاة البوادي والقرى كانوا يتولون خطة الحسبة أيضا في حين يتولاها غير القضاة في الحواضر والمدن الكبرى.¹⁴

الأطباء

ومن الفئات التي حضيت بشيء من الاهتمام في مخطوط "المهذب الرائق" فئة الأطباء فيرى أن الثمن الذي يقبضه الطبيب مقابل عمله لا يسمى أجرا بل هو جُعل (من الجعالة)¹⁵ أي أنه يستحقه بعد امتثال مريضه للشفاء، أما إن لم يبرأ فلا عوض له، وليس للطبيب أن يعطي لمريضه الدواء لأنه غرر، بل يطالب المريض بشرائه، فإن فعل وأعطاه الطبيب دواءً من عنده ينظر أيضا إلى أثره؛ فإن نفع اعتبر بيعا وقبض الطبيب ثمنه وإلا فلا.

ويبدو أن مهنة الطب لم تتخذ تشريعها القانوني المناسب لها، فكان ذلك سبيلا كافيا ليصبح معه الطبيب خصما لمريضه عند القضاة، وذلك من خلال مسألة تضمينه أخطائه الطبية هو ومن في حكمه كالبيطار والحجام والخاتن، فإن حدث وأن توفي المريض على يد واحد من هؤلاء؛ ينظر في حال الممتهن إن كان يقوم على وظيفته وقد استكمل أدواتها المعرفية وشروطها المهنية، فحينها لا ضمان عليه، أما إن كان ممن تطفل على المهنة وهو ليس أهلا لها¹⁶ فيُضْمَن وَيُغْرَم بدفع الدية، وعلى السلطة أن تتدخل لمنع هؤلاء المتطفلين وكنسهم من ساحة الطب، ولا تسمح بممارسة مهنة التطبيب إلا بعد اختبار المرشحين لهذه الوظيفة وثبوت أهليتهم من قبل طبيب ثقة أو من القاضي إن كان له علم بالطب.¹⁷

الأعراب

ومن الفئات التي أثارت جدلا كبيرا في الخطاب الفقهي فئة الأعراب، فقد اعتبر الخطاب "المهذبي" للمازوني على غرار خطاب فقهاء مالكية الغرب الإسلامي الأعراب جسم غير مندمج في النسيج الاجتماعي، لما ظهر من تصرفاتهم المشينة من الإفساد

والغضب والتعدي على الأموال والحرمات، لذا أعتبروا محاربين؛ وعلى هذا الأساس لم يجز الفقهاء التعامل معهم مطلقا فليس للمسلم أن يبيع لهم خصوصا السلع والوسائل التي تقويهم وتعينهم على إفسادهم وغارتهم ومحاربتهم للمسلمين، كالسلاح والخيل والمسامير وصفائح الحديد، أما القمح فيباع لهم أوقات الشدة بقدر ما يحفظ أرواحهم فقط، والشعير لا يباح بيعه لهم لا في شدة ولا في رخاء لأنه علف يقوي خيلهم التي يغيرون عليها، والمطلوب هو كسر شوكتهم وتوهين قوتهم، كما لا يجيز للحرفين كالسيف أو الصقال والحداد أن يشتروا منهم أسلحتهم ولا يصلحونها لهم، ويمنع - ذات الخطاب - كراء الحوانيت للتجار الذين ثبت أنهم يشترون من الأعراب الأموال المغصوبة التي ظفروا بها في غاراتهم، ويؤكد الخطاب هنا أن إيذاء الأعراب اشتد أكثر على ضعاف المسلمين ومن لم يكن منهم في حصن منيع أي أهل البوادي والمسافرين وأصحاب القوافل.

ويبقى الخطاب "المهدي" غامضا في بعض الجزئيات، فلا يفيدنا بالواجب فعله لحسم داء الأعراب من جذوره كقتالهم أو إخراجهم من بلاد المغرب، لكن يتضح أنه كان خطابا واقعا جدا إذ أدرك أن مثل هذه الفرضيات مستحيلة التنزيل والتطبيق، لكن يلمح إلى إمكانية منازلتهم في وقائع محدودة، من خلال القول بأن للمسلمين لو ظفروا بأموال الأعراب حوزها والاستحواذ عليها باعتبارها مالا لا يعلم مالكة أو مال مستغرق الذمة أو زكاة فتعطى للفقراء، أو باعتبارها فيئا فتعطى للفقراء والأغنياء على السواء، إلا من ثبت منهم أنه غير غاصب ولا محارب وهم القلة القليلة، فحينها تصان أموالهم ويباح التعامل معهم.¹⁸

إن هذا العرض يدل على ما وصلت إليه بوادي المغرب خصوصا من الفساد على يد هؤلاء الأعراب¹⁹ وتوتر العلاقات بينهم وبين المجتمع إلى درجة إباحة أموالهم ومنع التعامل معهم، كما يدل على تراخي قبضة السلطة الزيانية على البوادي والقرى والأطراف حيث يكثر الأعراب.

صورة العلاقات الخارجية لدار الإسلام في الخطاب "المهدي"

لم يقصد المازوني في مصنفه رسم صورة للعلاقات الدبلوماسية والخارجية لدار الإسلام، بل أبرق بإشارات متناثرة في أبواب البيوع والكرء ودعاوى العتق، مكنتنا من تركيب صورة عن واقع هذا المجال، فأفاد خطاب مصنفنا هذا إلى أن السفر إلى غير أرض المسلمين كبلاد السودان وأرض الحرب والكفر برسم التجارة غير مباح ولا مستحسن؛²⁰ لعدة أسباب منها: خوف الفتنة على التاجر المسافر في دينه ولجريان أحكامهم عليه وهي مخالفة لأحكام دينه، ويستثنى من هذا المنع فُكَّك الأسرى وعيون المسلمين يتحسسون مواطن ضعفهم ويتحسسون عليهم، أو من ألبأته الريح من أرباب السفن إلى مراسيهم، وطالب الخطاب الفقهي من السلطة أن تقيم المراصد على السواحل والطرق لتمنع المسلمين من الوصول إلى دار الكفر، لا سيما من يخشى منه الخيانة برفع أخبار المسلمين إليهم أو التعامل معهم بالبيع فيما لا يجوز في دار الإسلام، وأقرت في حق من دخلها لغير الأسباب المذكورة بسقوط شهادته وإمامته وبالقتل لمن ثبتت خيانته من غير أن يستتاب، لكن يجيز الخطاب الفقهي دخول غير المسلمين من ذميين وحريين أرض الإسلام والاتجار فيها بضوابط متشددة، إذ لا يبيع لهم المسلم ما يتقون به عليهم كالسلاح وآلات الحرب وما في حكمه من الخيل وأعلافها وسروجها ولجومها والنحاس والحديد والزفت والقطران والطعام والفرش والكتان والصوف، وحتى الحرير لأنهم يتباهون بمنسوجه في حروبهم للمسلمين، أي كل ما يدخل في الصناعات الحربية من السيوف والرماح والسفن والرايات، ولا يبيع لهم ما يُظهرون به دينهم وكفرهم ويستعينون به في إقامة شرائعهم، وليس للمسلم أن يبيعهم المصحف ولا العبد المسلم إطلاقاً وفي كل الحالات لأنه مما لا يجوز لهم تملكه بشرعتنا، ولا يبيع لهم المسلم عبده النصراني (العلاج) خصوصاً إذا طال مكثه في بلاد المسلمين واطلع على أحوالهم وأسرارهم، إذ قد يكون عينا وعونا لهم في حروبهم وغاراتهم على المسلمين، إلا أن تكون مُفَادات عبد نصراني

مقابل رجل مسلم، ويكره أن يفادى أسرى المسلمين منهم بالنقود إذ النقد مما يتقوى به في السلم والحرب معا، إلا إذ شرطوا النقد في فداء أسرى المسلمين، أما إذا اشترطوا ما لا يحل للمسلم تملكه وبيعه كالخنزير والخمر وشحوم الميتة وكذلك إذا شرطوا خيلا وسلاحا وهم يستعملونه ضد المسلمين، فالخطاب الفقهي النوازي يجيزه جلبا لمصلحة ودفعاً لمضرة؛ هذا إذا كان الأسرى محتجزون في بلاد الكفر، أما إذا جاءوا بهم إلى بلاد المسلمين بعد أن أعطوا الأمان فيجبرون بقبول الثمن، ويحال بينهم وبين إرجاع الأسرى إلا بلاد الكفر بأي وجه من الوجوه بقتالهم أو بدفع كل ما يملكون لهم، بخلاف الفداء بما يزينون به كنائسهم وأعيادهم، فهو أهون الشرين، ويمكن الاستعانة بتجار الحريين الذين لهم أهل في بلاد المغرب كوسطاء لفداء الأسرى وافتكاكهم ولو بأجر.²¹

وفي مقابل ذلك التشدد؛ نجد حسن معاملة مع النصارى واليهود المقيمين في بلاد المغرب، فهم يتمتعون بكثير من الحقوق التي يتمتع بها المسلم نفسه، فللمسلم أن يستنقذه من يد أسره فيفديه بإذنه أو بغير إذنه، وقد عرف في بلاد المغرب قوم باسم فُكَّك الأسرى يقومون بهذه الوظيفة ولا يفرقون بين المسلم والذمي من أهل بلدهم، كما وجد من يستنقض أموال الذميين من أيدي اللصوص والظلمة، لكن لم يبيح المسلم لنفسه أن يكرى دابة أو سفينة تحمل سلعا لكنائسهم، وبكل موضوعية يسجل تجاوز السلطة السياسية أحيانا في جباية الأموال المستحقة على أهل الذمة إذ تزيد عن الجزية والعشور ضرائب غير شرعية، لكن خفت البلوى حين عمَّ الظلم وأخذت أموال المسلمين كذلك بالباطل والتعدي، فانتفت تهمة التعصب ضدهم.²²

الخطاب "المهذبي" مصدر للتنظيم والترشيد العمراني

أسهم كتاب المهذب الرائق في ترشيد الثقافة العمرانية²³ من خلال معالجته لمسائل الدور والشوارع والبناءات والخوانيت، مع تحديده آليات التنظيم للمجالات الحضرية المختلفة.

فبخصوص بناء الدور أكد أن من بنى بناءً أو داراً أعلى من دار جاره لا يريد بذلك إلا الضرر به حتى يحجب عنه الشمس والهواء يمنع من ذلك، لأن وصول أشعة الشمس والهواء للدور من الضروريات، وعلى الجار أن لا يلحق الضرر بدار جاره كأن يجري عليه ماءً أو مرحاضاً، فإن فعل يمنعه،²⁴ ولا يفتح كوة (نافذة) من داره ينظر من خلالها إلى ما في دار جاره ويطلع على عوراته، وعلى هذا الأساس يمنع من فتح نافذة في داره مقابلة لنافذة جاره وبينهما زقاق، ويمنع من اتخاذ المطالع (السلام) للصعود إلى السطوح لغير حاجة، لأنها مدعاة للتطلع إلى حرمت الناس وكشف خصوصياتهم، كما لا يفتح باب داره مقابل باب جاره ولا حانوتا قبالة بابه، وإنما ينكب عنه بمقدار الذراع والذراعين حسب ما ينتفي معه الضرر، إلا إن يكون في شارع عريض، وليس للشريك في الدار أن يحدث شيئاً فيها إلا بإذن شريكه، ومن كانت له قدام داره شجرة لجاره خاف أن يتخذها اللصوص سلماً يتسورون منها داره أو انتشرت أغصانها كثيراً حتى أضرت بجداره، فله أن يطالب جاره بقص ما انتشر حتى تُنتفى المحاذير.²⁵

ويفيدنا المازوني بوجود نمط من التخطيط في بناء عدة دور بباب واحد للدخول والخروج، قد يتعنت من كان الباب في نصيبه يروم منع شركائه المرور عليه، فليس له ذلك وإن اقتضى أن يفتح كل صاحب دار باباً جديداً فله ذلك.²⁶

ولإزالة مظاهر الفوضى العمرانية والضرر الناتج عنها؛ فإن المنظومة التشريعية تلزم صاحب الجدار المائل الآيل إلى السقوط إزالته خصوصاً إن كان في طريق الناس، ولو حصل أن تهدم وتضرر به الآدمي وغيره فهو ضامن لحقه من الدية أو العوض، ولسلطة الضبط التدخل لإزالة هذه المظاهر في النسيج العمراني.²⁷

كما يشير إلى أن نظافة المدينة وشوارعها من المرغوبات شرعاً وعقلاً، لذا يجبر صاحب الدار على كنس القمامة أمام بيته، كما يجبر صاحب الخربة التي حولت إلى

مزبلة وهي بين الدور والمساكن على كنسها ورفعها وإن لم يكن هو سببه، ويجبر أهل الموضوع كذلك لأنهم هم المتسببون فيها وإن لم يعلم من منهم على وجه التحديد.²⁸

وإن كان الناس شركاء في دار فيشتركون أيضا في تنظيفها وتنظيف فناءها وبئرها وكنيفها (مرحاضها) بقدر عددهم، وهم شركاء أيضا في إصلاحها إن فسدت وتعطلت، ولا يجوز قانون الجوار العرفي لصاحب الدار إهمال كنيفه حتى تتراكم النجاسة به وتنتشر رائحته وتنانته وتصل الجيران، فللجيران جبره على تنظيفه وتعهده بالكفن.²⁹

كما يمنع اتخاذ الإسطبلات في الأحياء السكنية لما فيه من تضرر الناس بفضلات الحيوانات وروائحها، ولما فيه من الإزعاج والضوضاء الناتجة عن تحركاتها في الليل مما يمنع الجيران من النوم، لكن من حق أصحاب الحرف أن يقيموا ورشات العمل في دورهم كالقصابين والحدادين والنجارين وغيرهم لأنها من وجوه معاشهم ومن أسباب رزقهم، وليس للجار أن يعترض على الأصوات الناتجة عن هذه المهن والحرف نهارا لأنها لا تضر بالأجسام، ويستثنى من ذلك الورشات والصناعات التي تضرر بها الجدران كالأرحية والطواحين، أو الحرف التي تخلف فضلات سامة وروائح منتنة كالصبغة والدباغة، لأن السموم والروائح الكريهة تضر بالأجساد، كما يُمنع صاحب الدار أن يفتح بقرب دار جاره مرحاضا ولا يغطيه لنفس العلة المذكور قبل، ويُمنع حتى من نفث أثار البيت كالحصير الذي يتطاير منه الغبار أمام دار بابه ناهيك عن دار جاره.³⁰

كما ضمت المنظومة الفقهية المنظمة للنسيج العمراني تشريعات هامة جدا تتعلق بالفضاءات المشتركة، كالأفنية والشوارع والسكك وغيرها، فأجازت الجلوس في الأفنية والبيع الخفيف فيها، ومنعت إخراج الماء من الدور والحوانيت إلى الشوارع، وإلقاء القاذورات بها، وحفر الكُنف وإن كانت ملاصقة لدار الواحد منهم إلا إذا أحكم إغلاقها وسواها بالطريق، ومنعت كذلك اقتطاع جزء من الطريق وحيازته بالبناء أو بما يمنع سلاسة حركة المرور فيها، وأقرت بدمه وإخلائه، حتى المساجد لا يزيد فيها على

حساب الشارع، فإن حصل وضاق بأهله أجبر من جاوره على بيع داره لتزاد فيه ويعوض له في ثمنه، كما تبين أن إصلاح الدروب والشوارع وإقامة الأبواب وصيانة الأسوار؛ من المنافع العامة التي يشترك المنتفعون بها في تحمل تكاليفها طوعية، وجبرا للممتنعين المستنكفين عن مشاركة الآخرين في ذلك، ويقع تطبيق ذلك ومتابعته على عاتق قاضي البلد ومن يعينه لمصلحة ذلك³¹ ممن يقوم مقام شرطة العمران في زماننا.

وتحت مسمى: "منكرات الشوارع"، اقتبس المازوني آدابا عامة من ميراث المنظومة المشرقية للتأكيد على وحدة دار الإسلام، ينبغي تجسيدها في الشارع الإسلامي، فلا ينبغي أن تكسد البضائع والحمولات على الأرصفة والشوارع ولا تربط الدواب به كي لا تضيق على المارة ولا تؤذيهم، ولا يمر بالطريق من يحمل أشياء حادة تمزق ثياب المارة وتخدشهم، بل يعدل بها إلى الطرق الواسعة، وليس للقصاب أن يذبح ذبيحة أمام حانوته ويلوث الطريق بالدم، بل يتخذ موضعا خاصا بذلك في دكانه، ويمنع أيضا أصحاب الدور والحوانيت من إجراء الماء في الطريق ورشه مخافة الزلق والتعثر.³²

وفي سياق ما يتصل بالتنظيم العمراني والبيئي يشرّع المؤلف لقانون الحجر الصحي، فإذا كثر في القرية الزمنى وأصحاب الأمراض المعدية كالجدام والطاعون، أخرجوا منها لموضع آخر يجتمعون فيه، ويسمح لهم بدخول أسواق المدينة بقدر قضاء حوائجهم فقط، أو لطلبهم الرزق بالمسألة والشحاذة إذ لم تصرف لهم الدولة معاشاتهم، ويمنعون من المساجد والجوامع باستثناء صلاة الجمعة، ويمنعون ورود منابع الماء واغتسالهم فيها، بل يسقي لهم الصحيح المعافي يُعينه أولوا الأمر، أما إن كانوا على نهر جار جاز لهم أن يتخذوا لأنفسهم منه موضعا أسفل من موضع الجماعة، أما مرضى الحواضر فلا يلزمون بالخروج منها إلى موضع فضاء، بل يكتفى منهم بملازمتهم بيوتهم إذا ضُمن لهم معاشهم.³³

وجار السوء حكمه حكم المريض المعدي، فإن عُرف بإيذاء جيرانه بإظهار الفواحش والمجاهرة بشرب الخمر، يزرع أولاً فإن لم ينزجر بيعت عليه داره وأخرج من الحي غضبا عنه، حفاظا على الأمن الاجتماعي مخافة أن يقلده الصغار وضعاف النفوس والسفهاء، وقياسا عليه يتعامل مع "المعيان" (صاحب العين) أي الذي يؤدي الجيران في أولادهم وأملاكهم فلا تقع عينه على شيء إلا هلك، فحكمه أن ينفى من الوسط الحضري الآهل وينعزل عن الناس.³⁴

مسائل المياه

كثيرا ما ينشأ الخصام في البوادي بين ملاك الأراضي الزراعية خصوصا بسبب الانتفاع بالماء، كأن يريد الرجل حفر بئر في أرضه قرب بئر جاره، فالحكم أنه يمنع إذا كان ذلك يؤدي إلى نقصان الماء في بئر جاره وبالتالي تضرر زراعته وبساتينه أو ماشيته، وإن كان لا بد فليقمه بعيدا عن البئر الأول، وأهل المعرفة والبصيرة بشؤون المياه هم من يلجأ إليهم في تحديد الضرر من عدمه، باستثناء الآبار التي تتخذ للاستعمال المنزلي كالشرب والغسل، فلا يمنع الجار من حفر بئر جديد ولو أدى ذلك إلى نقصان ماء البئر القديم، لأن القليل من الماء يكفي لتلك الأغراض ولأن منع الثاني من حفر البئر يلحق به الضرر، وهو أولى برفع الضرر منه بالآخر، فالقاعدة الفقهية: تأكد أنه إذا اجتمع ضرران أسقط أصغرهما لأكبرهما.³⁵

ومن المسائل المتعلقة بذلك أيضا ينابيع الماء (العيون)؛ كأن يكون لرجل عين في أرضه ثم يظهر فرع لها في أرض جاره، فالمنظومة العرفية تمنع تدخل صاحب العين الأولى لردم العين المحدثه إذ كان ظهورها طبيعيا من غير مباشرة جاره، وإن كان غير ذلك فمن حقه ردمها خوفا من غور ماء عينه.³⁶

كما أن سقي الأراضي بالماء أوجد خصومات عديدة وبصور متنوعة، فقد يضطر المزارع لسقي أرضه بجلب الماء من مكان بعيد ويمرره على أرض جاره وصولا إلى

أرضه، فيمنعه صاحب الأرض التي تحول بين أرضه ومصدر الماء، مخافة أن يطول الأمر ويتقادم الزمن فيدعى الأول أو ورثته أن ما جرى عليه الماء دخل في ملكهم.³⁷

خاتمة

إن المنظومة القانونية الفقهية التي خلفها فقهاء المالكية سيما النوازلية والحكمية منها لا تزال ثرة، رغم مرور عقود غير قصيرة من التفات الباحثين والمؤرخين إليها، لكننا بحاجة إلى تطوير مناهج جديدة لاستدراار مخزونها المتدفق تباعا، وتوظيفها كمصدر أساس وليس مساعدا فقط في البحث التاريخي والأنثروبولوجي للغرب الإسلامي الوسيط.

الهوامش:

¹ نشأ مبكرا في الدولة الإسلامية ديوان للبريد ثم ديوان للإنشاء لإصدار وحفظ المراسلات الرسمية، لكنه لم يسلم من النهب والحرق أيام الثورات والفتن، وما سلم منها لم يمهل الاستعمار الأوربي حتى أجهز عليه.

² مثال الصنف الأول "وثائق المرابطين والموحدين" المنسوب لعبد الواحد المراكشي و"رسائل موحدية" لكتاب الدولة الموحدية، ومثال الصنف الثاني "فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن الخطاب" الكاتب أبو بكر بن خطاب المرسي التلمساني، ومثال الصنف الثالث "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي ومثال الصنف الرابع الإحاطة لابن الخطيب الغرناطي، ومثال الصنف الخامس معيار الونشريسي.

³ مخطوط متحف سيرتا- قسنطينة، تحت رقم 14.

⁴ هو موسى بن عيسى بن يحيى المازوني المغيلي ويكنى أيضا بأبي يحيى والد صاحب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" الشهيرة، فقيه ومدرس ينتمي إلى أسرة علمية نابغة، تولى مهنة التوثيق والشهادة والقضاء بمسقط رأسه مازونة في العصر الزياني، لا نملك تاريخا لميلاده ولا وفاته وأغلب الظن أنه كان حيا في العشر الأولى من المائة التاسعة حسب ما استفدناه من المخطوط محل الدراسة، أنظر ترجمته في: التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشرة علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، 302/2، وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، نشرة عبد الله الكندري، دار بن حزم، بيروت، 2002، ص 482، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، المكتبة العتيقة-مؤسسة

الرسالة، تونس- بيروت، 1985، 584-883/2، نويهض. معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1983، ص 281. وقد وهم ابن مرزم فسماه إدريس حين أشار إلى ابنه يحيى صاحب "الدرر المكنونة"، أنظر: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 42.

⁵ أحصيت من هذا النوع 16 مؤلفا فقط لعلماء المغرب الأوسط طوال العصر الوسيط في دراسة لي لم تنشر بعد.

⁶ أبو عمران موسى المازوني. المهذب الرائق، و 4 ب وما بعدها.

⁷ أبو عمران موسى المازوني. المهذب الرائق، و 2 ب، يحيى بن موسى المازوني. الدرر المكنونة في نوازل مازونة. مخطوط زاوية سيدي خليفة بميلة، ورقة 2 أ.

⁸ و 2 أ- ب، 4 أ.

⁹ و 3 ب، 5 ب، ويشير ابنه أبو زكريا المازوني أيضا إلى هذا الوضع الذي يدرجه ضمن البدع المحدثه ويسمه المصيبة والبلوة، أنظر كتاب الجامع للقاضي أبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي (الجزء الرابع من ديوان الدرر المكنونة من نوازل مازونة)، قدمه نور الدين غرداوي كأطروحة دكتوراه- قسم التاريخ- جامعة الجزائر، 2010-2011، ص 125.

¹⁰ و 3 أ، وقارن بما ورد في: أبو حمو موسى الزباني التلمساني. واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1862، ص 61-62، 147-148.

¹¹ و 3 ب.

¹² وهذا ما يؤكد ابن خلدون في معرض المقارنة بين سعة المعاش وضيقه في حواضر الغرب الإسلامي، إذ يقول: "فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان، وكذا كل صنف مع أهل صنفه. وكذا حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما، إلى أن تنتهي إلى المداشر؛ الذين اعتما لهم في ضرورات معاشهم فقط"، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادى، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، 2005، ج 2، ص 208.

¹³ و 3 ب-4 أ.

¹⁴ و 4 أ.

¹⁵ "الجمالة-بكسر الجيم أو فتحها أو ضمها-: تطلق في اللغة على الجعل، وهو ما يجعل للإنسان على عمله، وهي أعمّ من الأجر والثواب، أما في الاصطلاح الفقهي: فهي التزام عوض معلوم على عمل معيّن معلوم أو مجهول يعسر ضبطه"، أنظر: نزيه حماد. معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، دار القلم، دمشق، 2008، ص 165، سعدي أبو حبيب. القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، ط2، دار الفكر، دمشق، 1993، ص63.

¹⁶ وقد صرح الغبريني أن الطب لم يكن له رواج معتبر بالمغرب الأوسط، فقال: "وهذه الصناعة (الطب) هي أشد الصناعات ضياعاً في بلادنا لأنه يتعرضها الغث والسمين، ولا يقع بينهما التميز إلا عند القليل من الناس"، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص 102.

¹⁷ و 208 أ- ب.

¹⁸ و 23 أ، 73 ب، وقارن بما ورد عند الونشريسي المعيار المغرب، ج5، ص 68-72.

¹⁹ أنظر حول أثر الأعراب في تاريخ المغرب الإسلامي: جورج مارسيه. بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991، ص 221-246، علاوة عمارة. الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 4، (2004)، ص 31-75، مصطفى أبو ضيف. القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدون والمرينيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 69-203، 287-329،

Roger Idris, «polémiques et controverses de la réalité de la catastrophe hilalienne», *Annales* (23^e année, mare-avril, 1968, n^o 2). p 390-396

²⁰ وهذا مبرر من مبررات فقدان المبادرة لصالح المسلمين في مجال العلاقات التجارية والدبلوماسية، ومبرر أيضاً لغياب القنصليات والتمثليات الإسلامية في أوروبا وغيرها في العصر الوسيط، في مقابل وجود نظيرها للأوروبيين في بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين.

²¹ و 23 أ، 23 ب-24 أ، 25 أ، 34 أ، 132 ب-133 أ.

²² و 4 أ، 22 ب، 33 ب.

²³ المصنفات المفردة لمعالجة قضايا البناء والعمران في تاريخ المغرب الأوسط منعدمة، وفي عموم الغرب الإسلامي نادرة ومن أهمها ما وصل إلينا كتاب الجدار. لعيسى بن موسى التطيلي (ت376هـ)، تحقيق إبراهيم بن محمد الفايز، الرياض، دار روائع الكتب، 1996، (413 ص)، وكتاب القسمة وأصول الأرضين، لأبي العباس الفرستائي (ت504هـ)، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد صالح ناصر، ط2، جمعية التراث، القرارة-غرداية، 1997، (635 ص)، وكتاب الإعلان بأحكام البنيان، لابن الرامي التونسي (من أعل القرن 7هـ/13م)، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، (284 ص)،.

²⁴ و 34أ، 35 ب.

²⁵ و 36 ب- 37 ب، 38أ.

²⁶ و 94 أ.

²⁷ و 36 أ.

²⁸ و 35 أ.

²⁹ و 35 ب- 36 أ.

³⁰ و 34 أ - ب.

³¹ و 47 ب - 48 أ.

³² و 202 ب، راجع أيضا: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج 2، ص 339. وقارن بما ورد عند محمد العقباني. تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، نشره علي الشنوفي في مجلة *Bulletin d'études orientales*، 19، (65-1966)، ص 62-63.

³³ و 35 أ - ب.

³⁴ و 36 أ.

³⁵ و 31 ب.

³⁶ و 32 أ.

³⁷ و 32 ب.

التراث المخطوط وأهميته في كتابة تاريخ المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط مخطوط : بستان الأزهار لابن الصباغ القلعي أنموذجا

أ/ سمية مزدور / جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة

s_histoire@yahoo.fr

ملخص

هذه الدراسة نسلط الضوء من خلالها على أحد المصادر المهمة في تاريخ المغرب الأوسط نهاية العصر الوسيط؛ وهو مخطوط: "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار"، لمؤلفه محمد الصباغ القلعي، فبالرغم من أن نصوصه التي تحكي سيرة أحد صلحاء إقليم بني راشد وهو أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة وبعض أصحابه وتلامذته بطابع خيالي ممزوج بالكرامات والخوارق؛ إلا أنها تحمل في طياتها معلومات مهمة حول تاريخ المغرب الأوسط في القرن العاشر الهجري/16م، فمن الناحية السياسية، يشير إلى احتلال النصارى الأسبان لمدن الجهة الغربية وبداية تدخل العنصر التركي، وسوء معاملة الولاة للرعية، ومن الناحية الاقتصادية جسدت لنا نصوصه مختلف الأنشطة الاقتصادية القائمة في المغرب الأوسط بالرغم من الظروف العصيبة التي يمر بها، من تجارة برية وبحرية، وصناعات ونشاط فلاحي قائم على الرعي والزراعة والغراسة، أما من الناحية الاجتماعية فهناك نصوص كثيرة تثبت تدهور الوضع الصحي في المغرب الأوسط آنذاك بسبب انتشار مختلف الأمراض والأوبئة، وظهور أساليب علاجية انتهجها الأولياء والمتصوفة، كما يشير هذا المخطوط إلى انتشار بعض الظواهر الاجتماعية كالتسول بسبب تزايد الفقر، والتي حاول أولياء المغرب الأوسط التقليل منها بالإكثار من الصدقة وحث الناس عليها، وكذا ظاهرة اللصوصية

التي كانت منتشرة في أحواز تلمسان سيما أوقات المجاعة.

abstract

Dans cette étude nous surlignons l'un des importants source de l'histoire du Maghreb central à la fin du moyen âge, et c'est le manuscrit intitulé "Bustane Al Azhar Fi Manakib Zamzam Al Akhiar Wa Maâdan Al Anouar Sidi Ahmed Ben Youcef Al-Rachidi Ennaceb Wa Eddar", de Mohammed Ben Ahmed Ben Ali Essabagh Kolaé, et malgré que ses textes qui racontent la biographie d'un des vertueux de la région de Beni Rached qui est Ahmed Ben Youcef Al-Rachidi Al-Meliani et quelques uns de ses camarades et ses disciples avec un style utopique mêlé avec des contes sur ses dignités et paranormal. Mais elles portent dans ces plis d'importantes informations concernant l'histoires du Maghreb central dans l'ère tardif des Zianites, du côté politique, comme l'occupation de plusieurs ville par les chrétiens espagnols et le début d'intervention de l'élément turque, et le mauvais traitement de la paroisse, et du côté économique comme la description des différentes activités qui existaient dans le Maghreb central malgré les conditions difficiles dans les secteurs du commerce routier et maritime, les fabrications et l'artisanat, et les activités agricoles basées sur le pâturage l'agriculture et l'implantation, et du côté social où il montrent la détérioration de la situation médicale dans le Maghreb central a cause de la diffusion des maladies et des fléaux, et qui ont entraîné par conséquent des méthodes de soins

étranges, ce manuscrit dénote aussi la diffusion de quelques phénomènes sociales comme la mendicité a cause de l'augmentation de la pauvreté et la faim, la chose que les Soufi (Awlia) du Maghreb central ont essayé de réduire par inciter les gens à donner la charité, et il dénote aussi le banditisme dans la région de l'oust Particulièrement durant les famine.

تمهيد

شهد المغرب الأوسط إلى جانب المغرب الأخرى نهضة علمية يعتد بها في العصر الوسيط، يدل على ذلك كثرة التأليف والمصنفات، والتي ما يزال أغلبها مخطوطا لم يرى النور بعد، والمخطوطات تلك تندرج ضمن مجموع الوثائق الأصيلة التي يستعان بها لكتابة تاريخ فضاء أو مجال جغرافي معين كالمغرب الأوسط، والتي ما تزال جوانب كثيرة من تاريخه مجهولة إلى حد بعيد، ولهذا السبب عكف الباحثون في الآونة الأخيرة على الاهتمام بالتراث المخطوط بغية البحث عن نصوص جديدة من شأنها أن تثري جوانب كثيرة من تاريخ هذا المجال في الحقبة الإسلامية.

ومن حسن حظنا أن التراث المخطوط العائد إلى الفترة الوسيطة متنوع المجالات والحقول المعرفية، كالطب والصيدلة والتاريخ السياسي والمناقب والتراجم والفقهاء والعقيدة والآداب، وغيرها من المواضيع التي تجعلنا نعتد عليها كلها وعلى العلوم المساعدة من أجل بناء نسق تاريخي متكامل لفضاء المغرب الأوسط.

وتهدف من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على واحدة من تلك المخطوطات المهمة أي مخطوط: "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار" لابن الصباغ القلعي الذي عاش في

القرن العاشر الهجري/16م، والذي يصنف ضمن كتب المناقب الصوفية، وذلك من خلال طرح التساؤلات الآتية:

ما هي الأغراض التي ألف من أجلها مخطوط زهر البستان؟، ما هي أهم المواضيع التي عالجها هذا المخطوط؟

وكيف ساهم في الكشف عن جوانب من تاريخ المغرب الأوسط أواخر الفترة الوسيطة؟

1- التعريف بالصباغ القلعي:

من المؤسف أننا لا نملك تفاصيل كثيرة عن حياة المؤلف لإغفال المصنفات البيوغرافية له، لكن من خلال مخطوطه هو استطعنا أن نعيد بناء ترجمة مقتضبة له؛ فهو محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ القلعي، نسبة إلى قلعة هوراة القريبة من مدينة معسكر، وقد ولد على الأرجح حوالي سنة 1517/923، حيث ذكر بأنه كان رضيعاً لم تنبت أسنانه عندما انهزم الأتراك أمام جيش الأمير أبي حمو الزياني؛ المتحالف مع الإسبان سنة 1518/924.

ووالد الصباغ الذي اشتهر بابن معزة، كان من الملازمين للشيخ أحمد بن يوسف الملياني، ومن خدامه المخلصين له، يغسل ثيابه ويعتني بشؤونه، وكان من المشتغلين بالعلم أيضاً وبنظم الشعر؛ الذي استخدمه كوسيلة للدفاع عن شيخه الملياني حتى توفي سنة 1518/924 في المعركة التي جرت بين الأتراك والإسبان، وسقطت فيها مدينته (قلعة بني راشد)، تاركاً ابنه صغيراً دون الإثغار على حد تعبير المؤلف.¹

وكان المؤلف أيضاً من تلامذة أحمد بن يوسف الملياني، لكنه لم يق² تصر على طريق التصوف فقط كما يبدو جلياً من كتابه هذا وإنما اشتغل بالقضاء أيضاً، وهي مهنة تتطلب لمتوليها أن يكون عارفاً بالفقه متضلعا فيه، إذ ولي قضاء القلعة،³ وكان أخوه علي بن محمد بن معزة فقيهاً وقاضياً أيضاً.⁴

عاش الصباغ القلعي في القرن 16/10 في جو سياسي مليء بالصراعات، طبعه تحالف بعض ملوك بني زيان الأواخر مع الأسباب النصارى ضد الأتراك؛ الذين أعلنوا فيما بعد حمايتهم لسواحل المغرب الأوسط من تحرشات الأسباب هؤلاء، لينتهي بعد ذلك العصر الإسلامي الوسيط، ويبدأ عصر جديد طغت عليه السيطرة العثمانية.⁵

آثاره ومؤلفاته:

إلى جانب كتاب البستان ألف الصباغ شرحا في أسماء الله الحسنى، وشرحا آخر في الأذكار، وله أيضا كتاب بعنوان: "شفاء الغليل والفوائد في شرح النظم الشهير بالمرادي"،⁶ وهو شرح على قصيدة إبراهيم التازي المعروفة بالقصيدة المرادية في التصوف، وألف في النحو كتبا لا نعرف أسماءها، لكن شهرته ارتبطت أكثر بكتابه "بستان الأزهار"؛ الذي نحن بصدد دراسة بعض المواضيع التي تناولها.

عنوان المخطوط:

وقد جاء في مقدمة هذا المخطوط ما يأتي: (وسميته "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار").⁷

نسبة المخطوط لمؤلفه:

وقد جاء في مقدمته أيضا: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، قال الشيخ الفقيه العالم النزيه أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ القلعي النسب والمنزل لطف الله به لطفا جميلا آمين).⁸

بالإضافة إلى ما ذكر في مقدمة هذا المخطوط، فقد أكد لنا نسبه إلى الصباغ القلعي صاحب مخطوط "مناقب أحمد بن يوسف الملياني"، حيث قال فيه: (انتهى ما قيدته من بعض مناقب سيدي أحمد بن يوسف ومن كلامه رضي الله عنه من تأليف الشيخ سيدي محمد بن محمد بن الصباغ قاضي قلعة بني راشد تلميذ الشيخ أحمد بن

يوسف المسمى: بستان الأزهار في مناقب زمزم والأبرار ومعدن الأسرار سيدي أحمد بن يوسف رحمه الله).⁹

الدراسة الشكلية للمخطوط:

أ-مكان وجود المخطوط: توجد نسخ عديدة من هذا المخطوط منها نسختان في المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقمي: 1707 (وهي المعتمدة هنا) و 1708، ونسخة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 1890، ونسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 243.¹⁰

ب-عدد أوراق المخطوط والأسطر ونوع المداد ومقاس الورق: ويقع المخطوط المعتمد في هذه الدراسة الذي حمل الرقم 1707، في 114 ورقة، ومسطرته: 32 سطر، بقياس: 21.3/30.5، أما نوع المداد: فصمغ عادي.

ج-مقدمة المخطوط وآخر المخطوط:

وابتدأ المخطوط مقدمته بالنص الآتي: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، قال الشيخ الفقيه العالم النزيه أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ القلعي النسب والمنزل لطف الله به لطفًا جميلًا آمين)،¹¹ أما آخر المخطوط فقد جاء فيه ما يأتي: (... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)¹²

وقد تم الفراغ من نسخ هذا المخطوط كما جاء في آخره: يوم الأربعاء من شهر صفر عام 1146هـ على يد الشيخ الحسين بن أحمد بن محمد الداودي نسبا والبسناسي دارا ومنشأ، الأشعري اعتقادا.¹³

د- دراسة مضمون المخطوط:

وقبل أن نبدأ هذه الدراسة يجب أن ننوه ببعض الدراسات السابقة حول هذا المخطوط، فقد تناول أبو القاسم سعد الله الحديث عن هذا المخطوط عندما تحدث عن

المناقب الصوفية،¹⁴ وقد كتب أحمد الحمدي مقالا حول هذا المخطوط أيضا تحت عنوان: بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار، مقارنة منهجية وتاريخية، حيث أن أهم فكرة يدور حولها هذا المقال هي الكرامة الصوفية،¹⁵ ولهذا سوف نحاول في هذه الدراسة التاريخية التركيز على مختلف الجوانب التاريخية التي تناولها هذا المخطوط.

ألف الصباغ القلعي كتابه هذا في المناقب وهو يندرج ضمن التأليف لعالم التصوف والمتصوفة، فمادته سيرة الصالحين والزهاد وكل من يسلك طريق الفقراء، ويعتني هذا النوع من التأليف أساسا بتمجيد عالم الأولياء والتأريخ لكل ما يتعلق بظاهرة الولاية، فالمناقب مصادر ثرية تؤرخ للحياة الدينية، فهي تقوم بتقصي أخبار مجتمع رباني ارتبط أفراده وثيق الارتباط بالزهد والصلاح، كما أنها اهتمت بالتأريخ للذهنيات والمهمشين، باعتبار أن الفئات التي تؤرخ لها - وهم الأولياء- كانت قريبة من قاعدة الهرم أكثر من قمته، فهي تنبذ كل ما يتصل بالسلطة وخطرستها، وتمجد حياة البساطة وشظف العيش والزهد في ملذات الدنيا ونعيمها.

ولم يكن التأليف في المناقب وليد عصر الصباغ، وإنما ظهر قبل ذلك بكثير، وذلك عندما انتعشت حركة الزهد والتصوف بالمغرب الأوسط أكثر، وبدأت المؤلفات الصوفية تظهر للعيان فمن بين الذين ألفوا في هذا النوع:

- كتاب: "النور البدرى في التعريف بالفقيه المقري" لمحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت781هـ).

- كتاب "المجموع" لمحمد بن مرزوق أيضا والذي طبع باسم "المناقب المرزوقية".
- وكتاب "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ).
- و"مناقب الشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجي" لابن مرزوق الحفيد (ت842هـ).
- و"كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار" لموسى المازوني (ت883هـ)، ومختصره الذي طبع في المغرب باسم "صلحاء وادي الشلف" لذات المؤلف.

- كتاب: "مناقب أبي عبد الله الشريف التلمساني وولديه عبد الله الغريق وأبي يحيى عبد الرحمن التلمساني" لأحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن التلمساني حفيد الشريف التلمساني (ت 895هـ).

- و "المواهب القدسية في المناقب السنوسية" لمحمد بن إبراهيم الملاي (ت 897هـ)
- و "روضة النسرین في مناقب الأربعة الصالحين" لمحمد بن سعد التلمساني (ت 901هـ).

- و "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار" للشيخ محمد الصباغ ألقلي (ولد سنة 923هـ) وهو المخطوط الذي نحن بصدد التعرف على بعض المواضيع التي جاءت فيه.

1- أقسام المخطوط:

قسم الصباغ ألقلي كتابه هذا إلى عشرة فصول متفاوتة الحجم وهي:

- الفصل الأول: خاص بثبوت ولاية الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، والفصل الثاني: لم يضع له عنوان بل بدأه بعبارة: (اختلف في الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي أو لا)،¹⁶
والفصل الثالث: وتناول فيه أقسام الكرامات، ويندرج فصل تحته خصه لآيات الرسل عليهم السلام، والفصل الرابع: وكان الحديث يدور فيه عن الذكر وفضائله، والفصل الخامس: في حقيقة الزهد، ومشيرا إلى بعض الفرق المبتدعة كالزنادقة والرافضة، والقدرية والحورية والجهمية والمرجئة، والفصل السادس: حول إنكار أهل الظاهر لعلم الباطن، والفصل السابع: في المحبة، والفصل الثامن: في بعض كلام الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، والفصل التاسع: حول الفتوة، وتعني الصفح عن عثرات الإخوان، والفصل العاشر: حول تلامذته الأخيار السادات الأبرار.

2- محتوى المقدمة:

بعد البسملة والحمد يشير المؤلف مباشرة إلى سبب وضع هذا التأليف؛ وهو تمسك أهل القلعة وسائر هواره وبني راشد وغيرهم بالولي الصالح أحمد بن يوسف الراشدي، مشيراً إلى ما سوف يتناوله في هذا التأليف أي مناقب الملياني، ممزوجاً بأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحكايات الصوفية وما وقع من كرامات وحوارق له ولأولياء آخرين ذكرهم المؤلف من مشائخه وتلامذته الأخيار، لينتقل بعد ذلك إلى ذكر مكانته في سائر المغرب وأخلاقه وزهده وورعه وبعض مناقبه.

3- محتوى الفصول:

لقد سبق وأن أشرنا إلى فصول هذا المخطوط وأهم ما جاء فيها، حيث أنه يتناول الحديث أساساً حول أحد أقطاب التصوف في المغرب الأوسط وأحد أولياء إقليم بني راشد، وهو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن يوسف، وينتهي نسبه إلى إدريس الأصغر،¹⁷ ويكنى الراشدي نسبة إلى قلعة بني راشد، والملياني نسبة لإقامته بمدينة مليانة، في آخر أيام حياته ومدفنه بها.¹⁸

واختلفت الروايات حول سنة ولادته بين 836 هـ و 840 هـ، أما مكان الولادة فكان في أحد قصور توات يدعى دامود، ولهذا نجده يكنى في بعض الأحيان بالدامودي، لكن من المؤسف أننا نجهل أشياء كثيرة عن نشأته، فعلى الأرجح أنه انتقل إلى تلمسان وهو صغير، وأخذ العلم أولاً في مساجد منطقة رأس الماء القريبة من وادي الشلف، وقد أخذ العلم أيضاً عن علماء تلمسان ووهران ثم انتقل إلى بجاية، أين التقى بالشيخ أحمد زروق وتلمذ على يديه، وأخذ عليه الطريقة الشاذلية.¹⁹

وقد استفاد الراشدي كثيراً من رحلاته العلمية إلى المشرق والمغرب، ليعود إلى بلاده وينشر العلم والطريقة معاً، فأسس لذلك زاوية بمنطقة رأس الماء وانتصب للتدريس بها، فكان الطلبة يقصدونه من كل صوب حتى كثر مريدوه وأصبحت طريقته تعرف باليوسفية.

وكان أحمد بن يوسف الراشدي من أشد المعارضين للأمراء الزيانيين بسبب تحالفهم مع النصارى الأسبان، وهذا ما جعل السلطان عبد الله الثاني (923 - 924 هـ) يقرر قتله حرقاً، لكنه تراجع عن قراره، وقد تم سجنه أيضاً في عهد أبي حموا الثالث (923 - 924 هـ)، ليتحالف مع الأتراك فيما بعد، حتى أن بعض المصادر تذكر أنه التقى مع عروج واتفق معه على مقاومة الأسبان المتربصين بالسواحل المغرب أوسطية.²⁰

وتوفي أحمد بن يوسف الملياني، في مدينة مليانة سنة 927 هـ، ودفن بها وله ضريح بنيت عليه قبة، وأصبح مزاراً يقصده الناس للاستشفاء وطلب تفريج الكروب، كما يقول الصباغ القلعي.²¹

وقد خلف الملياني آثاراً لا بأس بها أغلبها يتعلق بالتصوف، ونذكر منها: حكم في التصوف، وكتاب مختصر لكتاب في التصوف، ورسالة في حقيقة التقوى، وجواب لمن سأل عن ذات مولانا هل هي حسية أو معنوية،²² ورسالة في أحكام الخرق الشريفة، ورسالة في الرقص والتصفيق والذكر في الأسواق، وكتاب الرموز والإشارات، وكتاب المنهج الخفيف في معنى الاسم اللطيف.

بعض الجوانب التي تناولها المخطوط:

إن هذا المخطوط ليس مجرد خطاب منقبي موجه إلى مريدي الولي أحمد بن يوسف الراشدي وأتباعه، أو مجرد سرد للكرامات التي تخص هذا الولي مع صلحاء من المغرب الأوسط ومن خارجه، إنما يحمل في طياته نصوصاً مهمة تساعدنا في التأريخ لجوانب مجهولة في تاريخ المغرب الأوسط.

فمن الناحية السياسية أشار المخطوط إلى العديد من الأحداث التي طبعت عصره، كسقوط قلعه هواة بيد النصارى الأسبان سنة 924 هـ،²³ ثم تلتها مدن أخرى كوهرا و تلمسان وبجاية، وكذا ذكره وصول عروج إلى تلمسان من الجزائر والتقاءه بالشيخ أحمد بن يوسف الملياني وتحالفه معه.²⁴

وتشير بعض نصوص المخطوط إلى ظلم قواد الوطن بتغريمهم الناس تعديا وظلما، وما دور الأولياء هنا إلا كف أيدي هؤلاء الظلمة عن الناس، فهم بذلك يمثلون دور المعارضة للسلطة وغطرستها، وكثيرا ما تتخذ ضدهم إجراءات تعسفية، فقد سجن أحمد بن يوسف الملياني من طرف الأمير أبي حموا، فشكك فيه واختبر ولايته،²⁵ وكانت بعض الزوايا تتعرض للنهب من طرف قواد الحملات، لكن سرعان ما يلقون العقاب بفضل دعاء الأولياء عليهم، فضلا عن النصح الذي يقدمونه لهم، فقد نصح الشيخ واضح الشلبي الأمير يغمراسن وحثه على الاهتمام بذوي الحاجات والضعفاء والمساكين الواقفين ببابه.

وبالرغم من الأوضاع السياسية المزرية التي كان يعيشها المغرب الأوسط آنذاك، إلا أن ثمة نصوص أوردتها الصباغ القلعي تدل على وجود نشاطات اقتصادية كالزراعة والغراسة والرعي، وكذا الصناعة كصناعة السروج والصابون، وكذلك الحرف كالنجارة، بالإضافة إلى وجود نشاط تجاري بحري مع دول البحر الأبيض المتوسط، وبري بين مدن المغرب الأوسط، مع ذكره لبعض الأغذية المنتشرة آنذاك كالشريد المطبوخ بالسمن؛ وهو طعام الأولياء المفضل اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.²⁶

ومن مزايا هذا المخطوط أنه يشير إلى العديد من الظواهر الاجتماعية المنتشرة بمملكة تلمسان وضواحيها خاصة والمغرب الأوسط عامة، فيبدو أن ظاهرة الفقر كانت منتشرة هناك خصوصا في تلك الفترة الحرجة، لأن ما يؤكد ذلك كثرة التصدق والتكافل الاجتماعي الذي يقوم به الصلحاء والمتصوفة منهم أحمد بن يوسف الراشدي، فقد تصدق أحد الصلحاء بكل ماله المقدر ب 500 دينار، على امرأة شريفة شكت له حالها وحال بناتها فأثرها على نفسه، وكان قد ادخره لرحلة الحج، حتى أنه رأى في المنام أن النبي ﷺ بشره بأن الله قد أنزل ملكا ليحج عنه، واستمر في ذلك كل عام جزاءً على ما فعله حيال تلك المرأة الشريفة.²⁷

وقد أشار القلعي أيضا إلى أن بعض الفقراء في بوادي المغرب الأوسط يتناولون الطيور النافقة لشدة فقرهم،²⁸ ولعل من بين الظواهر التي تنجم عن هذا الفقر؛ ظاهرة التسول، فالنشاط المعتاد لهؤلاء المتسولة كان ينبنى أساسا على سؤال قوتهم اليومي، فهم في ذلك يجوبون الأسواق والطرقات، ويتصدرون أبواب المساجد والقصور لعلهم يكسبون عطف السلطات فتتنظر في أمرهم، لكنهم غالبا ما يفشلون في إيصال أصواتهم إليها، ويجدون الأبواب موصدة أمامهم، وخير دليل على ذلك ما ذكره القلعي رواية عن أبي عمران المازوني عن الشيخ واضح دفين وادي الشلف (من أهل ق 7هـ/13م) الذي امتنع عن مقابلة السلطان الزياني يغمراسن، قاصدا بذلك أن يعامله بمثل ما يعامل هذا السلطان الفقراء والمحتاجين الواقفين عند بابه؛ لعله يفتن من غفلته وينظر في شأن هؤلاء بدلا من الإعراض عنهم "فقال الشيخ واضح: يا اغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حراس الأبواب، بطول احتجاجك عنهم، وإنما فعلت ذلك لك لتستيقظ من سنة غفلتك، وتذكر أحوال القاصدين إليك".²⁹

ولم يكن الفقر الشيء الوحيد الذي يقلق مجتمع المغرب الأوسط، وإنما كثرة الأمراض والأوبئة أيضا، فقد جاءت نصوص كثيرة في هذا المخطوط، تشير إلى حدوث الأمراض، وخصوصا الجلدية منها والتي يكون سبب حدوثها في الغالب عوامل مختلفة؛ قد تكون مناخية، أو بسبب تلوث المياه، أو عدم توازن النمط الغذائي المتناول، ومن هذه الأمراض ما يكون مزمنًا وفتاكا لا يبرأ إلا بمعجزة أو كرامة،³⁰ وكذا صداع الرأس المصاحب للحمى أحيانا، وأمراض الأسنان التي كانت منتشرة بكثرة أيضا،³¹ وقد أشار المؤلف غير ما مرة إلى ما يسمى "بالداء العضال"؛ وهو كل مرض مزمن لا يبرأ منه صاحبه مدى الحياة إلا بمعجزة ربانية، فمن بين أعراضه؛ أن المريض به لا ينطق، ولا يبصر، ولا يستطيع الحراك، فهو شبه غائب عن الحياة.

أما الأمراض الخاصة بالنساء فلا ريب أنها كانت منتشرة أيضا داخل مجتمع المغرب الأوسط، لكن الإشارات حولها نادرة؛ فهي من الأمور المسكوت عنها في مصادرها، فقد ذكر لنا القلعي أن إحدى النساء جاءت إلى لشيخ الولي أحمد بن يوسف الراشدي الملياني تشكوا له موت أولادها في بطنها، فدعا لها الشيخ وهي حبلى فولدت وعاش أبنائها بعد ذلك.³²

كما أن إصابة الناس بالوباء في تلك الفترة يظهر لنا من خلال رواية أوردها القلعي مبينا أن ذهنيات أفراد مجتمع المغرب الأوسط كانوا مهيين للاعتقاد بالسبب الروحاني لحدوث مختلف الأمراض والأوبئة، وأن سبب الأمراض العامة التي تصيب عدد أكبر من الناس إنما هو الجن؛ فقد دعى أبو وجوط المعروف بأبي تابرانوست جماعة من الجن إلى شيخه أبي محمد عبد الخالق بن ياسين؛ وحملهم مسؤولية إصابة أهل بلده بأمراض كثيرة، وطلب منهم أن يظهروا له واحدا منهم فلما ظهر له قال له هذا الجن مبرئا لطائفته "ما أضرننا أحد وما مرضوا إلا من تغير هواء بلدهم".³³

إن القلعي هنا لم يذكر لنا هذه الأمراض إلا لتمجيد الأولياء، فيطرح لنا البديل الفوري لحل أزمة المرض، من خلال إبراز دور الولي في علاج مختلف الأمراض بنمط مغاير عما ينتهجه الطبيب، فتحل الروح هنا محل المادة، أي بالأحرى بركة الولي وكرامته بدل الدواء المركب الذي يصفه الطبيب للمرضى في إطار عملية التطبيب.

إن نمط العلاج عند هؤلاء الأولياء يكون لا محالة ذو طابع ديني، لأن الشفاء هنا يكون بيد الله سبحانه وتعالى، وما الأولياء إلا سببا في ذلك بفضل تقواهم وورعهم، أما أساليب وأنماط العلاج عندهم فمتعددة، فمنها الرقية التي تندرج ضمنها مجموعة من الأساليب أيضا منها اللمس غير المصحوب بتفل، فقد أتى رجلا إلى الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي يشكوا معاناة زوجته من داء عظيم أصاب جسدها، فأصرّ الزوج أن يمس الشيخ على الداء بيده فلم يرد الشيخ ذلك، فحلفه الزوج فقبل لأن المرأة أصبحت

في نظره مثل الجماد، فمسح بيده على الداء فعفيت، فلما انصرفت بقية رائحة هذا الداء في يد الشيخ أحمد بن يوسف مدة طويلة،³⁴ والذي يحتمل أن يكون هنا مرض الجذام، الذي تكون رائحته قوية.

ويعد الدعاء من أكثر الطقوس المرتبطة بظاهرة الولاية، فهو أيضا يعد من أبرز أساليب العلاج الروحاني الذي انتهجه أولياء المغرب الأوسط، على اعتبار أن دعوتهم مستجابة لتقواهم وورعهم، فقد دعا الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي لامرأة مريضة بالداء العضال فشفيت بإذن الله، وعادت مع زوجها سالمة كأن لم يصيبها شيء، وقد دعى هذا الشيخ أيضا لامرأة كان لا يعيش لها أولادها فاستجاب الله له وشفيت المرأة من هذا المرض.³⁵

وقد بلغ اعتقاد مجتمع المغرب الأوسط في الأولياء إلى حد التخيل بهم، فتهيأ لهم أن الاستغاثة بهم عند المرض سيسفيهم منه، فقد ذكر القلعي عن علي بن زينب الدرجيني الذي حكى أن بعض أصحابه من الأعراب قد مرض مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك، فألهمه الله أن يستغيث بالشيخ أحمد بن يوسف الراشدي ثلاثة مرات، فإذا به عند رأسه، ومسح بيده على جسد هذا المريض حتى شفي من مرضه، وقد يتسبب غضب الأولياء على بعض الناس في إصابتهم بالأمراض، وهي كرامة تحدث لهؤلاء وكثيرا ما تذكرها كتب المناقب، وكذلك القلعي، الذي غضب على رجل بسبب شكه في ولايته فمرض الرجل ولم يبرأ حتى كتب له الشيخ حجابا فتح أمام عينه.³⁶

وذلك بين لنا لا محالة انتهاج أولياء المغرب الأوسط في تلك الفترة أسلوب العلاج بالعزائم والتمايم، ولم يكن عامة الناس يعتقدون بذلك فقط، وإنما خاصتهم أيضا،³⁷ فقد ذكر لنا القلعي رواية مفادها أن زوجة يغمراسن كانت قد أوصت ولدها وهو ذاهب لزيارة الشيخ واضح أن يحضر لها من عنده حجابا، وأعطته لذلك كاغدا، فكتب لها الشيخ الحجاب وأرسله لها مع ولدها.³⁸

أما عن مداواة الأوبئة، فالرواية التي ذكرها القلعي حول استحضر الولي جماعة من الجن ليحملهم مسؤولية إصابة قومه بالوباء، تؤكد لنا لا محالة فشل الأولياء في علاج مختلف الأوبئة والطواعين، فلم يجد هذا الولي طريقة لمساعدة قومه سوى التحاور مع هؤلاء لعلهم يكفوا عن أذيتهم للناس.

ولعل من الظواهر المهمة التي تطرحها كتب المناقب بكثرة ومنها كتاب ابن الصباغ القلعي وهي اعتقاد مجتمع تلك الفترة بالأولياء بعد موتهم، حيث تصبح أضرحتهم وزواياهم مقدسات يلوذوا الناس بها للاستشفاء، فما دخل قبة ضريح الشيخ أحمد بن يوسف المتواجد بمليانه مريض إلا وبرئ من مرضه ببركة هذا جثمان الشيخ بحسب اعتقادهم.³⁹

ومن الآفات الاجتماعية التي أشار إليها المخطوط ظاهرة اللصوصية التي كانت منتشرة في المغرب الأوسط على أوسع نطاق، سيما أوقات المجاعات وذلك ما يفسر انعدام الأمن آنذاك، فتبين لنا نصوص كثيرة من هذا المخطوط قدرة الولي على وضع حد لهذه الظاهرة بطرق شتى غالبا ما تؤدي إلى هلاك هؤلاء اللصوص أو توبتهم بفضل كرامة الولي.⁴⁰

يمثل مخطوط ابن الصباغ القلعي نموذجا رائعا من كتب أدب المناقب، فهو ليس مجرد ذكر لسيرة الولي الملياني وتقصي أخباره، وإنما يحمل في طياته خطابا إصلاحيا إلى مجتمع كان يعيش ظروف سياسية واجتماعية صعبة أواخر الفترة الوسيطة، فقد ساعدتنا نصوصه على معرفة كل هذه الظروف، وكيفية تعامل شخص الولي معها فهي تحدد بدقة موقعه في هذا المجتمع وتفاعلاته مع مختلف أطرافه.

¹ - الصباغ القلعي. بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1707، ورقة 6أ، أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، 114/2 - 115.

- ³ - مؤلف مجهول. مناقب أحمد بن يوسف الملياني، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 1457 د، ورقة 23، أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، 2/ 115.
- ⁴ - الصباغ القلعي. بستان الأزهار، ورقة 5 ب.
- ⁵ - مبارك المليبي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، نشرة محمد المليبي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 488/2 - 489.
- ⁶ - وتوجد نسختان منه في المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقمي: 1856، 1857.
- ⁷ - ورقة 2 ب. وورد عنوانه في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 243. ك "بستان العارفين الأزهار في مناقب رمز الأخيار ومعدن الأنوار"
- ⁸ - ورقة 2 ب.
- ⁹ - ورقة 23.
- ¹⁰ - رفيق خليف، المخطوطات الجزائرية في المكتبات الأجنبية، بحث مرقون غير منشور، ص 271
- ¹¹ - ورقة 2 ب.
- ¹² - ورقة 114 أ.
- ¹³ - ورقة 114 أ.
- ¹⁴ - تاريخ الجزائر الثقافي، 2/ 113-118.
- ¹⁵ - نشر في مجلة المخطوطات العربية، لسنة 2009.
- ¹⁶ - الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 21 ب.
- ¹⁷ - مؤلف مجهول: مناقب الملياني، ورقة: 141.
- ¹⁸ - الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 32أ، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ط2، تونس- بيروت، المكتبة العتيقة-مؤسسة الرسالة، 1985، 103/2-106
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ورقة: 11أ، مؤلف مجهول : مناقب أحمد بن يوسف الملياني، ورقة 76، 145، 146.
- ²⁰ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 503-504.

- ²¹ - بستان الأزهار، ورقة 32 ب. وتأكيذا لذلك ألف علي بن أحمد بن موسى الجزائري (ت 1330هـ) كتابه المسمى "ريح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة على ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف الملياني" مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 928.
- ²² - رفيق خليفي: المخطوطات الجزائرية في المكتبات الأجنبية، ص 268-269.
- ²³ - ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة: 6أ. 11أ. 113أ.
- ²⁴ - المصدر نفسه، ورقة: 10ب، 113أ.
- ²⁵ - ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة: 4ب، 26ب، 29ب، 4ب. 21أ.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ورقة: 113أ، 4ب، 51ب، 106أ، 103ب.
- ²⁷ - المصدر نفسه، ورقة 26 أ - 26 ب.
- ²⁸ - المصدر نفسه، ورقة 26 ب.
- ²⁹ - المصدر نفسه، ورقة 45 أ.
- ³⁰ - ابن الصباغ القلعي: أزهار البستان، ورقة 33 أ.
- ³¹ - المصدر نفسه، ورقة 41 أ. 19ب، 32ب. 20 ب .
- ³² - المصدر نفسه، ورقة 20 ب .
- ³³ - بستان الأزهار: ورقة 89 أ.
- ³⁴ - المصدر نفسه، ورقة 89 أ.
- ³⁵ - ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 20 ب.
- ³⁶ - المصدر نفسه، ورقة 19ب - 20 أ.
- ³⁷ - المصدر نفسه، ، ورقة 20 أ. ورقة 45 ب.
- ³⁸ - المصدر نفسه، ورقة 45 ب.
- ³⁹ - ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 32 ب.
- ⁴⁰ - المصدر نفسه، ورقة: 3أ، 11أ، 26ب، 32ب.

التل ببلاد المغرب الاوسط. قراءة في جغرافية المجال.

من القرن 2هـ / 8م إلى القرن 6هـ / 12م.

أ/ الطاهر طويل/قسم التاريخ/ جامعة باتنة 1.

tahar.touil2@yahoo.fr

الملخص

تشكل العلاقة بين الانسان والمجال منطلق الدراسات الجغرافية التي تهتم بالدرجة الأولى بالإقليم الذي يعيش فيه الفرد ويتفاعل معه. ويكون الزمن معيارا للوقوف على مستوى التغيرات التي تحدث فيه. وبالتالي تصبح هذه التغيرات مصدرا للجغرافية التاريخية للمجال. هذا الأخير الذي يمتلك إمكانية تسمح له بالتقليل من السرعة التي يتميز بها الزمن، وذلك عبر تجنب الانسياق وراء الأحداث الكرونولوجية دون الالتفات الى جوانب وخصائص هذه الاحداث. وتشكل هذه القاعدة منطلق فكرة "الزمن الطويل" لفرناند برودال الذي لا يدعم التفسيرات الظرفية، لأنها لا يمكن أن تكون كاملة أو جازمة.

لذلك نجد أن بلاد المغرب الأوسط تحتاج الى دراسات مجالية لمختلف أقاليمها؛ ولعل "منطقة التل" تشكل أحد أهم هذه الأقاليم التي تتميز بخصائص تميزها عبر التاريخ الوسيط عن باقي المناطق الأخرى المجاورة لها. سواء شمالا حيث مجال البحر، أو جنوبا حيث نجد مجال الواحات والصحراء. فمنطقة التل أكثر المناطق تأثيرا في السياسة ومما اجباريا لبضائع الموانئ ببلاد المغرب الأوسط، ومسلكا هاما لتجارة القوافل. واستقطب مجال التل كل التحولات العمرانية، والتجارية، والسياسية، والمذهبية؛ فكان الفتح الإسلامي ربط المنطقة بشبكة علاقات جديدة كانت تتجه كلها نحو الشرق؛ سياسيا بحكم مركزية الخلافة الاسلامية، وكذلك دينيا وعقديا.

الكلمات المفتاحية. المجال. المغرب الأوسط. الإقليم. التل. الحدود

El-ttel in central Maghreb . a reading in the geography of space

2h-6h/ 6- 12ad.

Abstract

the relation between man and his space forms a start for the geographic studies concerned firstly with the area where he lives in and with, and time becomes a measure to check the level of changes happening in . this changes become a sours for the historical geography of the space. This later has the ability to slow the speed that characterises time, and all that throught avoiding following the chronological events without paying attention to their different sides and characteristics. This rule seprenebts the starting poit of the idea of “the long time” of Fernand braudel who is not for the momentary explanations because they can’t be complete or crucial.

So we find that the land of central Maghreb needs space studies for its different areas, and the “el-ttel region” is one of the most important of these areas which is known for its specific aspect throught the middle age compared with the other surrounding regions. Either north where there is the sea space, or south where we find the space of oases and sahara. El-ttel regions has more effect than the other regions in politics, an

obligatory access for the ports merchandise in the land of central Maghreb. And an important route for the commercial convoys.

key words. space. central Maghreb. El-ttel region. the border.

تشكل العلاقة بين الانسان والمجال منطلق الدراسات الجغرافية التي تهتم بالدرجة الأولى بالإقليم الذي يعيش فيه الفرد ويتفاعل معه. ويكون الزمن معيارا للوقوف على مستوى التغيرات التي تحدث فيه. وبالتالي تصبح هذه التغيرات مصدرا للجغرافية التاريخية. فالمجال يكون مكان تحقق المجتمع، ومحل تطور الواقع الاجتماعي، سواء في ارتباطه بمنطق الحراك الاجتماعي أو التبادلات الاقتصادية، إنه يشكل حيز شبكات التواصل القادرة على ضمان حد أدنى لاستمرارية العلاقات الاجتماعية ودوامها. كما أن المجال يمتلك إمكانية تسمح له بالتقليل من السرعة التي يتميز بها الزمن، وذلك عبر تجنب الإنسياق وراء الأحداث الكرونولوجية دون الالتفات إلى جوانب وخصائص هذه الأحداث¹. وتشكل هذه القاعدة منطلق فكرة "الزمن الطويل" لفرناند برودال الذي لا يدعم التفسيرات الظرفية، لأنها لا يمكن أن تكون كاملة أو جازمة². ويعتمد على تتبع الأحداث عبر مراحلها الطويلة للوصول إلى الحقائق العامة.

تطور المجال بالمغرب الأوسط

ببلاد المغرب وتحديدًا المغرب الأوسط تتنوع جغرافيا هذا الجزء ولذلك تحتاج إلى دراسات مجالية لمختلف أقاليمها؛ ولعل "منطقة التل" تشكل أحد أهم هذه الأقاليم التي تتميز بخصائص تميزها عبر التاريخ الوسيط عن باقي المناطق الأخرى المجاورة لها. سواء شمالا حيث مجال البحر، أو جنوبا حيث أين ينتشر مجال الواحات والصحراء، فمنطقة التل أكثر المناطق تأثيرا في السياسة وممرا إجباريا

لبضائع الموانئ ببلاد المغرب الأوسط، ومسلكا هاما لتجارة القوافل³. وطيلة القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الفتوح الإسلامية لم يزدهر التعمير بمناطق الساحل. حيث استقطب مجال التل كل التحولات العمرانية، والتجارية، والسياسية، والمذهبية؛ إذ كانت الأحداث السابقة لتاريخ المنطقة قد شكلت أثرا بعيد المدى في نفوس السكان المحليين الذين كانت التهديدات تأتيهم دوما وعلى مر التاريخ من البحر. فكان الفتح الإسلامي قد وضع حدا لهذه التهديدات وربط المنطقة بشبكة علاقات جديدة كانت تتجه كلها نحو الشرق؛ سياسيا بحكم مركزية الخلافة الإسلامية، وكذلك دينيا وعقديا.

يبدو أن المنطقة كانت تسكنها قبائل البرانس، وذلك بحكم استقرارهم في القرى الساحلية والتلية، والجبالية، والزراعية، وهذا من أهم مميزاتهم فهم يلجؤون إلى المناطق الصعبة تضاريسيا وهي الجبال العالية، وهذا ما أكده أغلب الجغرافيين والمؤرخين⁴ وقد أشار ابن خلدون ابن خلدون (ت1406/808)، فقال: "وبسفوح جبال هذا الإقليم استقر البربر الجبال في قرى متناثرة لاسيما في السفوح الشمالية للأطلس التلي المواجهة للساحل على غرار قبيلة كتامة الضاربة بجبال زاووة، وصنهاجة بجبل تيطري"⁵.

وطبيعي أن تستقر القبائل الجبلية بهذه المنطقة لما تشكل لها من فضاء مناسب لنمط عيشها؛ فقد كان البربر ببلاد المغرب "ملؤا البسائط والجبال من تلولة وأرياف وضواحيه وأمصاره"⁶، كما فرضت طبيعة المغرب الأوسط المتنوعة التضاريس على السكان الضارين بين السهول الفسيحة، والسفوح الشمالية لسلسلة الأطلس التلي، حيث تسود التربة الخصبة والمناخ المعتدل والأمطار الغزيرة، إضافة إلى وفرة المياه والمنتجعات الواسعة والغابات الكثيفة حياة رغدة نتيجة ملائمة الظروف الطبيعية،

فمارسوا الزراعة وامتهنوا صناعات متنوعة، واستقروا في بيوت مبنية من الطين والحجارة⁷. والحديث عن مجالات توطن هذه القبائل يجرنا حتما إلى الحديث عن الحدود الفاصلة بين مختلف هذه الجماعات. إذ نجد أن توزيع هذه القبائل كان منتشرا في كامل بلاد المغرب ولم يقتصر على إقليم دون آخر. ونجد أن هذا مرتبطا بمسألة الحدود الطبيعية لبلاد المغرب، حيث يتساءل أحد الباحثين⁸ عن علاقة الحدود الطبيعية بحدود الكيانات السياسية والدول التي ظهرت بهذا الفضاء، بمعنى هل التزمت حدود المراكز السياسية بحدود طبيعية معينة؟ هذه الإشكالية سنجدها تتطور في تاريخ الكيانات السياسية التي قامت بالمنطقة المغاربية في العصر الوسيط. وسنقف على الكثير من النماذج التي تدلنا على مدى العلاقة المترابطة بين الحدود الطبيعية التضاريسية، والحدود السياسية للدول والإمارات التي تنتهي عند انتهاء المجالات الخاضعة والمالية لنفوذها.

اهتمت المصادر التاريخية والنصوص الجغرافية وكتب الرحالة المغاربة بالحدود، من خلال ذكر الحدود السياسية والإدارية للبلدان التي أدرجوها في كتاباتهم وضمن مواضيعهم، فأعطوا نظرة موجزة عن الحدود والتخوم⁹. ونشير إلى عدم استقرار هذه الحدود طيلة العصر الوسيط، فعلى سبيل المثال كان نطاق الدولة الفاطمية يمتد في البداية من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن صقلية شمالا إلى سجلماسة جنوبا. والملاحظ أن هذا النطاق الواسع لم يكن دائما خاضعا للدولة، خاصة الجزء الغربي حيث كان يتقلص أحيانا عند مدينة تاهرت في المغرب الأوسط عندما تزداد قوة قبيلة زناتة المعارضة للسلطة. بل إن هذا النطاق انكمش في عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله (322-334هـ) وجزء من خلافة الخليفة الثالث المنصور (334هـ) أثناء ثورة صاحب الحمار حيث اقتصرت الدولة على العاصمة المهدية¹⁰.

وقد أشار الرحالة العرب إلى مناطق نفوذ الدول وما صاحبها من ولاء وطاعة، ولعل حلهم وارتحلهم ساعدهم على الوقوف على الحقائق التاريخية للحدود السياسية من خلال سلطة السلاطين والدعاء لهم في الخطب الدينية من جمعة وأعياد، أو الولاء أو روابط إدارية مثل جباية الأعشار والزكاة والتكاليف المخزنية. أو وجود ولاية للسلاطين أو نوابهم بالمنطقة. إضافة إلى مسألة سكة الدولة وإلى أي جهة ينتهي التداول بها¹¹. لعل هذه التنظيمات والإشارات الدالة على الولاء توحى بمدى سيطرة الدولة على المجال الذي تسيطر عليه.

أشار دومنيك فاليريون إلى أن الفهم المحض الذي تحدده حدود ثابتة ومعترف بها هو بداية مرفوضة. ففي العصر الوسيط بالغرب الغرب المسيحي كما في العالم الإسلامي، لم يتبلور بعد مبدأ السيادة الجالية المحددة بحدود المحيط الخارجي لأمة مدركة لنفسها بشكل كامل¹². لذلك نجد أن مسألة طرح الحدود في العصر الوسيط مسألة تخضع لكل المجال الذي تنتمي إليه دار الإسلام الذي تنتمي للخلافة الإسلامية.

كما نشير إلى عدم التزام تلك الكيانات السياسية الوسيطة بالمعطيات الطبيعية واعتبارها كعلامات لحدودها الجغرافية. ففي أواخر القرن 2هـ/7م. وفي عهد زيادة الله بن إبراهيم الأمير الأغلي الثالث¹³ (201 - 223هـ / 817 - 838م)، تمكن في الثلث الأول من القرن 3هـ/9م من تجاوز المتوسط ومد سلطانه إلى جزيرة صقلية. وتمكن أيضا محمد الثاني الأغلي (250 - 261هـ / 864 - 875م)، من ضم جزيرة مالطة وإلحاقها بمجال الدولة الأغلبية. وفي القرن الموالي لنجح الفاطميون في تجاوز عائق الصحراء ليتمد نفوذ دولتهم إلى سجلماسة التي كانت خاضعة عندئذ لحكم بني مدرار. وكان مجال المغرب الأوسط مقسما بين قوى مختلفة، امتزجت فيه القبائل بالنفوذ السياسي والمذهبي؛ فقد كانت جماعات الخوارج موزعة غربا متخذة من تيهرت عاصمة لهم. وكان مجال الأوراس وجزء من

إقليم كتامة ومنطقة الزاب تابعا للخوارج الإباضية الوهبية والنكارية. فيما كانت هذه الجماعات خاضعة للسيطرة الأغلبية. إذ كانت سلطتها تمتد إلى الحدود الغربية لجبل الأوراس عبر مجموعة من الحاميات¹⁴ من قبائل بني تميم. إن استمرار الجيوب المذهبية الإباضية ببعض مناطق بلاد المغرب لا يفسر فقط بفرار الإباضيين بمذهبهم إلى جهات لا تنالهم فيها سيوف مخالفيهم، كما هي الحال في استقرارهم بواحات بلاد المغرب الممتدة من المحيط الأطلسي إلى سيوة بمصر وبقمم الجبال بالأوراس ودمر وجبل نفوسة وجرية، بل بحرصهم على استمرار إمامتهم في الكتمان وتشبثهم بطاعة أئمتهم في هذا الطور من أطوار الإمامة عندهم بعد سقوط تاهرت في يد الفاطميين سنة 909/296.¹⁵

كما نجد أن الانتشار البدوي¹⁶ عاملا آخر ساهم في اندثار سريع للهياكل الحضرية التقليدية وتطورها نحو نمط جديد، فقد انتشرت القبائل البدوية في المناطق شبه الصحراوية والسباسبية، ومثلت بذلك ضغطا متواصلا على المدن التالية التي اعتمدت في حماية نفسها على مواقعها المتميزة مثل بجاية وقسنطينة والجبال المحيطة بها. ولم توقف هذه القبائل إلا الجبال الممنوعة مثل جبل سحاو (البابور حاليا والباب (البيبان) وجرجرة والأوراس، فاقترنت على الاستقرار بالسهول المحيطة بها موثقة الخناق على القبائل الجبلية. التي استسلمت لها تارة، وقاومتها طورا آخر. وبالتالي فإن تحول الطريق الأفقي الرابط بين مدن المغرب من الوسط إلى التلوال الشمالية بعد سيطرة البداوة على السباسب، يعتبر أهم نتيجة للانتشار الهلالي¹⁷.

في القرن 5 / 11 امتد المجال السياسي المرابطي من الأندلس شمالا ليصل إلى مملكتي غينيا وتمبكتو في المجال الصحراوي مستفيدين من موقع عاصمتهم مراكش التي احتلت موقعا وسطا بين

المجالين. أما الموحدون فقد عملوا على الحفاظ على المجال المرابطي مع الحاق المجال الإفريقي الذي يمتد إلى مدينة طرابلس وما جاورها والتي تعتبر امتدادا طبيعيا وسياسيا لمنطقة المغرب وجزءا لا يتجزأ من المنطقة¹⁸.

وحاول بنو غانية الميورقيون¹⁹، إحداث شرخ في جسم الدولة الموحدية، والسيطرة على محور عمودي يمتد من ميورقة _ بجاية _ قسنطينة _ الزاب _ واحات المزاب، والجريد، وهو أشبه ما يكون بالمحور الذي أسسه المرابطون، وهو يمتد من غانة _ أودغست _ سجلماسة _ مراكش _ فاس _ قرطبة، ويربط بين المجال الصحراوي والمجال المتوسطي²⁰. حيث "قصد بني غانية قسنطينة فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه، ودخل قسنطينة، ودخل ابن غانية إلى بسكرة فقطع نخلها وافتتحها عنوة، ثم حاصر قسنطينة فامتنتع عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها، وكثر عبثه بإفريقية"²¹.

مع مطلع القرن 7هـ/13م تمكن بنو غانية من السيطرة على كامل بلاد إفريقية الممتدة من بونة إلى بسكرة، ومن تونس إلى طرابلس، واتخذوا قسبة تونس مقرا للحكم²²، لكن هذا الحلف البدوي بين الملثمين وبني هلال وبني سليم لم يعمر طويلا²³. لأنهم سيهزمون في 602هـ، من طرف الخليفة الموحد محمد الناصر (595-610هـ/1198-1213م) والقائد أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي²⁴.

وفي نفس القرن، ستعرف المنطقة انقسامًا بعد التفكك الذي أصاب الدولة الموحدية والذي أدى إلى انشطارها إلى ثلاثة دول، فإن الحفصيين مدوا مجال سيطرتهم إلى ما وراء بلاد الجريد والتي

تصنف ضمن مجال نوميديا، واستمر ذلك الوضع حتى زوال بني حفص وانتصاب العثمانيين بالمنطقة، فقد كان عثمان داي في بداية القرن 11هـ/17م يشرف بنفسه على زيادة تلك الأقاليم لتأكيد سيادته عليها وجمع الضرائب.

كل هذه الأمثلة التاريخية تبرز أن الجغرافيا لم تقف عائقا أمام التوسعية للكيانات السياسية المغربية، وأن العناصر الطبيعية لم تفرض على الحكام رسم حدود مناطق نفوذهم²⁵.

إقليم الأوراس والزاب وتحولات الفتوح الإسلامية.

بعد انتهاء العمليات العسكرية للفتوح الإسلامية ابتكر المسلمون تقسيمات جديدة لمناطق من المغرب بينما احتفظوا ببعض التقسيمات البيزنطية. وجاء هذا الابتكار بعد أن ظهرت أمصار ومدن جديدة مثل القيروان وفاس وتاهرت وسجلماسة وغيرها من الأمصار. كما كانت في نفس الوقت عواصم لدول، ثم أضحت عواصم لأقاليم إدارية بعد سقوط هذه الدول. لذلك فالتقسيم الإداري في بلاد المغرب يختلف من فترة زمنية لأخرى تبعا لتغير السلطة²⁶.

يمكن أن نحدد المجال الجغرافي لجبل أوراس من خلال حصر المدن التي ذكرت في المصادر الجغرافية على أساس التقارب الجغرافي، والتي وردت كمدن للأوراس، وهي التي تمتد من حدود إفريقية من الجهة الغربية حيث يذكر صاحب كتاب الاستبصار أن حد الأوراس شرقا هو مدينة شقنبارية²⁷. ثم تشكل الخط الفاصل بين المغرب الأدنى والأوسط. وتعتبر حدود المغرب الأوسط من الجهة الشرقية التي تمثلها مدن الأوراس طريقا يمتد من الشرق نحو الشمال انطلاقا من مجانة إلى تيجس نحو بلزمة²⁸.

ليعرج إلى داخل الجبل من مدينة نقاوس ثم زراي مروراً ببلزمة ومدينة زانة²⁹، ومنها إلى دار ملول، إلى دوفانة وهي قرية من جبل أوراس إلى قاعدة الأوراس باغاية، لتصل حدود المنطقة إلى الجنوب الشرقي عبر بسكرة وتقدر المسافة بين المدينتين بأربعة أيام⁴ (200 كلم)، ويذكر البكري أن بسكرة تحتوي مدن منها: جمونة (جمورة) وطولقة ومدينة بنطيوس، ومن قرأها قرية ملشون⁵ ثم مدن تهودة، وبادس، إلى مدينة نقرين³⁰.

ومنه يحد الأوراس من الشمال بلاد كتامة، ومن الجنوب تشكل منطقة مفتوحة على بسكرة وبادس وتهودة - من بلاد الزاب - المتاخمة لبلاد الجريد. أما شرقاً فتنتقل من مجانة إلى باغاية فتبسة، لكن غرباً فيصعب تحديدها لاتصال إقليم الأوراس ببلاد الزاب، لأن هذا الأخير يشكل امتداداً طبيعياً لتضاريس جبال الأوراس.

احتفظت منطقة التل الأعلى بدورها كمجال الصدام مع الأغلبية وممر للتوسع الشيعي فقبل أن يزحف عبد الله الداعي على وسط البلاد ليتبارى مع خصمه في صراع يبدو أنه سيكون حاسماً، بقي عليه أن يضمن لنفسه التحكم في باغاية ومجانة وتبسة، وغيرها من المدن المحصنة التي ما زالت تحول بينه وبين طرق المرور، انطلاقاً من الهضاب العليا الشرقية في ناحية قسنطينة إلى منطقة التل الأعلى الجبلية. وقد كانت العملية الأولى التي قام بها في ربيع سنة 295هـ/905م موجهة ضد باغاية. ولكنه ضمن لنفسه قبل ذلك استعداد أهل تلك المدينة للدخول في طاعته³¹. فقد سبق هذه المعركة عمل متواصل من الشيعة استطاعوا بفضل انتزاع إقليم واسع من السيطرة الأغلبية يتمثل في أغلب حدودها الغربية الممتدة خاصة في منطقة التل الأعلى وجبل الأوراس.

إلى الجنوب الغربي من إقليم الأوراس يوجد إقليم الزاب الذي كانت حدوده الشمالية في العهد الأغلبي تمتد لتشمل إقليم كتامة. وهذا الإقليم بشماله وجنوبه كان يجمع لوال واحد. أما حدوده الغربية فكانت تنتهي عند أراضي قبيلة بني بززال الزناتية التي ستبني عليها مدينة المسيلة³² التي أسسها القائم بأمر الله في خلافة والده عبيد الله المهدي سنة ثلاثة عشرة وثلاثمائة (925/313)، وقد تولى بناءها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي، وقد ولاه القائم عليها فمارس سلطة على الزاب كممثل ونائب للخلفاء الفاطميين، وبقي ابنه جعفر من بعده واليا على مدينة المسيلة وملك الزاب كله³³ إلى سنة (970 /360). ومنذ القرن 4هـ/10م أدت منطقة الزاب دور الثغر الذي عهد به منذ قيام الخلافة الفاطمية إلى ذلك الإقليم البعيد عن المركز، وإلى قاعدته المسيلة.

فقد كانت هذه المناطق (الزاب والحضنة) في البداية تحت سيطرة القبائل البربرية الإباضية، التي أسست ممالك مستقلة، وتحكمت في محور الطريق شرق- غرب، الذي يمر بمحاذاة المنحدر الجنوبي للتل، وعلى الخصوص منافذ الطرق الصحراوية. وسمح الفتح الفاطمي وفشل الثورات الخارجية للستار الذي أنشأته هذه الإمارات بتنشيط التجارة الصحراوية. لكن إخضاع المناطق الجنوبية لا يشير إلى عودة الطاعة الكاملة للحكم المركزي بهذا الحد. وبداية من تاريخ تأسيس مدينة بجاية ندرك أن التحكم بهذا القفل كان هدفا للتنافس والصراع المستمرين. ففيما مضى وجب على الناصر الحمادي الكفاح ضد زناتة التي عارضت حكمه في الجنوب، ووصول القبائل العربية عقْد نوعا ما الرهان. وظهرت الأهمية الاستراتيجية لهذه الجهة بطريقة جلية في وقت مغامرة بني غانية الذين استولوا على

الجهة وجعلوها واحدة من قواعدهم الخلفية. وأظهر الحكم في كل مرة أهمية كبيرة يوليها لها في التحكم بهذه المنطقة الجنوبية.³⁴

تعتبر بلاد الزاب منطقة شاسعة، تبدأ حدودها الشرقية المحاذية لجبل أوراس من مدينة طبنة القريبة من مدينة نقاوس³⁵، التي - طبنة - بينها وبين باغاية مسافة ثلاثة أيام (تقارب 150 كلم)³⁶، ومن طبنة نحو الغرب مدينة مقرة، ومن مقرة إلى قاعدة الزاب في العصر الفاطمي المسيلة، في وسط أرض بني برزال الزناتيين وبني كملان الهواريين³⁷.

وتشكل حدود الزاب من الجهة الغربية منطقة ممتدة الأطراف تتصل بتيهت عبر القبائل المتنقلة بين بلاد الزاب وتيهت، وبأرض بني زيري عبر نهر يسمى "جوزة" الذي يربط مدينة المسيلة بأشير³⁸. أما من الجهة الشمالية فتتوقف حدود الزاب عند بلاد كتامة، وتشكل عند الجنوب صحراء واسعة تصل إلى حدود بلاد الجريد ووارجلان وسدراتة.

الفاطميون ومحاولات إخضاع مجال المغرب الأوسط.

نجح الفاطميون في إقامة الملك السياسي الشيعي ببلاد المغرب في أرض كتامة التي تمتد من سواحل البحر الرومي (مرسى الحزر) شمالاً، إلى جبل أوراس وبلاد الزاب عبر سهول الحضنة جنوباً،

أما حدود أراضيها من الجهة الشرقية فتبدأ من قسنطينة³⁹ إلى ميلا فسطيف انتهاء عند بجاية غربا⁴⁰. ويضيف ابن خلدون أن من مدن بلاد كتامة القل، جيغل، سكيكة⁴¹. وشكلت قلعة إيكجان من أرض كتامة مهد الدعوة الشيعية، التي تراجع دورها بعد نجاح الدعوة.

لقد وقع الإختيار على جيملة بأرض كتامة للقيام بالعمل الدعوي والعسكري لتوفرها على عوامل النجاح، فأرضها جبلية وعرة تصلح للعمل الدعوي السري كما تصلح للعمل العسكري لأنها تعز على الأعداء. كما أن وقوعها على طرف بلاد إفريقية، المستهدف الأول في العمل العسكري الفاطمي لأنها ولاية عباسية، فهي بعيدة عن رقادة قلب الإمارة الأغلبية، وفي ذات الوقت تقع على طرفها. وبالتالي تصلح كقاعدة لضرب الأهداف في الإمارة الأغلبية،⁴² ومعرفة حدود القبائل البربرية، يسهل علينا معرفة حدود قبيلة كتامة⁴³ باعتبارها قبيلة من البرانس في بلاد المغرب الأوسط، فقد حدد معالمها ابن خلدون في عصره "من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر، ما بين بجاية وبونة"⁴⁴، أما القاضي النعمان فيشير إلى أن حدود كتامة على لسان أحد الحجاج الكتامين فقال: "أن حد بلادهم خمسة أيام طولاً، وفي ثلاثة أيام عرضاً"، كما وصفوا الأمصار القريبة منهم وهي: بلزمة، سطيف، ميلا، بأنها على حدودهم⁴⁵.

ولذلك نجد أن هذا المجال شديد التنوع ربط بين البحر وبلاد الساحل في الشمال بمجموعة من المراسي. وفي نفس الوقت سيطرت على مجموعة من حواضر الجبال بالأوراس، والنمامشة، والسهول العالية بين أطلس التلال وأطلس الصحراء جنوباً.⁴⁶

يمكن أن نشير إلى أن الخلفاء الفاطميين قد حافظوا تقريبا على النظام الإقليمي السابق للأغالبة في المغرب الأوسط مع اتخاذ سياسة وحدة الدولة⁴⁷، بعد أن حاولوا السيطرة على بلاد المغرب من شرقه إلى غربه. ولتعيين وتحديد الأقسام الجغرافية لبلاد المغرب الأوسط، يمكن أن نضبط المصطلحات التي لها مدلول جغرافي وإداري في العصر الفاطمي لإعطاء صورة دقيقة لتلك الأقاليم ومن تلك المصطلحات نجد عبارات "البلد" و"الأطراف" و"العامل" حيث يطلق البلد على منطقة ممتدة الأطراف مثل بلاد الزاب، وتطلق الأطراف على المناطق الواقعة في تخوم البلاد⁴⁸، الخارجة عن طاعة السلطة مثل عاصمة الرستميين سابقا "تيهت" والمدن الواقعة حولها كتنس والشف، إفكان.

لم تستثن التغييرات الجديدة للفاطميين مفردات المجال فبعدها نجحت الدولة في الانتقال من مراحل "دار الهجرة" أصبحت بعد 296هـ / 908م، لديها مناطق "الأطراف" و"العمالات" و"الولايات" و"الكور" هذه المفردات الجغرافية التي سادت في أراضي الخلافة الفاطمية بعد القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد عام 336هـ / 947م واستمرت إلى مرحلة خلافة المعز لدين الله (341-362 / 953-972) بعد أن سيطر على الأطراف والقبائل التي كانت تثير الفتنة والعصيان⁴⁹. أما باقي أجزاء المغرب الأوسط فإنها تشمل مدن وقلاع، كمدن جبل أوراس التي كانت تشكل مراكز جبلية محصنة.

لذلك فإن بوبة مجاني ترى أن حدود الدولة الفاطمية في فترات قوتها لم تتعد المدن الواقعة على أطراف الصحراء مثل سجلماسة والمسيلة، وبسكرة وطبنة وبلاد الجريد، وهي المدن التي تتحكم في مسالك تجارة الذهب بين بلاد السودان والمغرب⁵⁰. إن الدولة الفاطمية التي حكمت منطقة شاسعة بمذهب مخالف للمذاهب التي يدين بها أهلها، كما أن جغرافيتها وانتماءاتها تنوعت فتنوع اقتصادها واختلفت حياتها المعيشية، وتعاملت السلطة الجديدة مع هذا التنوع والاختلاف بما يخدم أهدافها الحيوية⁵¹.

التل وامتداداته في العهد الزييري (القرن 5-11/6-12)

في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، وتحديدًا عام 440هـ/ 1047م- 1048م التي تجمع المصادر على أنها بداية فعلية للقطيعة المذهبية والسياسية بين الفاطميين بمصر والزييرين ببلاد المغرب، إذ ستلوه سلسلة من الإجراءات في اتجاه تعزيز القطيعة النهائية بين القيروان والقاهرة. ثم انقسام الدولة الزييرية الصنهاجية (362-543هـ/ 973-1148م) إلى إمارتين منفصلتين بعد استقلال الحماديين بالقلعة ثم بجاية. ستتغير حدود المجالات ببلاد المغرب الأوسط جذريًا نتيجة المعطيات الجديدة المتمثلة أساسًا في تأثيرا الهجرات الهلالية على إمارات المنطقة سياسيًا. وعلى المستوى الاجتماعي نشطت حركة الانتقال والتنقل للجماعات والقبائل نتيجة تمسكها بنمط العيش الرحلي أو نتيجة الضغوطات المستجدة نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.

إن هذا التغير الجذري الذي حدث في توطن القبائل وانتعاش الحركة والانتقالات الناتجة عن الهجرات التي ميزت القرن 5هـ/11م. سيؤدي أيضا نقص الجماعات الكتامية في بلاد المغرب الأوسط، وذلك بفعل الهجرات المتعددة التي شهدتها خلال العصر الوسيط بداية من انتقال الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر، فكان انتقال هذه الدولة متبوعا بانتقال جماعات كتامية كبيرة، ظهر نقص عددها في بلاد المغرب الأوسط من جهة، كما ظهر تزايدها في بلاد المشرق، إضافة إلى هجرات متتالية لقبائل كتامة وفروعها إلى كل من المغربين الأدنى والأقصى تبعا للظروف والمصالح، وكذلك كان الانتقال واضحا نحو الشمال إلى بلاد الأندلس، فكان تركز هذه الجماعات في المراكز والكور الأندلسية أكبر دليل على حركات الانتقال هذه، ومن هنا يمكننا القول أنه كان هذا الانتقال بصمة واضحة للمجال الكتامي شهدها العديد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة في ذلك العصر.

كما نشير إلى أن بقايا الجماعات الكتامية بعد الهجرات السابقة إلى مختلف الأقطار والجهات، شكلت فرعين أو مجموعتين أساسيتين هما: مجموعة سدويكش، ومجموعة بني ثابت، واحتلا مجالا واسعا في بلاد المغرب الأوسط، يمكن القول بأنه غطى بعض الشيء على النقص الذي خلفه الكتاميين بهجراتهم العديدة، فكان كل من سدويكش وبني ثابت، إضافة إلى بقايا أخرى من القبائل الكتامية متناثرة هنا وهناك في أرجاء المغرب الأوسط، لكن بعد كل ما عرفه المغرب الأوسط من انقسامات وصراعات سواء أكانت سياسية، أو اجتماعية، أو مذهبية، وكذلك بسبب الهجرات المختلفة، وعلى الرغم من التغيرات التي عرفتها هذه القبائل من مد وجزر وخضوع وانفصال للسلطات المركزية، فإن المجال الكتامي اتضح في بلاد المغرب الأوسط، واستقرت حدوده ومعالمه الرئيسة، فكان يتموقع في الحدود الشمالية الشرقية لبلاد المغرب الأوسط، مشتملا على مدن ساحلية شمالية، وأخرى داخلية جبلية.

وفي مدة قصيرة من سنة 1052/443 تاريخ وصول بني هلال إلى حدود إفريقية إلى سنة 1064هـ/457م تاريخ هزيمة الزيريين في سببية تغيرت هياكل المجتمع في إفريقية والمغرب الأوسط. وهو انقلاب كبير، ترتب عنه اختلال التوازن بين المدنية والظعن وبين الساحل والداخل. وأصبحت

السواحل تستقطب المدن لا سيما العواصم. فتغيرت الجغرافية العمرانية. لذلك لم يعد من الممكن أن يتواصل وجود القلعة وسط مجتمع رحل غير قادر على هضم سلطة الحكومة ولا يتعامل مع المستقرين إلا بمنطق اليد العليا. ولم تعد السلطة الحمادية نفسها قادرة على مراقبة الجهات التابعة لها. وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية؛ إذ أصبحت القلعة معزولة تجاريا بعد أن اضطرت المسالك التجارية⁵².

لذلك حدث تراجع بالمنطقة وصل حد الانهيار شمل كل بلاد المغرب، واختلف حول أسبابه، فالتراجع لم يكن وليدة القرن 10هـ/16م، بل يمكن الرجوع بها إلى بداية القرن 5هـ/11م، بعيد رحيل الفاطميين إلى القاهرة وظهور كيانات سياسية أظهرت عجزها عن التصدي للقوى الغازية على غرار الاحتلال النورماني أو إيقاف زحف القبائل العربية البدوية. وبدا الانهيار أكثر وضوحا بعد تفتت مجال الدولة الموحدية وتشظيها إلى ثلاثة كيانات سياسية منفصلة راسمة الحدود السياسية والجغرافية لدول شمال إفريقيا الموجودة اليوم⁵³.

ويمكن إدراج مسألة الخضوع للسلطة وحالة الانفلات التي تفتشت بفعل انتشار البدو، لذلك تنوعت طبيعة ودرجة الخضوع للحكم. ومن الواضح أنه كلما ابتعدنا عن بجاية تنحصر سلطة الدولة أكثر. ففي الجنوب حيث أكثرية السكان رحل، تصبح حدود تطبيق القانون وممارسة الحكم في الفضاء وعلى الرجال الذين يشغلونه ويقطعون غامضة. ولم يصبح التحكم فعالا حقيقيا إلا عن طريق روابط مبايعة شيوخ القبائل للحكم المركزي⁵⁴.

في الأخير يمكن أن نسجل أن المجال ببلاد المغرب الأوسط تطور منذ القرن الأول الهجري/السادس ميلادي؛ فقد تحمل إقليم التل التحولات الأولى الناتجة عن معارك الفتوح الإسلامية والتي استمرت إلى نهاية القرن. لنجد أن أهم أحداث القرن 7/2 جرت بنفس المنطقة خاصة ما تعلق

بأحداث عصر الولاة ونشاط دعاة المذاهب العقديّة المختلفة، حيث نجحت في تأسيس الملك بكل من تيهرت وتلمسان وانقسام باقي المنطقة على باقي الفرق المذهبية مثل النكارية بنواحي الأوراس والوهبية وجماعات المعتزلة بطولقة وبسكرة. وبذلك شكل هذا الإقليم مستقرا للثوار في البداية ثم مجالا مهما للدعاة وبعد ذلك أصبح معبرا للتجار.

مع أواخر القرن 9/3 تظهر قبيلة كتامة كجماعات مناصرة لدعوة الشيعة وكمجال طرقي ينجح في تغيير كل جغرافيا المنطقة والسيطرة على إفريقية بعد 908/296م، مع بقاء المد والجزر في حدوده الغربية حيث نشاط زناتة المدعمة من أمويي الأندلس. ورغم نجاح بعض الثورات مثل ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد في تحجيم المجال الفاطمي ببلاد المغرب، إلا أنها فشلت في الأخير في السيطرة على مجالها بفضل نجاح تحالفات لجماعات جديدة خاصة الصنهاجية.

الهوامش

- 1 اختلفت تعريفات الجغرافية التاريخية حسب طبيعة البحوث ويورد عبد الفتاح محمد وهيبة مجموعة تعاريف تطورت انطلاقا من اعتبارها كعلم قائم بذاته يهتم بتتبع الحدود السياسية، والخرائط وتسمية المظاهر الجغرافية والمسح الكرتوجرافي الى أن يكتسب الإقليم أو المجال أو فقدانها ... عبد الفتاح محمد وهيبة. الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق. دار النهضة العربية. بيروت. 1980. ص 10 11.
- 2 فرناند برودال. المتوسط والعالم المتوسطي. تعريب. مروان أبي سمرا. دار المنتخب العربي. ط1. 1993. لبنان. ص 157.

³ pierre Salama. *Les Voies romaines de l'Afrique du Nord*, Missions archéologiques Gouvernement général de l'Algérie. Gouvernement général de l'Algérie, 1951. P33 35.

- 4 ابن عبد الحليم. كتاب الانساب. تحقيق محمد يعلى. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي. مدريد. 1996. ص 95. 97.

- 5 عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار لافكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1421. 2000، الجزء 6، ص 153
- 6 بن خلدون. المصدر نفسه. ج 6 ص 116.
- 7 عبد الحميد الفهري، البربر الجبال في العصور الوسطى، أعمال ملتقى دولي في التاريخ، 2002م، ص 143
- 8 عادل النفاقي. المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب. حفريات في أدب الرحلة - القرن 16. في الهوية والتدين والثقافة. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب. 2015. ص 77.
- 9 محمد ماكامان الرحلات المغربية القرنين 11-12هـ_ 17-18 م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس اكدال. مطبعة الأمنية. الرباط. ط 1. 2014. ص 476
- 10 بوبة مجاني. النظم الإدارية للخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية خلال العصر الفاطمي. 296-362هـ/ 909-973م. دار بهاء الدين للنشر والتوزيع. الجزائر. ط 1. 1430هـ. 2009م. ص 212.
- 11 محمد ماكامان. المرجع نفسه ص 476 477
- 12 بجاية ميناء مغاربي. ترجمة عمارة علاوة. منشورات المجلس الأعلى للغة العربي. الجزائر 2014. ص 71 72.
- 13 محمد الطالبي. الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي. 184-296هـ/ 800-909م. تعريب. المنجي الصيادي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط 02. 1995. ص 185. 196. 293. 299.
- 14 امتدت هذه الحاميات عبر شبكة من الحواضر من باغاية بلزمة مقررة طبة بسكرة. وهي التي كانت تشكل قديما الحدود بين موريطانيا السطيفية ونوميديا. حول هذه المدن والحصون انظر stéphane gzell. Atlas archéologique de l'algerie tome1. Texte, 2^e édition. Algerie. 1997.
- 15 حسن حافظ العلوي. مراجعات حول الصراع السني الإباضي ببلاد المغرب. الصراع المذهبي ببلاد المغرب. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء المغرب. ط 1 2008. ص 83 84.

16 ناقش الأستاذ عمارة علاوة إشكالية الهجرة الماللية و اخضعها الى الفحص الدقيق من خلال تناول اغلب الدراسات التي شملت الموضوع في مقال بعنوان (الهجرة الماللية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط. قراءة في نقاش تاريخي). علاوة عمارة. دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2008. ص 7- 33.

17 محمد حسن. المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي. جامعة تونس الأولى. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. 1999. ج 1 ص 36 37.

18 عادل النفائي. المرجع السابق. ص 77 78.

19 حول حركة ابن غانية انظر. هويثي ميراندا. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. ترجمة عبد الواحد اكدير. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء المغرب. ط 1. 2004. ص 385. 393.

20 محمد حسن. نفس المرجع. ج 1 ص 45.

21 ابن خلدون . العبر ج 6 ص 329.

22 امبروسيو هويثي ميراندا. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. ص 385. 394.

23 محمد حسن. المرجع السابق. ج 1 ص 48.

24 عز الدين عمر موسى. الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم. دار الغرب الإسلامي. لبنان. ط 1. 1411. 1991. ص 145.

25 عادل النفائي. المرجع السابق. ص 78.

26 بوبة مجاني. النظم الإدارية للخلافة الفاطمية. ص 216.

27 هي مدينة الكاف حاليا على الحدود الغربية لتونس. مجهول. كتاب الاستبصار في عجائب الامصار. وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تح سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة الأعظمية ، بغداد. ص 165.

28 ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي البغدادي ت ق 4 هـ): صورة الأرض، دار الحياة، بيروت، 1992، ص 84.

29 البكري: المصدر السابق، ص 50.

- 30 البكري . نفس المصدر. ص 256. 288.
- 31 فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ / 909-975م) التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 142.
- 33 البكري: المصدر السابق، ص 59.
- 34 دومنيك فاليريون. بجاية ميناء مغاربي. ترجمة عمارة علاوة. منشورات المجلس الأعلى للغة العربي. الجزائر 2014. ص 180 181.
- 35 ابن حوقل: المصدر السابق، ص 85.
- 36 القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 175.
- 37 ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري ت 712هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، س. ج. كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص 190.
- 38 البكري: المصدر السابق، ص 61.
- 39 ابن خلدون . العبر . ج6، ص 195.
- 40 ابن حوقل: المصدر السابق، ص 85. ابن خلدون: المصدر نفسه، ج6، ص 195.
- 41 ابن خلدون . العبر، ج6، ص 196.
- 42 بوبة مجاني. من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي. دار بهاء الدين للنشر والتوزيع. منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي. جامعة قسنطينة. ط1. 2007. ص 151.
- 43 يقول ابن خلدون عن هذه القبيلة بأنها: " من قبائل البربر بالمغرب، أشدهم بأسا وقوة، وأطولهم باعا في الملك عند نسابة البربر، من ولد كتام بن برنس ويقال كتم.... وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسودة ابنا كتم بن برنس". عبد الرحمن بن خلدون، العبر، الجزء6، ص195). ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي . معجم البلدان . ط 02 ، دار الفكر ، بيروت ، 1995 ، المجلد1، ص367، أبي عبيد البكري، المسالك والممالك، 1993م، ص329، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ص91

- 44 ابن خلدون، العبر، الجزء 6، ص 195
- 45 القاضي النعمان (أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي ت 363هـ) : افتتاح الدعوة ، تح، فرحات الدشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 3736.
- 46 مجهول، الاستبصار، ص 162، ليون الإفريقي ، الحسن بن محمد الوزان الفاسي. وصف إفريقيا. ط 02، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، لبنان، 1983 الجزء 2، ص 63
- 47 فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب. ص 465.
- 48 القاضي النعمان. افتتاح الدعوة، ص 335-336.
- 49 بوبة مجاني. النظم الإدارية للخلافة الفاطمية. ص 213.
- 50 بوبة مجاني. المرجع نفسه. ص 215.
- 51 صالح بعيزيق. بجاية في العهد الحفصي. دراسة اقتصادية واجتماعية شوف النتزنت باقي معطيات الكتاب ص 49 50.
- 52 عادل النفاقي. المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب. حفريات في أدب الرحلة - القرن 16. في الهوية والتدين والثقافة. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب. 2015. ص 37.
- 53 دومنيك فاليريون. بجاية ميناء مغاربي. ص 166.
- 54 دومنيك فاليريون. المرجع السابق. ص 166.

تاريخ الصحافة المكتوبة المتخصصة عامة و الرياضية خاصة في أوروبا والوم أ
والوطن العربي (مصر والجزائر نموذجا)،

أ/بوحيلة رضوان /قسم علوم الإعلام والاتصال // جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

bouhila.redouane@gmail.com

الملخص :

بدأت الصحافة المكتوبة في نشأتها الأولى متخصصة ، حيث إهتمت بأخبار الساسة و النبلاء و أخبار الحرب و أخبار المال و التجارة ، و في إفريقيا بدأت دينية تنشر الإنجيل و العظات الدينية ، ومع تقدم وسائل الاتصال و ظهور البريد و إنشاء وكالات الأنباء التي إحتكرت توزيع الأخبار في العالم ، تحولت إلى صحف شعبية تقدم لقراءها أخبار متنوعة تغطي كافة المجالات والأنشطة و ازداد توزيعها ، و لم تعد قاصرة على السياسيين و النبلاء و التجار و العسكريين ، و مع التطور الذي حدث في العالم في مجالات العلوم و التكنولوجيا و الاتصال و إنتشار التعليم و زيادة عدد السكان ، عاد التخصص إلى الصحافة بأنماط و أهداف جديدة ، و تعتبر الصحف الرياضية من بين أكثر الصحف المتخصصة إنتشارا و إهتماما لدى الفئات الشبانية ، والتي عرفت تطورات ملحوظة منذ بداياتها الأولى سواء في العالم أو و في عالمنا العربي ، خصوصا في المنتصف الثاني من القرن العشرين.

The Abstract:

The press started in its early years a specialist , focused on the news of politicians, nobles, war , finance and trade , in Africa, it began to publish the gospel and religious sermons, and with the

advent of communication and the emergence of mail and the establishment of news agencies that monopolized the distribution of news, The world has known the popular newspaper that offering for its readers diverse news covering all areas and activities; It is no longer limited to politicians, nobles, merchants and military. With the development of the world in the fields of science, technology, communication, Population, specialty returned To the press with new patterns and objectives .The sports press is Considered among the most specialized widespread and most Interested newspapers among the youths categories, which have witnessed remarkable developments since its early beginnings both in the world and in the Arab world, especially in the second half of the twentieth century.

مقدمة:

إن الاهتمام بالصحافة المتخصصة بدا جليا منذ البداية في الدول المتقدمة بسبب تقسيم العمل والتخصص الدقيق الذي تتسم به المجتمعات الصناعية ، إلا أن السنوات الأخيرة شهدت تزايدا ملحوظا في إهتمام الدول النامية بالصحافة المتخصصة خاصة في المجالات الثقافية و المجالات العلمية ذات الطابع الأكاديمي البحث ، إقتداء بالدول المتقدمة قصد مسايرة عجلة التنمية¹ ، و قد كان للتطورات التي حدثت في السنوات الأخيرة ، الدور الفعال في تطور هذا النوع من الثقافة الصحفية ، بل أصبحت تلح فيه إلحاحا كبيرا على اعتبار أنه ضرورة من ضرورات العصر الذي نعيش فيه ، ذلك أن

الصحافة العامة مهما بذلت من جهد ومهما أكثر من عدد الصفحات ومهما استخدمت من المختصين في كتابة الأحاديث والتحقيقات والأعمدة والمقالات ومهما أضافت من أركان جديدة ... فإن الصحافة العامة عاجزة عن استيفاء الأخبار من كل قطاع من هذه القطاعات وكل هيئة من هذه الهيئات أو جماعة من الجماعات²، هذا وقد بدأ إنتشار الصحافة الرياضية- كأحد أهم الصحف المتخصصة- في العالم مع انتشار النوادي الرياضية في القرن التاسع عشر وظهور الألعاب الرياضية الجماهيرية ككرة القدم ، ولم تبد الدول العربية إهتماما بالصحافة الرياضية في البداية، حيث كانت تعيش تحت وطأة الاستعمار الغربي الأوروبي ، حيث يقول فاروق أبو زيد أن الأخبار الرياضية كانت مجرد أبواب صغيرة وقصيرة تنشرها الصحف العامة خلال الثلث الأول من القرن العشرين.³

1-1 مفهوم الصحافة المتخصصة:

تعددت تعاريف الباحثين لمفهوم الصحافة المتخصصة بسبب اختلافهم سواء من حيث الصياغة أو من حيث التركيز على جوانب معينة ، إلا أنها لم تتعد عن معنى الاهتمام الصحفي بتخصص أو بفرع من فروع العلوم أو الفنون أو الثقافة أو بمختلف جوانب الحياة المتشابكة والمعقدة وقد عرفها عاطف عدلي العبد على أنها : « الصحافة التي تعالج على صفحاتها مواضيع متخصصة ويطالعها الصفوة والقادة والمثقفون ثقافة عالية ، وهؤلاء يقومون بدور رئيسي في وضع السياسة العامة وتحديد القضايا المطروحة التي تؤثر في بقية شرائح المجتمع وفئاته »⁴ ، فالباحث ركز على النوع من الصحف التي تقدم مادة متخصصة لجمهور متخصص من القراء .

أما صلاح عبد اللطيف فقد أورد في كتابه الصحافة المتخصصة ، ثلاثة تعاريف أولها أن الصحيفة المتخصصة هي الصحيفة أو المجلة أو الدورية التي تركز أكبر قدر من اهتماماتها على فرع واحد من فروع التخصصات التي يهتم بها نوع معين من القراء بحيث يكون معظم نشاطها في جمع الأخبار والتحليلات وكتابة المقالات والتحقيقات ، يدور حول هذا الفرع وقد يغطي هذا النوع من الصحف نسبة قليلة من اهتمامات مختلفة غير ما تخصصت فيه ، أما في التعريف الثاني أنها الصحيفة أو المجلة أو الدورية التي تعنى بجزئية ما أكثر تخصصا في فرع من الفروع⁵ ، وأما في التعريف الثالث فهي الصحافة التي تعنى بجانب واحد من اهتمامات القراء في التطلع نحو المعرفة والاستزادة منها ، وهي ليست صحافة للعامّة أو المجتمع كله ، وإنما هي قاصرة على قطاع معين من القراء⁶ .

1-2 مفهوم الصحافة الرياضية :

إن الصحافة الرياضية هي تلك الصحافة التي تعالج أساسا الموضوعات الرياضية والتي توجه أساسا إلى الجمهور المعني بالرياضة والمهتم بها ، وكونها نوعا متخصصا بالرياضة كباقي الأنواع الأخرى المتخصصة ، لا يمنع أن تعالج قضايا أو موضوعات أخرى ، لها قدر من العلاقة أو الارتباط مباشرة بين الرياضة ، مثل علم النفس والتربية والصحة و الإقتصاد أو التي ليس لها علاقة مباشرة بالرياضة كالسياسة أو الأدب ، ولكن في ضمن حدود ضيقة لا يجوز أن تتعداها حتى لا تطغى هذه الموضوعات وتؤثر على شخصية الصحيفة ، و صحيح أن الصحافة الرياضية موجهة أساسا إلى جمهور رياضي مختص أو مهتم بمجال الرياضة ، لكنها لا تغفل إطلاقا شرائح أخرى من الجمهور حيث درجة

اهتمامها بالرياضة قليلة أو شبه معدومة ، ذلك بقصد زيادة درجة اهتمامها وجذبها وكسبها إلى جمهور الرياضة ، لكن شرط أن يبقى ذلك ضمن حدود معينة لا ينبغي تجاوزها تجنباً لتميع حدود جمهور الصحيفة الرياضية ، وأيضاً رغم أن الصحيفة الرياضية موجهة أساساً إلى هواة أو مشجعي الرياضة ، كونها تسعى لإشباع حاجاتهم الإعلامية في مجال الرياضة ، فإنها يجب أن لا تنسى أن هؤلاء الأفراد هم أعضاء في أسر ، يجب أن تحرص الصحف الرياضية وخاصة المجلات الرياضية على أن تضمن صفحاتها بعض الموضوعات الموجهة إلى هؤلاء الأفراد المحيطين بالشخص الرئيسي التي تتوجه إليه الصحيفة فتصبح صحيفة الأسرة كلها⁷.

2 - تاريخ الصحافة المتخصصة في العالم:

بدأت الصحافة في نشأتها الأولى متخصصة ، حيث اهتمت بأخبار السياسة والنبلاء وأخبار الحرب وأخبار المال والتجارة ، وفي بعض الدول وخاصة في إفريقيا بدأت الصحافة دينية تنشر الإنجيل والعظات الدينية ، ومع تقدم وسائل الاتصال وظهور البريد وإنشاء وكالات الأنباء مثل : " هافاس " HAVAS في فرنسا عام 1836 و " وولف " WOOLF في ألمانيا عام 1838 و " رويترز - REUTERS " في إنجلترا عام 1852 وإنشاء " الكارتل " الإخباري الذي ضم هذه الوكالات الثلاث معا ، واحتكرت عن طريقه توزيع الأخبار في العالم وتطورت الصحف وتحولت إلى صحف شعبية ، تقدم لقرائها أخبار متنوعة تغطي كافة المجالات والأنشطة وازداد توزيعها ، ولم تعد الصحافة قاصرة على السياسيين والنبلاء والتجار والعسكريين ، ومع التطور الذي

حدث في العالم في مجالات العلوم والتكنولوجيا والاتصال وانتشار التعليم وزيادة عدد السكان ، عاد التخصص إلى الصحافة بأنماط وأهداف جديدة⁸.

2-1- فرنسا :

سجلت الدراسات الإعلامية التاريخية أول صحيفة متخصصة ظهرت في فرنسا كانت عام 1665 باسم العلماء " Journal Des Savants " ، والتي كانت تحرر من طرف فريق من العلماء حيث تترجم وتنشر في الدول الرئيسية في أوروبا التي كانت متخصصة في النواحي العلمية والأدبية⁹ ، بالإضافة إلى ظهور صحيفة لاجازيت " La Gazette " التي أصبحت أسبوعية عام 1761 ، وكانت تختص بالنواحي السياسية ، حيث صدرت لأول مرة عام 1631 كصحيفة رسمية تولى إصدارها تيوفراست رينودو ، ثم حملت بعد ذلك اسم " جازيت دو فرانس " Gazette De France أما مجلة " ماركير Mercure " فصدرت عام 1672 كمجلة شهرية تحفل صفحاتها بأخبار الأدب والمجتمع¹⁰.

وفي أول يناير عام 1777 صدرت أول صحيفة يومية فرنسية تحت اسم " لو جورنال دو باري Le Journal De Paris " التي تتكلم عن كل شيء إلا عن السياسة¹¹ على حد تعبير فرناند ثيرو Fernand TERROU أما صحافة المرأة فيرجع الأصل في ظهورها إلى القرن 18 متمثلة لوكوربي دولا نوفوطي le Courier De La Nouveauté التي تأسست عام 1758م¹² ، ثم ظهرت مجلة مستقلة أسبوعية متخصصة في الشؤون النسائية والأزياء باسم Marie France ، أصدرتها دار الحرية الباريسية le Parisien Libre ، واحتلت المكانة الأولى في

هذا المجال وكانت تصدر قبل الحرب باسم Marie Claire¹³ ، ويذكر " إيريك نفو" Erik NEVEU أنه في عام 1998 بلغ عدد الصحف المتخصصة التقنية والمهنية في فرنسا 1430 ، حيث أصبح هذا القطاع القلب النابض للعمل في الصحافة الفرنسية والذي غطى عام 1999م حوالي 42 % من المجموع العام وأكثر من مليوني نسخة - للأسبوعتين المذكورتين - في الصحافة التلفزيونية وحوالي 10 آلاف نسخة للمجلات المتخصصة في الموسيقى أو الصيد البحري¹⁴ .

2-2 بريطانيا :

كانت بداية الصحافة البريطانية متمثلة في ظهور الدورية المسماة ويكلي نيوز Weekly News التي صدرت في 23 مايو 1622 ، وتعتبر أول مطبوع إخباري منتظم الصدور في بريطانيا ، أما أول صحيفة بريطانية بالمفهوم الحديث فهي صحيفة أكسفورد جازيت Oxford Gazette التي صدرت عام 1665 ، ثم تحول اسمها إلى لندن جازيت London Gazette ، وفي سنة 1702 صدرت صحيفة Daily Current وكانت اليومية الحقيقية الأولى في العالم وقد واصلت صدورها حتى عام 1735¹⁵ ، أما الصحافة المتخصصة البريطانية فقد بدأت متمثلة في صحيفة تايمز Times التي أنشأت عام 1785 ، واختار صاحبها " جون ولتر John Walter " الذي كان يعمل تاجرا وكان الإعلان هو مادته الوحيدة وقراءه هم رجال الأعمال ، وكانت تصدر في البداية باسم ذو الدايلي يونيفارسل ريجستس The Daily Universal Regists وكانت توزع 1500 نسخة ، ومن خلال استقراء بعض الدراسات الإعلامية للصحافة الإنجليزية ، تكاد تكون الصحافة

المتخصصة هي طابع الصحافة في بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر ، حيث يقل عدد الصحف اليومية التي كانت تمثل إلا جزء يسيرا من صحافة بريطانيا ، وتعتبر الصحافة الأهلية في إنجلترا صحافة متخصصة ، حيث تهتم بنوع معين من الأخبار والموضوعات ، بعضها للتجارة وبعضها للرياضة ، حيث يزداد عدد الصحف الرياضية أكثر من أي نوع آخر ¹⁶ .

وقد أورد إبراهيم عبده في كتابه الصحافة الأوروبية قائمة للصحف المتخصصة في بريطانيا عام 1952 ، حيث وجدت ألف مجلة ذات طابع تجاري أو فني ، وما لا يقل عن 300 مجلة دينية ، و 250 مجلة للرياضة والهوايات المختلفة ووسائل التسلية ونحو 80 مجلة في الموضوعات السياسية ونحو 60 مجلة بين أسبوعية وشهرية خاصة بالمرأة ¹⁷ .

2-3 الولايات المتحدة الأمريكية :

حسب ما ورد في كتاب الاتصال الجماهيري لصاحبه جون . ر. ريتنر " John.R.RITNER " أن الصحافة في الوم أ بدأت متخصصة بإصدار بن جامين هاريس Benjamin HARRIS الذي أقصي من إنجلترا لنشره صحيفة سرية ، وقدم إلى بوسطن عام 1690م تحت إسم ذا بابليك أكيورنسيز The Public Occurences ، والتي لم يصدر منها سوى عددا واحدا ، أما الصحيفة الثانية فكانت ذا بوسطن نيوز لاتر The Boston News Letter التي أصدرها "جون كامبل" John Camble عام 1704 و عاشت لفترة قصيرة ، أما الصحيفة الأمريكية الحقيقية فقد أصدرها " بن جامين فرنكلين" Benjamin

FRANKLINE عام 1728 م ، وهي صحيفة بنسلفانيا جازيت
 Pennsylvania Gazette في فيلادلفيا¹⁸ ، وحتى عام 1970 ظلت الصحف
 الأمريكية صحفا حزبية يملكها السياسيون ، ثم ظهرت المجالات والدوريات والصحف
 المتخصصة في العلوم التي نقلت الاختراعات و الاكتشافات العلمية في كافة المجالات¹⁹ ،
 وحسب ما أورد فاروق أبو زيد أنه صدر في الوم أ في الثمانينات حوالي 10 آلاف
 مجلة ، من بينها 8 آلاف مجلة متخصصة ، وفي كل عام تصدر 200 مجلة جديدة من
 بينها 160 مجلة متخصصة²⁰ .

4-2 مصر:

عرف الوطن العربي في أول الأمر الصحافة ، متخصصة من خلال الحملة الفرنسية
 على مصر²¹ ، حيث كانت النشأة الأولى أجنبية خالصة وكان هدفها خدمة الأغراض
 السياسية والدعائية للحملة الفرنسية ، فكانت صحيفتا " Le Courrier De
 L'Egypt " ، أي " بريد مصر " التي ظهر عددها الأول يوم 29 أغسطس 1797
 ، واستمرت إلى غاية 30 يونيو 1801 ، والثانية فكانت " La Décade
 Egyptienne " ، أي " العشرية المصرية " التي كانت تصدر كل عشرة أيام وكانت
 موجهة للعلماء الذين ضمتهم الحملة الذين كونوا ما عرف باسم المجمع العلمي المصري
 ، وقد حملت عبارة " صحيفة للآداب والاقتصاد السياسي " ، أما الصحافة العربية
 الأولى التي شهدتها الوطن العربي فكانت صحافة رسمية تمثلت بصورتها المبسطة في "
 جورنال الخديوي " وذلك عام 1828 في عهد محمد علي²² .

أما أول صحيفة عربية بمفهومها الحديث فكانت صحيفة " وقائع مصرية " أصدرتها مطبعة بولاق عام 1828²³ ، والتي كانت تصدر في أول عهدنا باللغة التركية ثم بعدها باللغتين العربية والتركية وأصبحت فيما بعد عربية محضة²⁴ .

ويذكر "فيليب دي طرازي" في كتابه تاريخ الصحافة العربية ، أن الصحافة المتخصصة في الوطن العربي في أوائل القرن العشرين كانت تختلف باختلاف غايات أصحابها ونزعاتهم ومشاربهم ، تارة تكون دينية أو سياسية أو أدبية أو علمية أو فنية ... الخ .

وقد عرف القراء العرب الصحافة النسائية ابتداء من عام 1909 وبلغ عدد مجلاتها في ذلك الحين 14 مجلة ثم انتشرت بعد ذلك المجلات الأدبية ، وقد تزايد الآن في الدول العربية عدد الدوريات في الصحافة المتخصصة التي تفوقت على عدد الصحف العامة ، حيث نجد أبرز التخصصات متمثلة في الصحافة الفنية والصحافة الرياضية والصحافة الأدبية والصحافة العلمية ، ولو أن البعض يجعل الصحافة الاجتماعية متضمنة للصحافة الفنية وصحافة المرأة والطفل بالإضافة إلى ظهور في السنوات الأخيرة الدوريات المتخصصة في القضايا الفكرية والسياسية²⁵ .

ويسجل دليل عام الصحف والمجلات في الوطن العربي الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية والصادر عام 1988 ، أن عدد الدوريات في مختلف التخصصات في الوطن العربي بلغ 465 دورية أي بنسبة 3.5 % مما يصدر في دوريات العالم ، وهي نسبة قليلة بالقياس إلى عدد سكان الدول العربية والإمكانات المتاحة فيها ، وقد وزع الدليل عدد الدوريات على 40 تخصصاً شملت

المجلات الأدبية والرياضية والعلوم والتكنولوجيا والدين ... فنجد مثلا الأدب والثقافة بـ 287 دورية ، الاقتصاد بـ 240 دورية ، الدين الإسلامي 94 دورية ومجلة الشباب والرياضة 80 دورية ... الخ²⁶ .

2-5 الجزائر:

أصدر الفرنسيون المستعمرون عددا كبيرا من الجرائد منذ السنوات الأولى لدخولهم الجزائر وإحتلالها، باللغتين العربية والفرنسية ، فكانت الصحيفة الأولى التي أصدرها باللغة العربية هي صحيفة " المبشر " عام 1847 وهي ثاني صحيفة تصدر باللغة العربية في الوطن العربي ، حيث أصدرتها السلطات الفرنسية كصحيفة رسمية لمقاصد سياسية و إستعمارية ، تطلع الجزائريين في صفحاتها على التعاليم والقوانين الصادرة من الولاية العامة ثم لتخذل به روح المقاومة ، وتوالت بعدها الصحف الناطقة باللغة الفرنسية بأسماء عربية جزائرية مثل صحيفة " الجزائري " L'Algerien التي صدر عددها الأول يوم الأحد 25 أفريل 1852 وبدأت تصدر بانتظام في أول ماي 1952 أيام الأحد والثلاثاء والخميس²⁷ ، ونجد كذلك صحيفة " الجزائر الجديدة " La Nouvelle Algérie التي انطلق صدورها اليومي إبتداء من يوم الإثنين 6 ديسمبر 1858 برئاسة تحرير Clément De Vernoi وهي أول جريدة يومية تصدر في الجزائر²⁸ .

عرفت الجزائر الصحافة المتخصصة منذ المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر في مجالات متعددة فنجد مثلا المجلة الطبية الجزائرية La Gazette Médicale ، التي صدرت يوم 25 فبراير عام 1856 بالعاصمة على أيدي أحد الأطباء الفرنسيين العاملين ضمن جيش الاحتلال الفرنسي "جيش إفريقيا " وأشرف على رئاسة تحريرها

الدكتور " بيرتراند " الذي كان يشغل منصب طبيب رئيسي بجيش إفريقيا وكذلك " بمستشفى الداى²⁹ ، ونجد كذلك مجلة إفريقيا *Revue Africaine* والتي أصدرتها الجمعية التاريخية الجزائرية التي تأسست عام 1856 ، حيث بدأت الصدور في نفس سنة التأسيس ، وكانت تصدر مرة كل شهرين وهي مجلة تهتم بشؤون التاريخ في مجاله الواسع من الآثار والأماكن التاريخية وتراجم بعض الرجال والعلماء ، وقد صدر عددها الأول في شهر أكتوبر 1856 ، والثاني في ديسمبر من نفس السنة³⁰ ، أما الصحافة الفنية فقد عرفت الكثير من الأسماء مثل جريدة "الدربوكة" *Derbouka* وهي جريدة إهتمت بالفن بما فيه المسرح والموسيقى والغناء وكان هدفها تسليية الجمهور الفرنسي - الأوروبي ، صدر عددها الأول يوم 18 أكتوبر 1856 وتصدر ليوم السبت والثلاثاء³¹ .

وأما الصحافة الأدبية فوجدت جريدة "الرامي الجزائري" *Le Tirailleur Algérien* وهي جريدة أدبية ، دراماتيكية ، هزلية بدأت صدورها يوم 14 نوفمبر 1858 بالجزائر العاصمة ، لتصدر أيام السبت والثلاثاء و الخميس ودام صدورها مدة 22 شهرا .

وفي الشؤون الفلاحية صدرت المجلة الفلاحية *Revue Agricole* بالعاصمة عام 1860 ، وكانت تصدر مرتين في الشهر في اليوم العاشر والخامس والعشرين³² ، وكل ما سبق ذكره هي بعض النماذج من الصحافة المتخصصة التي ظهرت في الجزائر في النصف الثاني من القرن 19 ، وفي ما يلي بعض النماذج من النصف الثاني من القرن 20 و بعد الاستقلال تحديدا ، ففي الصحافة الأدبية نجد مجلة " الكلمة " لصاحبها عبد الله عثمانية

و تصدر عن الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية ، " المجلة الثقافية " ، وهي مجلة فصلية صدرت عام 1971 وتصدر عن المركز الوطني لوثائق الصحافة والإعلام ، وفي الصحافة النسائية نجد مجلة " الجزائرية " لعائشة بن الإمام التي صدرت عام 1970 ، وكذلك مجلة " دفاتر نسائية " لزينب الأعرج وهي مجلة فصلية ، و في المجال الطبي نجد " المجلة الجزائرية للطب " لعبد الحميد أبركان وهي نصف شهرية تصدر بالفرنسية ، وفي المجال الاقتصادي نجد مجلة " بورصة الأعمال " وهي شهرية تصدر بالفرنسية ومجلة " الفلاحة الصناعية " وهي نصف شهرية مزدوجة اللغة ، وكذلك نجد " المركزية للإعلانات " وهي صحيفة أسبوعية تصدر باللغة الفرنسية³³ .

3- تاريخ الصحافة الرياضية :

1-3 أوروبا:

لقد ظهرت أخبار الرياضة في الصحف منذ نشأة الصحف نفسها في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر في غرب أوروبا ، ولم تحتل الرياضة نفس أهمية أخبار التجارة والمال والبنوك وحركة السوق ، وخاصة أن ظهور الصحافة إرتبط بازدياد نفوذ الرأسمالية الأوروبية وإهتمامها الطبيعي بالنشاطات الإقتصادية ، وقد ظلت الشؤون الرياضية تحتل مرتبة أقل أهمية من السياسة والإقتصاد في صحافة القرن التاسع عشر³⁴ ، أما الصحافة الرياضية في فرنسا ، فزيادة على الصحف اليومية الرياضية " L'Equipe " و " Paris Turf " و " Sport Complet"³⁵ ، ومجلات المطابع المراقبة من طرف الحزب الشيوعي ، الذي أسس أول صحيفة رياضية شهرية لمجموعته الشيوعية عام 1946 ، تحت إسم " ميراوار سبرينت " Miroir Sprint ، والتي تحوي طبعاتها في

وقتنا الحاضر كل من الملاحق "Le Miroir Foot" ، "Le Miroir Du" ، "Rugby" ، "Le Miroir Du Cyclisme" ، "Le Miroir" ، "D'Athletisme" ³⁶ ، فإن هناك صحافة رياضية مزدهرة في ميادين أخرى غير كرة القدم ، مثل السياقة والفروسية ، هذا وقد لاقت بعض الصحف صعوبات مثل صحيفة "Sport" التي جاءت بعد صحيفة "Miroir Sprint" في طبعة (J) حيث أعلنت في آخر سنة 1971 أنها ستتوقف عن الصدور العادي وسوف لن تصدر عنها إلا أرقام خاصة متعلقة بالأحداث الرياضية الكبرى مثل دورة فرنسا "Tour De France" وفي أعداد قليلة ، ويوجد في فرنسا كذلك حوالي 35 صحيفة تتمركز حول لعبة "الرهان Tierce" ويقترب سحبها الإجمالي إلى مليوني نسخة في الأسبوع سنة 1971 ³⁷ . في فرنسا يقول "فيرناند تيرو" - "Fernard TERROU" : إن الأخبار الرياضية وجدت منذ وقت مبكر مكانا لها شيئا فشيئا في صحيفة "لوفيقارو - Le Figaro" منذ عام 1854 ³⁸ .

ولكن ما لبثت أخبار الرياضة أن عرفت طريقها إلى الصفحات الأولى من الصحف مع بداية القرن العشرين ، وقد ارتبط ذلك بازدياد عدد قراء الصحف ، وظهور الصحافة الشعبية ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أخبار الرياضة في الصحف أداة لجذب أكبر عدد من القراء ، ومع مرور الوقت لم يعد الاهتمام بالشؤون الرياضية قاصرا على الشعبية ، وإنما امتد الاهتمام إلى صحف النخبة وإن لم يكن بنفس قدر الاهتمام بالصحف الشعبية ³⁹ .

2-3 اليوم أ:

بدأ انتشار الصحافة الرياضية في العالم الغربي مع انتشار النوادي الرياضية في القرن التاسع عشر وظهور الألعاب الرياضية الجماهيرية ككرة القدم⁴⁰ ، وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت تنتشر المجلات الرياضية المتخصصة ، وبعدها بفترة قصيرة بدأت مرحلة أخرى وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية يمكن تسميتها بمرحلة تخصص التخصص أو التخصص الدقيق ، حيث ظهرت صحف متخصصة في رياضة معينة ، فهناك مجلات لكرة القدم ، وأخرى للبيسبول وثالثة في الملاكمة ... الخ⁴¹ ومن المجلات الرائدة المتخصصة في مجال الرياضة في الوم أنجد مجلة سبورتس ستريتيد Sport's Streeted ، ومجلة سبورتس فيلد Sport's field ومجلة فيلد اند ستريم Field And Stream⁴².

3-3 الوطن العربي :

ولم تبد في البداية الدول العربية إهتماما بالصحافة الرياضية ، حيث كانت تعيش تحت وطأة الاستعمار الغربي الأوروبي ، حيث يقول فاروق أبو زيد أن الأخبار الرياضية كانت مجرد أبواب صغيرة وقصيرة تنشرها الصحف العامة خلال الثلث الأول من القرن العشرين⁴³ ، حيث عرفت الصحافة العربية الإهتمام بالشؤون الرياضية في فترة متأخرة نسبيا ، لإرتباط ذلك باستقلال العديد من الدول العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، وظهور الفرق الرياضية الوطنية التي صارت تشارك في المسابقات المحلية والإقليمية والدولية ، وصارت الصحف العربية تفسح العديد من صفحاتها للشؤون الرياضية بل أصبح يخصص لها صفحة أو أكثر يوميا في كل صحيفة⁴⁴.

وبعد أن ازداد اهتمام القراء العرب بالشؤون الرياضية ، فقد أصبحت الأخبار الرياضية تنشر في جرائد ومجلات متخصصة في الشؤون الرياضية بعد أن كانت تصدر في شكل ملاحق للصحف ، وقد أدى ظهور التلفزيون إلى إيجاد منافسة مع الصحف حول جذب الجمهور إلى الرياضة وفرقها المتعددة ، الذي أجبر بعض المؤسسات الصحفية والإتحادات والأندية الرياضية خصوصا الكبيرة إلى إصدار صحف ومجلات متخصصة في كافة ما يتعلق بالشؤون الرياضية ، بالرغم من أن كثيرا من هذه الصحف والمجلات لم يكتب لها الإستمرار لأن نموها كان يتوقف على مدى قوة النادي أو الإتحاد أو المؤسسة الصحفية⁴⁵ .

وقد شملت ظاهرة الهجرة الصحفية العربية الصحافة الرياضية ، إذ تصدر من روما مجلة عربية باسم " الشباب العربي " و " رياضة وفنون " ومن باريس تصدر مجلة " الفائز " الشهرية ، ومن البرازيل تصدر أسبوعية " الملاعب " ، فإدراكا من القائمين على الصحف العربية لتزايد اهتمام القارئ بالشؤون الرياضية ، قاموا بتوسيع التغطية الصحفية للشؤون الرياضية بحيث شملت أخبار الرياضة في العالم ... ونتج عن ذلك أن ارتفع عدد الصحفيين العاملين بالأقسام الرياضية في الصحف والمجلات أن وصل الأمر أن يكون لكل لعبة محرر متخصص في الكتابة عنها⁴⁶ .

3-3-1 مصر:

لم تعرف مصر الإهتمام بالشؤون الرياضية بالمعنى المتعارف عليه حاليا إلا مع بداية عام 1885 عندما بدأ الشباب المصري يكون الفرق المختلفة لكرة القدم في الأحياء الشعبية ، وظهور أول فريق مصري لكرة القدم قام بتأسيسه محمد أفندي باشا⁴⁷ ،

وكانت أول صحيفة رياضية حصلت على الإذن بالصدور هي صحيفة "الرياضة المصرية" وذلك عام 1888 ، وأعقب ذلك صدور صحيفة "السباق" عام 1895 من طرف "نوري إميل نافارتي" بالإسكندرية ، وصدور مجلة "الرياضة" عام 1896 ، وفيما عدا ذلك لم تهتم أي صحيفة أو مجلة تصدر آنذاك بالأخبار الرياضية خاصة أن الأنشطة الرياضية في ذلك الوقت كانت من نصيب الجاليات الأجنبية التي أقامت في مصر⁴⁸ .

في عام 1921 صدرت في القاهرة أول مجلة رياضية متخصصة في العالم العربي والإفريقي وكانت باسم "المضمار" ، وقد اهتمت بجميع الأندية الرياضية بصفة عامة ونتائج مباريات كرة القدم وسباق الخيل بصفة خاصة ، وعند نهاية فترة العشرينات شهدت فترة الثلاثينات انخفاضا في اهتمام الصحافة المصرية بالرياضة ، حيث صدرت كل من مجلة "السباق" عام 1931 ، ومجلة "الألعاب الرياضية" عام 1933 التي كانت تصدر أسبوعيا في القاهرة ، ومجلة "الشعاع" عام 1937 وهي كذلك تصدر أسبوعيا في القاهرة ، أما في فترة الأربعينيات فلم تشهد مصر صدور أية صحيفة رياضية ويعود ذلك لتأثر معظم أنشطة الحياة بالحرب العالمية الثانية⁴⁹ ، أما في الخمسينيات وبعد قيام الثورة زادت مساحة الرياضة في الصحف حتى وصلت إلى صفحات كاملة استغلت أغلبها لوصف وتحليل كرة القدم ، ولم يحدث إهتمام بالألعاب الأخرى إلا مع الأحداث غير العادية في هذه الألعاب⁵⁰ ، ومن جهة صدور المجلات المتخصصة بالرياضة فقد صدرت مجلة "الدليل الرياضي" عام 1952 وهي مجلة أسبوعية ، وصدرت كذلك عام 1955 مجلة "الملعب" ثم أعقبها مجلة باسم "الرياضة وأوقات الفراغ"⁵¹ .

بدأت فترة الستينات بصدور قانون تنظيم الصحافة والذي صدر يوم 24 مايو 1966 وكان له أثره في أن تتخذ الصحف المصرية طريقا واحدا في تناول الموضوعات السياسية ، واتجهت الصحف للتعبير والتجديد في الأبواب الأخرى كالفنون والأدب والرياضة مما كان له الأثر الأكبر في زيادة المساحة المخصصة للمادة الرياضية ، ولكن بعد النكسة يوم 5 يونيو 1967 ، توقف النشاط الرياضي تماما وكان له الأثر السلبي على الصحافة التي وجهت كل إهتماماتها إلى أخبار الحرب وتوقفت كل الصحف الرياضية عن الصدور⁵² ، وفي السبعينيات عاد النشاط الرياضي إلى ما كان عليه خصوصا بعد عام 1973 وصدرت مجموعة من المجلات والصحف التي أشرفت على صدورها المؤسسات الصحفية الكبرى أو الأندية ، فصدرت جريدة " التعاون الرياضي " عام 1971 عن دار التعاون للطبع والنشر تبعتها صحيفة " الأهلي " عام 1973 وهي صحيفة نصفية صدرت عن النادي الأهلي ، وكذلك صحيفة " الزمالك " عام 1976 و في نفس العام صدرت كذلك صحيفة " الكورة والملاعب " عن دار التحرير للطبع والنشر ، وفي عام 1980 صدرت صحيفة " الجمهور المصري " وصدرت عن النادي المصري ببور سعيد ، وصدرت صحيفة " أخبار الرياضة " وهي صحيفة أسبوعية صدرت عن دار أخبار اليوم يوم 26 ديسمبر 1989 وقد أعطت إهتماما بالغا بكافة الألعاب الرياضية على رأسها كرة القدم كما تضمنت الأخبار الرياضية على المستوى الدولي لمختلف الألعاب⁵³ .

وفي عام 1990 صدرت مجلة "الأهرام الرياضي" عن مؤسسة الأهرام و اعتبرت إضافة جديدة للصحافة الرياضية المتخصصة المصرية لما صدرت فيه من فخامة في الطباعة

والموضوعات الجديدة مع رخص الثمن ، وكان الإقبال الجماهيري على شرائها كبيرا منذ لحظة صدورها⁵⁴.

وفي عام 1995 صدرت مجلتين شهريتين خاصة بكرة القدم ، وهما مجلة " الكرة المصرية " ومجلة " كايرو فوتبول " Cairo Football " و هذه الأخيرة تصدرها منطقة القاهرة لكرة القدم (الإتحاد المصري لكرة القدم) .

وفي عام 1996 صدرت أول صحيفة رياضية يومية هي صحيفة " الميدان " إلا أنها تحولت إلى صحيفة عامة في نفس العام وأصبح صدورها غير منتظم ، وفي نفس العام صدرت صحيفة " صوت الرياضة " وبدأت أسبوعية ثم أصبحت نصف شهرية ، وتصدر عن دار الموقف العربي للصحافة والنشر ، أما عام 1997 فصدرت أسبوعية " الصقر الرياضي "⁵⁵.

3-3-2 الجزائر:

عرفت الجزائر ظهور أول مطبوع رياضي بمناسبة إحتضان الجزائر للألعاب البحر الأبيض المتوسط لأول مرة و كأول تظاهرة دولية تستضيفها الجزائر سنة 1975 ، كما إن تأهل المنتخب الجزائري لنهائيات كأس العالم بإسبانيا سنة 1982 أعطى دفعا قويا للصحف الرياضية الجزائرية ، فظهرت صحف "But" (الهدف) الناطقة بالفرنسية و"المنتخب" الناطقة بالعربية التي وصل سحبها إلى 100 ألف نسخة وكذا "الوحدة الرياضية" التي كانت ملحق لمجلة الوحدة ذات الطابع السياسي.

ومع الانفتاح الإعلامي الذي أتى نتيجة دستور 23 فيفري 1989 وقانون الإعلام لسنة 1991 وفتح المجال لإنشاء الصحف الخاصة ، صدرت مجموعة من الصحف الرياضية

، أبرزها " صدى الملاعب " ⁵⁶ ، ثم تأسست صحيفة "Compétition" " كومبتسيون " أي " المنافسة " كأسبوعية رياضية ناطقة باللغة الفرنسية في 03 أكتوبر 1993 من طاقم صحفي شاب، كانت البداية بعدد قليل، وكانت تصدر مرة في الأسبوع يوم السبت حتى مارس 1997 ، ثم 3 مرات في الأسبوع: السبت والثلاثاء و الخميس فنجد يوم الثلاثاء "Compétition plus" و نجد يوم الخميس "Compétition weekend" ، وفي صائفة 2007 تحولت بعد إلى يومية رياضية 6/7 و في جوان 2010 بمناسبة مونديال جنوب إفريقيا، أصبحت تصدر 7/7 ، و هي ثاني جريدة رياضية من حيث عدد السحب بين 60 و 75 الف نسخة يوميا، وقد وصلت الى 85.000 و 100.000 نسخة يوميا بمناسبة مشاركة المنتخب الوطني في التصفيات وبدرجة أكبر بمناسبة إجراء الخضر مباراته مع إنجلترا في مونديال جنوب إفريقيا 2010. يقع مقرها الاجتماعي في :شارع النقيب مناني بالجزائر العاصمة ، يديرها قسوم جمال، و الجريدة عبارة عن شركة ذا مسؤولية محدودة SARL ، و للجريدة مراسلين على مستوى معظم التراب الوطني ب 43 مراسل ، وأربعة خارج الوطن: إثنين في فرنسا، واحد في إسبانيا و واحد في قطر ⁵⁷ ، وهي تعد الأقدم بالنسبة للصحف الرياضية المستمرة إلى اليوم، ثم كان ظهور صحيفة "الهداف" يوم 1998/11/01 كأسبوعية رياضية ناطقة باللغة العربية والتي هي اليوم تصدر بشكل يومي مند شهر أوت 2007 كأول يومية رياضية جزائرية ناطقة بالعربية، ويبلغ سحبها اليومي كمتوسط 150 ألف نسخة وهو ما يعد السحب الأكبر إفريقيا بالنسبة للصحف الرياضية بالإضافة إلى صدور ملاحق تابعة للهداف وهي الهداف الدولي ، "الهداف ويكاند"

و"لوبيتور" Le Buteur " الناطقة بالفرنسية ، ثم تلتها العديد من الصحف الرياضية ، "الكرة" ، الكرة+ "بلوس" ، "الشباك" ، "قول" Goal أي الهدف بالإنجليزية ، "بلانيت سبور" Planète Sport وهي أول تجربة لصحيفة رياضية تصدر بشكل يومي في الجزائر حيث صدر عددها الأول يوم 2006/03/06 هي يومية رياضية ناطقة بالفرنسية تغطي مختلف الألعاب الرياضية ، إلا أنها عرفت كثيرا من الإنقطاعات حيث أن الصحافة الرياضية الجزائرية الحالية لا تهتم بتغطية كل الرياضات، على العكس من لعبة كرة القدم، مثل يومية "الخبر الرياضي" وهي يومية متخصصة على وجه الخصوص في كرة القدم المحلية بالإضافة إلى كرة القدم الدولية وتفرد أحيانا صفحة عن بعض الرياضات الأخرى ، و صدر العدد الصفر يوم السبت 19 ماي 2010 ، بمناسبة نهائيات كأس العالم بجنوب إفريقيا والتي انطلقت يوم الجمعة 11 جوان 2010 أي أن "الخبر الرياضي" استبقت الحدث بعشرين يوما، و هي ملحق رياضي تابع للشركة ذات الأسهم "الخبر" التي تأسست في 01 سبتمبر 1990 من طرف عدد من صحفيي يوميي الشعب و المساء الحكوميتين، وقد ظهر أول عدد منها في يوم 01 نوفمبر 1990، لتليها ملاحق إعلامية أخرى تابعة للشركة الأم، مثل الخبر حوادث، الخبر الأسبوعي، وأخيرا الخبر الرياضي، اليومية الرياضية التي اتخذت شعار "الإعلام الرياضي بكل صدق و إحترافية"، ويقع مقرها الرئيس في ولاية قسنطينة، فيما يدير الخبر الرياضي حاليا (2017 (عدلان حميدشي من قسنطينة، فيما يمثل مقرها في دار الصحافة بساحة أول ماي بالعاصمة، مقرا جهويا لكن عمله ونشاطه لا يقل عن المكاتب الجهوية الأخرى بل يتجاوزها نظرا لوقوعه في الجزائر العاصمة وتعتبر البطولات المحلية -خصوصا المحترف

الأول و الثاني- وأنباء الفريق الوطني المجال الخصب للمادة الإعلامية التي تقدمها صحيفة
الخبر الرياضي.⁵⁸

الهوامش:

- ¹ فاروق أبو زيد : الصحافة المتخصصة ، ط 1 ، القاهرة : عالم الكتب ، 1986 ، ص 04 .
- ² غريب سيد محمد : علم إجتماع الاتصال والإعلام ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1996 ، ص 233 ، 234 .
- ³ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ص 146 .
- ⁴ عاطف عدلي العبد ، مرجع سابق ، ص 185 .
- ⁵ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 11 .
- ⁶ المرجع السابق ، ص 12 .
- ⁷ أديب خضور : الإعلام الرياضي : دراسة علمية للتحليل الرياضي في الصحافة و الإذاعة و التلفزيون ، ط 1 ، دمشق : المكتبة الإعلامية ، 1994 ، ص 87 .
- ⁸ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 26 .
- ⁹ Erik Neveu : **Sociologie De Journalisme** , repères n° 313 , Paris : la découverte , 2001, p19 .
- ¹⁰ الزبير سيف الإسلام : تاريخ الصحافة في الجزائر ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1982 ، ج 2، ص 27 .
- ¹¹ Fernand Terrou : **L'Information** , que sais-je ? n°1000 , 4ème édition , Paris : Presses Universitaires De France , 1974, p20 .
- ¹² رولان كايروول : الصحافة المكتوبة والسمعية البصرية ، سلسلة المجتمع ، ترجمة شلي محمد ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1984م ، ص 352 .
- ¹³ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 26 .
- ¹⁴ Erik NEVEU , op , cit , p29 .

- ¹⁵ الزبير سيف الإسلام ، مرجع سابق ، ص 26 .
- ¹⁶ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ص 27 .
- ¹⁷ المرجع السابق ، ص 27 .
- ¹⁸ المرجع السابق ، ص 27 .
- ¹⁹ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 28 .
- ²⁰ فاروق أبو زيد، مرجع سابق ، ص 2 .
- ²¹ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 40 .
- ²² الزبير سيف الإسلام ، مرجع سابق ، ص 33 .
- ²³ خليل صابات : وسائل الاتصال نشأتها وتطورها ، ط6 ، د.م.ن : مكتبة الانجلومصرية ، 1991 ، ص 151 .
- ²⁴ الزبير سيف الإسلام ، مرجع سابق ، ص 34 .
- ²⁵ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 41 .
- ²⁶ المرجع السابق ، ص 42 .
- ²⁷ الزبير سيف الإسلام ، مرجع سابق ، ص 33 .
- ²⁸ المرجع السابق ، ص 58 .
- ²⁹ المرجع السابق ، ص 37 .
- ³⁰ المرجع السابق ، ص 44 .
- ³¹ المرجع السابق ، ص 49 .
- ³² المرجع السابق ، ص 86 .
- ³³ تيسير أبو عرجة : دراسات في الصحافة و الإعلام ، ط1 ، عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، دت ، ص 271 .
- ³⁴ فاروق أبو زيد ، مرجع سابق ، ص 76 .
- ³⁵ رولان كايرول ، مرجع سابق ، ص 396 .
- ³⁶ المرجع السابق ، ص 338 .
- ³⁷ المرجع السابق ، ص 397 .

³⁸ Fernard TERROU , op cit , p 30 .

³⁹ فاروق أبو زيد ، مرجع سابق ، ص 76 .

⁴⁰ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ص 146 .

⁴¹ فاروق أبو زيد ، مرجع سابق ، ص 76 .

⁴² إدوين إمري فيليب و هـ .أولت و وارين ، ك .آجي : الاتصال الجماهيري ، ترجمة إبراهيم

سلامة إبراهيم ، القاهرة : الشركة الدولية للطباعة ، 2000 ، ص 328 .

⁴³ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ص 146 .

⁴⁴ المرجع السابق ، ص 77 .

⁴⁵ صلاح عبد اللطيف ، مرجع سابق ، ص 146 .

⁴⁶ فاروق أبو زيد ، المرجع السابق ص 78 .

⁴⁷ خير الدين علي عويس وعطا عبد الرحيم : الإعلام الرياضي ، ط1 ، القاهرة : مركز الكتاب

للنشر، 1998، ج1، ص 97 .

⁴⁸ حسنين شفيق : الصحافة المتخصصة المطبوعة والإلكترونية : رؤى جديدة . القاهرة : معهد

الإعلام وفنون الإتصال ، 2006 ، ص 194 ، 195 .

⁴⁹ خير الدين علي عويس وعطا عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص 99 ، 100 .

⁵⁰ حسنين شفيق ، مرجع سابق ، ص 195 .

⁵¹ خير الدين علي عويس وعطا حسن عبد الرحيم : مرجع سابق ، ص 100 .

⁵² حسنين شفيق ، مرجع سابق ، ص 195 .

⁵³ خير الدين علي عويس وعطا عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص 101 .

⁵⁴ حسنين شفيق ، مرجع سابق ، ص 196 .

⁵⁵ خير الدين علي عويس وعطا حسن عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص 101 - 102 .

⁵⁶ خالد مرشيش : دور الصحافة الرياضية الجزائرية المتخصصة في الحد من التعصب الرياضي وسط

الطلبة الجامعيين، رسالة ماجستير، غير منشورة ،معهد التربية البدنية و الرياضية، جامعة الجزائر،

سيدي عبدالله، 2011، ص 47.

⁵⁷ رضوان جدي: الأخلاقيات المهنية في الصحافة الرياضية: المفهوم والممارسة من خلال صحافيي "الهداف"، رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم علوم الإعلام و الإتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر 3، 2011، ص93 (مقابلة مع مدير تحرير "compétition" السيد لبيب رفيق، بمقر الجريدة يوم الأربعاء 04 ماي 2011 على الساعة 11:00).

⁵⁸ عبد العالي مولود مزغيش، القيم الخبرية في الصحافة الرياضية: دراسة تحليلية للأخبار الرياضية في جريدة الخبر الرياضي، رسالة ماجستير، غير منشورة، معهد التربية البدنية والرياضية، جامعة الجزائر 3، 2012، ص75.

الأساس الديني والتكوين المذهبي ودوره في الصراع العثماني الفارسي

أ/حمزة عيجولي /قسم التاريخ جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر 02 -

الايمل: hamzaidjouli@yahoo.fr

الملخص:

بعد سقوط دولة الموحدين سنة 1269 ظهرت عدة دول في المجال الجغرافي للعالم الإسلامي مشرقا ومغربا تسعى لاكتساب الشرعية الدينية التي تضمن لها الهيبة والقبول، وتعد الدولتان العثمانية والصفوية مثلا بارزا في ذلك، فالدولة العثمانية (1299/1923) التي بدأت كإمارة بدوية في الأناضول وسرعانما توسعت وتطورت حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف كانت تعتبر نفسها حاملة لراية الخلافة الإسلامية، ومع بروز الدولة الصفوية (1501/1736) التي بدأت كأسرة دينية صغيرة في الهضبة الإيرانية وتوسعت خارجها باعتماد الأساس الديني بتبنيها مذهبها مخالفا لجارتها وغريمها الدولة العثمانية، دخلت القوتان في صراع سياسي وعسكري مرير طبع أساسا بطابع الصراع المذهبي الذي صار متغيرا رئيسيا في الخلاف العثماني الفارسي لعدة قرون.

Abstract:

After the collapse of the Almohads's state in 1269, many states appeared in the geographical scope of the Islamic World, east and west, seeking to obtain religious legality that would guarantee respect and acceptance, to which the Ottoman and the Safavid states are considered perfect examples. The Ottoman

state that started as a bedouin principality in Anatolia rapidly gained momentum and developed into a vast empire, considered itself as the vanguard of the Islamic Caliphate. With the advent of the Safavid state that had started as a religious little family on an Iranian hill and expanded outside Iran relying on religious grounds, adopting the Shi'ite doctrine to differentiate itself from its neighbor and rival, the Ottoman empire, the two states engaged in a bitter political and military conflict; a factional conflict that became an essential variable in the Ottoman-Persian dispute for centuries.

الكلمات المفتاحية:

الدولة العثمانية - الخلافة العثمانية - الصراع العثماني الفارسي - الأناضول - الدعاية

الصفوية

المقال:

تُعدُّ الفكرة الدينية محرِّكًا أساسيًا للأحداث التاريخية، كما أن الدين مقوِّم رئيسي في بناء الحضارات ونقصد بالدين هنا مختلف المعتقدات التي تتبناها الشعوب سواء كانت سماوية مثل الإسلام والمسيحية واليهودية أم وضعية كالزرادشتية والبوذية والمجوسية والسيخية والمناوية... إلخ¹.

وقد تبينَ هذا الرأيَ عدَّةُ مدارس تاريخية وفلاسفة ومفكرين كابن خلدون ومالك بن نبي وأرنولد توينبي² وغيرهم، خلافاً لمن يقَدِّم مقومات أخرى للحركة التاريخية مثل العوامل المادية والاقتصادية والتحويلات الاجتماعية³.

لقد كان ظهور الدولة العثمانية سنة 1299 في الأناضول وقيام الدولة الصفوية سنة 1501 في الهضبة الإيرانية على أساس ديني وهو الإسلام، فانتساب العثمانيين إلى عثمان الأول⁴ كزعيم قبلي يدين بالإسلام ويسعى لتوسيع رقعة إماراته خدمةً له في مواجهة البيزنطيين المسيحيين، كما أن انتساب الصفويين إلى شيخ الطريقة صفي الدين إسحاق الأردبيلي⁵ كزعيم روحي وشيخ مُربِّ سني قبل أن يتحول أحفاده إلى التشيع الذي بنى على أساسه الشاه إسماعيل الصفوي دولته وتوسعاته، فالأساس الديني والذي هو الإسلام يجمع بين القوتين العثمانية والصفوية غير أن التكوين المذهبي يُفرِّق بينهما (التسنن والتشيع).

يكاد يجمع المؤرخون من مؤيدي الدولة العثمانية وحتى من أعدائها على الروح الإسلامية والشحنة الإيمانية التي رافقت مراحل تأسيسها وتوسعاتها ونورد هنا مثلاً قول المستشرق الإنجليزي برنارد لويس⁶: "كان من المؤلفين بين مسيحي أوروبا في زمنٍ ما أن يستعملوا كلمة (تركي) كمرادف لكلمة (مسلم) ويقولون عن أي شخص اهتدى إلى الإسلام بأنه أصبح تركياً، ولم يكن هذا التعبير بعيداً عن المنطق لأن الإمبراطورية العثمانية من مبدإ نشوئها إلى نهاية أمرها كانت دولة إسلامية نذرت نفسها أولاً لحمل راية الإسلام إلى أقطار جديدة ثم الدفاع عنه ضد الكفار... وكان حاكمها الأعلى حاكماً

للإسلام الأعلى حسب تعبير كُتَّابها ورجالها الرسميين، وجيوشها جيوش الإسلام وقوانينها قوانين الإسلام⁷.

فالإسلام كدين كان المحرك للفتوحات العثمانية والإسلام كنظام حكم وتعاليم سياسية واجتماعية هو الصبغة التي طُبعت بها الدولة العثمانية في تأسيس قواعدها، فقد تحددت العقيدة الإسلامية كدين رسمي للأتراك العثمانيين منذ عهد الأمير عثمان الأول⁸، حيث يذكر بعض المؤرخين أن عقيدتهم قبل عثمان لم تكن واضحة تماما⁹.

غير أن الثابت هو تشبُّع العثمانيين منذ نشأة دولتهم بالشعور الديني وروح العقيدة الإسلامية التي ألهبت العاطفة الوجدانية لديهم، وهو ما يفسر الاندفاع الكبير في الفتوحات العسكرية المبكرة خاصة في بلاد المسيحيين باسم الجهاد المقدس.

ورغم هذا لم تكن الخلافة العثمانية بتلك الدولة التي تسير بانضباط على المنهج الإسلامي حيث شابتها العديد من النقائص والتناقضات ولكن يُحسب لها على الأقل:

❖ توسعة الرقعة الإسلامية وحفظ وحدة العالم الإسلامي ومقدساته لأكثر من أربعة قرون.

❖ مواجهة الضغوطات والحملات الصليبية شرقا وغربا¹⁰.

حتى أن مصطلح "المسألة الشرقية" المتداول كثيرا في الكتابات التاريخية عن الدولة العثمانية يعبر في حقيقته عن الصراع الذي كان قائما بين الشرق الإسلامي الممثل في الدولة العثمانية (1299-1923) والغرب المسيحي الممثل في الدول والإمارات والممالك المسيحية الأوروبية¹¹ وهي تمثل -أي المسألة الشرقية بمفهومها الحديث- مرحلة

من مراحل الصراع القديم بين النصرانية والإسلام¹²، ويذهبُ أحدُ الكُتَّابِ بعيداً إلى حدِّ التأكيد على أن سبب سقوط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة بها يعود أساساً إلى عقيدتها الدينية وروحها الإسلامية التي جلبت المؤامرات والمكائد لها¹³.

فالأساس الديني الذي قامت عليه الدولة العثمانية هو الإسلام السني الذي تبنَّته الدولة رسمياً من خلال المذهب الحنفي مع النزعة الصوفية التي كانت بارزة في الدولة، حيث كان معظم علماء ورجال الفقه والقضاء وشيوخ الإسلام من الأحناف المتصوفين، حتى أن بعض السلاطين كانوا من النُسَّاك والزُهَّاد فيما تنقله لنا بعض المصادر التاريخية.

كما أن الدولة الصفوية قد قامت على أساس الدين الإسلامي إلا أنها تختلف اختلافاً جذرياً مع العثمانيين حيث جعلت التشيع هو المذهب الرسمي للدولة فكانت العصبية المذهبية الشيعية قاعدة رئيسية في التكوين السياسي الديني للدولة¹⁴.

وقد وُحِّدَ التشيُّعُ قبائل الهضبة الإيرانية تحت راية الشاه إسماعيل الصفوي (1501/1524)، فكان العامل المذهبي بمثابة الرابط المعزز للعامل القبلي الرابط بين المجموعات البشرية الإيرانية¹⁵.

لقد استطاعت الدعاية المذهبية الشيعية أن تحقق انتشاراً واسعاً داخل الهضبة الإيرانية وشرقي الأناضول والتخوم الشمالية للعراق وبلاد الشام، فالعامل المذهبي هو المفسر الوحيد للامتداد السريع الذي شهدته الدولة الصفوية في عهد الشاه إسماعيل (1501-1524).

فإذًا الدولة العثمانية دولة إسلامية سنية، والدولة الصفوية دولة إسلامية شيعية، وهنا يظهر المتغير المذهبي في تحديد طبيعة العلاقات بين القوتين .

رغم أن الدين الواحد من حيث المبدأ يعتبر عامل وحدة بين الشعوب والقوميات المختلفة غير أن انقسام الدين الواحد إلى مجموعة من المذاهب والطوائف يعد عاملاً للفرقة والفتنة بين أبناء الشريعة الواحدة، فيصبح بذلك الولاء للمذهب والطائفة مقدماً على الولاء للدين¹⁶ .

فيما نجد أن بعض الشعوب المتحضرة استطاعت تجاوز هذه العقد الدينية المذهبية إلى الرقي في علاقاتها البينية وفق الاحترام المشترك للمعتقدات الفردية والجماعية مع احترام حقوق الأقليات¹⁷ .

لقد كان تأسيس الدولتين العثمانية والصفوية على أساس ديني ممثلاً في القوة الروحية للإسلام مع اختلاف التكوين المذهبي (سنة وشيعة)، فالدولة العثمانية تنسب نفسها إلى الإسلام وتراث المسلمين وحضارتهم حيث تعتبر نفسها وريثة لنظام الخلافة الإسلامية السنية التي انتقلت عبر مراحل تاريخية من المدينة المنورة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة وصولاً إلى إسطنبول¹⁸ ، وكانت ترى كل مخالف لهذا المبدأ عدواً لها سواء كان من الصليبيين أو من المسلمين المخالفين لفكرتها ومذهبها وعلى رأسهم الدولة الصفوية¹⁹ .

هذه الأخيرة هي الأخرى قامت على أساس مذهبي صريح منذ بدايتها حيث أصرَّ الشاه إسماعيل على التسمك بالمذهب الشيعي وأعلنه كمذهب رسمي ووحيد للدولة به يُحدّد الولاء السياسي لها بين مؤيديها ومعارضيهما، والأخطر من هذا وهو ما يدخل في

صلب هذا العامل هو اعتبار المذهب الشيعي الأساس الذي يوجه سياسات الدولة داخليا ويحدد طبيعة علاقاتها واستراتيجياتها الإقليمية والدولية خارجيا²⁰.
وبالفعل كان المحدد المذهبي هو المتحكم في العداء الذي ظهر بين العثمانيين والصفويين حيث إن كلا الفريقين اعتبر مواجهة الآخر حربا دينية وواجبا مقدسا، حيث رأى العثمانيون أن الدعاية الصفوية التي تنشر التشيع في الأناضول والعراق تشكل خطرا على مصالح الدولة وعلى وجودها من أساسه²¹، لأن ظهور الدولة العثمانية كقوة فاعلة إقليمية ودوليا قد كان معتمدا في أساسه على البعد الديني والأيدولوجي²² خاصة بعد حصول العثمانيين على لقب الخلافة الإسلامية في عهد السلطان سليم الأول 1520/1512 عند دخوله إلى القاهرة بعد هزيمة المماليك²³.

وبالتالي لم يرض العثمانيون عن النشاط الصفوي الشيعي وخاصة وأنه يعطي للصفويين وفق معتقداتهم الحق في حكم العالم الإسلامي باسم "آل البيت" والولاء لهم والاستمرارية في دعوتهم كباقي الدويلات الشيعية التي ظهرت عبر التاريخ.

لقد كان متغير "سنة - شيعية" عاملا رئيسيا في توتر العلاقات بين القوتين العثمانية والفارسية وفي نشوء حواجز نفسية بين المجتمعين وانتشار حالة من الكراهية والخوف المتبادل في أوساط الدولتين والذي تعمق بفعل الدماء التي سالت بين الطرفين أثناء المواجهات والحروب التي قامت بينهما²⁴، حيث يذكر المستشرق برنارد لويس أن العداء

المذهبي بين العثمانيين السنة والصفويين الشيعة لم يكن يقل عن العداء الذي كان بين العثمانيين والعالم الأوربي المسيحي²⁵.

فالأساس المذهبي كان منطلقاً محددًا لطبيعة العلاقات العثمانية الصفوية وقد تعزز هذا العامل بعامل آخر هو العامل العرقي القومي أو ما يمكن تسميته بالخلفية الديمغرافية للعلاقات القائمة بين البلدين.

حيث تشكلت الديمغرافيا العثمانية خلال مطلع القرن السادس عشر من عدة قوميات وشعوب كانت مركزها الأسرة العثمانية التركية ومن التف حولها من القبائل التركمانية والغزاة الأتراك ثم بدأت تتزايد تلك المكونات بفعل الفتوحات والتوسعات المتلاحقة لتشمل البلغار والصرب والسلاف والكرج والبوشناق والأرناؤوط والأكراد والأرمن والعرب واليونانيين واليهود... إلخ، فكانت الدولة العثمانية بذلك كيانا متعدد الأعراق والقوميات²⁶، يجمع بينهم تشكيل سياسي واحد، ويشير المؤرخون هنا إلى جو التسامح الديني الذي ساد داخل الأراضي العثمانية حيث تمتع المسيحيون بمختلف طوائفهم "الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت" بالحرية والأمان كما أن اليهود أيضا قد حفظت مصالحهم ومعتقداتهم حيث عاشوا في مختلف الحواضر العثمانية كإسطنبول وبغداد والجزائر وبورصة والموصل... في سلام وأمان بل وشكلوا فئة فاعلة وخاصة في الجانبين الاقتصادي والإداري²⁷.

وإذا قارنًا الديمغرافيا العثمانية بالديمغرافيا الصفوية سنجد أن هذه الأخيرة تشكل من عدد أقل من القوميات فالصفويون كأسرة يحسبون في تكوينهم الحضاري على التركمان

بغض النظر عن أصلهم الحقيقي الذي تتضارب حوله الروايات، حيث تعد القبائل التركمانية والمريدين التركمان النواة الصلبة لسكان الهضبة الإيرانية التي قامت عليها العصبية الصفوية ويضاف إليها المجموعات الفارسية والأوزبكية والأفغانية والبلوشية والكردية وبعض الولاءات العربية التي انضمت إلى الدولة في خضم توسعاتها ونشرها للتشيع²⁸، ويشار هنا إلى أن معظم هذه التشكيلات القومية كانت تدين بالإسلام السني والشيعي إلى غاية ازدياد نسبة الشيعة بفعل إعلان التشيع مذهباً رسمياً للدولة وفرضه عنوة على رعاياها²⁹.

وبذلك يكون التداخل الإثني بين الدولتين من حيث تشكيلاتهما القومية والعرقية الآسيوية عاملاً مهماً في تحديد طبيعة العلاقات بين القوتين العثمانية والصفوية سلماً وإيجاباً³⁰.

فالمنطلقات والأسس الدينية المذهبية التي تأسست عليها وسارت بها الدولتان العثمانية والصفوية قد كانت المحرك الرئيسي للتداخل بين القوتين فكان الصراع أمراً منطقياً فرضته مجريات الأحداث وطبيعة الأمور، فالعثمانيون لم يكونوا ليقبلوا بظهور قوة إسلامية جديدة تنافسهم في الزعامة وتختلف عنهم في التكوين المذهبي كما أن طموحات الصفويين واندفاعهم الطائفي ورغبتهم التوسعية قد عجل لهم بالصدام العسكري مع الجيوش العثمانية، فكانت هضبة الأناضول والهضبة الإيرانية ومناطق الأطراف الغير عربية وبلاد المشرق العربي مسرحاً لصدام عثماني صفوي دام أكثر من قرنين من الزمان

1736/1514 ، وقد ألقى ذلك الصراع بظلاله على العلاقات بين تركيا وإيران إلى يومنا هذا .

الهوامش:

- ¹ يُعَدُّ الدينُ رافدا رئيسيا في التكوين الحضاري بغض النظر عن صحة تعاليمه من خطئها.
- ² مالك بن نبي مفكر وفيلسوف جزائري 1973/1905 له عشرات المؤلفات في الفكر والفلسفة وفلسفة التاريخ، أرنولد جوزيف توينبي مفكر انجليزي 1975 /1889 أهم أعماله " دراسة للتاريخ" وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين (للتوسع أكثر أنظر: مولود عويمر، مالك بن نبي حياته وآثاره، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط1، 2011)
- ³ مثل كارل ماركس وفريديك إنجلز وهيغل وجون بول سارتر.
- ⁴ السلطان عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه (/1258م - 1326م) الملقب بعثمان الأول هو مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها، وإليه تنسب الدولة التي استمرت إلى سنة 1923 ودام حكمه من عام 1299 إلى 1324 بعد وفاة أبيه أرطغرل بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي (أنظر: سعيد أوزتورك وأحمد أق كوندز، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، 2008، ص58).
- ⁵ صفى الدين اسحاق ابن الشيخ أمين الدين جبريل ابن السيد صالح ابن السيد قطب الدين أحمد، يعد الجد المؤسس للسلالة الصفوية التي حكمت إيران بين سنتي 1736/1501.
- ⁶ برنارد لويس (من مواليد 1916 بلندن) أستاذ في الجامعات البريطانية والأمريكية لدراسات الشرق الأوسط متخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب ويشتهر خصوصا بأعماله حول تاريخ الامبراطورية العثمانية ترجمت أغلب مؤلفاته إلى 20 لغة منها العربية، الفارسية، التركية والإندونيسية (أنظر: برنارد لويس، إستنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 1982، ص7)
- ⁷ برنارد لويس، المرجع السابق، ص177.

- ⁸ محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ط1، 2001، ص37.
- ⁹ إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض ط1، 1996 ص12.
- ¹⁰ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 2000، ص27.
- ¹¹ عمار بن خروف، دروس ومحاضرات مقياس المسألة الشرقية وتفكك العالم العربي، أُلقيت على طلبة السنة الأولى ماجستير، تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر، 2012 / 2013.
- ¹² مصطفى كامل، المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، مصر، ط1، 1998، ص05.
- ¹³ هو شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه "النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة"، وقد نشره مصطفى حلمي بعنوان "الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص11.
- ¹⁴ إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص232.
- ¹⁵ محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي على أوروبا، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1987 ص44.
- ¹⁶ تعاني الأمة الإسلامية من تأثير الاختلاف المذهبي والطائفي على الاستقرار السياسي والانسجام الاجتماعي حيث نشبت عدة حروب أهلية وتسود اضطرابات سياسية بهذه الخلفية في زمننا الحالي في دول عربية مثل (العراق، سوريا، لبنان...).
- ¹⁷ رغم الاختلاف المذهبي بين أبناء الديانة النصرانية من الأوروبيين (فرنسا وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال الكاثوليك - ألمانيا وبريطانيا البروتستانت - ودول أوروبا الشرقية الأرثوذكس) إلا أننا نشهد اليوم نجاح تجربة الاتحاد الأوروبي سياسيا واقتصاديا والتي تجاوزت الصراعات الدينية والمذهبية.
- ¹⁸ نقل العثمانيون بعد دخولهم القاهرة الخليفة العباسي الذي كان بالبلاط المملوكي إلى إسطنبول وهنا تتناقل المصادر العثمانية قصة تنازله عن الخلافة للسلطان سليم الأول (1512/1520) والذي يُعد

- أول سلطان عثماني يُلقب باسم الخليفة (أنظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981، ص194).
- ¹⁹ محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1299-1923)، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989، ص55.
- ²⁰ محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1501/1736، دار النفائس، بيروت، ط1، 2009، ص54.
- ²¹ عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الإنجلومصرية، القاهرة، 1980، ص19.
- ²² عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999، ص30.
- ²³ بقيت هذه القضية التاريخية شائكة ومحط خلاف بين من نفاها من أساسها وبين من أثبتها وأعطى الشرعية للعثمانيين بها، وبين من أصّل شرعياً على أن الخلافة الإسلامية الحقيقية لا تنتقل بتلك الطريقة التي تمّت بها للسلطان العثماني سليم الأول.
- ²⁴ تتناقل المصادر التاريخية أخباراً عن مذابح قام بها الصفويون في حق أهل السنة من سكان الهضبة الإيرانية وتحومها ومذابح قام به العثمانيون في حق الشيعة الصفويين (أنظر: محمد عبد اللطيف هريدي، المرجع السابق، ص48 وانظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص189).
- ²⁵ برنارد لويس، المرجع السابق، ص53.
- ²⁶ عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص112.
- ²⁷ نفسه، ص111.
- ²⁸ عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص115.
- ²⁹ تذكر المصادر العثمانية إجبار الصفويين لأهل السنة من رعايا الدولة إلى التحول للمذهب الشيعي بالقوة وبجد السيف وأنهم قاموا بتصفية كل من رفض ذلك، عكس العثمانيين الذين عرفوا بتسامحهم الديني حتى مع غير المسلمين.
- ³⁰ نفسه، ص117.

مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعاطي مع الثورة الجزائرية:

الحرب النفسية الفرنسية و المرأة الجزائرية أنموذجا

1962-1955

د/ جمال قندل / جامعة الشلف

الملخص :

تبحث الدراسة، إشكالية موقع المرأة الجزائرية من ثورة نوفمبر 1954، من حيث المشاركة في صناعة الفعل الثوري على اختلاف طبيعته، على نحو ساهم في دفع وتطوير الثورة في مجالات مختلفة و متنوعة من جهة، في الداخل كما في الخارج على حد سواء و الوقوف عند إحدى أهم الآليات الإستراتيجية التي جنح إليها الاحتلال الفرنسي ممثلة في آلية الحرب النفسية التي اعتمدت بالتوازي مع تطور الثورة، وبحث أسباب التركيز على المرأة كطرف رئيس شكّل مدار الحرب النفسية، لضرب الرغبة الثورية وشلّ الإرادة الواعية لدى المرأة .

Abstract :

The present study examines the problematic of the position of Algerian women in the revolution of November 1954 in terms of her participation in the manufacture of the revolutionary act of different nature, in a manner that contributed to the advancement and development of the revolution in various and varied fields inside and outside Algérie, The most important strategic mechanisms that the French occupation has succeeded in are represented in the psychological warfare mechanism adopted in parallel with the development of the revolution, and

the reasons for focusing on women as a main party in the form of psychological warfare.

In addition of this, the study examines the impact of the psychological war on Algerian women and revolution.

الكلمات المفتاحية

الثورة الجزائرية، المرأة، الريف، المدينة، الاحتلال الفرنسي، مجالات مساهمة المرأة، الحرب النفسية، أدوات الحرب النفسية.

Keywords

Algerian Revolution, Women, Rural, City, French Occupation, Women's Contribution, Psychological Warfare, means of psychological warfare

توطئة

أدرك القادة الفرنسيون، السياسيون والعسكريون على حد سواء، بصرف النظر عن مواقعهم ومستوياتهم، أن الاعتماد على الخيار العسكري كخيار أوحدهم للقضاء على الثورة الجزائرية، يُعد خياراً ضرورياً وأساسياً، بالنظر إلى النتائج التي يحققها في الميدان. بيد أنه يبقى غير كافٍ لوجوب دعمه وتعزيزه بخيارات أخرى، ومن ثمة بات من الضروري البحث عن بدائل أخرى مُدعمة ومُكملة في الوقت ذاته للخيار العسكري، خاصة وأن المسؤولين العسكريين أضحوا يرون في الميدان باستمرار، ويلمسون بصدق التطور النوعي المتدرج للثورة.

وفي هذا السياق، خُلق بنا التأكيد أن الجنرال بارلانج Parlange قائد القسم العسكري القسنطيني، اقترح و أُلح في الآن ذاته على القيادة العسكرية الفرنسية،

بعد أن أبصر شدّة وقوة، بل وخطورة هجمات جيش التحرير الوطني على راهن ومستقبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية في جزائر الثورة، وجوب اعتماد وتطبيق الطرق والأساليب ذاتها، التي تم اعتمادها في المغرب، وأثبتت فعاليتها في الميدان مع مرور الوقت، حيث تمثلت تلك الطرق بناء على رأي بارلانج في الفصائل الإدارية المتخصصة، و التي كانت ضربين. حيث أن النوع الأول، شمل الفصائل التي توزعت على مستوى القرى و المداشر، ما أضفى عليها الطابع الريفي، فيما تمثل النوع الثاني في تلك الفصائل الإدارية الحضرية والتي توزعت بدورها على مستوى المدن⁽¹⁾.

وقد أخذت تلك المراكز على عاتقها مهمة غاية في الصعوبة و الخطورة، في الآن ذاته على الثورة من جهة، وعلى الشعب الجزائري من جهة ثانية. ولكن قبل الاسترسال في الحديث عن الحرب النفسية كأداة من الأدوات الأخرى التي استعملت واستمر استعمالها إلى غاية الاستقلال من قصف، تدمير، تعذيب و تهجير، واغتصاب.... خليق بنا تحديد ماهية الحرب النفسية من خلال بحث المصطلح علميا، والوقوف عند حقيقتها وتداعياتها على مسار الثورة التحريرية.

أولا: تحديد ماهية الحرب النفسية :

1-التحديد المصطلحي للحرب النفسية :

من الأهمية بمكان، الإشارة إلى أن علم النفس الاجتماعي، يمثل القاعدة النظرية والتطبيقية للحرب النفسية. ولذا فإن الرجوع إليه لضبط مدلوله، على أساس سليم، يشكل استنادا علميا متينا، من شأنه أن يجعل الصورة عن الحرب النفسية، أكثر وضوحا.

2- مفهوم علم النفس الاجتماعي :

يعرف علماء النفس، علم النفس الاجتماعي، بأنه " ذلك الميدان من علم النفس الذي يتناول الكائنات الحية من حيث هي تؤثر في أقرانها، وتتأثر بها. وأن علم

النفس الاجتماعي يركز اهتمامه في مبادئ السلوك الاجتماعي، كما يقع في الأحداث المختلفة⁽²⁾. كما يعرف أيضا بأنه "هو ذلك العلم الذي يدرس سلوك الفرد، كما يتشكل من خلال المواقف الاجتماعية"⁽³⁾.

3- مفهوم الحرب النفسية في ضوء علم النفس :

للحرب النفسية أسماء كثيرة تعبر عنها، منها: الحرب العقائدية وحرب الأعصاب، الحرب السياسية، حرب الأفكار للحصول على إرادة الرجال و أفكارهم. وهناك من يطلق عليها اسم التسميم السياسي. وقد تنوعت تعريفاتها و تعددت، فهي تتسع و تضيق حسب الغاية المرجوة منها، وحسب المواقف و العلاقات الدولية⁽⁴⁾. ونسوق في هذا الصدد، بعضا من تلك التعريفات لتشكيل رؤية حول حقيقتها و أسسها و مرتكزاتها.

التعريف الأول: " الحرب النفسية هي استخدام أي وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية، وعلى سلوك أي جماعة لغرض عسكري معين"⁽⁵⁾.

التعريف الثاني: ورد هذا التعريف في معجم المصطلحات الحربية للجيش الأمريكي: " إن الحرب النفسية هي استخدام مخطط من جانب الدولة، في وقت الحرب أو في وقت الطوارئ، لإجراءات دعائية، بقصد التأثير على آراء، عواطف، مواقف و سلوك جماعات أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة بطريقة تعين على تحقيق سياسة الدولة و أهدافها"⁽⁶⁾.

ولكن بالعودة إلى المصادر الفرنسية، وبخاصة العسكرية منها، على اعتبار أن الحرب النفسية عمل عسكري صرف، ولكن ذو طابع خاص، فإنه يمكننا الوقوف عند مفهوم واحد، في ظلّ تداخل الحرب النفسية مع أعمال و أنشطة أخرى، كالدعاية و التضليل الإعلامي و الجوسسة والعمل المخابراتي، وكل ما من شأنه أن يهدم معنويات الخصم و يوقع به و يضعف شوكته و يشل إرادته. وقد برز ذلك، بشكل رئيس و جليّ

من خلال وجود المكتب الخامس " bureau 5^{ème}"⁷، كهيكل قائم بذاته يُعنى بالحرب النفسية، إلى جانب المكتب الثاني الذي اضطلع بالعمل الاستخباراتي.

و بالعودة إلى الأرشيف العسكري الفرنسي، نجد أن الخبراء العسكريين الفرنسيين، عرّفوا الحرب النفسية بالقول: "هي حشد واستعمال منظم و مخطط لوسائل و أساليب مختلفة، للتأثير في آراء و مواقف و سلوكيات الخصم، سواء كان هذا الخصم، سلطة، أو جيشاً أو شعباً، بما يُمكن من إضعاف مقاومته وفرض إرادة مخالفة لإرادته، تخدم الأهداف الوطنية"⁽⁸⁾. و هناك تعريف آخر، تضمنه دليل ضابط الحرب النفسية في الجزائر، وهو على جانب كبير من الأهمية، لا لشيء إلا لأنه اعتبر المرجع الأساس للضباط و غيرهم من العاملين في مجال الحرب النفسية. و قد عرفها بالقول: "هي التوظيف المخطط للدعاية، ولكل وسيلة أخرى، تصلح للتأثير في آراء و عواطف و مواقف وسلوكات الجماعات الإنسانية، سواء كانت صديقة أو محايدة أو معادية، خدمة للمصلحة الوطنية"⁽⁹⁾.

ثانيا : مشاركة المرأة في الفعل الثوري

إن الوعي بضرورة الجنوح باتجاه الخيار المسلح، كطريق أوحده نحو التحرير، و إعادة بعث استقلال الجزائر التي ما انفكت تتن من بطش الاستعمار وعذابا ته غير المنقطعة، لم يكن قطّ ميزة تفرد بها الرجال فحسب، بل إن المرأة الجزائرية المسلمة، لم تشذ عنها، وعلى هذا الأساس، ألفينا أنفسنا أمام وضع عكس الحضور الصادق والفاعل للمرأة، طوال فترة الثورة، على امتداد ولايات الوطن، و عبر مختلف المصالح والهياكل، التي أنشئت، بغرض دفع وتطوير الثورة.

وفي هذا السياق، ذكر العقيد على كافي أنه : "من الريف انطلقت الثورة في حجمها الأكبر، وبالتالي فإن المرأة الجزائرية واكبت وشاركت في الثورة منذ انطلاقتها

الأولى... امرأة الريف مثل رجل الريف، هي التي تحملت أكثر الاضطهاد و الإهانة أمام الاستعمار... «(10).

إن المرأة الجزائرية التحقت بالثورة، في الريف والمدينة على حد سواء ، بيد أن الثورة تختلف باختلاف خصوصيات كل من الريف و المدينة. غير أن الغالب في كفاح المرأة هو الريف. وهو ما جعل نسبة المرأة المجاهدة الريفية تصل إلى 78 في المائة⁽¹¹⁾. و قد ذهبت الباحثة الاجتماعية "ماري إيبي Marie Aimée" إلى تأكيد ما ذهب إليه العقيد كافي، بقولها " أن دور المرأة في الريف فاق بكثير دور المرأة في المدينة، ولهذا تكمن الصعوبة في تحديد عدد النساء اللواتي اشتركن في حرب التحرير الوطني في الأرياف، على عكس المدن.. «(12).

1: مجال نشاط وحركة المرأة في ظل الثورة :

1-1 المهّمات التقليدية :

كان التحاق المرأة بالثورة، على جانب كبير من الأهمية، من حيث توفير بعض الشروط الموضوعية لمجاهدي جيش التحرير الوطني، الذين كانوا في مواجهة دموية مستمرة مع قوات الاحتلال الفرنسي ، عبر امتداد مناطق الثورة. وقد اضطلعت بمهام تمثلت بالأساس في الطبخ للجنود، وغسل الثياب والتنظيف، ويبدو العمل في الظاهر، هيّنا أو غير ذي بال، ولكنه انطوى على أهمية كبيرة، كما شكل خطورة جسيمة في الآن ذاته، على اعتبار أن العمل يكيف على أنه من صميم المسبلين. وتذكر في هذا السياق، الباحثة جميلة عمران، التي أنجزت دراسة حول المرأة الجزائر و حرب التحرير، أن عدد المسبلات، أي المناضلات المدنيات ، كان كبيرا جدا، حيث يشكل الجزء الأكبر بالنسبة لموقع المرأة في الثورة. كما أن معدل سنهن يبلغ 32 سنة⁽¹³⁾، وهو متقدم جدا قياسا، بسن المجاهدات والفدائيات الذي لا يتجاوز ولكن على الرغم من ذلك، فإنهن لم يقعدن

عن مناصرة الثورة وتقديم المساعدة، اعتقاداً منهم أن ذلك من مقتضيات الإيمان وضرورات الوطنية.

ويورد في هذا الصدد ضابط جيش التحرير الوطني، بالولاية الثالثة، عبد الحفيظ أمقران، واقعة تعكس رباطة جأش المرأة ومساعدتها للثورة و استعدادها للتضحية. و قد ذهب يقول: " في أواخر سنة 1956 وقعت معركة بالمنطقة الأولى من الولاية الثالثة، التي كانت تحت قيادة سي حميمي، وقد سقط من جيش الاستعمار، عدد كبير وكان هناك سلاح غنمه المجاهدون، ولكن عسكريا فرنسيا سقط في مكان لم يره فيه أحد. ولما انسحب الجيش من أرض المعركة اكتشفت امرأة العسكري الفرنسي و بجواره مدفع رشاش أتت به إلى منزلها، وبعد المعركة أرسلت ولدها واتصل بسي حميمي وطلب منه الجيء لاستلام المدفع الرشاش، وهو أول مدفع رشاش غنم " (14).

وتذكر إحدى المسجلات التي كانت تقطن بإحدى ضواحي مدينة دلس، أن جبهة التحرير الوطني أمرت بإيجاد مخزن لتخزين المؤونة ، وبعدها ألقى عليه القبض من طرف قوات الاستعمار، استأنفت مهمته ، و حول تلك العملية، ذهبت إلى حد القول: " يقصدنا مسبلون حاملين وثيقة محررة من طرف مسؤول جيش التحرير الوطني يحدد فيها أنواع المؤونة، وغالبا ما تكون الزيت و الدقيق، يضاف إليها أحيانا السمك الذي نشتره من دلس " (15).

وفي الرابع والعشرين ديسمبر 1956 التحقت الطالبة رحمة بلبوري⁽¹⁶⁾، بصفوف الثورة، و سنها لا يتجاوز الخامسة عشر، بمعسكر. بعد أن تركت مقاعد الدراسة بالثانوية وبعد استفادتها من تكوين عسكري حول حرب العصابات، وفك وتركيب الأسلحة واستعمال القنابل اليدوية لفترة تدريبية قصيرة. ونظير ما أظهرته من استيعاب سريع، وما أبانت عنه من كفاءة، كلفت بالاضطلاع بمهمة كاتبة بالناحية الأولى من المنطقة السادسة للولاية الخامسة⁽¹⁷⁾.

وعلى غرار مهمة الأمانة التي أشرفت عليها، فقد كلفت بإنجاز المنشورات، والرسائل وتحرير محاضر الجلسات، إضافة إلى مهماتها التوعوية وسط النساء الجزائريات، وتوجيهن، فضلا عن السعي الدؤوب لمعرفة كل نأب ذي صلة بتحريك قوات الاستعمار، وكذا معرفة الخونة والمتعاونين مع إدارة الاحتلال الفرنسي.

وذكرت الطالبة المجاهدة، خيرة كسيرة⁽¹⁸⁾، التي التحقت بصفوف الثورة، بالمنطقة السادسة من الولاية الخامسة، في شهر مارس 1956، أنها بعد خضوعها لتدريب سياسي وعسكري قصير المدّة، اشتمل على كفاءات استعمال الأسلحة والقنابل اليدوية ونصب الكمائن وكيفية الاتصال بالعائلات وإقناعها بضرورة تقديم الدعم و المساعدة للثورة، وتلقي الأخبار منها. و قد

عملت بالمركز الصحي، بعد أن أجرت تكوينا في الشبه الطبي، على يد الدكتور خالد، ومنذ ذلك الحين وهي تمارس مهامها شبه الطبية في المراكز الصحية للثورة⁽¹⁹⁾.

2-1- مراقبات المناطق :

وفي تطور نوعي لافت، عكس عمق وعي الثورة بضرورة الحراك، باتجاه استغلال كافة الإمكانيات المتاحة وتوظيف الطاقات القادرة على إحداث التغيير الإيجابي في مسعى الثورة، خطا القائد عبد الحفيظ بوصوف، خطوات مشهودة في دفع المرأة باتجاه اختصاصات، لم تكن معروفة من قبل. وهو ما جعلها محطّ اهتمام مختلف مناطق الثورة، التي رأت في العملية، قفزة جديدة بالتطوير، لمواكبة التطورات المشهودة التي عرفتها الثورة. حيث تمثلت تلك النقلة، في أنه خلال سنة 1956، عمد بوصوف إلى استغلال سائحة الإضراب التاريخي للطلبة في التاسع عشر ماي 1956، ليلتقي وينتقي بعضا منهم، رأى فيهن مواصفات التميز وخلال القدرة على التفوق⁽²⁰⁾.

ولعل ما جعلهن يتميزن بتلك الموصفات، هو سبقهن النضالي، حيث أُنهن برزن من خلال نشاطهن وسط الحركة الطلابية في المغرب، ضمن الاتحاد الوطني للطلبة المغاربة ، في المرحلة الأولى، ثم ضمن الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، في المرحلة الأخيرة، قبل التحاقهن بصفوف الثورة. وقد شاركن في عملية الانتخاب الخاصة بتشكيل فرع وحدة ل (إ،ع،ط،م،ج)، واستطعن الحصول على مقعدين مميزين، بيدوان من خلال الآتي :

الرئيس : عمر غربي.

نائب الرئيس: مليكة حجاج.

الأمين العام: عبد العزيز بوتفليقة.

المساعدون: طيب بن يخلف، عبد المجيد قوار، لطيفة رحال و رشيدة ميري⁽²¹⁾.

إن عملية انتقاء العناصر لإجراء التكوين، خضعت لشروط دقيقة وصارمة ومقابلة شخصية مع عبد الحفيظ بوصوف. وقد أسفرت العملية على انتقاء سبعة عشر عنصرا، منهم ثمانية فتيات وقد خضعت المجموعة لتكوين دام خمسة وأربعين يوما ، وعند نهاية التكوين، أجري امتحان كتابي و آخر شفوي، إلى جانب تمارين عسكرية متقدمة جدا ، كانت تدوم أحيانا إلى ساعات متأخرة من الليل. ودخل الفوج الولاية الخامسة، بعد أن عبر الخط المكهرب، بمعية نازع للألغام، تولى تأمين الطريق، بعد تحييد ونزع الألغام التي قد تعرقل سير و دخول الفوج، بل قد تعرض حياتهم للخطر.

وفي هذا الصدد، تجب الإشارة، أن المهمة المنوطة بهؤلاء، سياسية أكثر منها عسكرية، ذلك أنها ترمي إلى الانتقال إلى المناطق ومعاينتها على نحو شامل ودقيق، يغطي كافة الجوانب، منها التنظيم العام، المجال العسكري والمجال السياسي، إلى جانب بعض المهمات الخاصة، التي تخضع لمعطيات خاصة بكل منطقة على حده، كنشاط الحركة الوطنية الجزائرية، تحرك بعض الحركات والمخبرات. وتجمع تلك المعلومات و

المعطيات، ذات الصلة بالمجالات و الجوانب المحددة في تقرير عام يُطبع بالسرية حول
الوضعية التي شكلت أساس مهمة المراقب.
وللتذكير فإن التقرير ركز بشكل أساس، على المجال السياسي، حيث كُلف مراقبو
المناطق بضرورة إيلاء الأهمية الكبيرة للمسائل التالية :

- أ- تعداد مناضلي جبهة التحرير الوطني.
- ب- الحالة النفسية للمناضلين.
- ت- مستوى الروح القتالية.
- ث- علاقات الشعب بجبهة التحرير الوطني.
- ج- الحالة الصحية على المستوى الشعبي.
- ح- الوقوف على دعاية العدو وسط الشعب.
- خ- الاستعلام حول تسيير المجالس الشعبية وحضورها على مستوى الشعب⁽²²⁾.

وذكرت مليكة حجاج، التي اضطلعت بمهمة مراقبة منطقة في شهادة لها: "عندما
نكون في الوسط النسوي، في أي دوار، نتخلى عن لباسنا العسكري، ونلبس لباس
النساء المحلي، حتى لا نثير انتباه أي أحد، قد يوشى بنا، أوفي حالة حدوث أي تمشيط
مفاجئ لقوات الاستعمار، ذلك أن القمع يكون شديدا، إذا علمت سلطات الاحتلال،
أن دوارا ما يقدم الدعم والإيواء للثوار..."⁽²³⁾.

كما ذكر المجاهد دحو ولد قابلية، في سياق الحديث عن تطوع قادة المنطقة
الخامسة، إلى السعي نحو النهوض بالثورة إلى مستويات عالية، من خلال اعتماد أسلوب
التكوين: "إن الانشغالات الرئيسة لقائد المنطقة الخامسة، محمد العربي بن مهدي، ونائبه
عبد الحفيظ بوصوف، تمحورت حول ضرورة تسليح مجاهدي المنطقة، إلى جانب غياب
الربط والاتصال، ولكن بمجرد تحقيق عنصر التسليح، انتقل القائد إلى المرحلة الثانية،

القائمة على اعتماد سياسة التكوين، بالاعتماد على الإمكانيات البشرية الهامة التي أنتجها إضراب الطلبة والثانويين في شهر ماي 1956⁽²⁴⁾.

لقد توخت جبهة التحرير الوطني، باعتبارها التنظيم السياسي الجديد الذي ظهر على الساحة، في الجزائر، وهو الذي سيكون له شرف قيادة الجزائريين باتجاه تجميع الجزائريين شعبا وتنظيمات، حول كلمة سواء، هي الثورة على الاحتلال الفرنسي، ابتداء و انتهاء، إدراكا منها لنبل وشرف المهمة من وجهة، وصعوبتها، بل واستحالة الاضطلاع بها لوحدها، من وجهة أخرى. لذلك كثف قادة ومسئولو الثورة الاتصالات مع كافة القوى السياسية والجمعيات ورغبة في انضمامها للثورة، وهو عمل ذو بعدين رئيسين، حيث يتمثل الأول في تعميق القطيعة مع إدارة الاحتلال، على نحو نهائي، فيما يتمثل الثاني في تعزيز جانب الثورة على مستويات مختلفة، وهو ما يساعد على تحسين توقعها في الداخل والخارج على حد سواء.

ثالثا: الحرب النفسية الفرنسية و المرأة الجزائرية: استقطاب و توظيف :

أولت سلطات الاحتلال الفرنسي عموما، و القائمون على إدارة شؤون الحرب النفسية بشكل خاص، الفرق الطبية المتنقلة أهمية كبيرة، إدراكا منها للدور الحيوي الذي تضطلع به، قياسا بالمجموعات الأخرى التي تتحرك في المجال ذاته. و لعلّ السرّ الكامن وراء الاهتمام الكبير الذي حظيت به الفرق الطبية، يعود إلى الوسط الذي شكل مدار حركتها ونشاطها، وهو مجال حيوي و استراتيجي، في منظور الإستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، ليس لكونه مرتبطا براهن الاحتلال في الجزائر فحسب، على الرغم من أهمية ذلك، في تطويق و خنق الثورة، بل لارتباطه الوثيق بالمستقبل، وذلك هو الأهم، على اعتبار أن النجاح في تحقيق الأهداف الآجلة، من شأنه أن يُبقي على المصالح الفرنسية على اختلاف طبيعتها، مصونة أمدا بعيدا.

ونستشف حقيقة ما ذهبنا إليه، من خلال الدراسة التي أعدتها مصلحة "الصعوبات الإنسانية" التابعة للمكتب الثالث، بقيادة أركان القوات المسلحة. و التي قدمت لتكون أرضية ينطلق منها القائمون على العمل النفسي بالمكتب الخامس (25).

و قد جاءت الدراسة تحت عنوان "العمل في الأوساط النسوية بالجزائر" ((Action sur les milieux féminins en Algérie، وتوزعت على ثلاثة فصول. حيث انضوى الفصل الأول تحت باب العموميات، الخاصة بالوسط النسوي في الجزائر، و تركز الحديث على الأهمية التي تشكلها المرأة في المجتمع الجزائري، باعتبار أنها تمثل نصف المجتمع، و هو ما يوجب استفراغ جهود معتبرة، سواء تعلق الحديث عن الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة، التابعة مباشرة للجيش، أو تلك الأعمال التي تنجز في ضوء مبادرات عمومية أو خاصة، مثل ملحقات الشؤون الجزائرية (Attachées des affaires Algériennes) و مديرات مصلحة تكوين الشباب في الجزائر) Monitrices du service de formation des (jeunes en Algérie)، أو حركة التضامن النسائي (Mouvement de solidarité féminine).

ثم عرّجت الدراسة على مسألة هامة متعلقة بالاستعمال الجيد للوسائل و الإمكانيات التي ترصد لإنجاز المهمّات، سواء تعلق الأمر بالجانب الكمي أو النوعي لتلك الوسائل. و قد حازت الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة، الحيز الأكبر من الدراسة، بالنظر إلى أهميتها و الدور المنوط بها. وتجلّى ذلك بشكل واضح، عندما اعتبرت أداة من أدوات "التهديئة"، التي استعملت في القضاء على الثورة، بدءا بالمقاربة الأمنية التي ارتكزت على الخيار العسكري القمعي، للحد من توسع وامتداد الثورة على طريق استئصال شأفة العمل العسكري الثوري. ومن ثمة فإن مهمتها لا تنأى بعيدا أو تختلف

كثيرا عن المهمة الملقاة على عاتق مسؤولي الدفاع الذاتي، نوادي الشباب، و جمعيات قدماء المحاربين، وكذا الحركى و القومية.²⁶ وعلى هذا فإن مهمة تلك الفرق تتباين مع سابقاتها من حيث الشكل و تتقاطع معها من حيث الهدف و الموضوع، نتيجة للخصوصية التي تميزها. و قد أوضحت الدراسة أن مهمة الفرق تتحدد من خلال الآتي (27):

1-وجوب الاتصال بالوسط النسوي في الجزائر، لتحقيق الاهداف الآتية :

أ- معرفته.

ب- إعلامه.

ت- تربيته.

ث- تنظيمه.

ج- قيادته.

2-إن الوصول إلى تحقيق تلك الأهداف الجزئية من عملية الاتصال بالوسط النسوي، تمكننا من تهيئته لهدفين رئيسيين هما :

أ- تمكينه في المرحلة الأولى من التكيف مع المعطيات الجديدة، بعد نقله إلى وسط جديد لم يعهده من قبل.

ب- تمكينه من أن يعيش على نحو واقعي، الحل للمشاكل الجزائري، في ضوء الصبغة الفرنسية. و لذا فإنه بات لزاما على أعضاء الفرق الطبية الاجتماعية، أن تُظهر للوسط النسائي الجزائري المستقبل العصري للحياة في الجزائر، الذي تقترحه فرنسا، بشكل محسوس و ملموس، بعيدا عن التخمينات و الطرح النظري، خاصة وأن البؤس و الحرمان باتا يلازمان حياة الجزائريين. وعلى هذا فإن المساعدة الاجتماعية و الطبية التي تقدم

للسلط النسائي كفيلا بجذب الجزائريات و تحسين صورة سلطات الاحتلال الفرنسي لديهن.

أما الفصل الثاني، فقد جاء تحت عنوان "الوسط". و ذكر في الديباجة أن المهمة الملقاة على عاتق سلطات الاحتلال، تتمثل أساسا في القيام بعمل كفيلا بتحويل الجزائريين من خلال تمكين السكان وبشكل خاص العنصر النسوي من الانتقال إلى مستوى آخر، من العيش قائم على نمط حضاري عصري، بصورة متدرجة، دونما صدمة. و إننا إذ نصلو إلى بلوغ ذلك، فإننا نأخذ بيد المرأة الجزائرية من خلال الارتكاز على العناصر الآتية :

- أ- نسعى إلى تمكينها من الاعتماد على نفسها، من خلال منحها الثقة بنفسها.
 - ب- نضع بين يديها الأداة التي تمكنها من الاختيار الحرّ لمستقبلها، أي بمعنى أننا نعرض عليها صورتين متباينتين، الأولى تخص مستقبلها في ظل العيش داخل الإطار الفرنسي، أما الثانية فتخص مستقبلها في ظل العيش داخل الجزائر و بعيدا عن فرنسا.
 - ت- ندافع عن المرأة ضد الأخطار التمييزية التي تهدد جميع الدول المتخلفة.
- و انطلاقا من هذا، فإن المهمة التمديدية التي نسعى لتمكين المرأة الجزائرية منها، تشكل في الأصل رهان الكفاح و أدواته، لا لشيء إلا لأن انخراطها و مشاركتها لنا عملنا، يعتبر ضروريا⁽²⁸⁾.

و جاء الفصل الثالث و الأخير من الدراسة، تحت عنوان "الوسائل" و هي على جانب كبير من الأهمية، إذ يتعدى إذا لم يكن مستحيلا إنجاز تلك المهمة الصعبة، بمعزل عن الوسائل والإمكانات⁽²⁹⁾.

و المتبع لمسار الحرب النفسية للاحتلال الفرنسي في الجزائر، يدرك صعوبتها وخطورتها العاجلة و الآجلة على ثورة الدولة و دولة الثورة في الآن ذاته. و لعلّ ما يؤشر على ذلك، هو أن أدوات الحرب النفسية التي استعملت خلال الثورة التحريرية، كانت

متنوعة و عديدة كما تختلف باختلاف درجة التأثير من حيث المحدودية أو الامتداد. وضمن هذا السياق، خليك بنا الإشارة إلى التقرير الذي أعده العقيد برافلي "Bravelet" قائد الفيلق 151 للمشاة الميكانيكي، بإقليم قلمة و الذي أرسله إلى الجنرال قائد الفرقة الثانية للمشاة الميكانيكية⁽³⁰⁾، وتمحور التقرير حول موضوع المرأة الجزائرية، من حيث السعي إلى استقطابها وتأهيلها تأهيلا شاملا، كفيلا بتوظيفها في مشروع الثورة المضادة، من خلال إيجاد نخبة نسائية متغربة على المدين المتوسط والبعيد، تعلن الولاء للثقافة و الحضارة الغربية فكرة وممارسة، و تعادي كل عمل أصيل يرنو التمسك بالثوابت و الحفاظ على القيم.

حيث تحدث التقرير عن اجتماع نظمته سلطات الاحتلال الفرنسي، توحى بجميع النساء لا غير، بمنطقة هيليوبوليس، وأقيم بساحة المدرسة خلال شهر أوت 1957، على الساعة الثالثة بعد الزوال. وقد كان فريق العمل النفسي مزودا بالأدوات و الأجهزة اللازمة، من مكبري صوت، ميكروفون، وجهاز راديو. أما برنامج الاجتماع فقد كان كالآتي:

أ- موسيقى مسجلة.

ب- نشرة ناطقة، ضمت أخبارا عامة و أخرى محلية خاصة بالمنطقة.

ت- موسيقى.

ث- تعليق حول الأخبار الهامة.

ج- موسيقى مسجلة.

بالنسبة للتعليقات على الأخبار الهامة فإنها كانت تتعلق بالشأن الأمني الصرف، من حيث الوقوف عند الحصيلة العامة ذات الصلة بالحالة الأمنية، امتدادا و انحسارا، والتي كانت تصل من عنابة، وكانت تعرض ضمن حصة "أعلمونا". بيد أن البث و التعليق كان مدروسا دراسة قائمة على هدف رئيس توحى إضعاف إرادة السامعين من

الحضور، من خلال التركيز على الأسرى الجزائريين خلال المعارك ومختلف العمليات العسكرية، فضلا عن عرض عمليات استسلام بعض عناصر جيش التحرير الوطني، في صورة تُظهر قوة عساكر الاستعمار، و مدى تحكمهم في الميدان، بل وسيطرتهم على الواقع من جميع الجوانب. و في المقابل، يقدم المجاهدون في صورة الفاشلين العاجزين عن تحقيق أي تقدم، ومن ثم التركيز على دنو أجل "الخارجين على القانون".

و لعلّ ما يلفت الانتباه في التقرير، هو تركيز العقيد برافلي كثيرا على سلوك الجزائريات اللاتي حضرن الاجتماع، و الذي كان حلقة ضمن سلسلة لاجتماعات كثيرة، عكست حرص سلطات الاحتلال الفرنسي، على التفاني في العمل من أجل إنجاح مهمة استقطاب المرأة الجزائرية و التأثير عليها على نحو متدرج، لاستغلالها في هدم بني الثورة. و يمكن ضبط و تحديد الملاحظات التي استخلصتها من قراءتي لتقرير العقيد برافلي في الآتي: (31)

- 1- إن الفكرة المستخلصة و التي انطلقنا منها أن للمرأة المسلمة تأثيرا كبيرا في البيت، وهو ما يوجب التعامل معها من خلال عمل مباشر خلال الاجتماعات المقررة.
- 2- لم يكن بإمكان المرأة قبل سنتين من حضور أي اجتماع (1954-1956).
- 3- الاجتماع الأول حضرته النساء على نحو ملزم، ولكن فيما بعد أصبح حضورهن بناء على رغباتهن.
- 4- بعد الفراغ من الاجتماع كانت النساء تقبل لتطرح أسئلة، وكن يعرضن الصعوبات التي تعترضهن على الضباط الحاضرين.
- 5- جُربت السينما كأداة استقطاب و تأثير، ولوحظ انجذاب المرأة المسلمة إليها.
- 6- في المرة الأولى أجبرت النساء على الحضور إلى قاعة السينما، و لكن في المرة الثانية، حضرن الاجتماع رغبة و كان عددهن 26. و الواضح أن المانع الذي يحول دون حضورهن، هو الخوف من الزوج.

7- بخصوص الذوق السينمائي، فإنهن يجذبن أفلام الحب، و ينفرن من الأخبار الخاصة بالكفاح، مهما كان شكلها، لأنها تخيفهن.

8- بتاريخ 14 أكتوبر 1957، حضرت 120 امرأة مسلمة تجمعا على الرغم من أن الجو كان مطرا، فضلا عن موجة الزكام التي أصابت المنطقة.

و قد ختم العقيد تقريره بالإشارة إلى أهمية تلك التجمعات، خاصة و أن ما شدّهم أكثر هو الثقة التي يبدو أن المرأة الجزائرية بدأت تضعها في السلطات. كما ذكر في نهاية التقرير أن 25 في المائة من النساء الحاضرات في التجمعات كن يخلعن الحايك، دون أن يطلب منهن أحد ذلك⁽³²⁾.

ثالثا : آليات التركيز على المرأة ضمن إستراتيجية الحرب النفسية

1- الفرق الطبية الاجتماعية القريبة (les équipes médico-sociales itinérantes)

تم إنشاء هذه الفرق ،سنة ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين ،حيث ضمت طبيبا مساعدة مسيحية،ومساعدتين مسلمتين،يعيشون وسط جنود الاحتلال .وقد ضبطت مهمة هذه الفرق، ضبطا دقيقا ،في إطار الحرب النفسية الشاملة ،ضد الثورة،حيث تمثلت في التركيز على النساء المسلمات الجزائريات ،من خلال ضبط اتجاه الرأي العام النسوي الجزائري ،وإخاطر إدارة الاحتلال³³ الفرنسي لاتخاذ ما يكون مناسبا من قرارات ،قادرة على صياغة عقلية المرأة الجزائرية ،صياغة جديدة ،تأخذ بعين الاعتبار ،معطى الاحتلال ،وما يستلزمه من مرونة فكرية،تعتمد تجزيء و تفتيت فكرة الاحتلال ،مع عرضها وفق منهج قائم على التفعيل،وصولا إلى التحبيب و الترغيب،وأخرى عملية لإحداث التأثير المرجو.

والخليق بالإشارة هنا، أن مسألة الاهتمام بالمرأة الجزائرية لم تكن قط وليدة هذه المجموعات، وإنما تعود إلى سنوات خلت، بعد أن أدركوا موقع المرأة الجزائرية المسلمة من عملية التحرير، ودورها الرئيس في حركة التغيير .

2- المساعدة الطبية المجانية (*Assistance médicale gratuite*) :

أنشئت هذه الفرق، في شهر جويلية سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وأنيطت بها مهمة تقديم و توفير المساعدات الطبية اللازمة و الضرورية للشعب، سواء تعلق الأمر بالعلاج أو المتابعة الطبية، فضلا عن تقديم الدواء لكل حالة مرضية، على حدة . وقد تحمل هذه المسؤولية، أطباء عسكريون، منهم حوالي خمسين طبيا من الليف الأجنبي، حيث عمل الكل تحت مسؤولية رئيس -الصاص-، وقد بلغت الإستشارات المجانية التي قدمت في هذا الشأن، تسعة عشر ألف (19000) سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، فيما بلغت سنة ألف وتسعمائة و تسعة وخمسين (1300.000)، مليون وثلاثمائة ألف استشارة.³⁴

وقد بدت أهميتها وتجلت قيمتها في إمكانية إحداث التأثير المرغوب، وبخاصة في الوسط النسوي الجزائري، بفعل الاحتكاك الدائم و المباشر به، فضلا عن محاولات إظهار الاعتناء الكبير والاهتمام الكافي بالحاجيات والضروريات، ذات الارتباط الوثيق بالمرأة .

3- الملحقات النسوية للشؤون الجزائرية (*Attachées*

(*féminines des affaires Algériennes*)

ثمة قواسم مشتركة بين الملحقات النسوية وفرق المساعدة الطبية، ذلك أن مهمة الملحقات تركزت بشكل أساس على التأطير و التربية وتقديم الإسعافات الأولية لذوي الحاجة، في الزمان و المكان المناسبين. ويندرج عمل الملحقات في [سياق العمل

المدني، وهو ما أكده القرار الصادر بتاريخ الثالث من شهر ديسمبر سنة ألف و تسعمائة و سبعة وخمسين، والذي قضى بتعزيز و تعميق العمل المدني باعتباره أساسا و ذا قدرة على التأثير و الاستيعاب، حيث توخى القرار تحقيق تلك الأهداف، من خلال الملحقات النسوية التي أحضعت لمسؤولية ضابط الفصائل الإدارية المتخصصة³⁵.

الهوامش:

(¹)- Jean Garniage, Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours, éditions Fayard, France, 1994, p890.

(²)- ج. جيلفورد، ميادين علم النفس، ترجمة يوسف مراد، مجلد 1، دار المعارف القاهرة، 1962، ص 299.

(- فهمي النجار، الحرب النفسية أضواء إسلامية، (د، ط) دار الفضيلة للنشر، الرياض،
(³). السعودية، (د، ت، ن)، ص 10

(⁴)- نفسه، ص 69.

(⁵)- نفسه.

(⁶)- فهمي النجار، مرجع سابق، ص 70.

7

(⁸)- محمد بن داره، " الحرب النفسية الفرنسية ورد فعل الثورة الجزائرية (1955-1960) دراسة في أنشطة الحرب النفسية للمكتب الخامس للجيش الفرنسي بالمنطقة العسكرية الفرنسية العاشرة "، ج 1، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص 3.

(⁹)- نفسه.

(¹⁰)- علي كافي، مذكرات الرئيس علي كافي، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946 -

1962، الجزائر، دار القصة للنشر، 1999، ص 157.

(¹¹) بشير مديني ، " المرأة الجزائرية بين التكالب الاستعماري و الجهاد المقدس " ، الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة ، طبعة ثانية ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، 2007 ، ص 307.

(¹²)-عبد العزيز بوكنة ، " قراءة في بعض الكتابات الغربية (باللغة الانجليزية) عن دور المرأة الجزائرية ماضيا وحاضرا " الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة ، طبعة ثانية ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، 2007 ، ص 133.

(¹³)-Djamila Amrane ,**Femmes au combat** ,édition
Rahma,Alger,1993, p115

(¹⁴)-عبد الحفيظ أمقران، " دور المرأة الجزائرية في الثورة " ، في حوار حول الثورة، ج1، منشورات المركز الوطني للتوثيق و الصحافة و الإعلام، الجزائر، 1986، ص 430.

(¹⁵)-Djamila Amrane,op. cit,p 115.

وزارة المجاهدين، دور المرأة في الثورة التحريرية، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، 2007، ص 21.

(¹⁶)-ولدت رحمة بلبوري، في العاشر جانفي 1941، بمدينة معسكر. نشأت وسط عائلة ثرية، متمسكة بأصولها العربية و الإسلامية ، فقد كان أبوها وجدها من حفظة القرآن الكريم ، كما كانا يتقنان اللغة الفرنسية إلى جانب العربية. زاولت دراستها الابتدائية بمسقط رأسها ، وبعد اجتيازها المرحلة بتفوق ، انتقلت إلى التعليم المتوسط فالثانوي، بالمدينة ذاتها. نما وعيها ، ونضج فكرها، نتيجة لأفكار التي كان يطرحها الأستاذ مامون مكوي ، الذي كان ينشر الوعي الثوري ، وسط الطالبات ، وينتقي منهن ما يرى أنهن قادرات على تحمل المسؤولية ، والاستعداد التام للذهاب بعيدا في تقديم الدعم و المساعدة للثورة. وقد شكل هذا الجو ، حافظا كبيرا لرحمة كي تقرأ الواقع الجزائري، في ظل الاحتلال الفرنسي، والذي جسده الفقر المدقع للشعب الجزائري، الذب أصبح غربيا في أرضه، وفي المقابل عاش الأوروبيون ، وكانهم أصحاب الملك ، هذه التناقضات الصارخة ، جعلتها تُكثر السؤال وتصير أشد كرها للفرنسيين المحتلين، وتتوق باستمرار لحمل السلاح ، رغم صغر سنها. فكان يوم

24 ديسمبر 1956، منعظا حاسما في مسار حياتها ، فبعد جلسة حوارية مع أبيها ، طرحت عليها خلالها، جملة من الأسئلة تعلقت في مجموعها حول إمكانية مشاركة المرأة في الثورة ، فكان رد أبيها، أن المرأة قادرة على حمل السلاح و القتال ، والتاريخ مليء بصور نساء كثيرات، قاتلن وقتلن. لقد كان الحوار، حافزا كبيرا لها ، ودافعا في الآن ذاته، كيما تلتحق بالثورة، خاصة و أن أباهما أكد لها من حيث لا يعلم المغزى من أسئلتها الكثيرة ، أحقية وشرعية قتالها. فالتحقت بصفوف جيش التحرير بمعسكر، دون أن تخطر أحدا من أسرته. وقد سقطت شهيدة، يوم 25 ماي 1957، بعد أن حاصرت قوات الاستعمار، المكان الذي كانت بداخله ، بمعية مجاهدين ، وشرعت في إطلاق النار عليهم. للاستزادة، أنظر:

-عبد القادر ماجن "الشهيدة بلبوري رحمة"، أول نوفمبر، اللسان المركزي للمنظمة الوطنية للمجاهدين، العدد 81، الشهر الأول 1987، ص50-51.

(17) - نفسه.

(18) -ولدت المجاهدة كسيرة خيرة، في 22 جانفي 1948 بمدينة معسكر، زاولت تعليمها الابتدائي بمسقط رأسها ، كما كانت تختلف إلى مدرسة تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين، حيث تعلمت مبادئ اللغة العربية ، وحفظ بعض من سور القرآن الكريم ، كما كانت تحضر بعض الأنشطة الدينية و الوطنية التي كانت تقام بتلك المدرسة. وقد لعبت الفروق الاجتماعية بين الجزائريين و المعمرين ، دورا كبيرا في بلورة وعيها، بإدراك حجم الظلم المسلط على الجزائريين ، وما يستوجبه ذلك من كفاح مسلح لاسترداد الحقوق. وفي جانفي 1956 كانت لها اتصالات مع بعض المسؤولين السياسيين الذين حدثوها عن حاجة الثورة إلى جميع أبنائها ، بما فيهم النساء لدعم صفوفها ، وقعت أسيرة في شهر ديسمبر 1958، وتعرضت لتعذيب كبير، ونقلت إلى السجن ومكثت به مدة تسعة أشهر ، ثم أطلق سراحها بتعهد من أبيها على ألا تعود إلى أي نشاط نضالي. وعادت للنشاط الفدائي من جديد، بعد أن ربطت الثورة الاتصال معها ، من أجل بعث العمل الفدائي بمعسكر. أنظر: مجلة "أول نوفمبر" العدد 81، لشهر جانفي 1987، ص54-61 .

(19) - التحرير " لقاء مع المجاهدة كسيرة خيرة " ، أول نوفمبر ، اللسان المركزي للمنظمة الوطنية للمجاهدين ، العدد 81، الشهر الأول 1987، ص54-57.

(²⁰) - المناضلات اللواتي شكلن مدار الحديث ، هن: مليكة حجاج ، ولدت سنة 1939، بالمغرب. يمينة شلاي ، ولدت سنة 1939 بالمغرب، خديجة شلاي، ولدت سنة 1937 بوجدة في المغرب، واستشهدت سنة 1957. رشيدة ميري ، ولدت سنة 1937، بوجدة في المغرب ، عوالي عويسي ، ولدت سنة 1940 بتلمسان، وسقطت شهيدة سنة 1957، فريدة قديري ، ولدت في وجدة بالمغرب ، ولطيفة رحال، ولدت هي الأخرى بوجدة في المغرب. أنظر:

-Messaouda Yahiaoui et autres, **Le rôle de la femme Algérienne dans la révolution 1954-1962**, série de projets nationaux de recherches, édition spéciale ministère des moudjahidines ,2007,p183.

(²¹)-Ibid.

(²²)-Messaouda Yahiaoui et autres ,op. cit,p 195.

(²³)-Ibid.

(²⁴)-Dahou Ould Kablia « La construction du MALG à la lutte de libération nationale»,in El Massadir,n°2,2002,centre nationale de la recherche et des études Historiques 1^{er} novembre 1954,p63.

(25)-1H2461,dossier n°1, **Action sur les milieux féminins en Algérie**, E. M ,3^{ème} bureau section « problèmes humains ».

(²⁶) يُعرف مصطلح الحركة تعريفًا متباينًا انطلاقًا من أدبيات و موثيق الثورة الجزائرية و المصادر

الفرنسية، تباينًا يعكس تباين المنطلقات و الرؤى، فضلًا عن الخلفية الثقافية و الحضارية لكل من

الجزائر وفرنسا، على حد سواء .

(27)-1H2461,dossier n°1, **Action sur les milieux féminins en Algérie**, op.cit,p1.

(28)-Ibid,p 5.

(29)-Ibid,p9.

(30)-1H2461 ,dossier n°1,**reunion des femmes à Héliopolis du 26. Octobre 1957**,10 R. M,E. M,secteur de Guelma

(31)-1H2461 ,dossier n°1,**reunion des femmes...**,op.cit,p2.

(32)-Ibid ,p 3.

(³³)-SHAT 1H2461 ,dossier n°01 « centres sociaux E.M.S.I » .

(³⁴)- SHAT ,introduction...op cit.p 219.

(³⁵)- Ibid.

تجربة النوادي لدى الحركة الاصلاحية

نادي الشبان المسلمين الجزائريين بمنطقة تبسة أنموذجا

د/ سليم بعلوج / جامعة جيلالي ليابس ولاية سيدي بلعباس / الجزائر

selim_baaloudj@yahoo.fr

الملخص باللغة العربية

يعتبر النادي من أهم الوسائل لنشر الوعي والثقافة بين الشباب. وبما أن عدد كبير من رجال الإصلاح من منطقة تبسة كانوا طلبة بالزيتونة فجاءت فكرة إنشاء ناد بتبسة والذي أعطي له اسم «نادي الشبان المسلمين»، وهذا لربما يكون تأسيا بنفس التسمية للجمعية الثقافية بتونس.

كان لنادي الشبان المسلمين الفضل الكبير في تنشيط الحركة الإصلاحية والنهضة بتبسة بحيث أدى دورا بارزا في احتضان خاصة فئة الشباب ونشر المعرفة والقيام بعملية الإصلاح والتغيير في وسط هؤلاء كما كان وراء ظهور عدد كبير من الخطباء والأدباء والشعراء إضافة إلى أنه صار قبلة لمختلف الجمعيات والنوادي التي تأسست بالمنطقة.

الملخص باللغة الإنجليزية

The club is considered one of the most important means of spreading awareness and culture among young people. Since a large number of reformers from the area of Tebessa were students in E'Zaytouna, this led to the idea of establishing a club in Tebessa called "Muslim youth Club" which is given the same name as that of the cultural assembly in Tunis.

The Muslim Youth Club had a great credit for activating the reform movement and revival in Tebessa, considering its prominent role in embracing mainly the youth class, spreading knowledge, leading the reform and change among them, as well as its crucial role in the emergence of a large number of preachers, writers and poets. In addition to the fact that it has become a destination place to different clubs and association founded in the region.

المقدمة:

كانت الغايات والشعارات التي رفعها رجال الإصلاح، هي التعليم، والتوجيه والإرشاد، والتكوين، وغيرها، وجميعها يتطلب وسائل مختلفة، ومكمّلة في ذات الوقت. فبالإضافة إلى تأسيس المدارس، وإقامة المساجد، وكذا إنشاء الصحف فإن دور النوادي والجمعيات الثقافية والرياضية لا يقل أهمية في بلورة الوعي للمواطن. لذا كانت النوادي والجمعيات من الوسائل التي اعتمدها رجال الإصلاح لنشر أفكارهم وآرائهم. فقد عرفت عمالة قسنطينة انتشارا واسعا لمختلف المراكز الثقافية، والتربوية من مدارس ونواد، وجمعيات رياضية، كما عرفت تبسة تأسيس أول جمعية لها في أواخر الحرب العالمية الأولى، والتي يطلق عليها "الجمعية الخيرية" حيث كان من أهدافها حل الخلافات، والنزاعات التي تحدث بين مختلف العائلات¹. ولما ظهر العمل الاصلاحى في منطقة تبسة في شكله الجماعى² بدأت هذه المنطقة تعرف تأسيسا لمختلف الجمعيات والنوادي. حيث قام رجال الإصلاح بها ببذل مجهودات كبيرة من أجل توسيع دائرة الإصلاح بالمنطقة، من خلال المراكز التي تم إنشاؤها وتفعيلها. فبما أن المجتمع يتكون

من ثلاث أصناف وهم: الصغار الذين يختلفون إلى المدارس، والكبار الذين نجدهم يجتمعون في المساجد وأخيرا الشباب الذين لا تجد الكثير منهم إلا في أماكن اللهو والفجور. فهذا النوع الثالث أهم وسيلة تبليغهم دعوة الدين وتعريفهم به وحثهم على العلم وتحفيزهم إليه، ومناقشة أفكارهم إنما تكون في النوادي. فالنادي يعتبر من أهم الوسائل لنشر الوعي والثقافة بين الشباب.

1/ نشأة النادي .

كان في تونس عدة نواد، وجمعيات أدبية، وسياسية، وعلمية³ ومن بين هذه النوادي جمعية الشبيبة الزيتونية، وجمعية الرابطة الأدبية، وجمعية الشبان المسلمين⁴ ولربما تأثر رجال الإصلاح من منطقة تبسة والذين كانوا طلبة بالزيتونة فجاءت فكرة إنشاء ناد بتبسة وقد كانت تسميته «نادي الشبان المسلمين»، وهذا قد يكون تأسيسا بنفس التسمية للجمعية الثقافية بتونس.

قام رجال الإصلاح بمدينة تبسة في سنة 1937 بتأسيس نادي الشبان المسلمين⁵ (Cercle de la jeunesse musulmane) وقد كان الهدف من ذلك التغلغل في أوساط الشباب⁶. يقع مقره في وسط المدينة بالقرب من مخزن الصادق بوذراع⁷ الذي كان له دور كبير مع مجموعة من المصلحين في استئجاره⁸. فبالإضافة إلى مجلس إدارة نادي الشبان المسلمين⁹، كان يتردد عليه أيضا المثقفون وطلاب العلم وأهل الفن من أدباء، وكتّاب، وشعراء منطقة تبسة أمثال: إبراهيم مزهودي، العيد مطروح، علي الساسي، عيسى سلطاني، إبراهيم رواجية محمد محفوظي، الشاذلي المكّي، مالك بن

نبي، مصطفى زمري، محمد الشبوكي، حامد رواجية، ومحمد سحيري، حيث كانت تتم فيه الاجتماعات كل مساء، كما يقوم أعيان المنطقة بزيارته من حين لآخر سواء في السوق الأسبوعية أو في مختلف المناسبات¹⁰.

ذكر شارل روبير أجرون بأن نوادي المصلحين هي أمكنة يلتقي فيها الشباب، وأن «النوادي الرياضية، والفرق المسرحية الهاوية ترتاد هذه النوادي، وترتبط بها. وبهذه الطريقة كان تأثيرها يعم مجموع السكان»¹¹، فالنادي مكان للقاءات المفتوحة لجميع الناس، لكنه أيضا جعل أساسا لنيل تعاطف الشبيبة قصد التأثير عليها أخلاقيا وثقافيا إضافة إلى ذلك كانت للنوادي نشاطات اجتماعية ترمي إلى إبعاد الشباب عما يفسده أخلاقيا¹².

2/ نشاطات النادي.

من أهم النشاطات التي تقام في النوادي إلقاء المحاضرات، والقيام بالتظاهرات الثقافية¹³. كما كانت تقام في نادي الشبان المسلمين مختلف التظاهرات، وتلقى به الخطابات والمحاضرات. قال فيه إبراهيم مزهودي قصيدة¹⁴ واصفا إياه بأنه صرح علم وبر وتقوى¹⁵، وهو مكمل للمسجد الحر وكذا المدرسة الحرة التي تم إنشاؤها والتي يطلق عليها مدرسة تهذيب البنين والبنات¹⁶.

عرف النادي في شهر فيفري سنة 1939 إحياء ليلة عيد الأضحى بحضور رئيس فوج الأمل الكشفي ورئيس شباب المؤتمر الإسلامي¹⁷. وفي شهر أكتوبر من نفس العام، تم فيه إحياء ذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد نشر الورد بن عمارة مقالا بين فيه الاحتفالات التي أقيمت بالنادي، وذلك بمناسبة ذكرى المولد النبوي

الشريف¹⁸ حيث تطرق بهذه المناسبة رئيس مجلس إدارته إلى تذكير الحاضرين بأن عمل النادي، هو إنقاذ أبناء الوطن من الجهل. بعدها تخللتها كلمات عن المناسبة تلتها إلقاء مجموعة من الأناشيد¹⁹.

عرف النادي زيارة بعض الشيوخ، كان من بينهم الشيخ محمد الأمين العمودي الذي اجتمع في النادي بأهل تبسة، حيث خطب فيهم حول حقيقة العمل النافع، وكذا الرجال الحقيقيين الذين تعتمد عليهم الجزائر في الأوقات الحرجة²⁰.

وبمناسبة عيد الفطر أقيم بالنادي نشاط كبير، فبالإضافة إلى قراءة القرآن الكريم في بداية النشاط، ألقى فيه بعض الخطابات²¹ من طرف محمد المكي عيسى التبسي والشاذلي المكي²²، كما تم فيه إلقاء بعض الكلمات لتلميذين من مدرسة تهذيب البنين والبنات، وختم بتلاوة آيات من القرآن الكريم²³.

وبتاريخ 22 ماي 1938 تم تجديد إدارة النادي عن طريق الإنتخاب، حيث ترأسه محمد المكي. وبعد شهر من ذلك وتحديدا في شهر جوان من سنة 1938 أقيم اجتماع عام، تم فيه الحديث عن الأعمال الخيرية، وتخلل ذلك كلمة لتلميذ حول التاريخ الإسلامي وموقفه من النوادي²⁴. كان من بين النشاطات بالنادي مالك بن نبي والذي كان يقيم الندوات ويلقي خلالها الخطابات والتي منها ما يتمحور حول العلم والصناعة²⁵، محفزا الشباب للمضي في طلب مختلف العلوم.

كما كان النادي يستقبل مختلف الفرق المسرحية²⁶، والفنية التي تقدم مختلف النشاطات الثقافية والفنية التي تعرف بما يقع في العالم الإسلامي.

يتم الاعتماد في المحاضرات التي كانت تلقى بالنادي على أسلوب جذاب ومحفز. تأثر فيها أصحابها بخطابيات جمعية العلماء المسلمين والتي تتميز بأنها من «الخطابيات المؤثرة في العقول، الحافزة للنفوس، المنبهة للمشاعر على طريقة الترغيب والترهيب»²⁷. وهي من ألسنة خطباء أكفاء أمثال الشيخ العربي التبسي ويوسف بن محمد، ومحمد المكي، وإبراهيم مزهودي.

3/ احتضان نادي الشبان المسلمين للنادي الأخرى.

كان للنادي برنامجه الخاص به وأعماله التي يقوم بها والتي منها استقباله واحتضانه لكل جهد إصلاحي في أي من المجالات سواء التربوية، الفنية الفكرية، الرياضية وغيرها. ففي شهر أكتوبر سنة 1938 تأسست جمعية فنية كان من أهم الفاعلين بها السادة: يونس كش، علي بن جده، الهادي مغلي مصطفى زمري، أحمد نقريشي، وعبد الكريم بن الطاهر وقد أطلق عليها جمعية الوتر الجزائري (El Ouatar eldjezairi) وقد جعلت من نادي الشبان المسلمين بتبسة مقرا لها، تقيم فيه مختلف نشاطاتها²⁸. كما عرفت تبسة تأسيسا لجمعية المؤتمر الإسلامي، والتي ترأسها الصديق بن نبي²⁹، ونائباه يونس كش، ومصطفى زمري³⁰ وقد كانت هذه الجمعية بدورها تقيم مختلف نشاطاتها في نادي الشبان المسلمين بتبسة³¹.

وفي صيف سنة 1939 برزت فكرة إنشاء جمعية من قبل المفكر مالك بن نبي وهي جمعية ذات طابع اجتماعي بالدرجة الأولى، تعمل على حماية الفتاة من ذلك الجو الذي لا يليق بها كفتاة مسلمة يطلق عليها جمعية حماية الفتاة المسلمة وقد احتضن نادي الشبان المسلمين عملية تأسيس هذه الجمعية³².

الخاتمة:

كان لنادي الشبان المسلمين الفضل الكبير في تنشيط الحركة الإصلاحية والنهضة بتبسة بحيث أدى دورا بارزا في احتضان خاصة فئة الشباب ونشر المعرفة والقيام بعملية الإصلاح والتغيير في وسط هؤلاء كما كان وراء ظهور عدد كبير من الخطباء والأدباء والشعراء كان منهم: محمد مكّي، ابراهيم مزهودي مالك بن نبي وغيرهم، واستطاع النادي أن يكون قبلة لمختلف الجمعيات وال النوادي التي تأسست بالمنطقة.

الهوامش:

¹ مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، ط2، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق 1984، ص79.

² فالإصلاح هو مجهودات جماعية وقد عنون الشيخ العربي التبسي ذلك بقوله: «أزفت ساعة الجماعة وتصرم عهد الفرد» للتفصيل ينظر: الشهاب، س1، ع31، الجزائر، 1926/06/17 ص05.

³ محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المطبعة العربية، الجزائر 1971، ص17.

⁴ الحركة العلمية والأدبية؛ الاحتفال برأس العام الهجري، المجلة الزيتونية، ج8، مع1، أبريل 1937، ص48.

⁵ A.N.O.M, Aix- en Provence, F.M, carton N°81F/939, Rapport **dénombrement et caractéristique de chaque cellules**, Arrondissement de Constantine, p35.

⁶ وقد أعطيت الرئاسة الشرفية لنادي الشبان المسلمين بتبسة لكل من العربي التبسي، حسين دعاس، الصادق بوذراع، حواس حواس، مصطفى ميده. للتفصيل ينظر: البصائر، س2 ع67، الجزائر، 1937/05/14، ص07.

⁷ أحد أعيان المنطقة، من الذين احتضنوا الشيخ العربي التبسي بعد عودته من الأزهر الشريف سنة 1927، رئيس جمعية تهذيب البنين والبنات من 1938 إلى 1952، من مؤسسي نادي الشبان المسلمين.

⁸ مقابلة مع رابح جلاب: بمنزله، بلدية تبسة، ولاية تبسة، بتاريخ 2014/02/16، الساعة 16 سا و30د.

⁹ للتفصيل حول مجلس إدارته ينظر: البصائر، س2، ع67، الجزائر، 1937/05/14 ص07.

¹⁰ أحمد عيساوي: الشيخ محمد الشبوكي شاعر الثورة الجزائرية الثائرة حياته ومنهجه الإصلاحية (1916-2005)، أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، إعداد الجمعية الثقافية الشيخ العربي التبسي ولاية تبسة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، [د. س. ن]، ص47-48.

¹¹ شارل روبير أجرون: تاريخ الجزائر المعاصرة؛ من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، مج2، تر: محمد حمداوي، إبراهيم صحراوي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص535.

¹² علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر؛ بحث في التاريخ الديني والاجتماعي (1925-1940)، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص378-379.

¹³ المرجع نفسه، ص129.

¹⁴ للتفصيل حول القصيدة ينظر: الشهاب، س9، ج4، مج9، الجزائر، مارس 1933 ص190-191.

¹⁵ إبراهيم مزهودي: الأدب الجزائري، البصائر، س3، ع104، الجزائر، 1938/03/18 ص07.

¹⁶ نشأت المدرسة في شهر جوان سنة 1932. للتفصيل ينظر:

A.N.O.M, Aix- en Provence, F.M, carton N°81F/939,
**Rapport dénombrement et caractéristique de chaque
cellules**, Arrondissement de Constantine, p35.

- ¹⁷ علي مرحوم: الشباب الفني، البصائر، س4، ع152، الجزائر، 1939/02/11، ص03.
- ¹⁸ الوردى بن عمارة: إحتفالان بالمولد النبوي الشريف في تبسة، البصائر، س2، ع73 الجزائر، 1937/07/02، ص08.
- ¹⁹ الوردى بن عمارة: إحتفالان بالمولد النبوي الشريف، البصائر، ع73، المرجع السابق ص08.
- ²⁰ محمد الطاهر الورتلاي: جولة شباب المؤتمر الإسلامي الجزائري في عمالة قسنطينة البصائر، س4، ع177، الجزائر، 1939/08/04، ص06.
- ²¹ كان منها التعرض للتغيير الذي عرفه المقر فبعد أن كان محلا للمعاصي من شرب للخمر وغيره، أصبح يتردد عليه خيرة الناس من المنطقة، وصار يتلى فيه القرآن الكريم وتحى فيه الذكريات. للتفصيل ينظر: البصائر، س3، ع96، الجزائر، 1938/01/21، ص08.
- ²² كان الشاذلي المكّي رئيسا لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين ينشط كثيرا سواء بتبسة أو بجامع الزيتونة وقد أشاد به رئيس المجلة الزيتونية. للتفصيل ينظر: المجلة الزيتونية، ج8 مج1، أبريل 1937، ص406.
- ²³ الشاذلي المكّي: بمناسبة عيد الفطر، البصائر، س3، ع96، الجزائر، 1938/01/21، ص08.
- ²⁴ مصطفى زمري: اجتماع عمومي لنادي الشبان المسلمين بتبسة، البصائر، س3، 117 الجزائر، 1938/06/10، ص06.
- ²⁵ مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، المرجع السابق، ص79.
- ²⁶ في شهر جانفي 1948 قامت فرقة مسرحية مكونة من الطلبة الزيتونيين بدورة في عمالة قسنطينة، حيث كان لها نشاطا واسعا في مختلف مناطقها وكان لها أثرا في تكوين رأي عام والتي عبر عنها صاحب التقرير بأنها تتسم بخطورة عالية للغاية «Eminemment Dangereux» للتفصيل ينظر:

A.W.C, La Guerre d'Algérie par les Documents, Rapport Sur le Moral (extrait), Compte Rendu Bi- Hebdomadaire, 19^{ème} Cord d'Armée, 2^{ème} Bureau, 10^o Région Militaire N°39/CAB/CONF, Alger, Le 4 Février 1948 Les Portes de la Guerre (1946-1954) Tome 2, Sous La Direction de Jean Charles Jauffret, Préface du Général Robert Bassac Service Historique de l'Armée de Terre, Vincennes, 1998, p152.

²⁷ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص64.

²⁸ A.N.O.M, Aix- en Provence, F.M, carton N°81F/939, Rapport **dénombrement et caractéristique de chaque cellules**, Arrondissement de Constantine, op.cit, p35.

²⁹ هو الإسم الذي يطلق على مالك بن نبي في تبسة، وقد ورد بالمقال هكذا.

³⁰ علي مرحوم: حديث المتجول، البصائر، ع121، الجزائر، 1938/07/08، ص06.

³¹ محمد الطاهر الورتلاني: جولة شباب المؤتمر الإسلامي الجزائري في عمالة قسنطينة البصائر، س4، ع177، الجزائر، 1939/08/04، ص06.

³² مالك بن نبي: العفن؛ مذكرات (1932-1940)، ج1، تر: نور الدين خندودي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص181-182.

الصراع الوجودي في بلاد الرافدين " الممالك الأمورية أنموذجا "

أ. الطيب زين العابدين / قسم التاريخ والآثار / جامعة محمد لمين دباغين -

سطيف 2

الملخص:

يعتبر سقوط أور في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد إحدى نقاط التحول التاريخية الكبيرة في بلاد الرافدين، فهو لا يعبر عن سقوط سلالة وإمبراطورية فحسب، بل يؤشر أيضا إلى النهاية السياسية للساميين كأمة حاكمة في التاريخ، وإذا كان العيلاميون هم الذين أسقطوا العاصمة أور فإن انفصال مقاطعات وأقاليم كاملة، وعصيان حكام سلالة أور لقائدهم " إبي سين"، و تدخل الأموريين كان من بين الأسباب لإنهاء السومريين أيضا، إذ لم يمض وقت طويل حتى طرد العيلاميون من أرض العراق القديم، وبقي الأموريون (الساميون) محافظين على عروشهم حتى إلى غاية ألف وخمسمائة سنة تقريبا.

الكلمات المفتاحية: الأموريين - الساميون - إيسن - لارسا - بابل - أشنونا - آشور - ماري.

Abstract

The Fall of Ur at the close of the third millennium B.C. is one of the major turning-points in the history of ancient Iraq , it does not only ring the knell of a dynasty and of an empire, it marks the end of the sumerian nation and type of society. Intervening at the last moment, the Elamites had taken

the capital-city, but the secession of entire provinces, the revolt of Ibbi-Sin's officials and the Amorites invasion were the real causes of the Sumerian defeat. The Elamites were soon expelled from Iraq , the Semites remained. From then on they were to hold the reins of government for nearly fifteen hundred years.

key words : the Amorites - the Semites-Isin-Larsa-Babylon-Eshnunna-Assur-Mari.

I - مصطلح العصر البابلي القديم

يطلق العصر البابلي القديم على الحقبة الزمنية المحصورة ما بين سقوط سلالة أور الثالثة عام (2004 ق.م) على يد العيلاميين ويمتد حتى سقوط سلالة بابل الأولى عام (1595 ق.م) على يد الغزو الحثي⁽¹⁾، بزعامة الملك مرسيليس الأول⁽²⁾، وبمعنى آخر فإن العصر البابلي القديم امتد قرابة الأربعة قرون من الزمن⁽³⁾، شهدت خلاله بلاد الرافدين قيام عدة سلالات حاكمة و متعاصرة من الأموريين، وبسبب ما تميز به العصر البابلي القديم من خصائص سياسية وحضارية واقتصادية واجتماعية التي مثلت بدورها قمة النضوج الحضاري في العراق القديم، فقد اتخذ منه الباحثون أنموذجاً حياً يعكس مدى تطور حضارة العراق القديم بصورة عامة.

II - الأموريون:

1- أصل التسمية:

ورد ذكر الأموريين في النصوص المسمارية القديمة بالصيغة السومرية *MAR.TU* "مارتو"، أما في الصيغة الأكادية *AMURRU* "أمورو"، كإشارة إلى الاتجاه الذي جاءت منه تلك الأقوام⁽⁴⁾.

تعتبر فاطمة جود الله أن بلاد الشام كان إسمها "بلاد أمورو" نسبة للأموريين أو العموريين وبأن أصلهم عرب، وقد أُطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جدّهم الأكبر "عمرو" الذي يُكتب بالأبجدية المسمارية "أمرا" أو "عمرا" و"أمرو" أو "عمرو"⁽⁵⁾.

أما الباحثون المحدثون، فيطلقون أحيانا اسم الكنعانيين الشرقيين على الأقوام الأمورية تمييزًا لهم عن الكنعانيين الغربيين الذين استقروا في الساحل السوري باعتبار أنّ كل من المجموعتين تنتمي إلى مجموعة رئيسية واحدة، تفرقت عند هجرتها فاستقر بعضها في بلاد الشام واتجه البعض الأخر إلى بلاد الرافدين⁽⁶⁾.

إنّ مصطلح "بابلين" الذي حملته الأقوام الأمورية بعد أن استقرت في بابل، أصبح أكثر شيوعا من بقية الأسماء في الأزمنة القديمة والحديثة، وعدًا هذا الاسم يشمل جميع السكان الذين سكنوا بلاد بابل ابتداءً من العصر البابلي القديم وحتى نهاية دور بابل السياسي في المنطقة، فهو اسم يدل على انتماء السكان إلى بلاد بابل أكثر من كونه يدل على هوية تلك الأقوام وأصولها العرقية⁽⁷⁾.

2- مصدر الهجرات الأمورية

يعتبر الأموريون فرع من الأقاليم العربية القديمة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية متجهة نحو بوادي الشام والعراق القديم، وتوغلت جماعات منها في بلاد بابل منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، في حين اتجهت جماعات أخرى إلى بلاد الشام، وتشير النصوص المسمارية من عهد سلالة أور الثالثة إلى وجود أعداد كبيرة من الأقاليم الأمورية التي كانت تعمل في المعابد ثم زاد تدفق هذه الأقاليم منذ أواخر عهد سلالة أور الثالثة، وأخيراً تمكنت جماعات من السيطرة على عدد من المدن التابعة لإمبراطورية "أور" الواقعة في الغرب وساعدها على ذلك الاضطراب العام الذي ساد أنحاء البلاد في عهد "أبي سين" آخر حكام سلالة أور الثالثة، كما ساعدها هجوم الأقاليم العيلامية من الشرق على مدينة أور وسيطرتها عليها وإنهائها حكم هذه السلالة فيها، وتمكّن الأموريون بالتدريج من السيطرة على مدينة أور وبقية المدن التابعة لها وطرده الحاميات العسكرية العيلامية من البلاد⁽⁸⁾.

على ضوء ما سبق صار بالإمكان تحديد القسم الجغرافي لمناطق انتشار الأموريين، فقد كان يحدّهم من الشرق بلاد وادي الرافدين، ويكون بذلك نهر الفرات حاجزاً طبيعياً لها، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الشمال بلاد الأناضول، وتكوّن جبال طوروس جزءاً معتبراً من أقسام بلاد الأموريين الشمالية ومن الجنوب الصحراء العربية، وتتطابق هذه الحدود مع حدود الأقسام التي سميت ببلاد الشام في العصور الإسلامية⁽⁹⁾.

III – الأموريون في بلاد الرافدين:

1-مرحلة الدخول:

إنّ الحروب التي أضعفت إمبراطورية سومر وأكاد وأدت إلى سقوط سلالة أور أتاحت لهذا الشعب الطموح أن يقتطع جزءاً واسعاً من ذلك الميراث⁽¹⁰⁾، وهو الأمر الذي جعل أحد شعراء السومريين والذي عاش قبل عام(2000 ق.م) حين كان الأموريون يحتلون بلاد بابل يقول معبراً عن انتقالهم من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار بصورة شعرية:

بالنسبة للأموري السلاح هو رفيقه.

فلا يعرف الخضوع.

وهو يأكل لحمًا غير مطبوخ.

وفي حياته كلها لا يملك بيتا.

وهو لا يدفن رفيقه إذا مات.

(والآن) مارتو يملك بيتا...

(والآن) مارتو يملك حبوبا⁽¹¹⁾.

وقد هاجم ملوك سلالة أور الثالثة على القبائل الأمورية، كما استخدمتهم في أوقات أخرى كمرتزقة عسكريين وضباط إقليميين⁽¹²⁾، ويُضيف فليب حتى أيضًا عن الأموريين أنّ حياتهم البدوية كانت تعتمد على الحمار، لأنّ الجمل كحيوان مدجن لم يكن استخدامه شائعاً⁽¹³⁾، أي أنّ سكان بلاد الرافدين نظروا إلى الأموريين نظرة دونية، فقد اعتبروهم شعوبًا بربرية قاسية لا تعرف معنى الحضارة⁽¹⁴⁾، وتورد أسطورة الإله مارتو "Martu" الوصف التالي عن الأموريين:

ساكن الخيمة يصارع الرياح والمطر.

هو الذي ينقب عن نباتات الأرض عند سفح التل.
وهو الذي لا يعرف كيف يحني ركبتيه (بيدي الاحترام للسلطة).
والذي يأكل الطعام دون طهي.
إنه ذلك الشخص الذي لم يكن له بيت طول حياته.
والذي ليس له مدفن عند مماته⁽¹⁵⁾.

لكنها في الأصل نظرة شمولية أطلقها سكان بلاد الرافدين على كل من دخل بلادهم من الأجانب حيث لا تعكس الحقيقة، كونهم شعوبًا بدائية⁽¹⁶⁾، ذلك أنّ الإطاحة بسيادة سلالة أور الثالثة لم تكن بسبب الأموريين بل العيلاميين الذين انتهزوا الفرصة لنهب العاصمة واحتلالها⁽¹⁷⁾.

2- مرحلة قيام الممالك الأمورية

إمتاز العصر البابلي القديم بوجود الكثير من دويلات المدن الأمورية، والتي أصبحت بها البلاد مقسّمة فيما بينها، إذ كان لكل دويلة مدينة نظامها الخاص وسلالتها الحاكمة، لذلك أطلق على ذلك العصر اسم (عصر دويلات المدن الثاني) تمييزاً له عن عصر دويلات المدن السومرية، ويمكن نعتة بالعصر الانتقالي الثاني، الذي جاء بعد العصر الأكادي الانتقالي الأول، وبذلك توزّع نفوذ السلالات الأمورية الحاكمة على مناطق مختلفة من بلاد الرافدين.

انقسمت بلاد الرافدين إلى ممالك كبيرة وصغيرة أهمها تلك التي قامت في إيسن ولارسا في الجنوب، وفي أشور وأشنونا في الشمال، وبقيت هذه الممالك متعاصرة لحوالي قرنين من الزمان (1800-2000 ق.م)، ولم تكن العلاقات بينها سلمية، حيث دأبت

المملكتان الجنوبيتان على شن الحروب على بعضهما لامتلاك أور وحكم بلاد سومر وأكاد، كما تنازعت المملكتان الشماليتان حول السيادة على الطرق التجارية الكبيرة التي كانت تمر في القسم الأعلى للبلاد⁽¹⁸⁾.

وقد كان الحكام الذين حلوا محل السومريين على الساحة السياسية إما أكاديين من العراق أو غربيين أموريين بالمعنى الواسع للكلمة، لأنهم جاؤا من مناطق خضعت للتأثير السومري منذ فترة طويلة⁽¹⁹⁾، وفي هذا الصدد اعتبر ليو أوبنهام أن الأسماء الشخصية السومرية والأكادية في بلاد النهرين إلهية الاشتقاق إلى درجة كبيرة⁽²⁰⁾، وهذا ما يتجلى في تعلق ملوك السلالات الأمورية بالثقافة السومرية حيث اتخذوا من السومرية لغة رسمية لهم، واتخاذهم لأسلوب الحكم في بلاطهم وفي ألقابهم مشابه لما كان عند ملوك أور⁽²¹⁾.

توزع نفوذ السلالات الأمورية الحاكمة على مناطق مختلفة من بلاد الرافدين، كما لم يتسم حجم وحدود كل مملكة بالثبات، وإنما كان دائماً عرضة للتغير، ويعود ذلك لعدة أسباب، منها قوة وضعف من يحكم فيها من الملوك، إضافة إلى قوة القوى المحيطة بتلك المملكة، كما أن حالات الاضطراب والعصيان والتمرد التي شهدتها بعض الممالك ساهمت في فسح المجال أمام القوى الأخرى للتوسع نحو ممتلكاتها وأراضيها، كما اتصف هذا العصر القديم بكثرة إقامة الأحلاف العسكرية والمعاهدات السياسية، فضلاً عن سياسة التجسس والمصاهرات والزواج السياسي بين الأسر الحاكمة لتلك الممالك، وهكذا عادت البلاد إلى نظام الممالك الصغيرة، إلا أن أهميتها كانت محدودة، وكانت أقرب إلى

المشيخات أو الإمارات منها إلى الممالك المستقلة، وفيما يلي أهم دويلات مدن تلك الممالك.

الاسم القديم	الاسم الحديث
إيسن	إيشان بحريات
أشنونا	تل أسمر
أشور	قلعة شرقاط
أوروك	الوركاء
بابل	بابل
ماري	تل الحريري
الدير	تل العقر
سيبار	تل السنكرة
لارسا	أبو حبة
كيش	تل الأحمير ⁽²²⁾

جدول(1): أهم ممالك العصر البابلي القديم (الاسم القديم والحديث)

3-مرحلة توحيد الممالك الأمورية:

أ- دمج الممالك الضعيفة.

إذا كان أشهر ملوك سلالة بابل الأولى هو ملكها السادس حمورابي (1792-1750 ق.م.)⁽²³⁾ فقد ورد في معنى اسمه الإله حمو (Hammu) عظيم أو مُكثّر، وَحْمُو من الأرباب الجزرية (السّامية) الغربية، وقد يكون اسمه "عمورابي"⁽²⁴⁾.

ويرى سهيل قاشا أنّ حمورابي تقرأ بالبابلية "خمورابي" ومعناها السيد العظيم وكذلك رئيس العائلة⁽²⁵⁾، لكن قد يكون اسمه يُقرأ أيضاً في البابلية (خمربخ) أي (خم-ربخ)، فالجزء الأول من الإسم (خم) وهو الإله (عم) الذي نجده أيضاً في النقوش العربية الجنوبية القديمة، أما الجزء الثاني (ربخ) فلعله يقابل في العربية مادة (رفع)، فيكون معنى الإسم (عم رفيع)، أو مادة (رفع) التي تدل على السعة والخصب⁽²⁶⁾.

ذكر حمورابي في التوراة باعتباره ملكاً عظيماً ورفيع الشأن قدّم أجلاً للخدمات لشعبه باسم "أمرفال"⁽²⁷⁾، تبعا للنص الذي يقول «1 وَحَدَّثَ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَلِ مَلِكِ شِنْعَارَ وَأَزْيُوكَ مَلِكِ الْأَسَارَ وَكَدَّرَ لَعُومَرَ مَلِكِ عِيْلَامَ وَتَدْعَالَ مَلِكِ جُويِمَ 2 أَنَّ هَؤُلَاءِ صَنَعُوا حَرْباً مَعَ بَارِعَ مَلِكِ سَدُومَ وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ وَشِنَابَ مَلِكِ أَدَمَةَ وَشَمْعِييرَ مَلِكِ صَبُويِمَ وَمَلِكِ بَالَعَ (الَّتِي هِيَ صُوعَرَ). 3 جَمِيعُ هَؤُلَاءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمُقِ السَّدِيمِ (الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمَلْحِ). 4 اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً اسْتُعْبِدُوا لِكَدَّرَ لَعُومَرَ وَالسَّنَةَ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ عَصُوا عَلَيْهِ. 5 وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ أَتَى كَدَّرَ لَعُومَرَ وَالْمُلُوكَ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرِّفَائِيَّيْنَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ وَالرُّوزِيَّيْنَ فِي هَامَ وَالْإِيمِيَّيْنَ فِي شَوَى قَرْنَايِمَ 6 وَالْحُورِيَّيْنَ فِي حَبْلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بُطْمَةَ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. 7 ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطَ (الَّتِي هِيَ قَادِشُ). وَضَرَبُوا كُلَّ بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ وَأَيْضاً الْأُمُورِيَّيْنَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُونِ تَامَارَ 8 فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ وَمَلِكُ عَمُورَةَ..... فَهُمْ يَأْخُذُونَ نَصِيْبَهُمْ⁽²⁸⁾.

أما عن مدينة بابل التي حكمها حمورابي فقد ذكر هيرودوت بأنها: «... تقوم المدينة في سهل فسيح وفي شكل مربع تماما، يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه مئة وعشرين ستادي*، وعلى هذا يقدر محيطها الداخلي بأربعمائة وثمانين ستادي، فلم تكن هنالك مدينة أخرى تضارعها في أهميتها...»⁽²⁹⁾، ويشكل أيضا موقع بابل نقطة اتصال بين بلاد الرافدين والشام والبحر المتوسط، ويسمح لها بمراقبة الطرق المؤدية إلى الأناضول وبلاد فارس، ولما كانت بابل تقع على الضفة اليسرى من نهر الفرات، فإنّ هذا النهر العظيم شكّل سداً منيعاً يحميها من جهة الغرب، كما أنّ نهر دجلة القريب يحميها من جهة الشرق، وبالتالي تكون هذه الاعتبارات سبباً في اتخاذ أسرة بابل الأولى لهذه المدينة عاصمة لدولتهم⁽³⁰⁾.

عندما تسلّم حمورابي الحكم في بابل⁽³¹⁾ خلال عام 1792 ق م، كانت مدن مثل زيبار وكيش وديلبات وكزالوا ومارد وغيرها تقع في محيط لا يتجاوز 80 كلم حول بابل، ومن هنا يتبين أنّ سلطة الدولة البابلية كانت محدودة⁽³²⁾، فضلاً عن وجود عدة قوى تتنازع على السلطة فيما بينها، ومنها مملكة لارسا بزعامة ملكها "ريم سين"، إلى جانب ذلك كانت هناك ثلاث دويلات في شمال بابل تحت سلطان الملك الأشوري شمشي حدد الأول، وهي أشور وإقليم إيكلاتوم وماري، وإلى الشرق كانت هناك مملكة أشنونا المستقلة في الأقاليم الواقعة ما بين نهر دجلة وديالى⁽³³⁾، بزعامة ملكها دادوشا، الحليف لملوك عيلام، إذ كان هو الآخر طامعاً في الاستيلاء على بابل، فكان يتحين الفرص للقضاء عليها وضمّها لمملكته⁽³⁴⁾.

وقد كان الصراع السياسي والتنافس على السلطة على أشده بين هذه الدويلات للسيطرة على المنطقة وتوحيدها لإعادة الحكم المركزي في بلاد الرافدين، حيث كَلَّما نمت قوة إحدى الدويلات وتعاضمت وضمت إليها عددا من المدن والدويلات المجاورة سارعت الدويلات الأخرى لإقامة الأحلاف العسكرية للوقوف أمامها والتصدي لها وبالتالي تحجيم خطرهما، وكان لشخصية الملوك والحكام الذين كان جُلُّهم من الأقوام الأمورية القادمة من الغرب أثر كبير في إقامة الأحلاف والانضمام إلى هذا الحلف أو ذاك، حيث كان هناك أكثر من حلف واحد يتوزع على المنطقة حسبما أوردته الرسائل المكتشفة في ماري⁽³⁵⁾، والتي جاء في محتواها بأنه "لا يوجد هناك ملك هو الأقوى وحده، فهناك عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون "حمورابي" ملك بابل، والعدد نفسه يتبع "ريم سين" ملك لارسا، والعدد نفسه يتبع "ايبال-بيل" ملك أشنونا، والعدد نفسه يتبع "إبي-إيل" ملك قطنا، وعشرون ملكا يتبعون "يارم-لم" ملك يمخد"⁽³⁶⁾.

تميل الآراء إلى أن حمورابي كان يتمتع بعلاقات جيدة مع الدولة الأشورية، ومع ملكها شمشي حدد، وتوضَّح بعض الرسائل من ماري أن الاتصالات بين "حمورابي" و"شمشي حدد"، كانت تتسم بالصدقة والود، حيث كانت السلطة الأشورية تتوجه إلى "حمورابي" بالرجاء لحماية قوافلها التجارية التي تمر ببلاد بابل، كما كانت أشور تعيد اللاجئين الهاربين من العدالة والمقيمين في ماري إلى السلطة البابلية⁽³⁷⁾.

بعد موت "سين مبلط" (والد حمورابي) وحاكم مملكة بابل كانت أشور في شمالي بلاد الرافدين على وشك تحقيق وحدة البلاد كلها بقيادة "شمشي حدد"، حيث

كان ملك آشور يتصرّف من موقع قوي بعد أن سيطر على "أشور" و"نينوى" وعلى "ماري" وهدّد طريق الفرات إلى بابل، وهو ما يدل على أنّ الجيش الأشوري قد اشتد بأسه لِمَا كان يملكه من أدوات الحرب والحصار كالأبراج العالية والحصون المتحركة ومخازن حفظ الأسلحة، إضافة إلى أسلوبه الحربي المتمثل في شق الأنفاق إلى داخل المدن المحاصرة، مما يعنى أنّ "شمشي حدد" كان يتمتع بقدرة رائعة على التنظيم السياسي والعسكري، كما هو الحال عند "سين مبلط" وإبنة "حمورابي" الذي إلتمز الهدؤ تجاه آشور محافظاً على معاهدة التحالف التي كان هو نفسه قد طلب عقدها من قبل (38).

توضّح الرسائل الهامة الموجهة إلى حمورابي خُضوع بابل لنفوذ آشور السياسي، إلّا أنّ هذا لا يعني إطلاقاً أنّ حمورابي كان تابعا بشكل مباشر للملك الأشوري، الذي كانت له محطات إقامة كثيرة على حدود الدولة البابلية شمالاً، وهو ما جعل حمورابي يدخل في تحالفات مع هذا الحاكم النشط (39).

كما أن عقد الأحلاف مع بعض الدويلات إنما يعتمد في الأساس على تقديرات الملوك والحكام لما سيحدث في المستقبل وعلى العلاقات الشخصية التي كانت تربط بينهم، وغالبا ما كانت تتغير تلك العلاقات بموت أحد الملوك أو تغير سياسي مفاجئ (40).

يُلاحَظُ أيضا في بلاد النهرين تزايد تصارع القوى والانقسام السياسي والحروب الداخلية، فظهور الدولتين إيسن ولارسا، وإطلاق ملوكها على أنفسهم لقب ملوك سومر وأكاد، واللّتان بصراعهما أنهك كل طرف منهما الآخر، حيث لم يستطع ملوكها تحقيق

السلطة على كل البلاد، أضف إلى ذلك فإن لارسا وقعت تحت تأثير جارقتها عيلام التي كان ملوكها يُنصبون على مدينة لارسا حُكَّامًا من صنائعهم⁽⁴¹⁾.

عرفت لارسا أثناء وصول "ريم سين" خليفة "وارد سين" إلى الحكم ازدهارا كبيرا، وفي عصره وصل فرع أموري جديد إلى السلطة في أوروك، وتشكل في عام (1810 ق.م) تحالف ضمّ أوروك و إيسن و بابل و رابيكوم (مدينة على الفرات شمال سيبار)، وقد استطاع "ريم سين" أن يشتمل هذا التحالف، وفي عام (1803 ق.م) هجّم "ريم سين" على أوروك وحطّم أسوارها وسقطت المدينة أمام جيشه، وبعد عشر سنوات لاقت "إيسن" نفس المصير، لكن بابل بقيت صامدة، حيث عمل الملك الخامس من سلالتها "سين مبلط" بحذر ودقّة، فخصّص عشر سنوات من حكمه لتدعيم تحصينات مملكته التي ضمت مع بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد مدناً مثل كيش وديلبات و سيبار وبورسيبا، واستطاعت إيقاف "ريم سين" أمام حصونها، وفي عام 1792 ق.م جلس حمورابي على عرش سلطنة بابل، والذي كان هدفه أن يجعل من دولته وريثة أور سياسياً وحضارياً⁽⁴²⁾.

مما لاشكّ فيه أن عرض الأحداث والوقائع كما دوّنها مُرسلوا رسائل "زمري ليم" أمر يكتنفه الغموض، ولا يتيح مجالاً لجلاء خلفيات هذه الأحداث وتربط بعضها ببعض، وبما أنّ الرسائل غير مؤرخة، وكانت ترسل من حين إلى آخر، فإنه يصعب ترتيبها ترتيباً زمنياً موثقاً، على عكس الوثائق التاريخية، وبالتالي هي تجبر المؤرخ على اعتماد مضمونها فقط لاستخلاص بعض المؤشرات التي تساعده في إلقاء الضوء على بعض الأحداث، وعلى كل حال تساعد مضامين تلك الرسائل في التأكد من صحّة وقوع

بعض الأحداث الهامة المذكورة في الحوليات، وقد ثبت أنّ فترة بداية حكم حمورابي كانت فترة ركود وسلام، لم يتخللها أيّ حادث سواء على الصعيد السياسي أو العسكري، وبقيت سلطته خلال تلك الفترة المحدودة النطاق لم تتجاوز أفق الدولة البابلية القديمة⁽⁴³⁾، حيث بدأ بسياسة التعايش والتحالف مع الدويلات والمدن القريبة دون الإصرار على إخضاعها⁽⁴⁴⁾.

أصدر حمورابي مرسومًا للعفو الشامل يسمى ((ميشاروم))، والذي أُطلق على السنة الثانية من حكمه، وعلى الرغم من ذلك، إلا أنّ السنوات الخمس الأولى من حكمه كانت المعلومات فيها عن الحياة السياسية لمملكة بابل محدودة بعض الشيء، وذلك لأنّ الأرشيف الخاص بمملكة ماري والمتعلّق بالفترة التي حكم فيها "يسمح أدد"، كانت المعلومات فيها أقل بكثير من المعلومات عن الفترة التي تلتها، أي زمن حكم زمري ليم، وكانت مملكة ماري آنذاك تابعة لمملكة بلاد النهرين العليا التي حكم فيها "شمشي حدد"، وقد حافظ هذا الأخير على اتصالاته الدبلوماسية مع القوى الخارجية⁽⁴⁵⁾.

إنّ معظم أسماء الأعوام خلال الفترة الأولى من حكم الملك حمورابي لها علاقة بأعمال البناء والتقرب للآلهة بالقرابين، وبقي المضمون السياسي والعسكري حكراً على أسماء الأعوام السابع والثامن والعاشر والحادي عشر. وبهذا نرى أنّ الملك حمورابي سعى لتوسيع حدود مملكته ليس فقط باتجاه المحور الذي يشكّله مجرى نهر الفرات، أي جنوباً باتجاه مدينتي إيسن وأوروك، وشمالاً باتجاه مدينة رايبكوم، بل أيضاً باتجاه دجلة نحو مدينة مالجيوم (Malgium)⁽⁴⁶⁾ الذي ذكر اسمها للمرة الأولى في الوثيقة الخاصة بالسنة

العاشرة ولم يتم تحديد موقعها الأثري، ولكن الشيء المذكور أنها تقع في موقع إستراتيجي، أي على ضفاف نهر دجلة أعلى مدينة "ماشكان شاير"، أي في الموقع الذي يعبر فيه النهر الطريق الممتدة بين بابل ودرز، وهذا الاكتشاف سمح للعلماء أن يعرفوا أهمية هذا الموقع، حيث أنّ الملك حمورابي ومن خلال سيطرته على هذه المدينة يمكن أن يسيطر على مجرى نهر الفرات، وبذلك يتمكن من قطع مياه النهر عن مملكة لارسا الواقعة في أسفل النهر⁽⁴⁷⁾.

وفي السنة السابعة من حكم الملك حمورابي استطاع أن يستولي على مدينتي أوروك وإيسن، وهما المدينتان اللتان ظلّتا على مدى خمس أو ست سنوات تحت حكم "ريم سين" (ملك لارسا)، ولكن ما يثير الاستغراب هو تنازل "ريم سين" بسرعة عن مدينتي هامتين لحمورابي ومن ثمّ استعادتهما في فترة لم تدم طويلاً حسب ما ذكرته الوثائق، وبسبب هذا الاستيلاء هاجر كثير من سكان هاتين المدينتين، وقد شنّ الملك حمورابي هجمات على مدينة ماراد (Marad) الواقعة في الأراضي البابلية⁽⁴⁸⁾.

وفي سنة 1783 ق.م استولى حمورابي على مدينة رايكوم ومحيطها، وهي مدينة تقع على نهر الفرات، وقد أطلق اسم الفتح لهذه المدينة على السنة الحادية عشر من حكمه، و كان هذا النجاح بمساعدة أحد الولاة التابعين لملك أشنونا، ويرجع الفضل في هذا الاستيلاء إلى الدعم الذي قدّمه "شمشي حدد" للملك "حمورابي"، ويظهر التحالف في نهاية السنة العاشرة من حكم الملك حمورابي أي في عام 1783 ق م⁽⁴⁹⁾.

لعلّ حمورابي أراد من وراء انتصاراته هذه أن يجد من نشاط أعنف منافسيه "ريم سين" ذو الأصل العيلامي وآخر ملوك لارسا، الذي ظلّ يناوئ حمورابي حتى العام

الثلاثين⁽⁵⁰⁾، كما أنّ كل المحاولات التي كانت تبذل لِضَمِّ المناطق الجنوبية كانت تبوء بالفشل، بسبب وجود لارسا ذات القوة المتعاضمة، والتي تمكّنت من بسط نفوذها على الجنوب الرافدي⁽⁵¹⁾.

هذا وقد استطاع ملك أشنونا "دادوشا" تحقيق نجاح في الاستيلاء على رابيكوم مرة أخرى⁽⁵²⁾ ويفهم من ذلك أنّ حمورابي فَقَدَ هاتِه المنطقة التي كانت بجوزته سابقًا. وفي تلك الفترة عرض الملك دادوشا تحالفه مع الملك شمشي حدد، لكن هذا الأخير أشرك حمورابي في جني ثمار تحالفه الجديد مع ملك أشنونا وأعطاه مدينة "رابيكوم" ومدينة "حارب"، وبوفاة الملك دادوشا خلال عام 1779 ق.م بدأ عهد جديد من الخلاف والتوتر بين كل من "شمشي حدد" و"حمورابي"، وانتهى الأمر بينهما بعقدتهما عهد تحالف مع "إيبال بيل" ملك أشنونا الجديد⁽⁵³⁾.

أعدّ الملوك الثلاثة السالف ذكرهم حملة عسكرية مشتركة ضدّ ملك مدينة ماجيوم، وقد اتضح في بعض الرسائل التي وجدت في مملكة ماري صورة لهذه الحملة العسكرية المشتركة التي قادها جيوش الملوك الثلاثة في عام 1777 ق م، فانحدرت جيوش مملكة بلاد الرافدين العليا من نهر دجلة لملاقاة جيش أشنونا في "منكيسوم" واجتاحت قوات التحالف بلاد ماجيوم ودمّرت بعض المدن وحاصرت العاصمة، وأمام حجم قوة المهاجمين الساحقة قام ملك ماجيوم بدفع فدية كبيرة مقدارها خمسة عشر تالنت، أي مايعادل (450) كيلوغرامًا من الفضة، تقاسمها الملوك الثلاثة بالتساوي، ورغم أهمية هذا المبلغ إلا أنّ الملك حمورابي لم يطلقه على إحدى سنوات أعماله⁽⁵⁴⁾.

توفي الملك شمشي حدد في عام 1775 ق.م، خلال السنة الرابعة من حكم "إييال-ييل" الأشنوني، وفي السنة العاشرة من حكم حمورابي البابلي، بينما كان الملك ريم سين في الحكم أربعًا وسبعين سنة، وبهذا فإن وفاة "شمشي حدد" فتحت الطريق أمام سعي حمورابي للحصول على لقب إمبراطور، فضلًا عن أنّ هذا الملك المتوفى لم يقف البتة في وجه مشاريع مملكة بابل التي كانت إلى ذلك الحين تمتد باتجاه الجنوب، فقد تقاسما مرارًا ثمرة جهودهما المشتركة سواء في غزو مدينة رابيكوم أو في غزو مدينة ماجيوم⁽⁵⁵⁾.

نتج أيضًا عن وفاة "شمشي حدد" إختيار التوازن القائم في بلاد الرافدين، ودخول البلاد مرحلة جديدة من الصراع، وتمكن "زمري ليم" من استرجاع عرش أبيه في ماري، مما يعني أنّ حاكمها الأشوري إشمي دجان (1781-1742 ق.م) آنذاك لم يكن قادرًا على مواجهة الهجوم الذي اندفع نحو حدود ماري من شعوب الشمال والشرق وقبائلها، باتخاذ موقفاً دفاعياً دون أن يكون كافيًا، وهكذا تعدّد المتنافسون على زعامة بلاد الرافدين وأصبحوا أربعة، ماري في الغرب وأشنونا في الشرق ولارسا في الجنوب وبابل في الوسط⁽⁵⁶⁾.

ب- ضم الممالك القوية:

قام حمورابي بعد السنة العاشرة من حكمه بإعادة النظر في سياسته الخارجية، لفقده مناصراً وشخصية قوية مثل "شمشي حدد" كانت تحمي ظهره، حيث لم يكن لأبنائه تلك الصفات العسكرية والسياسية التي يتمتع بها والدهم المتوفى، فكان على

حمورابي أن يحافظ على السلام مع جاره "ريم سين" حاكم لارسا، ويتعايش مع دولة أشنونا ويحافظ على العلاقات الطيبة التي تربطه بأشور⁽⁵⁷⁾.

وضع حمورابي نُصب عينه الخطر العيلامي، الذي كان يهدد دولة بابل، فقد استطاع الملك العيلامي "ريم سين" من لارسا القضاء على أسرة إيسن في بداية عهد حمورابي، فبدأ هذا الأخير يتخذ من الإجراءات الداخلية في البلاد ما يكفل له تحقيق هذا الهدف⁽⁵⁸⁾، وشيئا فشيئا اطمئن حمورابي إلى متانة موقفه وسلامة ظهره، ومن ثم فقد تفرغ لملك لارسا وحلفائه، حيث مأل ميزان القوى إلى جانبه منذ العام الثلاثين من حكمه، حتى فرَّ "ريم سين" إلى منطقة "إيموتبال"، مسقط رأس أسرته، وتبعته الجيوش البابلية إليها، ثم واصلت انتصاراتها فيما يليها من أراضي عيلام وسيطرت على جزء منها⁽⁵⁹⁾.

ويشير سامي سعيد الأحمد بأنَّ حمورابي قد تلقى في حربه مساعدة من أشنونا، وربما من ماري، حيث طلب مساعدة عسكرية من "زمرى ليم" ملك ماري، قبل أن يَشُنَّ هذه الحرب، ويدوا أنَّ "ريم سين" إنما كان يتخوّف من حمورابي، ففي أحد رسائله لحمورابي يطلب تكوين حلف دفاعي هجومي بينهما، وقد كانت العلاقات طيبة بين الإثنين في بداية الأمر، وقد أشارت إحدى الرسائل إلى وصول أربعة مندوبين من لارسا إلى بابل مع وكيّلين لحمورابي يسكنان منطقة لارسا، ممّا يدلّ على بثّ حمورابي العيون في المنطقة التي كان يحكمها ريم سين، وعلى أنّ عملاء حمورابي كانوا يتصلون بالمواطنين هناك لتنفيذ خططهم والحصول على ما يبتغون⁽⁶⁰⁾.

تنبأ مندوب "زمرى ليم" في بلاط حمورابي بِقُرْبِ موعد الحرب بين بابل و لارسا، وأخبر سيّده بأن حمورابي قد أرسل إلى "ريم سين" رسالة قبيل غزوه المفاجئ للمدينة، يخبره فيها عمّا يمكنه له من حب عميق، وصار حمورابي بحق ملك سومر وأكاد، وفي نُصب وضعه في "أور" بعد أخذها من "ريم سين"، ذكر فيها انتصاره على عيلام والجاتيين الذين كانوا يستوطنون أواسط زاكروس في منطقة همدان⁽⁶¹⁾.

كانت خطة حمورابي الثانية تتمثل في تحركه بالاشتراك مع حاكم ماري، وربما كان حلّقاً ثلاثياً يضم بابل وماري ويمخذ* ضد أشنونا، فضلاً عن السوبارتيين والجاتيين وماالجيوم، و كانوا جميعاً يتحركون ضد بابل، غير أنّ حمورابي سرعان ما حقق نصراً عليهم، ومع ذلك فقد بدأ خطر أشنونا يشتد طبقاً لما جاء في رسالة ملك ماري إلى حمورابي يخبره بأنّ ملك أشنونا قد جمع قواته وهو في طريقه إلى "شوثولوم"، وبناء على ذلك أرسل حمورابي إلى "زمرى ليم" البعض من قواته البابلية للمشاركة في الحرب ضد أشنونا⁽⁶²⁾.

يظهر أيضاً أنّ ملك أشنونا كان يتوقع حصول مساعدة من عيلام، وهو الأمر الذي أغضب حمورابي، وهو ما تؤكده إحدى الرسائل من ماري بأنّ حمورابي سيقطع علاقاته مع عيلام لهذا السبب، ومهما يكن من أمر فقد أضعفت حرب "زمرى ليم" أشنونا، مما سهّل وقوعها في يد حمورابي الذي قام بتدمير أشنونا، أي(توبيلياش- Tupliasch)، بكميات هائلة من المياه مُدْعِيّاً أنّه أمر من الآلهة، لكن هذا الأمر يشير في حد ذاته إلى أنّ فيضاً مصطنعاً قد حدث بسبب تدمير السدود، الذي أدّى

إلى خرابِ أشنونا ومع ذلك فإن هناك من يذهب إلى أنّ حمورابي لم يضمّ أشنونا وإنما ترك ذلك إلى مابعد قضائه على "زمري ليم" لأنه لم يكن يرغب في إعطاء معاصريه من الحكام أيّة فكرة تجعلهم يعتقدون أنّه طامع ومحب للتوسع⁽⁶³⁾، لكن الأرجح أنّ حمورابي إنما قضى على أشنونا في عام حكمه الثاني والثلاثين، بعد أن كان قد قهرها في عامه التاسع والعشرين، لبدأ حملته على ماري في عامه الخامس والثلاثين⁽⁶⁴⁾.

كان حمورابي يرى أنّ استمرار اتصال "ريم سين" مع موطنه الأصلي الذي شكّل مصدراً هاماً لإمداده بالإمكانات البشرية والمادية إنما يدعم من مركز "ريم سين" العسكري ويُطيل مدة الحرب، ولذلك قام حمورابي بحركة التفاف عسكرية كبيرة قطع بها على "ريم سين" اتصاله بعيّلام، وجعله أسير المنطقة الصغيرة التي بقيت خاضعة لنفوذه في جنوب بلاد النهرين، وقد ورد في بعض مخطّفات حمورابي المكتوبة (أنّ ريم سين وقف في وجهه، وأنّ حمورابي.... جمع جنده وبرز لقتال ريم سن ملك أور، وغزا مدينتي أور ولارسا ونقل كنوزهما إلى بابل....، ولكن "عيّلام" هبّت لنجدة "ريم سن" فتصدى لها حمورابي.... وبمساعدة الرّبين "أنو" و"إنليل" أدلّ بلاد "ياموت بال" والملك ريم سين...)⁽⁶⁵⁾.

أدرك "زمري ليم" ملك ماري خطورة الموقف الجديد نتيجة لانتصارات حمورابي، فأعلن انضمامه إلى الجانب العيلاّمي، كي يحاول تغيير مجرى الأحداث ويقلب هزيمة "ريم سين" إلى نصر يُحدّث به تعاظم سلطة بابل، ولكن حمورابي استطاع الانتصار على الحلف المعادي، وأسر الملك "ريم سين" العيلاّمي الذي حكم حوالي واحداً وستين عاماً⁽⁶⁶⁾.

كانت علاقات "زمري ليم" ملك ماري مع حمورابي قوية، حيث ساعد بعضهما البعض، بل كان لكل منهما مندوبون لدى بلاط الآخر، غير أنّ حمورابي إنما كان يخشى قوة ماري بسبب ثرائها الواسع، وبسبب علاقاتها القوية مع مملكة يمشد⁽⁶⁷⁾، ليتفت إليها حمورابي في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه، أي بعد عامين من انتصاره على "زيم سين" وحلفه، وبعد معركة قاسية بين الجانبين هُزمت فيها جيوش بابل جيش ملك ماري، ونتج عنها سقوط العاصمة ومحاصرة "زمري ليم" في قصره بعد أن التهمته النيران حيث لقي مصرعه هناك⁽⁶⁸⁾، وبعد عامين عاود الهجوم عليها مرة ثانية وأحرق قصرها إثر إنتفاضة قامت هناك ضده⁽⁶⁹⁾، حيث تحدّث حمورابي في كتاباته عن ذلك بأنه (أسقط ماري ومالجيوم حرباً، وجعل ماري... وكذلك عدة مدن أخرى تابعة لسوبارتو بموجب اتفاقية ودية تستمع إلى أوامره)⁽⁷⁰⁾.

كان لملك ماري "زمري ليم" سفراء ومخبرين في بابل يطلعونه على مجريات الأمور وتطورات الأحداث في العاصمة البابلية وفق أدق التفاصيل، حيث بيّنت إحدى الرسائل الموجهة من المخبر "إيبال- بل" والذي هو نفس اسم حاكم أشنونا إلى سيده في ماري بأنّ "حمورابي" يطلعني على كل الأعمال التي يزعم القيام بها باستمرار، ويخبرني عن مكان حلّه و ترحاله، حتى أتمكن من الوصول إليه في أي وقت، ويخبرني عن كل ما يدور في رأسه وأنا أقوم بدوري بإطلاع سيدي على أهم الأحداث أولاً بأول"، ومن غير المعقول أن يقوم حمورابي بإفشاء مخططاته وما كان يعتزم القيام به، لكنه بالمقابل كان له رجاله الثقة في بلاط ماري، حيث يفهم من إحدى الرسائل أنّ حمورابي اعتمد على المعلومات التي ضمّنها أحد رجاله ويدعى "بقوم" لمعرفة الوضع القائم والأحداث السياسية التي

كانت تجري في منطقة الشمال الرافدي، وتطابقت هذه المعلومات حرفياً مع معلومات شخص آخر يدعى "بخدليم" كانت تخضع له مجموعة من المخبرين الموزعين في كافة أرجاء منطقة الفرات الأعلى، حيث كلف حمورابي كلاً من المخبرين "بقوم" و"بخدليم" بتزويده باستمرار بكافة المعلومات عن "زمري ليم" وعن تحركات جيشه وعن تحركات وتنقلات فرق جيوش عيلام وأشنونا⁽⁷¹⁾.

يستنتج من مضمون بعض رسائل ماري التي تشيد بالتحالفات العسكرية المعقودة بين ماري وبابل إلى أنّ العلاقات بينهما لم تكن على خير مايرام، وأنّ هناك أشياء تحدث تعكّر صفو الوثام السائد بين الدولتين الحليفتين، حيث يُستشفّ من خلال رسالة موجهة من رسول ماري في بابل إلى سيده "زمري ليم" باللامبالاة التي استقبل بها وفد ماري في بلاط حمورابي، إذ يقول رسول "زمري ليم" "صحيح أنّهم ألبسونا ومن معنا من الوفد حلّة رسمية، شأننا في ذلك شأن الوفد القادم من يمحاض بمناسبة حفل طعام في القصر، إلاّ أنّ هذا الشرف لم يَحْظَ به وفد "زمري ليم"، مما أثار غضبهم فغادروا القصر ساخطين، وعندما نُقِلَ إلى حمورابي الخبر، استدعاهم ثانية وطيب خاطرهم، وألبسهم ثياب القصر، وتبّهم إلى أنّه في مثل هذه المناسبات الرسمية يمنح القصر الثياب الرسمية لمن يشاء، ويمنعها ممن يشاء، وفي مناسبات قادمة لن يمنح المبعوثون الأجانب الثياب الملكية⁽⁷²⁾.

إذا جئنا إلى دولة مدينة آشور⁽⁷³⁾ والتي تعرف أيضاً ببلاد سوبارتو⁽⁷⁴⁾ نجد من

بين حكامهم الذين عاصروا حمورابي "شمشي حدد"، وذلك في السنوات العشر الأولى

من حكمه ، ويبدو أنّ العلاقة بينهما كانت مبنية على الصداقة، وربما لم يحاول الطرفان المجابهة الفعلية، وقد مكّنت سياسة "شمشي حدد" الداخلية الحازمة واعتماده على أبنائه في إدارة شؤون الأقاليم التابعة له من استقرار الوضع نسبياً، وازدهار الحياة في بلاد آشور بفضل نشاط تجارتها الداخلية والخارجية، غير أنّ "شمشي حدد" تُوفي وخلفه في الحكم⁽⁷⁵⁾ ابنه "يشمع داجان الأول"⁽⁷⁶⁾ الذي استطاع أن يقضي على عصيان مسلح قبل أن يصل إلى سدّة الحكم، ويُستخلص من بعض نصوص ماري أنّه فقدَ سيطرته على أواسط بلاد الرافدين، كما تشير إحدى رسائل ماري أيضاً إلى أنّ "يشمع داجان" كتب إلى حمورابي مراراً وتكراراً ليضمن ولاءه، وفي نفس الوقت كانت العلاقة طيبة بين مملكة أشنونا وبابل، ولكن لم تفد كل تطمينات "يشمع داجان" والعلاقة الحسنة مع "حمورابي" في تهدئة مخاوف أشنونا من القوة البابلية الناهضة، إذ لم يكن بمقدور المملكتين بحال من الأحوال التصدي لطموحات حمورابي الجرئية، أضف إلى ذلك أنّ "يشمع داجان" كان منهمكاً في مقاومة شعب جبلي يدعى "توركان" استنفذ له قواه⁽⁷⁷⁾.

توجه حمورابي في الفترة ما بين العامين السادس والثلاثين والثامن والثلاثين من حكمه إلى سوبارتو موطن الأشوريين⁽⁷⁸⁾ ليخضع كافة مُدنها، حيث عشر في أميدا (ديار بكر الحالية) على منحوتة قد تدل على وصول حمورابي إلى هناك⁽⁷⁹⁾، وعند وقوع بلاد آشور تحت سلطة بابل انتهت بذلك سلالة شمشي حدد الأول، وظلت تحت نفوذهم طوال حكم حمورابي، والمعلومات التي أعقبت وفاة حمورابي قليلة، وربما استقلت آشور عن نفوذ بابل وقامت فيها سلالة محلية لا يعرف عنها سوى أسماء حكامها، وظلّ الوضع

في بلاد آشور مرتبكا وغامضا حتى بداية حكم "بوزور آشور الثالث" (1521ق.م) الذي يعتبر عهده بداية للعصر الآشوري الوسيط⁽⁸⁰⁾.

عُثر على لوح في مدينة "أور" يحتوي نصًا باللغة السومرية، وفي لوح آخر يحتوي نفس النص لكن باللغتين السومرية والأكدية يفخر فيه حمورابي مادحًا نفسه، حيث يقول فيه ((أولئك الذين أظهروا لي العداوة قتلتهم، حطمت أسلحتهم، ودمرت بلادهم وأخذت سكانهم أسرى، وسحقت جيوشهم، أولئك الذين عصوا أمري وضعت قدمي فوق ظهورهم، أنا الملك الذي حقق رغبة الإله "مردوخ" القتالية وجعل قوة الأعداء تتلاشى، طردت الأعداء الحاقدين، واجتثت جذور الشر من البلاد، وتركت المواطنين يعيشون بأمان واطمئنان في رغد من العيش، ولم يعد هناك من يقض مضجع الآمنين))⁽⁸¹⁾، وبهذا تمكن حمورابي من السيطرة على كل بلاد النهرين، مما جعله يطلق على نفسه ألقابًا مثل (الملك القوي، ملك بابل، ملك كل بلاد أمورو، ملك سومر وأكاد، ملك الجهات الأربع)⁽⁸²⁾.

أعقب حمورابي الوحدة السياسية بمجموعة من القوانين التي تتلاءم وطبيعة المجتمع آنذاك، من حيث اتساع الرقعة الجغرافية للبلاد والتنوع السكاني في عهد هذا الملك، فغطى به جميع القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل الدولة الموحدة، من خلال القانون الذي يربط الأقاليم بالسلطة المركزية، والاعتماد على الركائز الوحدوية المتمثلة في الجيش والقضاء وحكام الأقاليم، كما ساهمت قوانينه في فرض الأمن والاستقرار، وهو ما نلاحظه على مرّ العصور التاريخية القديمة والحديثة.

- (1) _ Georges Roux, **La Mésopotamie**, éditions du seuil, Paris, 1995, p 211.
- (2) _ Marguerite Rutten, **Babylone**, Presses Universitaires de France, Paris.1958, p 26
- (3) _ Dominique Charpin, **Writing-Law-and Kingship in Old Babylonian Mesopotamia**, Trans by: Jane Marie Todd, The University of Chicago Press, U.S.A, 2010, p 43.
- (4) _ عبد القادر الشخلي ، الوجيز في تاريخ العراق القديم، ج1، جامعة بغداد، بغداد ، 1990، ص 110.
- (5) _ فاطمة جود الله ، سوريا نبع الحضارات، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999، ص 67.
- (6) _ محمود شاكر ، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، ج1، دار أسامة، عمان، 2002، ص 73.
- (7) _ عامر سليمان و أحمد مالك الفتیان ، موجز تاريخ العراق ومصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القديم، مطبعة جامعة الموصل، العراق، 1978، ص 120.
- (8) _ محمود شاكر ، المرجع السابق، ص 72-73.
- (9) _ محمد طه الأعظمي، حمورابي(1750-1792 ق.م) ، شركة عشتار للطباعة والنشر، بغداد، 1990، ص 19.
- (10) _ Marguerite Rutten, Op.Cit, p19.
- (11) _ فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1951، ص 71.

- (12) _ , **Who were the** Bill T. Arnold
Babylonians, Brill Academic, Leiden, 2005, p 37.
- (13) _ فيليب حتي ، المرجع السابق، ص71.
- (14) _ آل ثاني علي جاسم ، الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ "صلات دلمون بأمورو وبالأموريين" ، ط1، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1997، ، ص93.
- (15) _ William j.Hamblin, **Warfare in the Ancient Near East to 1600 BC**, Routldge, U. S. A, 2006 ,P 155; Bill T. Arnold, Op.Cit, p 37.
- (16) _ آل ثاني علي جاسم ، المرجع السابق، ص94.
- (17) _ هاري و.ف. ساكرز، الحياة اليومية في العراق القديم "بلاد بابل وأشور" ، تر: كاضم سعد الدين، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000، ص36.
- (18) _ Georges Roux, **Ancient Iraq**, Third Edition, Penguin books, Iran, 2000, p179.
- (19) _ Ibid, p180.
- (20) _ Leo Oppenheim, **Ancient Mesopotamia-Portrait of a Deal Civilization**, The University of Chicago Press, U.S.A, 1977, p 19.
- (21) _ قيس حاتم الجنابي ، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص133.

- (22) Dominique Charpin, **Hammu-rabi de babylone**, Presses Universitaires de France, Paris, p305.
- (23) - طه باقر، بابل وبروسبا، ط1، مطبعة الحكومة، بغداد، 1959، ص2.
- (24) - سامي سعيد الأحمد، **العراق في التاريخ "العصر البابلي القديم"**، دار الحرية، بغداد، 1983، ص88؛ عبد القادر الشيلخي، المرجع السابق، ص122.
- (25) - سهيل قاشا، **أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية**، ط1، دار بيسان، لبنان، 1998، ص15.
- (26) - سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، تر: السيد يعقوبي بكر، دار الرقي، بيروت، 1986، ص252.
- (27) - إيج. إي. إيل. ملرش، **قصة الحضارة في سومر وبابل**، تر: عطاء بكرى، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971، ص53-54.
- (28) - سفر التكوين: (1:14-2-3-4-5-6-7-8).
- * **يساوي** واحد ستادي مسافة تتراوح ما بين 150 إلى 190 متر - انظر: ك. ماتيف/سازونوف، **بلاد ما بين النهرين**، تر: حنا آدم، دار المجد، دمشق، 1991، ص98.
- (29) - Hérodote, **Histoires**, Livre I, traduit par : Legrand, Les belles lettres, paris, 1932, 178.
- (30) - Marguerite Rutten , **Op.Cit**, p 18.
- (31) - رشيد فوزي ، **سلسلة الموسوعة التاريخية "القوانين في العراق القديم"** ، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص76.
- (32) - هورست كلينكل، **حمورابي وعصره**، تر: محمد وحيد خياطة، ط1، دار المنارة للدراسات والنشر والترجمة، دمشق، 1990، ص51.
- (33) - عبد القادر الشيلخي، المرجع السابق، ص122.

Georges roux, (**Ancient Iraq...**), Op.Cit ,p 197. ⁽³⁴⁾

⁽³⁵⁾ - عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية، حضارة العراق، ج2، دار الحرية، بغداد، 1985، ص121.

Marc Van De Mieroop, **A History of the Ancient Near East** (3000-323 BC), Second Edition, Blackwell, U.S.A, 2007, p 85. ⁽³⁶⁾

⁽³⁷⁾ - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص52-53.

⁽³⁸⁾ - محمد حرب فرزت، عيد مرعي، دول وحضارات الشرق العربي القديم (سومر وأكاد- بابل وأشور-أمورو وأرام)، ط2، دار طلاس، دمشق، 1990، ص138-139.

⁽³⁹⁾ - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص53.

⁽⁴⁰⁾ - محمود شاكر، المرجع السابق، ص78.

⁽⁴¹⁾ - نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، دمشق، (د-ت)، ص31.

⁽⁴²⁾ - أمل ميخائيل بشور، تاريخ الإمبراطوريات السامية في بابل وأشور، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2008، ص83-85.

⁽⁴³⁾ - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص54.

⁽⁴⁴⁾ - عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم "مصر- العراق"، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004، ص694.

Dominique Charpin, (**Hammu-rabi de babylone ...**), ⁽⁴⁵⁾ Op.Cit, p 48.

⁽⁴⁶⁾ Ibid.

⁽⁴⁷⁾ Ibid, p 49-50.

Ibid, p 48-49. _ (48)

Ibid, p 50-51. _ (49)

(50) - محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم "تاريخ العراق القديم"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص 223.

(51) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 46.

(52) - Dominique Charpin, (

Hammu-rabi de babylone...), Op.Cit, p 51.

Ibid, p 52-53 _ (53)

Ibid, p 54. _ (54)

Ibid, p 58. _ (55)

(56) - محمد حرب وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 139.

(57) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 53.

(58) - نبيلة محمد عبد الحليم، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، الإسكندرية، 1983، ص 178.

(59) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 695.

(60) - سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 89.

(61) - نفسه، ص 90.

***يمخد** تعرف باسم يمحاظ وهي حلب حالياً، سكنها الأموريون وجعلوها عاصمة عرفت بمملكة يمخد، كما ذكرت الوثائق الخاصة بهذه المدينة أسماء الملوك الذين حكموا فيها (أبعل، نقمايا، أركابتوم، أميتاكوم، يريملم، حمورابي وهو غير حمورابي البابلي..الخ)، ومن ملوكها "سمو أبوخ" الذي وقف مع ملك ماري الطموح "أخدونليم"، كما كونت يمخد مع ماري حلفاً قويا ضد آشور وقطنا، واستطاع ملك ماري أن يعود إلى عرشه بفضل مساعدة ملك يمخد "يريملم" انظر: خزلع الماجدى، **المعتقدات الأمورية**، ط1، دار الشروق، عمان، 2002، ص 25.

(62) - سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 90.

- (63) - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 224-225؛ سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 90.
- (64) - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 225.
- (65) - توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة من أقدم العصور إلى عام 1190 ق.م "بلاد النهرين - بلاد الشام"، ط 1، دار دمشق، 1985، ص ص 170-171.
- (66) - أنطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تر: توفيق سليمان، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1967، ص 135.
- (67) - سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 90.
- (68) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 171.
- (69) - أنطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 135.
- (70) - George Roux, **La mésopotamie Essai d'histoire politique économique et culturelle**, éditions du Seuil, paris, 1985, p 179.
- (71) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 56.
- (72) - نفسه، ص 61.
- (73) - نعيم فرح، المرجع السابق، ص 31.
- (74) - أمل ميخائيل بشور، المرجع السابق، ص 102.
- (75) - محمود شاكر، المرجع السابق، ص 99-100.
- (76) - عبد الحكيم الذنون، الذاكرة الأولى "دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين"، ط 2، دار المعرفة، دمشق، 1993، ص 96.
- (77) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 61.
- (78) - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 226.
- (79) - سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 91.

(80) - محمود شاكر ، المرجع السابق، ص 100.

(81) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص ص 63-64.

(82) - Léon Homo, **histoire D'orient**, p79.

Librairie Arthème Fayard, Paris, 1945,

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria
Faculty of social and human sciences



Number
15

JOURNAL OF EL MAAREF

For researches and historical studies

Periodical and international refereed journal

